اقرأ

رسالة الوحيّ الأولى

حاتم سلامة

اقرأ رسالة الوحي الأولى

غلاف/ خديجة يونس

مدقق لغوي أ. محمد فهمي

رقم إيداع ٢٠١٦/٢١٩٩ ط١

الترقيم الدولى / ٩- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

٠١٢٢٤٢٧٢٣ - ٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميـع الحقـوق محفوظـة للنـاشر وأي اقتبـاس أو إعـادة طبـع أو نـشر في أي صـورة كانـت ورقيـة أو إليكترونيـة أو في وسـيلة سـمعية أو بصريـة دون موافقـة كتابيـة مـن النـاشر، يعـرض صاحبـه للمسـاءلة القانونيـة .

اقرأ

رسالة الوحيِّ الأولى

حاتم سلامة

ليليت للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الذي كان يسعد حينما يرى بين يدي كتابًا..

إلى الذي كان يحب أن أقرأ عليه ليقوم لساني..

إلى الذي كان يقول لي: اقرأ كل شيء وأي شيء حتى لو

وجدت ورقة في الأرض فالتقطها واقرأها.!

إليك يا أبي أهدي هذا الكتاب الذي أعلم أنك لوكنت حيا

فلن يكون هناك من هوأسعد به منك، وأشدهم فرحًا به

وأكثرهم حفاوة بما فيه.. إلى روحك الطيبة

وشخصك الأبيّ

وسمتك العاقل..

أهدي هذه السطور.

مقدمة

كان شيئًا رائعًا ما رأيته من الشباب التونسي عقب ثورتهم المجيدة، حينما خرجوا بالمئات رافضين ما أعلنته وزارة الثقافة عن تأجيل معرض الكتاب لظروف تراها..

كانت تظاهرة حضارية أبهرت المشاهدين والمارين بشارع (الحبيب بورقيبة)، أكبر شوارع العاصمة التونسية، الذي تحول إلى مكتبة عمومية ذات سماء مفتوحة.!

كان المشهد يسر الناظرين.. فالكتب تنتشر هنا وهناك، والقراء يشكلون مجموعات في جنبات الطريق، تهيم مع الكتب بشتى ألوانها وفنونها، أدبية وسياسية وفكرية واجتماعية وعلمية، كل منهم يجد هواه ورغبته في هذا المشهد الفريد، يوزعون الهدايا، التي لم تكن غير الكتاب! الكل شارك شيب وشبان، حتى الأطفال كانوا في صحبة ذويهم، أعداد هائلة من الطلبة والمثقفين، والوجوه الفنية والأدبية الشهيرة، جاءوا ليشاركوا في عرس الكتاب، كثيرون منهم كانوا يحملون نسخًا من أعمالهم يوزعونها على محبيهم وروادهم، حتى المكتبات كانت حاضرة، والمقتنون للكتب يصطفون أمامها في طوابير مزدحمة،

وقد تطوع بعضها بتوزيع الكتب المجانية للعابرين والقادمين، ولم ينته المهرجان بانتهاء النهار، وإنما أصر المثقفون أن يرسموا لنا لوحة رائعة بالليل، كما رسموها بالنهار.. فعلى أضواء الشموع، وحتى ساعات متأخرة من الليل، ظلت الكتب شامخة تزين الطريق ببنيانها المرصوص، وحولها هؤلاء العشاق من القراء والمثقفين، الذين أصروا على تبليغ فكرتهم ورسالتهم لا للشعب التونسي وحده وإنما للأمة العربية كلها.. !

إنهم يصرون على إبهارنا بإبداعهم وإرادتهم كما أبهرونا بثورتهم..!لأول مرة في تاريخ تونس.. إن لم يكن في تاريخ العالم كله، نجد من يتظاهر من أجل الكتاب.!

ما أسعد أمتنا بهذه النماذج الوليدة التي ستنتصر علي يديها دعوة القراءة في يوم من الأيام، ما دام في قلوبهم هذا الحماس الجسور والهمة المتقدة والتصميم المُلِح لأحياء الحب الذي فقدناه لعالم القراءة والاطلاع..

وأمام هذا الرغبة الرائعة من هذا الشباب الأبي، لابد لنا من إطلالة على الواقع الأليم..حتى نستنهض الهمم ونوقظ الوعي الغائب..إن الشعوب من حولنا نهضت وتقدمت وارتقت وعلت راياتها في كل مناحي الحياة، أما نحن.. فمازلنا نغط في نوم عميق،وثُبات سحيق، ولا زالت تكبلنا خيوط الجهل والتأخر والظلام..وما زلنا غارقين في هزائمنا متعثرين في أوحالنا، سائرين على درب الفشل والانحدار، صار

العـالم الواحـد فيـه عـالم ثالـث وهوالعـالم الجاهـل المتأخـر الـذي يعـبر عنـا وصـار عنوانـا لنـا.. فقـل لي بربـك: كيـف السـبيل إلى الخـلاص؟!

الرجـل الغـربي.. يملـك عقـلا بنـاءً، ونفسـا إيجابيـةً، وفكـرًا سـاميًا، ومعرفـة هائلـة، وثقافـة غزيرة،بينـما الرجـل العـربي غائـب عـن وعيـه، فاقـد لذاته،خامـل كسـول، سـلبي مأفـون، متأفـف ذهـوق، لا يحـب العمـل، يكـره النشـاط والانطـلاق، ويعشـق الركـون والسـكون، لا يسـعى للبنـاء والارتفـاع.. فقـل لي بربـك كيـف السـبيل إلى الخـلاص؟!

نريـد أن ننهـض، ونريـد لأفكارنـا أن ترتقـي، ولحياتنـا أن ترتفـع، ولعقولنـا أن تتنـور.. هـذه العقـول التـي تحتـاج إلى ثـورة أكيـدة للتخلـص مـن هـذا الواقـع الكئيـب والانطـلاق نحوآفـاق مشرقـة ودنيـا سـعيدة ناهضـة مبهجـة متقدمـة.

شيء مـؤلم أن يبلـغ العـالم مـا بلـغ مـن التقـدم والتفـوق في شـتى ميادين العلـم والمعرفـة، بينـما نحـن وإلى هـذه اللحظة،مـا زلنـا نفكـر ونبحـث كيـف نحيـي قيمـة القـراءة؟ وكيـف نـدرب عليهـا ملايـين أمتنـا؟ وكيـف نوقـف انحدارهـا المتفـشي في شـعوبنا؟!

وإذا مـا كانـت هنـاك محاولـة نقيـس بهـا أنفسـنا حتـى نعلـم الفـارق بيننـا وبـين الأمـم الراقيـة، فليـس علينـا فقـط إلا بمقيـاس القـراءة، الـذي ينبؤنـا بنتيجـة مفجعـة.. حينـما نـرى القـوم قـد سـبقونا لا بعقـود أوسـنوات وإنمـا بقـرون وأزمـان.. !

لقد أصبحنا ذيولا للأمم، وفي مؤخرة الركب، لأننا أهملنا دعائم الحياة الأساسية والتي تأتي القراءة من أهمها وأعمقها وأشدها أثرًا..! تلك القراءة التي هجرناها ونسيناها ومللناها، وقد كنا بالأمس قادتها وأصحابها وربائبها..فنحن الذين نزل علينا من دستورنا الخالد أول ما نزل، أمر الله تعالى بالقراءة (اقرأ)، نحن الذين عَرِفنا قيمة القراءة ومقام الكتاب وأخرجنا في ميدانه أعظم تراث عرفته البشرية..مازال إلى اليوم شاهدا بنبوغ أمتنا وقيمة ما قدمته لبني الإنسان، حتى بدأت طلائع التآمر العالمي تخنقها وترميها بالأرزاء لتنتكب وتتراجع وتتخلف عن مسيرة الحضارة..وهوما كان ومازال.. فهل نقبل بوجوده على مدار أعمارنا، أوأن يخلد في حياتنا، أم نحاول اليقظة والوثوب ؟ فنقتحم المكتبات، ونصاحب الكتب، ونقلب الصفحات، وندمن القراءة، ونعشق السطور، حتى نعرف ونتعلم ونبدع، ونسابق الدنيا في مدنيتها وتقدمها.. ؟!

نريد في أوساطنا أن نرى ذلك (القاريء) الذي يصاحب الكتاب في حله وترحاله، في نومه ويقظته، في قيامه وقعوده، لا يفارقه ولا يغفل عنه، فهوروحه ومتعة حياته..!علينا أن نثير في نفوسنا هذه الغيرة الشريفة،ونلهب فيها روح الحماسة، كلما طالعنا وقرأنا حال الغربيين وأخبارهم مع القراءة، وهيامهم بالكتاب الذي يعدونه ضرورة حياتية لا يمكن الاستغناء عنها..لماذا لا نكون أمثالهم؟ بل لماذا لانتفوق عليهم؟، إن تاريخ الكتاب يعرفنا أكثر مما يعرفهم، ودنيا القراءة تنتسب لنا أكثر مما تنتسب إليهم.!

وهـذا الكتـاب الـذي بـين يديـك مـا هـوإلا إطلالـة طريفـة حـول القـراءة وعالمهـا ونوادرهـا وعشـاقها، ودعـوة حثيثـة إلى تبنـي القـراءة كمـشروع حضـاري تلتـزم بـه شـعوبنا لتعـدل عـن تراجعها..لقـد جـاء مـا فيـه محفـزًا للنفـوس ودافعـا للعزائـم، وشـاحذا للهمـم لتقبـل عـلى القـراءة وتصاحـب الكتـاب، أمـا طبيعـة مادتـه فسـياحة أدبيـة، ونشـوة علميـة، ومتعـة ثقافيـة، تحلـق بالقـاريء في آفـاق المعرفـة، وتطـوف بـه بـين عـالم الكتـب وقصـص الكتـاب وقضايـا القـراءة ودنيـا المطالعـة..ولم أركـز فيـه عـلى الطـرق العلميـة التـي يتبعهـا البعـض في تنميـة مهـارات القـراءة، فهـذا موضـوع آخـر أدلى فيـه الكثـيرون بدلوهـم وإن كنـت أشرت لليسـير منهـا، لكننـي أردتـه أن يكـون حـرًا في تنقلـه رشـيقا في خواطـره، يعـزز مـن قيمـة القراءة،ويسـتعرض نقاطـا هامـة في عالمهـا ومسـيرتها..

ربمـا أسـهم كثـيرون في هـذا الميـدان مـن أصحـاب الأفـكار النـيرة والأقـلام النابهـة، وربمـا يقـودك هـذا أن تعـزف عـن كتـابي، فـلا تمتـد إليـه يديـك!..

لكنني أعدك أن تجد فيه الجديد..

وأعدك أن يجعلك من عشاق القراءة..

وأعدك أن تولد سطوره في نفسك حب الكتاب..

وأعدك أن يلهب حماسك للعلم والمعرفة..

بـل أعـدك بعـد الانتهـاء منـه أن تهتـدي وحـدك لطريـق التغيـير والتفـوق والتميز.

سُئل فولتير: مَن سيقود الجنس البشريّ ؟

فأجاب:(الّذين يعرفون كيف يقرؤون).

حاتم إبراهيم محمد سلامة

جدة / ٢٠١٦

الكتّاب في حياتي

كنت واحدًا من الذين أحبوا الكتاب في صغرهم، وشبوا على صداقته.. ولا شك أن هذا لم يكن شيئًا فطريًا وإنما له أسبابه الواقعية...فقد خرجت إلى الدنيا في أسرة تُحب القراءة وتقتني الكتاب، وفكان والدي أديبًا مثقفًا، وكان أخي الأكبر يدفعه تدينه للقراءة، ويتعهدني منذ حداثتي بالقصص والكتيبات الصغيرة، ويناقشني فيها بعد الانتهاء منها، وييسر لي ما تعثر علي من ألفاظها، ويطلب مني أن أحفظ أسماء المؤلفين وأتعرف عليهم، تمامًا كما تعرفت على كتبهم، وكنت أراه يحتضن الكتاب صباحًا ومساءً، ولا ينفك هذا المشهد من مخيلتي، بل أذكر ما كان أبي يفعله وهوالمثقف والأديب، الذي شجعنا على هذا المنحى وكلما رأى في يد أحدنا كتابًا، سأله ما هذا؟ وما موضوعه؟ ويأخذ في مناقشته والحوار معه، والتعرف على ما تحمله صفحاته..وكنت حينما أرى هذا الاهتمام وهذه الإشادة من والدي يستقر في نفسي أن هذا شيء قيم عظيم، وهوما دفعني للأخذ به حتى أحظى بمناقشة والدي وإقراره وامتنانه.

كنت وأنا صغير أعرف كثيرًا من أسماء المؤلفين والكتاب الذين قرأت كتبهم، وهي التي لا يعرفها أمثالي من صغار السن، فكنت أعرف (عبد الحميد جودة السحار) من كتابه (عمر بن عبد العزيز) و(عبد التواب يوسف) من كتابه عن (عمر بن الخطاب)، و(علي أحمد

باكثير) من قصته وإسلاماه..وأذكر كذلك يوم أن اختارت المدرسة بعض الطلاب في بدايات المرحلة الابتدائية ليعطوهم بعض القصص والكتب وكنت واحدًا منهم فمنحوني قصة تحت عنوان: (الضعيف يغلب القوي) وكانت حفاوتي بها شديدة، لأنني كنت أريد أن أحل هذا اللغز، كيف يغلب الضعيف القوي؟ فلما انتهيت منها عرفت أن القوة الحقيقية في الذكاء والتفكير والحيلة..!

وأذكر كذلك في مرحلة طفولتي وحينما دخلت الصف الأول الابتدائي. كانت حفاوتي بالكتب كبيرة، حتى أنني ذهبت يومًا للمدرسة وعبأت حقيبتي بكتب ثقافية وعلمية من كتب أبي لا أذكر منها إلا كتاب معجزة القرآن للشيخ (الشعراوي) وبعض الكتب الأدبية الأخرى.. ولاحظ المدرس أن حقيبتي مكتنزة ولا يمكن أن تكون حقيبة طالب في أول ابتدائي فنادى عليّ في حجرة المعلمين، وأخذ الحقيبة وفتحها وأخرج ما فيها من معجزة القرآن وأخواتها، وصار يضحك ومن حوله من المعلمين يضحكون ويسخرون من فعلتي ويقول لي: إيه دا ياعم حاتم ومعجزة القرآن كمان؟

ضايقني الموقف وملأني حرجًا وخجلًا لازمني في حياتي، وكم كنت أتمنى أن يشجعني بدلًا من سخريته المريرة..!

تلك الظروف وما إليها هي ما أكدها علماء النفس.. كأحد أهم أسباب ترغيب الطفل في القراءة والتي سميت بالقدوة القارئة..فإذا كان البيت عامرًا بمكتبة ولوصغيرة، تضم الكتب والمجلات المشوقة،

وكان أفـراد الأسرة، ولا سـيما الأب مـن القارئـين والمحبـين للقـراءة، فـإن الطفـل سـوف يُحـب القـراءة والكتـاب لأنـه حينـما يراهـم يقـرؤون سـوف يقلدهـم ويمسـك بالكتـاب وتبـدأ علاقتـه معـه.

إن إهــمال الكتــاب في محيــط الأسرة، نابــع مــن عــدم إيمــان أفرادهــا بالقيمـة المعرفيـة، وأنهـا نـواة التحـضر وطريـق الرقـي، والسـبيل الأمثـل لمسـتقبل الأجيــال.

أمــا صبــاي فقــد قــرأت كثــيرا مــن الكتــب وولعــت بــالأدب والروايــات وقـرأت لنجيـب محفـوظ وطـه حسـين والعقـاد وإحسـان عبـد القـدوس والمنفلوطــي وســيد قطــب والقرضــاوي، وتأثــرت بكتــب الأســتاذ عبــد الوهــاب مطــاوع حتــى أننــي اشــتريتها كلهــا وبعــد أن انتهيــت منهــا حزنــت كثــيرًا لأنــه لم يكتــب شــيئا آخر..كــما عشــقت التراجــم وقــرأت كثـيرا منهـا وولعـت باقتنائهـا ووجـدت فيهـا مـن الـدروس والفائـدة أكثر مـما وجـدت في غيرهــا..

وكان أكـثر الكتـاب تأثـيرا في حيـاتي هوشـيخنا الغـزالي رحمـه اللـه الـذي قـرأت لـه كثـيرا، ومـن فـرط إعجـابي بـه بـدأ أسـلوبه يظهـر في كتابـاتي، فمـن كان يقـرأ لي يخـبرني أن روح الغـزالي طاغيـة عـلى قلمـي، ولم يكـن ذلـك شـيئا متعمـدا وإنمـا كانـت بلاغـة الرجـل وسـحر كلماتـه وطريقـة بيانـه تسـيطر عـلى مزاجـي وتـأسر نفـسي ووجـداني..!

إن حياتي كإنسان لا أتصورها بدون الكتاب، فهو ضرورة تمامًا كالطعام والشراب، واليوم الذي يمر بدون قراءة أوتصفح، أتشح عليه السواد، وأنتحب فيه بالبكاء، ويعتصر قلبي بالحزن والألم، لأن هذا اليوم حذف من حياتي، ومر وكأنه لا شيء...لا إضافة...لا قيمة... لا جديد.!

وأتمثل قول القائل الذي عبر عن محنتي:

إذا مر بي يوم ولم أقتبس هدى ولم أستفد علمًا فما ذاك من عمري

إن هجر القراءة والثقافة والعلم جريمة يقترفها الإنسان في حق نفسه، وترتكبها الأمم في شعوبها ومستقبلها، فالإنسان الذي ميَّزه الله تعالى بالعقل ولا يرعى نعمة الله فيه، فهوجاحد لها، منكر لفضلها، واستحق هذا التأخر الذي يجلب الذل والهوان.

تقول (مستغانمي): (الكتاب الجيد هوالذي عندما تنتهي من قراءته تعيد النظر في حياتك، وإذا بقيت جملة في ذهنك، يكون الكتاب قد نجح)

وما أكثر الكتب الناجحة في حياتي، والتي أثرت في نفسي ودفعت همتي وأشعلت حماسي، ومن هنا كان التفريط فيها أوالغفوة عنها أمرًا مستحيلًا، فليس من السهل أن أفرط في كتاب من كتبي.. فللكتاب في نفسي مكانة كبيرة، وبيني وبينه عاطفة قوية، وارتباط

نفسي عميق..أشعر أنه صار جزءًا مني وكيانًا من عالمي، فهوملكي ويخصني وحدي، وأنه صارت بيني وبينه مودة كبيرة وعِشرة وثيقة.

وحينما يمضي الزمن على أحدهم، فيعتريه البلى والعطب، أهرول لإصلاحه وعلاجه، كما أهرول لمداواة أهلي إذا مرض منهم أحد، وتمتن نفسي حينما يصير بحالة جيدة، ويعود إليه بهاؤه الذي كان عليه..وكثيرًا ما أقول لأصدقائي:(إنني دكتور) أقوم بعمليات جراحية ناجحة، وأكون على أعلى مستوى بلغه الجراحين النابغين.. فأنا أعالج الكتب التي يمتد وجودها أكثر مما يمتد وجود الانسان.. فالكتاب يبقى والإنسان يفنى .

إنني أداوي هذه الكتب المهلهلة البالية التي تبعثرت أوراقها وتشتت صفحاتها،حدث هذا مع أكثر من كتاب، ساقتها الأقدار إليّ لأمنحها حياة جديدة وأعيد لها شبابها ونضارتها القديمة.. وفي مكتبي ركن خاص لأدوات الجراحة من الغراء والأغلفة والخيط والمشرط والمقص و(البلاستر).. مرضى كثيرون قدر لي أن أعالجهم وأؤهلهم لرحلة ثقافية جديدة،ألست معي أنني على حق حينما أقول:إنني دكتور.. ؟!

ولوأن كتابًا ضاع مني، أظل طول حياتي نادمًا على فقده، وربما أرثيه، وأعيش على أمل تلك اللحظة التي ألقاه فيها، ويعود إليّ كما عاد يوسف لأبيه.!

أغرب ما فيّ.. أنني لا أستطيع أن أستعير كتابًا لأقرأه، كما يستعير مني الكثيرون، فلا أستطيع الارتشاف من رحيق الكتاب إلا بتملكه،فالتملك لي يعني الإلهام..ومهما تسامح معي صاحب الكتاب في إبقاء كتابه بحوزتي ما شئت من سنوات العمر حتى أقرأه، فإنني لا أستطيع أن أستوحي منه أي شيء، مهما طال عليه الزمن عندي إلا بتملكه.!

أكره الاستعارة سواء مني أم من غيري، ولكن تصيبني في بعض الأحيان لحظات أعتبرها فيما بعد من لحظات الجنون وفقدان العقل، حينما يطلب مني أحدهم كتابا فأعطيه له..ثم أندم على تلك اللحظة التي لبيت له فيها طلبه.. ثم أسائل نفسي: هل كنت مخدرًا؟ هل كنت تائهًا حينما فعلت ذلك؟!

حالة واحدة أذكرها.. هي التي أستطيع أن أضحي فيها بكتبي، وذلك حينما أجد شابًا محبًا للثقافة والأدب ويريد أن يقرأ.. لكنه لا يجد الكُتب المناسبة ولا يقوى على شرائها..هنا فقط.. لا أدخر وسعًا في مساعدته وتشجيعه، وتوفير كل ما يسهل طريقه إلى المعرفة والثقافة، شريطة أن يردها علي مرة أخرى..! وفي كثير من الأحيان تخونني فراستي، لأدرك مؤخرًا أنها رغبة زائفة عابرة لا قرار لها، لأبدأ بعدها معاناةً مريرة في استرداد كتابي، الذي لا يعود إلا بعد أن أحترق شوقًا إليه.. وكأن من ساعدته يُعاقبني على هذه المساعدة، وأذكر مرة أنني أغلظت القول لأحدهم حتى يرد إلي كتابي بعد طول استجداء، ونشأت بيني وبينه جفوة إلى الآن.. بسبب هذا الموقف الذي تسبب هوفيه بجهله لمعنى الكتاب في حياتي.

علمتنـي هـذه المواقـف، أن لا أضعـف بعـد ذلـك، وأن أطالـب كل راغـب في القــراءة والتثقــف، أن يبــادر بنفســه لــشراء مــا يريــد مــن الكتــب مــن مالــه الخــاص، حتــى يشــعر بجديــة الأمــر، ويصــير الكتــاب عهــدة ومســؤولية في عنقــه، ينبغــي أن ينجــز فيــه مــا أراد، وتســتوي معــزة الكتـب في نفسـي سـواء مـا قرأتـه منهـا وما لم أقـرأه، فطالمـا صـار الكتـاب ملـكًا لي، فقـد جـرت عليـه مشـاعر الملكيـة مـن الـود والربـاط والعاطفـة.. وتكمـن المصيبـة لواضطـررت لاسـتعارة كتابًـا ثـم تنشـأ بينـي وبينـه هـذه المشـاعر، حيـث أعـاني صراعًـا كبـيرًا قـد ينتهـي بالمصـادرة والتأميـم، لكـن إيمـاني لا يفتـأ أن ينتـصر عـلي سـطوتي.. فـأرد الحـق لمسـتحقه..لكني لا أخفيـك أننـي مقهـورٌ حزيـن النفـس لفراقـه.!

وقــد يضيــع كتــاب مــن كتبــي.. ولا أذكــر لمــن أعطيتــه أوأيــن تركتــه، وأحــزن لهــذا النســيان، وتمــر الشــهور والســنون، لأجــده في بعــض زيــاراتي مسـتقرًا عنـد أحـد الأصدقـاء، فتقـر عينـي وأشـعر أن فقيـدًا قـد رُد إلي بعـد طـول غيـاب، بـل أشـعر أن روحـي قـد ردت إلى جسـدي بعـد أن فارقتـه مـن يـوم ضياعـه، ويالهـا مـن صدمـة حينـما أسـتعيد كتـابي مـن مُسـتعير، فأجـده قـد أعمـل في صفحاتـه بالقلـم الجـاف يخـط تحـت كلماتــه، أويــدون شــيئا في هامشــه، أويكتــب تعليقًــا عــلى حواشــيه.. في هــذه اللحظــة.. لا أتمنــى مــن دنيــاي إلا شــيئًا واحــدًا، وهــوأن أصرخ بعلوصـوتي فأقـول لـه: لعنـك اللـه يـا غبـي.. وأشـعر أنـه تمامًـا كهـذا الثــور الهائــج الــذي شرد وتمــرد عــلى صاحبــه وعــاث في الحقــول هرجًــا ومرجًــا، يقتلــع الأشــجار ويقضــم النباتــات، ويدمــر البســاتين، ويدهــس

بأقدامه جمال الأزهار، لكنني لا أستطيع أن أقول ذلك، ولا أملك إلا أن أحتسب الأمر عند الله، وأظل آسى على هذا الصنيع البشع، الذي لقيه كتابي المسكين، ولم يجد من ينقذه من هذا الوخز الأليم.

وهذا الإحساس العميق بالكتاب لم ينشأ مؤخرًا، وإنما هي حالة تولدت في نفسي منذ عهد بعيد، وأذكر مرة أنني صحوت من النوم، لأجد أخي الذي علمني حب القراءة والمطالعة والاهتمام بالكتاب يتناول كوبًا من الشاي، ولم يجد شيئًا يضع عليه الكوب غير كتاب من كتبي، وكانت تتحدر من الكوب قطرات الماء التي بللت غلاف كتابي، انطلقت مفزوعًا لأنقذه من هذا الإيذاء، وجففته مما أصابه من بلل، وخاطبته بجفاء وطالبته ألا يفعل ذلك مرة أخرى.!

أما عن أصدقائي.. فهم يعرفون حُبي وشغفي بالكتب، وأن أفضل هدية يقدمونها لي هي الكتاب، وهذا يسعدهم كثيرًا،حيث لا يتجشمون عناء في شراء ما يبهظ ثمنه من الهدايا، فسعر الكتاب لا يكلفهم شيئًا..أما أنا فيخونني التقدير حينما أهدي أحدهم كتابًا، وأظن أن فرحتهم به تعادل فرحتي..وكثيرًا من الخطّاب يأتني أحدهم فيسألني: بماذا أهدي خطيبتي.. فأول شيء ينطبع في ذهني هوالكتاب.. فيمد شفتيه متعجبا..!

لا زلت أذكر وأنا في مطلع شبابي وفي ريعان ولعي بالكتب، ذلك القصور المالي الذي منعني أن أشتري ما أحب من الكتب والإصدارات،.. لأن أغلب مصروفي لم يكن يبقى منه شيء للكتب،

وكنت أدخر منه شيئًا لشراء بعضها ولكنه لم يكن يكفي ليلبي نهمتي الواسعة..وقد علم والداي بهذه الوجهة فرأياها سرفًا لا قيمة له وحذراني من شراء الكتب والإنفاق عليها، لأنهما يريدان أن أقرأ ما لدي وهوكثير فلماذا أشتري غيره؟، وكان والدي يقول لي: هل قرأت ما عندك ؟ تكفيك كتب الدراسة فبها ما يغني لوأردت أن تقرأ!!، والحق أنها كانت ثقيلة جافة لا تغني عن شيء.. وكان أكثر ما يؤلمني أنني كنت أضحي ببعض الكتب فأبيعها لأصدقائي حتى أشتري غيرهامن الكتب التي تشتهيها نفسي.. وقد ضاعت مني هذه الكتب وما زلت نادمًا على فراقها إلى الآن..ولما مرت الأيام وتحررت من غائلة المصروف.. صرت أشتري ما أريد، وأمتلك ما أشتهي، ولكن هذا الحرمان القديم أشعرني بمحنة الأدباء والمثقفين وما يعانونه من مرارة الفقر والاحتياج..!

الكتب اليوم تتسبب في ضياع أموالي حسب ما يظن أهلي، مما يدفع زوجتي للسخط والضجر، وتناشدي أن أحافظ على نقودي، وتعتبر ذلك تبديدًا، ولا أعرف بماذا أجيبها حينما أعود إليها في أغلب الأيام محملًا بالكتب، حيث أضع الحقيبة جانبًا على استحياء، آملا ألا تراها..ولكن لا مفر من رؤيتها، إنها لا تدري أن الأمر عندي تحول إلى شهوة جارفة لا يمكن السيطرة عليها،حيث أجد متعتي وغرامي..

نعم شهوة شراء وتملك الكتب، حتى ولولم أقرأها.. وقد نمت هذه الرغبة في صباي، وحينما كان المعلم في المدرسة ينصحنا بقوله: (اشتروا

الكتب قبل أن تكبروا وتتزوجوا فتداهمكم المسؤوليات والزوجة والأبناء، وساعتها لن تستطيعوا شراء كتاب واحد.)

ولكنني ظللت أشتري وأشتري، حتى تكدست عندي أعداد ضخمة من الكتب، التي جعلت من أولويات دعائي، أن يمن الله علي بقراءة نصفها أوربعها، أما قراءتها كلها فتحتاج إلى عصور ودهور،وأعمار فوق أعماري..وكانت الكتب تصاحبني في كل مكان حتى أن والدتي كانت تأمرني بفتح نوافذ الحجرة لأن رائحة الكتب سوف تسبب لي الأمراض، وتأملت حالي فإذا هوتمامًا كحال الكاتب والروائي البريطاني(هاوارد جيكوبسون) حينما قال:

(لا أتذكر كم كان عمري عندما بدأت بجمع الكتب، ولكن بحسب أقدم التواريخ التي كنت أسجلها أظن أنني كنت أبلغ من العمر اثني عشر عامًا، سأرضى بهذا، إنه عمر معقول، هنالك أشياء أسوأ بإمكانك أن تفعلها في هذا العمر..لم يكن والدي واثقًا من موضوع الكتب، أعترض في البداية على إحضاري للكتب إلى المنزل، إلا في حالة إنهائي لكل الكتب التي أملكها، لم يكن والدي يفهم أنه بإمكان الكتب أن تجلس على الرف مغلقة، وتشبع رغم هذا حاجة لدى جامعها، ومع أنه لم يكن قارئًا، إلاّ أنّ كتابًا غير مفتوح بإمكانه أن يقوده للجنون، الأمر يشبه أن أطلب وجبة في مطعم، دون أن آكلها، ولكني كنت أفكر في حتمية قراءتها، حتمًا سيأتي اليوم الذي أفتحها فيه، أشعر بالبرود بيني وبين تلك الكتب على الرف، ليس بإمكان

أحـد أن يقـرر عـدم وجـود تلـك الساعة، تلـك اللحظـة التـي سـينكسر فيهـا هـذا الـبرود، وأقـوم بفتـح تلـك الكتـب.

كانـت والـدتي قارئـة، ولذلـك تفهمـت شـغفي بجمـع الكتـب، ولكنهـا أيضًـا كانـت تحتفـظ باعتراضاتهـا الخاصـة بهـا، كانـت تنزعـج مـن رائحـة الكتـب، وتقـول بأنهـا سيئة لدرجـة أنـه لم يعـد أحـد يـأتي لزيـارة منزلنـا، ولكننـي ذكرتهـا بأنهـا لا تحـب الـزوار مـن الأسـاس، اتفقـت معـي بهـذا الخصـوص، ولكنهـا أصرت عـلى أنهـا لا تريـد لسـبب الرائحـة أن يمنعهـم مـن زيارتنـا.)

وحينـما أسـافر، أصطحـب منهـا مـا أسـتطيع حملـه، أمـا البقيـة فـأوصي زوجتـي أن تعتنـي بها،وتكـون عليهـا أمينـة لا تُفـرط في شيء منهـا، ولـوأن أحـدًا مـن أقربائنـا اسـتغل غيبتـي وطلـب منهـا شـيئًا فعليهـا أن تخـبره: بـأني أغلقتهـا وأخـذت مفاتحهـا..أوأني حلفـت عليهـا بالطـلاق أن يقـترب منهـا أحـد..!

تسـتهويني الكتـب الصفـراء القديمـة، وأشـعر بلـذة غامـرة في اقتنائهـا، وأتمنـى لـوأن كل الكتـب الجديـدة طُبعـت لتصـير صفـراء تـسر الناظريـن في هيئـة الكتـب القديمـة، في لونهـا ورائحتهـا ونوعيـة الـورق، وكلـما انتمـى الكتـاب إلى زمـن بعيـد، كلـما زاد قـدره عنـدي، فلـدي كتـب تعـود طبعتهـا إلى مـا قبـل مائـة أومائـة وخمسـون عام..ولوأننـي ذهبـت لـشراء كتـاب فوجـدت طبعـةً حديثـةً وأخـرى جديـدة.

تجذبنـي القديمـة وأفضلها عـلى الجديـدة، وتكـون محظيـةً عنـدي كـما لوأننـي اقتنيـت أثـرًا مـن آثـار الحضـارات القديمـة.!

كان لـدى والـدي مكتبـة جيـدة.. كان أغلبهـا في الأدب، لم يتبـقَّ منهـا إلا نـذر يسـير، وكلـما سـألت أمـي أيـن ذهبـت كتـب أبي ؟ تقـول فـلان وفـلان مـن أقربائنـا كلـما زارونـا، لا يخرجـون إلا وهـم محملـون بـشيء منها..ومـن العجـب أن واحـدًا مـن هـؤلاء الذيـن ذكرتهـم لي، لديـه اليـوم مكتبـة كبـيرة، وكلـما طلبـت منـه كتابًـا يرفـض أن يُعطينـي شـيئًا، ويبخـل عـليّ بـه، فهوليـس عـلى أخـلاق والـدي، الـذي تـرك مكتبتـه لـه ولغـيره فاسـتباحوها ونهبـوا ذخائرهـا، أمـا الغريـب.. أنـه كان مـن لي عـمٌّ لا يعـرف شـيئًا عـن الثقافـة والأدب، ولا علاقـة لـه بـشيء مـن هـذا الميـدان، وكلـما جـاء لزيارتنـا أخـذ في يـده نصيبًـا مـن هـذه الكتـب، حتـى أن والـدي كان يتعجـب ويقـول: لا أعـرف لمـاذا كان يأخـذ هـذه الكتـب، ومـاذا كان يفعـل بهـا.؟!

ولا أعـرف حادثـة مؤلمـة في حيـاتي مثـل حادثـة الزهايمـر فكانـت مـن أشـد الذكريـات التـي تثـير دهشـتي بقـدر مـا تزيـد ألمـي، والتـي كلـما خطـرت ببـالي دعـوت قائـلًا: لعـن اللـه الزهايمـر.. ! وكيـف لهـا أن تغيـب عـن بـالي وألمهـا في النفـس كبـير، وجرحهـا غائـر عميـق ؟!

فأثنـاء تـرؤسي لتحريـر مجلـة (النـدوة العالميـة للشـباب الإسـلامي) في جـدة، ذهبـت إلى عمـلي في الصبـاح الباكـر وبيـدي مجموعـة مـن الكتـب أود النظـر فيهـا لاسـتكمال بعـض أفـكاري ومقـالاتي.. وفي المصعـد صاحبني

الشيخ (عبد الإله عجلان) وهوفقيه محقق وقاريء وله مؤلفاته ومصنفاته القيمة، نظر إلي وقال: ما هذه الكتب الجميلة؟هل لي أن أتصفحها وأردها إليك؟ قلت له: على الرحب والسعة،ولم يساورني القلق لأن الشيخ ممن يقدرون الكتب ويعرفون كيف يتعاملون معها؟..وبعد مرور أسبوع اشتقت إلى كتبي فطرقت بابه وقلت له: هل انتهيت من الكتب يا شيخنا الجليل ؟ فقال لي: أي كتب؟: قلت له: الكتب التي أعطيتك إياها في المصعد..! فقال: لا أذكرها! فنظرت دهشا وقلت في نفسي لعل الرجل يمزح، ثم نظرت في مكتبته فوجدتها ظاهرة أمامي، فقلت له: هذه هي كتبي، فقال: لا هذه كتبي أنا، ولا أذكر أني أخذت منك شيئًا، ففزعت من قوله وكدت أجن من هذا الزهايمر المريع الذي أصابه؟ لقد تأكسدت ذاكرة الرجل تمامًا، فماذا أفعل وكيف أتصرف ؟ وأخذ الحوار بيننا يحتد فقلت له:لنتحدث بهدوء..هل تذكر الوقت والزمان الذي اشتريت فيه هذه الكتب فأجاب: إن أغلب كتبي قد اشتريتها منذ زمن بعيد، ولا أتذكر هذه الفترات البعيدة.. فقلت له: يا مولانا افتح هذا الكتاب وهذا الكتاب،ستجد تعليقاتي بالقلم الرصاص عن كذا وكذا، ففتح الكتابان فوجد ما قلت له صحيحًا، وظننت أنني بهذا الدليل الدامغ سأسترد ما فقدت، لكن الرجل رفض أن يعطيني من الكتب إلا ما أقمت عليه الدليل، ومن يومها وأنا أترك في كل كتاب دليلا أوعلامة تدل على انتسابه لي، وكل يوم يمر علي وأنا ألعن هذا الزهايمر الذي تسبب في ضياع كتبي.

مـا أبشـع فـترات العجـز التـي تحتـاج مـن المـرء أن يثـور عـلى نفسـه.. هـا أنـا ذا أذكـر ذلـك الزمـن الـذي كنـت أمنـي فيـه نفـسي بأننـي يومًـا مـا سـأقرأ وسـأفتح هـذا السجن الكبـير لأخـرج مـن طـال حبسـهم ظلـمًا وعدوانـا.. ولكـن الأيـام يسـابق بعضهـا بعضـا، ولا تـأتي هـذه اللحظـة المأمولـة..!

ويومًـا مـا عزمـت عـلى القـراءة وأصررت أن أقتلـع هـذا العجـز وأُنحِـي مـن حيـاتي هـذا الهجـر الأليـم، ومـا أن وقفـت أمـام كتبي حتى أحسسـت بالحـيرة الكبـيرة، فـأي الكتـب يقـع عليـه الاختيـار، وأيهـا أبـدأ بالقـراءة، ثـم دعـك مـن حـيرتي التـي لا تماثـل شـعوري بلهفـة كتبـي إلي، نعـم.. أشـعر بهـا وأحـس بحنينهـا إلي، فـكل منهـم ينادينـي لأختـاره وأفضلـه عـلى غـيره.

أصـوات مـن هنـا وهناك،تهـز قلبـي وتهـد وجـداني، مـر عـليّ وقـت كنـت أنظـر إلى مكتبتـي ورفوفهـا العريضـة المكدسـة، نظـرة تمتـزج بالسـعادة والحـزن. سـعادة لأني أملـك مثـل هـذه الـثروة العظيمـة، وحـزن لأني لم أقـرأ منهـا إلا القليـل.. وكلـما مـررت بجوارهـا لشـأن مـن شـئوني.. كلـما شـعرت بندائهـا وأنـين كتبهـا المتخمـة واسـتغاثتها المتواصلـة لأنقذهـا مـن وحدتهـا الموحشـة،وهذا السـجن الـذي لا تعلـم هـي ولا أنـا متـى ينتهـي وكـما قيـل: (احـترام الكتـاب في قراءتـه)

وهـا أنـا ذا صرت مـن الذيـن لا يحترمـون كتبهـم، بـل صرت كهـؤلاء الذيـن كنـت أسـخر منهـم فيـما مـضى وأحتقـر صنيعهـم حينـما كانـوا يقتنـون

الكتب لا ليقرؤوها،وإنما ليزينوا بها جدران بيوتهم وحوائط حجراتهم.. وإنها لجريمة كبيرة أن يُتخذ الكتاب وسيلة تجميل أوعملية ديكور، وهوالذي وجد ليشيد الدول ويقيم الحضارات، بل هوفي حقيقته فكر وروح وعقل وإنسان حاضر معك يستطيع أن يحدثك ويقنعك ويفيدك، لقد أدمنت شراء الكتب، ويخيل إلي أنني لوامتلكت الملايين لأنفقتها كلها في شراء الكتب وهوما يؤرق نفسي لأنني أعلم أنني أزيد من أعداد الحزانى والمسجونين.

استطاعت هموم الحياة ومشكلاتها أن تثنيني عن القراءة في فترة من الفترات، أطلقت عليها فترات العجز من حياتي، ومهما كنت أتكسب وأتربح من المال، فإنني أعلم أني خسرت شيئًا لا يُقدر بأموال الدنيا مجتمعة، لقد خسرت السعادة والمتعة الحقيقية بمعشوقتي..

في بعض اللحظات تسوقني الشفقة للإفراج عن بعض هؤلاء المسجونين، ولكن الصدمة الكبيرة حينما أكتشف أن هذا الإجراء لم يكن في مكانه الصحيح، وأن صاحبنا المفرج عنه من نوعية الكتب (الفالصو) التي لا تستحق السجن فقط.. بل تستحق الإعدام، فهناك كتب تجعل قارئها يكره نفسه ويكره القراءة ويلعن الكتب..لكنني حينما أُمسك بالكتاب لا أتركه حتى أنتهي منه، رغم أن الشوق لقراءة غيره تجترني جرًا، ولكني أتحلى بالصبر احترامًا لما في يدي، ورغبة صادقة في الاستفادة منه والتركيز معه والعناية به واحترامه.

أهتم أحيانًا بالكم وأحب أن أضخم رفوف المقروء.. لكن هذا أبدًا لا يجعلني أتهاون في إكمال ما بيدي، لأن الفائدة هي همي الأول وغايتي المقصودة، فأنا أرفض أن يكون حالي كحال الكاتبة (مريم الساعدي) حين قالت:(حتى الكتب التي قرأتها فأنا لم أُنه كتابًا منها كما ينبغي، أقرأ أحدها ونظري على الأكوام أمامي أريد الانتهاء بسرعة منه لأنتقل للثاني، فيشعر الكتاب بين يدي بعدم إخلاصي في الإصغاء له، ويعتب علي فأنهيه ويرحل دون أن يترك في ذهني حرفًا منه ودون أن يترك في قلبي قبسًا من نور كلماته..ما هكذا تؤتى الكتب.

الكتب مثل الناس؛ حين تتعرف على أحدهم فاحرص أن تراه جيدًا وتسمعه، وتمنحه مساحة من قلبك يثريها بوجوده الخاص ويزرع فيها أزهارًا تمنح نبض قلبك عبقًا أقوى يجعل طريق حياتك أحلى)1

بعض الكتب أقضي وقتًا كبيرًا في قراءتها ولا أخرج من ورقها الكثير إلا بمعلومة أومعلومتين تكون جديدة عليّ، وهوما يشفع لها في نفسي، ولا يشعرني بمضيعة الوقت معها حينما أضافت إلي جديدًا لم أكن أعرفه من قبل..

ربما أهدي أحدهم كتابًا ألفته فيلقاه بفتور وكأني أعطيته صحيفة أومجلة! وأحاول أن ألتمس له العذر فأقول في نفسي: لعل به بعض الضيق أوأن هناك مايؤرقه، فلننتظر يومًا أويومين، حينما يذهب ما

1 – من مقال بصحيفة الاتحاد للكاتبة مريم الساعدي – الثلاثاء ٣٠ أبريل ٢٠١٣

ألم بـه ويعـي مـا أهديتـه إياه..وبعـد الانتظـار يتبـين لي أن الفتـور نابـع لأن الكتـاب لا قيمـة لـه في نفسـه، وأننـي أثقلـت عليـه حينـما زودتـه بـه فصـار عبئًـا عليـه.. وأزوره مـرة تلومـرة وأنتظـر أن يحدثنـي بـشيء منـه أويبـدي ملاحظـة عليـه، ولكنـه لا يذكـر شـيئًا عنـه كأن لم يكـن، وأتلفـت بنظـري في حجرتـه لأجـد كتـابي في ركـن مهمـل لم تمسـه يـده بعـد.. أوتبـصر عينـه بعـض سـطوره..

وأشـعر في هـذه اللحظـة أن كتـابي يسـتغيث بي وينادينـي ويسـتعطفني ويقـول لي: لمـاذا تركتنـي عنـد هـذا الـذي يهملنـي ولا يـدرك قيمتـي، هـل تكرهنـي إلى هـذا الحـد وأنـا كتابـك؟ ألا فلتعلـم أن إهمالـه لي إنمـا هـوفي حقيقتـه إهـمال لـك أنت..فلوأنـه قـدرك لقـدرني.. وإذا بنفـسي تهتـف بـه مـن داخـلي تقـول لـه: كفـاك لومـا وجلـدًا وتقريعًـا..ثـم أنتشـله

فأنتشـله عـلى حـين غفلـة مـن صاحبـي لأسـترده مـرة أخـرى وأبحـث عمـن يسـتحقه لأهديـه إيـاه.. ويمـر مـن الزمـن قليلـه وكثـيره، وأنتظـر علـه يكتشـف أن كتـابي لم يعـد بحوزتـه، أويتنبـه لاختفائـه مـن بيتـه، ولكنـه لا يـدري مـن أمـره شـيئًا وكأنـه لم يكـن، ومـع هـذه اللامبـالاه تذكـرت (برناردشـو) حينـما زار معرضًـا للكتـاب المسـتعمل فوجـد نسـخة مـن كتابـه كان أهداهـا إلى أحـد أصدقائـه معروضـة للبيـع فاشـتراها وأهداهـا إليـه مـرة ثانيـة ليلقنـه درسًـا في الاحتفـاء، أمـا أنـا فـلا أرى مـن يُهمـل كتـابي يسـتحق التفكـير أوحتـى العتـاب..لأنني أنـا الـذي أخطـأت أولا في التقديـر ووضعـت بضاعتـي في غـير موضعهـا..!

القراءة هي الحياة !

فالقراءة هي الحياة..!

تراه تعبير لا يغني عن شيء.. فالحياة متوفرة للجميع من يقرأ ومن لا يقرأ.. فما معنى أن تكون القراءة هي الحياة؟! شيء رائع أن نلفت إلى هذا التساؤل حتى نقف على المعنى الذي يوهمنا بأن الحياة في القراءة، وأن القراءة هي الحياة!

أجل يا أخي.. فالقراءة فعلًا هي الحياة.. أوبمعنى أدق.. فيها معنى الحياة الحقيقية، لأنها الطريق إلى النور والمعرفة والوعي والتقدم، ففرق كبير بين إنسان يعيش ويعرف في عيشه معنى الحياة، ويدرك دروب السعادة فيها، ويفطن إلى ما حوله من حقائق وتجارب وغوامض وآفاق، وبين إنسان جاهل خامل لا يدرك من الحياة والسعادة فيها إلا أن يملأ بطنه ويرضي مزاجه ونزواته وشهواته..!الأول يتقدم ويرتقي وينهض.. والثاني يتراجع ويتخلف ويسقط..!

ولعل مقارنتي بين إنسانين كانت مقارنة لطيفة رقيقة هادئة..ولكني أحيلك إلى مقارنة أخرى أشد صراحة وجرأة!لتعرف حجم الخسارة في إهمال القراءة..!

(إن الميزة الحقيقية التي تميز الإنسان على الحيوان هي أنه حيوان مثقف، وكل محروم من الثقافة هومن الانحطاط بمثابة الحيوان، وإذا

نحـن عشـنا بـلا ثقافـة، لا نقـرأ ولا نفكـر في تاريـخ هـذه الدنيـا ومصيرهـا وعلومهـا وآدابهـا، فإننـا نعيـش عيشـة حيوانيـة، فيجـب أن نغـرس في أنفسـنا عـادة الـدرس، ونعيـش مـدى حياتنـا مجديـن في جامعـة الدنيـا)٢

أمـا (عائـض) فقـد أراد أن يـدلي بدلـوه في المقارنـة، فـكان عميـق الوصـف، قـوي التشـبيه، حـين قـال: (أمـا مـن لم يقـدر لـه اللـه أن ينـال نعمـة القراءة..فـلا تـراه يفـرق بـين المكتـوب والمرسـوم، واللعـب والجـد، والحـق والباطل،مـما يسـطر في صفحـات الكتـب والجرائـد والمجـلات، والألـواح والصخـور، إلا بـأن هـذا لـون صورتـه لـه الرؤيـة، لا يعلـم مـن محتـواه شـيئًا، ولا يـدري مـن مضمونـه عرفًـا ولا نكـرًا، يـرى الحـروف والكلـمات والجمـل والسـطور، رؤيـة قـد يعجبـه جمالهـا، دون أن يعـرف مـا تحملـه في أحشـائها مـن جواهـر وأصـداف، أومـا أثقلـت بـه صنوانهـا الدانيـة، وأغصانهـا مـن ثمـار لذيـذة يانعـة..لا فـرق بينـه وبـين صبـي خـرج لتـوه مـن رحـم أمـه، أومجنـون فقـد عقلـه، فكلهـم حـرم مـن التمتـع بنعمـة القـراءة، إلا أن الصبـي والمجنـون معـذورون بسـقوط التكليـف عنهـما، وهومـن المؤهلـين للتكليـف العينـي والواجـب الكفـائي في أمـور دينـه ودنيـاه)٣

ويقـول خالـد في الوصايـا العـشر:(يقـول خالد:الـذي لا يحيـى عقلـه بالقـراءة المسـتمرة، يسـتحق العـزاء والرثـاء..!! فـإذا كنـت مـن الذيـن يقـرؤون فهنـيء نفسـك وطالبهـا بالمزيـد، وإذا لم تكـن؛ فـأدرك مكانـك في

2 – في الأدب والحياة – سلامة موسى

3 – عاشق – عائض القرني

القافلة؛ قبل أن تذهب نفسك حسرات..!! فلوخلت الحياة من نعمة القراءة والفكر لكانت عبئًا لا يطاق.. فالقراءة كما قيل هي النور الذي يسعى بين يديك وهي الرئة التي تَنشَقَ بها الحياة..)

يقول المثل الغربي: (إذا أردت أن تسعد إنسانًا فحبب إليه القراءة)

ويقول (جون هرشل): (إن من تيسرت له أسباب القراءة يصير ولا شك سعيدًا لأنه يقطف من حدائق العالم، وتتجلى أمام عينيه أحوال الأمم الغابرة، ويكون كمن عاش مع أفضل أفرادها وكأنما خلقت الدنيا له)

وقيل: (القراءة مثل الماء والهواء، لا يعيش الإنسان بدونهما، وبدون القراءة لا يجد الإنسان ذاته، بل يعيش في الدنيا منقطعًا عن الحياة والأحياء)

وقال العقاد: (القراءة وحدها هي التي تعطي الإنسان الواحد أكثر من حياة واحدة لأنها تزيد هذه الحياة عمقًا)

بل كان من القراء من يبغض فصول الحياة من أجل القراءة، حيث كان (جيته) يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول وكان يتعب من القراءة في ضوء الشموع، التي يقص فتيلها بنفسه، حتى كانت آخر كلمة نطق بها قبل وفاته: (النور) لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية، لذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء.!

لم تكـن القـراءة في حيـاة هـؤلاء مجـرد هوايـة أوتسـلية، وإنمـا كانـت غرامًـا وعشـقًا، أوكـما قلنـا: تعنـي لهـم الحيـاة.. أمـا الذيـن يقولـون: هوايتنـا القـراءة، فهـي المقولـة التـي لم نسـمعها أبـدًا مـن أتـراب جيلنـا، فأغلبهـم مـن كانـت هوايتـه في الرياضـة أوالسـباحة أواللعـب والترفيـه والتسـابق والصيـد ومشـاهدة الأفـلام والرحـلات والسـفر، وغـير ذلـك مـن لهوالحيـاة ومسـلياتها، أمـا كلمـة قـراءة، فـلا أذكـر أبـدًا أننـي سـمعت مـن ينطـق بهـا أويتقولهـا عـلى لسـانه أوجالـت بخاطـره وهـواه.. !

وإذا كنـا نـأسى أن لا يقولهـا أحـد منـا، فـإن الدكتـور (راغـب السرجـاني) رفـض الاعـتراف بمصطلـح الهواية،وبـين أنهـا ضرورة مـن ضروريـات الحيـاة التـي لابـد منهـا للإنسـان..!

يقـول السرجـاني: (هـل يصـح أن يقـول أحـد هوايتـي شرب المـاء مثـلًا ؟! إن كل النـاس يشربـون المـاء؛ فهـذه ليسـت هوايـة، وإنمـا هـي ضرورة، كذلـك لا يصـح أن يقـول إنسـان: إن هوايتـي الأكل؛ لمـاذا ؟ لأن الأكل ضرورة وليـس هوايـة، فـكل النـاس يجوعـون ولابـد أن يأكلـوا، ربمـا تفضـل طعامًـا عـلى آخـر، لـك هـذا، لكـن أن تمتنـع عـن الطعـام أوعـن النـوم أوعـن التنفـس فهـذا يـؤدي بـك ولا شـك إلى الهـلاك؛ لأن كل هـذه الأشـياء مـن الضروريـات لحيـاة الإنسـان.. ! وأرى أيضـا أن أي إنسـان لابـد لـه مـن القـراءة..

يجـب أن تقـرأ ليـس كتابًـا أواثنـين فقـط، وليـس يومًـا في الأسـبوع أوشـهرًا في السـنة فحسـب.. ولكـن يجـب أن تكـون القـراءة هـي منهـج

حياتـك..لا يمـر عليـك يـوم دون أن تقـرأ.. وليـس المقصـود أي قـراءة.. بـل القـراءة المفيـدة النافعـة.. القـراءة التـي تبنـي ولا تهـدم، وتصلـح ولا تفسـد...!القراءة إذن ليسـت هوايـة، فمـن غـير المناسـب أن نسـمع مـن يقـول: أنـا لا أحـب القـراءة، أولسـت متعـودًا عليهـا، أوأمـل سريعًـا منهـا، فهـذا مثـل مـن يقـول: أنـا أمّـل الأكل؛ لذلـك فلـن آكل!!)٤

ومـا أروع ذلـك الشـاب الـذي هـم بالـزواج..وكان يقـوم بتجهيـز شـقته التـي يقيـم فيهـا مـع شريكـة الحيـاة، لقـد جعـل المكتبـة أول اهتمامه من أثـاث البيـت وأفـرد لهـا حجرتهـا الخاصـة قبـل حجـرة السـفرة والمعـاش.. !والعجيـب أنـك تـرى بعـض الذيـن لا يقـرؤون ينظـرون للقـراء عـلى أنهـم حمقـى جهـلاء، يفنـون أعمارهـم فيـما لا نفـع فيـه، ويفسـدون أوقاتهـم فيـما لا عائـد منـه، ويحرمـون أنفسـهم مـن متـع الحيـاة وبهائجهـا..! لكـن الحقيقـة التـي تغيـب عـن أذهانهـم، أنهـم هـم المحرومـون مـن أعظـم متـع الحيـاة، طريـق النـور والمعرفـة.. والأقبـح منـه أنهـم لا يمكـن أن يفهمـوا ذلـك أويقـدروه..!

نعـم. فـ(القـراءة حيـاة الشـعوب، ومفتـاح المعرفـة للوصـول إلى الرقـي والتقـدم في شـتى المجـالات؛ وتخلـف كثـير مـن مجتمعاتنـا العربيـة أحـد أبـرز أسـبابه.. انغلاقهـا وهجـر القـراءة..

القـراءة غـذاء للـروح ومتعـة للنفـس والمصـدر الأصيـل لبنـاء الإنسـان وتنميـة ثقافتـه، القـراءة تحفـظ الوقـت، وتضبـط الفكـر والسـلوك؛ فـما

4 – القراءة منهج حياة — د. راغب السرجاني

أحوجنا أن نصنع إنسانًا بالكتاب والقراءة! والذين تخلوحياتهم من المتعة أناس أشقياء تعساء..فالمتعة هي معنى الحياة، لكن المتعة يحار في تفسيرها وفهمها وانتهاجها كثير من الناس.. فمنهم من يعدها في الطعام والشراب أوالنساء أوالمال والجاه، ومنهم من يجدها في المعرفة والثقافة والقراءة والفضيلة وإصلاح دنيا البشر، وهوما يقودنا لقول آخر وهو: إن الذين تخلوحياتهم من المتعة الحقيقية هم الأشقياء التعساء وليس غيرهم.. ومتعة القراءة من أرفع وأرقى المتع التي يشعر بها أصحابها، لأنها الحياة المتعددة والحياة الواعية، والحياة التي تقوم على تنمية العقل وتغذية روافده ليفهم مغزى الحياة.. ليس مهما أن تكون المكتبة فخمة أوفاخرة ذات أدراج مذهبة، ولكن المهم: ماذا فيها من كتب ؟..ينبغي أن يكون في ذهنك مشروع واضح لشراء مجموعة ضخمة من الكتب وهذا الكلام ليس موجها للأغنياء فحسب، بل هوللفقراء والأغنياء على حد سواء؛ فالإنسان إذا أحس بقيمة الكتاب سيوفر بلا شك من مأكله ومشربه ليشتريه، وربما يأكل الإنسان أكلة واحدة بثمن أربعة أوخمسة كتب، وربما يشتري قميصًا بثمن عشرة كتب، بل ربما خرج في رحلة أسبوعية مثلًا بثمن مكتبة قيمة جدًا..!

عندما قضى (أوسكار وايلد) سنتين في السجن عقوبة على تهمة الشذوذ..خرج محطم النفس كسيرًا حزينًا على هذا المستنقع الذي رمى بنفسه فيه وأضاع كثيرًا من مجده ووقاره، خرج من السجن ولم يكن همه إلا شيء واحد وأمنية واحدة، وهي كما قال:(أن يكون

عندي ما يكفيني للعيش ثمانية عشر شهرًا حتى إذا لم أستطع تأليف الكتب النافعة، استطعت على الأقل أن أقرأ الكتب النافعة، وماذا بعد هذا من لذة ومتعة؟!)

والذين ينشدون الطريق لهذه المتعة والشعور بها والانضمام لفريقها، لابد لهم من القراءة المستمرة و(المثابرة عليها والحماسة في متابعتها والتحلي بالصبر والتسلح بالعزيمة للاستمرار فيها، فكم من شخص توقف في أول المسير عند أول عثرة اعترضت طريقه، وغاب عن ذهنه أن أول عوامل النجاح في كل مسعى هومقدار الوقت وكمية الجهد الذي نبذله في سبيل ذلك)5

لقد كانت القراءة في حياة السلف هي المعنى الجميل الذي يجدونه فيها، ويعيشون في دوحته..لا يستطيعون أن يمر يوم من أيامهم دون القراءة والمطالعة، فأزمانهم أغلبها بين الكتب، يقرؤون ويستفيدون ويعتبرون ويستمتعون وينهلون من فيض معارفها، ووافر كنوزها، ولك أن تتخيل مدى هذا الاهتمام الذي لا ترتسم لك صورته الحقيقية إلا بعرض بعض أحوالهم أوبتعبير أدق.. بعض هيامهم..

قال (ابن أبي حاتم) رحمه الله: (كنت أقرأ على أبي وهويقرأ وهويكتب وهويمشي وهويركب وهوفي بيت الخلاء)

وكان (الخطيب البغدادي) لا يمشي في طريق إلا وفي يده جزء يطالعه،

5- اقرأ – ساجد العبدلي

والنـووي أيضًـا..

وكان الإمـام (ثعلـب) أحـد أئمـة النحـووالأدب، إذا دعـاه رجـل إلي وليمـة يشـترط عـلى صاحـب الوليمـة أن يجعـل لـه فراغًـا لوضـع كتـاب ليقـرأ فيه..يقـول: أنـا أشـترط أن أضـع كتابًـا بـين يـدي أقـرأ فيـه، وكان سـبب موتـه أنـه خـرج يـوم الجمعـة بعـد العـصر مـن المسجد، وكان في يـده كتـاب يقرأه،فجـاءت فـرس فصدمتـه فسـقط في هـوة فأُخـرج وهويتـأوه ويصيـح ومـات اليـوم الثـاني..!

وأمـا (الفتـح بـن خاقـان) فإنـه كان يحمـل الكتـاب في كمـه أوفي خفـه، فـإذا قـام مـن بـين يـدي المتـوكل للبـول أوالصـلاة، أخـرج الكتـاب فنظـر فيـه وهويمـشي، حتـى يبلـغ الموضـوع الـذي يريـده، ثـم يصنـع مثـل ذلـك في رجوعـه، إلي أن يأخـذ مجلسـه، فـإذا أراد المتـوكل القيـام لحاجـة، أخـرج الكتـاب مـن كمـه أوخفـه، وقـرأه في مجلـس المتـوكل إلي حـين عـوده .!

وكانـت لمحمـد بـن سـحنون جاريـه يقـال لهـا (أم مـدام) فـكان عندهـا يومًـا، وقـد شـغل في تأليـف كتـاب إلي الليـل، فحـضر الطعـام، فاسـتأذنته فقـال لهـا: أنـا مشـغول السـاعة .فلـما طـال عليهـا الانتظـار، جعلـت تلقمـه الطعـام حتـى أتي عليـه، وتمـادي هوعـلي مـا هوفيـه، إلي أن أذن لصـلاه الصبـح، فقـال شُـغلنا عنـك الليلـة يـا أم مـدام !هـات مـا عنـدك، فقالـت: قـد ألقمتـه لـك واللـه يـا سـيدي، فقـال: مـا شـعرت بذلـك.!

إلى هـذا الحـد الرهيـب كانـت الكتـب في حياتهـم، وكانـت القـراءة في

أيامهـم! شـغلوا بهـا كل أوقاتهـم ومـلأوا بهـا حلهـم وترحالهـم حتـى قـال قائلهـم:

وزهدني في الناس معرفتي بهم
وطول اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم ترني الأيام خلاًّ تسرني
مباديه إلاّ ساءني في العواقبِ
ولا قلت أرجوه لكشف ملمةٍ
من الدهر إلاّ كان إحدى المصائبِ!
فليس معي إلاّ كتاب صحبته

يؤانسني في شرقها والمغاربِ

وقال آخر:

نعم المحدث والرفيق كتاب
تلهوبه إن خانك الأصحاب
لا مفشيًا للسـر إن أودعتـه
وينال منه حكمـة وصـواب

القراءة طريق النهوض

كانت اليابان واحدة ممن أدركوا هذا السر النفيس، وعرفت طريق نهوضها بعد كبوتها الفادحة وانهيارها المزمن،فهي الأمة المثقفة التي اتخذت من القراءة طريقها لبناء مستقبلها العظيم..!لقد نهضت بعد الضربة الموجعة التي تلقتها من أمريكا في الحرب العالمية الثانية في أغسطس ١٩٤٥م، وكان لهذا النهوض أصوله وجذوره الكامنة في النفس اليابانية.

لقد صمم اليابانيون أن يكونوا شيئًا، وأن يصنعوا معجزة بعدما انهارت بلادهم ودُمرت، وكان لهذا التصميم الذي انطلقوا منه ليحققوا بغيتهم قواعده التي قاموا عليها لحلمهم المنشود، فالأمة اليابانية أمة مثقفة وأمة قارئة..إنها القراءة إذن وصحبة الكتاب.. سند اليابانيين وسبيلهم في قيامهم المعجز من ساحة الهزيمة ومستنقع اليأس، إلى آفاق الرقي والإعجاز العقلي، بل كانت النافذة التي أطلوا منها على العالم، ليرى على أيديهم كيف بمقدور الإنسان أن يصنع المعجزات، ويأتي بالخوارق، وأن يحيا من عدم وينهض بعد هزيمة..؟!

حينما قام صديقي الدكتور (حياة الله عتيد) بزيارة لليابان طلبت منه أن يرصد لي أحوال الناس وطباعهم هناك، فكان مما قال لي: عندما ترى اليابانيين في الأماكن العامة في الباصات والقطارات تجد الجميع في صحبة الكتب يقرؤون، حتى أن أحدهم يقرأ وهوواقف

سـواء كانـت صحيفـة أوتـاب أوجهـاز حديـث، وهـذه الظاهـرة منتـشرة بشـكل غـير طبيعـي فـ ٩٩٪ يقـرؤون ولا يضيعـون أوقاتهـم، ولا تجـد منهـم مـن يجلـس عبثًـا، فالـكل في عمـل وشـغل واهتـمام، فـلا تجـد منهـم إنسـانًا عاطـلاً، وقـد رأيـت في المترونسـاءً يحملـن أطفالهـن، الولـد يرضـع.. وأمـه تقـرأ..!

وهـذا هوالـسر في تقـدم اليابانيـين، فهـم مولعـون بالقـراءة عـلى اختـلاف مراحلهـم ومشـاربهم العمريـة وتنوعهـم الوظيفـي، وبالرغـم مـن أن دوام العمـل عندهـم يبلـغ ٠١ سـاعات، إلا أن ذلـك لا يُثنيهـم عـن القـراءة، فهـي غـذاء الـروح وضرورة مـن ضروريـات الحيـاة، حتـى مـع الملهيـات المنتـشرة والتـي تـصرف النـاس عـن الكتـاب كالإنترنـت وأجهـزة الجـوال والألعـاب الالكترونيـة، فإنهـم لا يسـتغنون عـن الكتـاب، وتنتـشر المحـلات التـي تبيـع الكتـب في كل مـكان، وهـي كثـيرة ومتعـددة، تجدهـا في محطـات القطـار والأسـواق والشـوارع، والنـاس يقـرؤون وقوفًـا وجلوسًـا.. منتظـرون أوراكبـون، حتـى سـائق الأجـرة يشـعل النـور ويقـرأ وهوينتظـر الزبائـن، والباعـة في المحـلات لا يفوتـون فرصـة القـراءة حينـما يخلوالمحـل مـن الزبائـن.

تقـول الكاتبـة ريـم خليفـة: (الـشيء الوحيـد الـذي يشـغل اليابانيـين غـير العمـل هوقـراءة الصحـف بشـتى أنواعهـا وهـم الذيـن يعتـبرون أخـذ قسـط مـن النـوم في وقـت الظهـيرة أوإجـازة يعـد بمثابـة عـار وعيـب عـلى الفـرد، وهوالأمـر الـذي كانـت تـردده عـلى مسـامعي صديقتـي اليابانيـة أيـام مقاعـد الدراسـة في لنـدن (مـاي اوكانـو) التـي كانـت

تبهرني بتخصيص ٨٠ في المائة من وقتها يوميًا للقراءة كعادة قسرية تربت عليها وترعرعت عليها منذ صغرها وهوما لمسته فيما بعد عندما زرت بلدها اليابان في العام ٢٠٠١م، فالياباني إما قارئ لكتاب أوصحيفة أومجلة حتى وهوفي القطار عدا طبعًا وقت العمل فهضم المعلومات بشراهة هي مهمة في غاية الأهمية للياباني)٦

وهذه الأخلاق الجماهيرية لايقوم بها شعب من الشعوب إلا حينما يكون لديه كما يقال: استعداد فطري للنهوض، وهي عادة قديمة متأصلة في اليابانيين وليست حديثة أووليدة ظروف معينة، فالشعب الياباني قاريء منذ عقود، ومن قبل أن تصيبه الضربة النووية الأمريكية.. ونستشهد هنا بما ذكره الرحالة التتري المسلم (عبد الرشيد إبراهيم) ذلك في كتابه (العالم الإسلامي) حينما زار اليابان عام ١٩٠٩م، وكتب عنها وسجل مشاهداته، فقال حين ركب الباخرة اليابانية من (فلاديفوستوك) إلى اليابان:

(كانت الباخرة تسير بسرعة اثنى عشر ميلًا في الساعة، لم يعد هناك فرق بين البحارة والمسافرين، كلهم في لباس أنيق، والكل يطالع.. تحولت باخرتنا إلى دار كتب تمدد الناس على سرور أرجاء الباخرة في يد بعضهم كتاب، وفي يد البعض الآخر جريدة، إنهم مشغولون بالمطالعة باستثناء بعض العمال الروس المسافرين إلى أمريكا، فإنهم أسلموا أنفسهم للنوم لأنهم أميون، أما اليابانيون فيمضون كل

6- صحيفة الوسط البحرينية العدد 1469الخميس 14 سبتمبر 2006م الموافق 20 شعبان 1427هـ

أوقاتهـم بالمطالعـة حتـى الطباخـين وموزعـي الطعـام لا ينقطعـون عـن القـراءة) وحينـما ركـب القطـار وأراد الذهـاب إلى يوكوهامـا مـن محطـة (مـاي بـارا) قـال: (تحـرك القطـار في العربـة ثلاثة أوروبيـون وبقيـة الركاب يابانيـون ملابسـهم غريبـة أكثرهـم يلبسـون في أرجلهـم جـوارب بيضـاء وقباقيـب، خلـع الـركاب نعالهـم، فجاءالمسـؤول عـن العربـة بنعلـين لـكل راكـب، وقعـد الـركاب كـما يقعـد أهـل الإسـلام في الصـلاة، وبعـد نصـف سـاعة أكـب الـركاب جميعهـم عـلى المطالعـة، فـكل واحـد تنـاول بيـده جريـدة أوكتابًـا، وتحولـت العربـة إلى مكتبـة متنقلـة، أمـا الذيـن ينظـرون مـن نوافـذ العربـة هنـا وهنـاك فكانـوا ثلاثـة الأوروبيـان وأنـا)

وحينـما زار قريـة يابانيـة لم يكـن الحـال مختلفـا، فالرغبـة في القـراءة والثقافـة هـي هـي التـي تجدهـا في المدينـة حيـث قـال: (إن الفطـور عندهـم في الصبـاح هوقـراءة الصحـف، وإن أفقـر البيـوت عندهم تشـتري أول مـا تشـتري الصحـف حينـما يمـر بائـع الصحـف بالسـيارة في الفجـر..)

كـما يحـرص اليابانيـون عـلى الطفولـة، ويهدفـون إلى بنـاء الإنسـان القـاريء، حتـى تكـون القـراءة في حياتـه عمليـة فطريـة منـذ نعومـة أظفـاره، حيـث يقومـون بترجمـة ٢٠٠ كتـاب مـن الكتـب الجيـدة في أدب الطفـل للغـة اليابانيـة كل عـام، حيـث يسـافر كل عـام فريـق يابـاني متخصـص إلى (معـرض ميونيـخ الـدولي للكتـاب)في ألمانيـا، ويعمـد الفريـق إلى دراسـة جميـع مـا هوموجـود في المعـرض، مـن كتـب الأطفـال، بجميـع اللغـات، ثـم يعـود الفريـق نفسـه إلى بحـث ودراسـة المناسـب منهـا،

لترجمتـه إلى اللغـة اليابانيـة، كي يسـتفيد كل طفـل عـلى أرض اليابـان، فيصبـح ملـمًا بمـا يحصـل عليـه أطفـال العـالم مـن معلومـات.!

وهكـذا تبنـي اليابـان أجيالهـا وتخـرج أطفالهـا.. لقـد جعلـوا مـن الإنسـان شـيئا مبهـرًا؟ وكان الكتـاب سـلاحهم الـذي أعانهـم عـلى قهـر اليـأس والهزيمـة..!

فهـل للمنتكسـين أن يخطـوا خطـوات اليابـان، فيتسـلحوا بالكتـاب ويتـداووا بالقـراءة؟!

والقـراءة لهـا بعـد اجتماعـي.. فالذيـن يقـرؤون هـم مـن يقـودون العـالم، ومـن لا يقـرؤون يرتعـون ذيـولًا للأمـم، حتـى القيـم والأخـلاق تتأثـر بالقـراءة مـن عدمهـا، فـنرى مثـلًا طبقـة العـمال فقـدوا قيمهـم لأنهـم لا يقـرؤون،وفي اليابـان ١٪ فقـط لا يقـرؤون وفي السـويد ٢٪ وفي أمريـكا ٤٪ وفي إسرائيـل ١٣٪، والقصـد بهـذا التعبـير ليـس الشـخص الـذي لا يقـرأ، ولكـن معنـاه: أننـا لوقدمنـا لـه اختبـارًا مقننًـا لا يجيـب فيـه ولا يحصـل عـلى ٧٥٪ منـه، فمسـتوى التمكـن عندهـم يقـل عـن هـذه الدرجـة، وليـس معنـى هـذا أنهـم لا يقـرؤون بتاتًـا، وإنمـا هنـاك تجهيـل بالثقافـة والهويـة والتاريـخ.

أذكـر أن رئيـس ألمانيـا قـال بعـد توحيدهـا: ينبغـي عـلى كل شـاب أن يغـير وظيفتـه ثـلاث مـرات، ولـن يكـون هـذا إلا بالقـراءة في ميادين جديـدة في المعرفـة، وتعلـم مـا يرتبـط بهـذه المعرفـة.!

في عـام ١٩٨٩م أنهـت (كوريـا الجنوبيـة) تنفيـذ المرحلـة الأولى مـن إنشـاء مدينـة (باجـو) للكتـاب الواقعـة عـلى نهـر (هـان) وهـي مدينـة متخصصة في صناعـة الكتـاب عـلى مسـاحة كيلوونصـف، وتُعنَـى بتصميـم وإنتـاج وتوزيـع الكتـاب، وفيهـا أكـثر مـن ١٠٠ بـرج و٢٠٠ دار نـشر، وضمنـت متاحـف وقاعـات ومراكـز ومعـارض وأوجـدت ١٠,٠٠٠ فرصـة عمـل، وبهـا معـرض سـنوي تنظـم فيـه العديـد مـن الفعاليـات، ويزورهـا سـنويا أكـثر مـن ٤٥٠ ألـف زائـر، وتحقـق إيـرادات أكـثر مـن مليـار دولار أمريـكي، سـنويًا ولا تقـوم دولـة متطـورة ومتقدمـة مثـل كوريـا بهـذا العمـل إلا للأهميـة التـي يمثلهـا الكتـاب في نهضتهـا ومسـتقبلها، ومعرفتهـا الجيـدة بأنـه الضـمان لاسـتمرار مـا هـي عليـه مـن تفـوق ومنافسـة عالميـة اقتصاديـا وصناعيًـا.

إن رفـع معـدلات القـراءة الحـرة في المجتمـع هـي الطريـق الأسرع للنموالاقتصـادي لاعتبارهـا مكونًـا رئيسًـا مـن مكونـات التعليـم، وهومـا أكـده معهـد التعليـم بجامعـة لنـدن، والـذي نـشر دراسـة تشـير إلى أن الطـلاب الذيـن يمارسـون القـراءة الحـرة يحققـون نتائـج دراسـية أعـلى بكثـير مـن أقرانهـم الذيـن يكتفـون بقـراءة كتـب التعليـم النظامـي، ولعـل مثـل هـذه الدراسـة تثـير تسـاؤلات هامـة ومحوريـة حـول خطـورة الاكتفـاء بالتعليـم النظامـي عـلى الأجيـال، وأهميـة القـراءة الحـرة للتفوق في التعليـم النظامـي، فضـلًا عـن الإبـداع وتطويـر المهـارات والنجـاح في الحيـاة عمومـا.. !

وأولى بالمجتمعات العربية أن تعد خطة شاملة تعزز فيها من كيان القراءات الحرة بكافة السبل والوسائل وعلى جميع الأصعدة، بداية من تشجيع الأسر على القيام بدورها المحوري في تأهيل الأبناء على حب القراءة والتعود عليها، مرورًا بمؤسسات الدولة وعلى رأسها الإعلام الذي يقع على عاتقه العبء الأكبر في الترويج لهذه المهمة السامية، وانتهاءً بدور وزارات التعليم التي تُعنى بتخصيص حصص ومواد متخصصة للقراءة الحرة، وتقرير رحلات دورية ومتتابعة لمكتبة المدرسة والمكتبات الخارجية ليتعرف الطلاب على رغباتهم في عالم القراءة، ويتولد لديهم الاهتمام اللائق بها وهوما أخذت به كثيرٌ من دول العالم تجاه أجيالها ومواطنيها..!

لقد ألقى (وارن بافيت) أحد أكبر مستثمري القرن العشرين محاضرة أمام ١٦٥ طالبًا في (جامعة كولومبيا)، فسأله أحد الطلبة عن أفضل وسيلة للبدء في مشروع استثماري، فأخرج (وارن) مجموعة كبيرة من الأوراق والتقارير وأخبره بأن يقرأ ٥٠٠ صفحة كهذه كل يوم لبناء قاعدة معرفية، وأجزم (وارن) بأن الجميع يمكنه فعل ذلك، ولكن لن يقوم به إلا القليل..!

لقد سئل (فولتير) عمن سيقود الجنس البشري؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرؤون.؟!

ويقـول (أرنولـد توينبـي): إن ارتفـاع نسـبة قـراء الكلمـة المطبوعـة هوالأسـاس الحضـاري لتصنيـف البلـدان في العـالم إلى دول متخلفـة أونامية أومتقدمـة..!

وهنـا لابـد مـن وقفـة قرءانيـة نتأمـل فيهـا قـول اللـه سـبحانه (اقـرأ وربـك الأكـرم).. لـنرى الإشـارة الواضحـة لمعـالم النهـوض، والـسر الجـلي لـكل مـن أراد الرقـي.. لقـد أجمـع المفـسرون أن الأمـر بالقـراءة في الآيـة المباركـة ليـس خاصـا بـه ﷺ وحـده، وإنمـا هوعـام لـكل مسـلم يؤمـن بالإسـلام، فالقـراءة إذن سـمة إسـلامية وأمـر رباني..!كـما أننـا نعلـم يقينًـا أن ألفـاظ القـرءان الكريـم لا تـأتي عبثًـادون دلالـة، وإنمـا يـدل كل لفـظ فيـه عـلى معنـى دقيـق أراده اللـه تعـالى وأظهـره للمتأملـين..

وهنـا كان ولابـد لنـا أن نتسـاءل.. لمـاذا جـاء الأمـر بالقـراءة مصحوبًـا بقولـه تعـالى (وربـك الأكـرم)؟! لمـاذا الأكـرم تحديـدًا..ولم يـأت بكلمـة أخـرى كالأعلـم أوالأفضـل أوالأعظـم ؟!

وحسـب مـا قـال المتأملـون: فـإن هـذا الاقـتران فيـه إشـارة قويـة، وإشـعارٌ هـامٌ، يلفتنـا إلى أن القـراءة طريـق الكرامـة والزعامـة والسـيادة، والسـبيل الـذي ينـال بـه كـرم الـرب وغنـاه وتفضيلـه.. وهواقـتران متـلازم شـهد بـه التاريـخ ودل عـلى معنـاه.. فاليونانيـون كانـوا أكـثر النـاس قـراءة وكتابـة حينـما كانـت حضارتهـم مـلء السـمع والبـصر، فنالـوا كـرم الـرب وصـاروا زعـماء العـالم وقادتـه، واسـتطاعوا السـيطرة عـلى أكـبر رقعـة في العـالم مـن الهنـد إلى مـصر.. أمـا المسـلمون الذيـن انطلقـوا مـن كلمـة (اقـرأ) فكانـت

لهـم السـيطرة عـلى العـالم القديـم بعـد أن قوضـوا عـروش الظالمـين ونالـوا كـرم اللـه مـن سـعة الدنيـا والملـك العريـض، وفي العـصر الحديـث وفي أيامنـا الماثلـة، لا يتمتـع بخـيرات العـالم ولا ينـال الكرامـة والتفضيـل والزعامـة فيـه، إلا الشـعوب القارئـة والأمـم المطلعـة.!

أمة القراءة

ألا تراه غريبًا..أن تكون معجزة الاسلام الكبرى في كتاب يُقرأ ؟

ألا تراه مثيرًا.. أن يكون أول ما نزل من الإسلام قوله تعالى..(اقرأ)!

ألا تـراه يسـتدعي التفكـير أن يكـون عنـوان الكتـاب الإلهـي مشـتق مـن مـادة القـراءة..!

ألا تـراه يسـتحق التأمـل قولـه تعـالى (الحمـد للـه الـذي أنـزل عـلى عبـده الكتاب)وهـي النعمـة العظيمـة التـي رأى اللـه تعـالى أن البـشر مهـما حمـدوه عليهـا فلـن يبلغـوا قدرهـا فكفاهـم مؤونـة حمـده.. فحمـد نفسـه بنفسـه..؟!

ألا يثـير خواطـرك نـزول الوحـي عـلى محمـد ﷺبقولـه: (اقـرأ) فـيرد عليـه: مـا أنـا بقـاريء، فيعيـد عليـه الوحـي ثانيـة: (اقرأ)،فـيرد: مـا أنـا بقـاريء! فيلـح عليـه مـرة ثالثـة (اقـرأ باسـم ربـك الـذي خلـق)..!

فـإن كنـت اليـوم لا تقـرأ وتحتـج بـأن مـن كان أفضـل منـك لا يقرأ..فـلا تنـس أوتتغافـل أن الوحـي ألـح عليـه حتـى عـرف مـا يقـرأ..!

إنهـا دلائـل دقيقـة، وإشـارات لطيفـة، تنطـق بقيمـة القـراءة وأهميـة الكتـاب، ومكانتـه في هـذا الديـن وهـذه الأمـة.. دلائـل وإشـارات تـكاد تنادينـا بصوتهـا العـالي، وتسـتنهض هممنـا بهتافهـا المـدوي:

عودوا إلى القراءة يا أمة القراءة..!

يقول تعالى: (اقرأ وربك الأكرم)

ويقول سبحانه: (ن والقلم وما يسطرون)

لقد كان الأمر بالقراءة أول التعاليم التي استهلت به الرسالة الخاتمة مسيرتها في الحياة، ثم جاء القسم بآلة تحصيلها وهوالقلم، بعد الإشارة إليها في سورة العلق

لقد دعى الإسلام إلى القراءة، وحض عليها، ومعنى أن تكون القراءة أول لفظة نطق بها وحيه، وأول لفظ جاء في قرءانه، فإن هذا له معنى عميق يشير بأن هذه الأمة هي أمة القراءة وأمة القلم وأمة العلم وأمة المعرفة..

لقد نزلت (اقرأ) قبل الأمر بتبليغ الرسالة والقيام بالدعوة في قوله تعالى (قم فأنذر) والتي هي مهمة الأنبياء الأولى، وكذلك نزلت قبل الأمر بالعبادة في قوله تعالى: (قم الليل إلا قليلًا)

فلم يقل له: اعبد أواذكر أوتأمل أواخشع، وإنما كانت (اقرأ)..

لقد دعى الإسلام للعلم وحض عليه فقال تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)وهواستفهام إنكاري يحرض على طلب العلم من المهد إلى اللحد فرارًا من الجهل والتراجع والتخلف..!

كما بين الله تعالى أن أخشى الناس منه وأكثرهم معرفة به هم

العلـماء، أي العلـماء بـه وبجلالـه وعظمتـه، قـال تعـالى: (إنمـا يخـشى اللـه مـن عبـاده العلـماء)، وإذا كان العلـم بهـذا القـدر العظيـم، وإذا كانـت القـراءة سـبيل ذلـك العلـم وطريـق تحصيلـه، فنحـن إذن مأمـورون بالقــراءة .!

ويعلمنـا رسـولنا الكريـم ﷺ أن العلـم والقـراءة، مسـؤولية عامـة وشـاملة، مسـؤولية العـالِم والمتعلـم، حتـى يحقـق الجميـع غايتـه المنشـودة ورغبـة هـذا الديـن في رقـي هـذه الأمـة وريادتهـا يقـول ﷺ:(مـا بـال أقـوام لا يفقهـون جيرانهـم، ولا يعلمونهـم ولا يعظونهـم ولا يأمرونهـم ولا يفهمونهـم، ومـا بـال أقـوام لا يتعلمـون مـن جيرانهـم ولا يتفقهـون ولا يتعظون..واللـه ليعلمـن قـوم جيرانهـم ويفقهونهـم ويعطونهـم ويأمرونهـم وينهونهـم، وليتعلمـن قـوم مـن جيرانهـم، ويتفقهـون ويتعظـون أولأعاجلنهـم بالعقوبـة)٧

والحديـث الشريـف دعـوة نبيلـة إلى لـون جديـد مـن التكافـل الاجتماعـي عـن طريـق العلـم يـوازي ويشـبه تمامـا مـا قـرره مـن التكافـل عـن طريـق الـزكاة.. !

وإذا كانـت تُبهرنـا الأمـم الغربيـة في حضهـا عـلى العلـم، وحـث مجتمعاتها عـلى القـراءة والمطالعـة، فأيـن هـم مـن هـذا التوجيـه المحمـدي المبـارك، الـذي سـبقهم بـه أعظـم مصلـح في التاريـخ؟!

7 – رواه الطبراني في الكبير

لقد كان الإمام (حسن البنا) رحمه الله حريصًا على أن يكون لكل داعية مكتبته الخاصة لأنها العدة والزاد في مسيرته الدعوية، فالداعية بدون كتاب، داعية على جهل، ومثله يفسد أكثر مما يصلح... بل كان رحمه الله يوجه أتباعه لكتب بعينها ويسميها لهم كما فعل في كتاب (حماة الإسلام) لمصطفى نجيب، ولا شك أن هذا التشجيع، ساق الجماعة ليخرج منها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والمثقفين.!

لا تحسبن القراءة وأثرها.. كشفًا حديثًا تميز به عصرنا عما سبق من العصور السالفة، أوأنه سر توصلنا إليه في زمننا الحاضر ضمن ما تم كشفه من عجائب ومخترعات ونظريات، فالمجتمعات القديمة كانت تدرك هذا السر وتشجع عملية القراءة، لما تنتجه وتخلفه من نهوض وتطور وإفادة هامة للحياة والأحياء.

يحكى أن أول مكتبة وضعها الفراعنة كتبوا على بابها: (هذا غذاء النفوس وطب العقول)..ومن هذا العنوان الفريد، يظهر إيمانهم الكبير وإدراكهم الواعي بقيمة القراءة في حياة الإنسان.!

إن الأمم الذكية تُنمي في أفرادها حركة العلم، وتدفع نشاطهم المعرفي، وتسهل كل طريق إليه، وذلك عبر الاهتمام بالقراءة والتشجيع عليها، أما تلك الأمة العظيمة التي كانت حضارتها منبع العلم الحديث ونواته المحركة، فإنها لم تكن تشجع على القراءة فحسب، وإنما كانت تقدسها، فيكفيك منها ما أشرنا إليه أن أول كلمة نزلت في كتابها المقدس هي كلمة (اقرأ) وهوالبعد الذي أدركته الأمة فزاد اهتمامها

بالعلـم والتعلـم والكتـب والقـراءة، التـي طورتهـا وجعلـت منهـا أمـة رائـدة وحضـارة قائـدة..!

ثــم مــاذا يســتقر في نفســك مــن قيمــة القــراءة في تراثنــا وحضارتنــا وعقيدتنـا، حينـما تعلـم موقـف الرسـول ﷺ في فـداء أسرى بـدر، لقـد كان المحاربـون يبتـزون بالمـال والمعاهـدات والـشروط المذلـة، أمـا رسـول اللـه ﷺ فقـد جعـل فـداء الأسـير لنفسـه وحياتـه أن يُعلـم القـراءة والكتابـة لعـشرة مـن أبنـاء المسـلمين ؟!

لأنهـا أمـة وليـدة تريـد أن تسـابق الزمـن في النهـوض والقيـادة والظهـور، ليـس اعتـمادا عـلى السـيف.. وإنمـا اعتـمادا عـلى خلـق جيـل قـاريء مطلـع.. شـغوف بالعلـم والمعرفـة.

لقـد كان الصحـابي الـذي يقـرأ، مقدمًـا عـلى الـذي لا يقـرأ، وينـال مـن صحبـة الرسـول وملازمتـه مـا لا ينالـه غـيره.. ! وهومـا حـدث للصبـي (زيـد بـن ثابـت) الـذي قُـدم عـلى كثـير مـن الأصحـاب الكبـار وصـار مـن كتـاب الوحـي..!

وفي تاريـخ المسـلمين كانـت المكتبـات الإسـلامية يتحـاكى بهـا الزمـن في عظمتهـا وإحاطتهـا ونظامهـا، فقـد كانـت منبـع المعرفـة ومصـدر القـوة والنهـوض.. !

وكان (عمـر بـن الخطـاب) رضي الله عنه يُعنـي بالعلـم، ويـدرك أن القـوة أساسـها التعلـم والمعرفـة حيـث أجلـس (عامـر بـن فهـيرة) ليعلـم الأطفـال، وحثـه

أن يلقـن الفهيـم -أي الـذكي- مـن غـير درس، وأن يكتـب للبليـد عـلى لـوح، وتطـورت الكتاتيـب والمـدارس النظاميـة، وبـدأ الفقهـاء يتكلمـون عـلى إلـزام المعلمـين، وأولهـم (أبوالحسـن ابـن محمـد القابـسي) المولـود عـام ٤٢٣هــ الـذي وضـع مصنفـه الرائـع (أحـوال المعلمـين والمتعلمـين) تحدث فيـه عـن إلـزام التعليـم ومـما قـال فيـه:

(إن إلـزام التعليـم خطـاب للمجتمـع والتعليـم لجميـع الشـعب، وتعليـم جميـع الصبيـان واجـب ضروري وشرعـي، وذلـك لأن معرفـة العبـادات واجبـة، ومعرفـة القـرآن واجبـة للصـلاة، والوالـد مكلـف بالتعليـم، وإذا لم يقـم قـام شـيخ الكتـاب بذلـك، وإذا لم يسـتطع الوالـد لقلـة الإنفـاق.. فعـلى ولي الأمـر القيـام بذلـك، والحـكام آثمـون لأنهـم يقـصرون في تعليـم النـاس) وهـوذات الـكلام الـذي أشـار إليـه ابـن رشـد والغـزالي.

لقـد كان لأمتنـا تاريـخ حافـل مـع الكتـاب والعنايـة بـه، وإيجـاد مكانـة تليـق بـه كرافـد مـن روافـد تقدمهـا وظهورهـا وقيادتهـا للعـالم وهومـا رصـده الباحـث الفرنـسي الشـهير (غوسـتاف لوبـون) في كتابـه (حضـارة العـرب) مندهشـا مـن همـة أمتنـا وإقبالهـا عـلى العلـم والتعلـم فيقـول:

(والإنسـان يقـضي العجـب مـن الهمـة التـي أقـدم بهـا العـرب عـلى البحـث، وإذا كانـت هنـاك أمـم تسـاوت هـي والعـرب في ذلـك، فإنـك لا تجـد أمـة فاقـت العـرب عـلى مـا تحتمـل، والعـرب كانـوا إذا مـا اسـتولوا عـلى المدينـة صرفـوا همهـم إلى إنشـاء مسـجد وإقامـة مدرسـة فيهـا، وإذا مـا كانـت تلـك المدينـة كبـيرة أسسـوا فيهـا مـدارس كثـيرة، ومنهـا المـدارس

العشرون التي روى (بنيامين التطلبي) المتوفي سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة إلخ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة، ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلدا من الفهارس كما روى مؤرخوالعرب، وقد قيل بسبب ذلك: إن شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من ٩٠٠ مجلد يكاد ثلثها يكون خاصا بعلم اللاهوت)

وقد قرأت فصلًا رائعًا عن رحلة العرب والمسلمين مع الكتاب، ألقى بظلاله على حب المسلمين للعلم والاطلاع وشغفهم بالكتب إلى درجة بعيدة المدى، وهوالذي أهلهم أن يصنعوا حضارة لا مثيل لها في دنيا الناس.

فقد كان العرب في أول أمرهم وهم يشقون طريقهم للقراءة والتدوين قد دونوا بعض الأحاديث النبوية والآيات والصور القرآنية والأشعار على رقع الجلد أوصفائح العظم أوألواح الخشب، ولم تكن قد عرفت بينهم حركة التدوين أوالتأليف، وتمر أيام الإسلام ويأتي معاوية رضي الله عنه حينما ولي دمشق، وكان من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة، فترجم له طبيبه (ابن أثال) بعض الكتب في الطب ومجالات أخرى من الفارسية وغيرها من لغات الأمم السالفة، ثم قام الراهب

(أصفهان) القديم بعدها بفترة يسيرة بترجمة كتب في الطب والفلك والكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية.. وفي عهد (مروان ابن الحكم) تمت ترجمة كتاب(الطبيب أهرن)٨، الذي كان مرجعًا طبيًا مهمًا، وتوالت عملية الكتب والمخطوطات والترجمات حتى جاء عهد (عمر بن عبد العزيز) لتنشط حركة التدوين والتأليف في الميدان الديني في تدوين السيرة والأحاديث النبوية الشريفة، وجوانب من تراث العرب وأشعارهم ومواقفهم في رقائق غير منظمة ولا يضمها كتاب جامع ينتهج الوحدة الموضوعية، كما تم التدوين كذلك في موضوعات علمية متنوعة من طب وفلك وأدب وشعر، ولكنها كانت يسيرة حتى جاء عصر النهضة العلمية في العصر العباسي وبعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية وتم الاحتكاك المباشر بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى، وكان الدافع المباشر لهذه الحركة هواهتمام الإسلام نفسه بالعلم والتعلم، فاهتم أفراد المجتمع المسلم بالكتاب والقراءة، ونقل وترجمة مختلف العلوم والكتب التي تقع في أيديهم، ولقد كثر في هذا الزمان عدد من العلماء والأدباء والشعراء والقادة والولاة والمؤرخين والأطباء والشعراء، وكان عصر النبوغ والتفتق الذهني، كما كان المسلمون في هذا الوقت أكثر انفتاحًا على غيرهم، وتدفعهم

8- وهوأهرن القس طبيب نصراني تعلم الطب في الإسكندرية وكتابه عبارة عن كناش جمع فيه أوراق جعلت كالدفتر تُقيّد فيها الفوائد والشوارد في الطّبّ، يتألّف مِن ثلاثين مقالة ومؤلَّف باللغة اليونانية، وضاعت أصول هذا الكُنّاش، ولم ينتهِ إلينا منهاإلاّ تلك النقول التي نثرها الطبيب أبوبكر الرازي (ت٣١١هـ) في كتابه، واكتسب كُنّاش أَهْرُن أهميّة لأنّه أوّل كتابطبي ترجم إلى العربيّة..

المعرفـة لاكتشـاف الآخـر والتطلـع لما عنـده مـن ثقافـة ومعرفـه وتـراث كبـير..

وفي أيـام المنصـور اسـتدعي الطبيـب (جورجيـس بـن بختيشـوع) لعلاجـه بعـد أن اسـتاء وضعـه الصحـي عـلى يـد الأطبـاء المسـلمين، وكان هـذا الطبيـب يصحـب معـه بعـض الكتـب الطبيـة، فرآهـا المنصـور وطلـب منـه أن يترجمهـا، وكان هـذا فتحـا كبـيراً وجديـدًا وبدايـة لنهضـة رسـمية تتولاهـا الخلافـة لإنعـاش الحركـة العلميـة، حيـث أنشـأ المنصـور خزانـة للكتـب حـوت كل مـا ترجـم وكثـيراً مـما ألـف ومـا أهـدي إليـه، ومـا جـيء بـه مـن أطـراف الدنيـا مـن كتـب في مختلـف الفنـون، وكان مـن بينهـا كتاب(كليلـة ودمنـة) وكتـاب إقليـدس في الهندسـة وغيرهـا.

إلى أن وجـد المنصـور أن خزانـة كتبـه صـارت ضيقـة ولا تتسـع لمـا جمعـه مـن كتـب، كـما كانـت تضيـق بمـن يزورهـا مـن العلـماء والباحثـين والقـراء والمطلعـين، فأمـر أن يفـرد لهـا مبنـى خـاص وأخرجـت خزانـة الكتـب مـن دار الخلافـة وأصبـح لهـا مكانهـا الخـاص الـذي يضـم قاعـات للتعليـم والمطالعـة.!

لقـد كانـت صحـوة كبـيرة في هـذا الميـدان فالأمـة العربيـة توجهـت مـن فتوحـات السـيف إلى فتوحـات القلـم والعلـم والكتـاب وكـما قيـل: يبدوللمطلـع عـلى كتـب التاريـخ التـي أرخـت لتلـك المرحلـة أن العلـوم والفنـون والكتابـة والنسـخ قـد غـدت مرضـا بـل وبـاء أخـذ بالانتشـار بسرعـة، ومـا مـن شيء يعيـق سـيره.

ونعبر عصر المنصور الذي أسس لحركة التأليف والترجمة، وكانت خزانة كتبه هي البداية القوية لاهتمام العرب بالكتاب، وتحقيق معنى كون هذه الأمة هي أمة القراءة والكتاب، إلى عصر المأمون لنرى الاهتمام الكبير بالكتب والعلم والترجمة، فقد أرسل إلى ملك الروم وفدا محملا بالهدايا الثمينة يرأسه الحجاج بن مطر ويوحنا البطريق ليطلعوا على خزائن كتب ملك الروم ويحملوا منها ما يرونه مناسبا، فرجعوا من رحلتهم العلمية الكشفية، بكم عظيم من الكتب في نواح متعددة من فنون العلوم، ومنها كتب لأفلاطون وأرسطووأبقراط وجالينوس وإقليدس وغيرهم من علماء اليونان.

وعندما تحقق النصر للمسلمين على ملك قبرص، هادنه المأمون وجعل من ضمن شروط الصلح أن يتخلى الملك القبرصي عن خزانة كتب اليونان التي بحوزته، فانصاع الملك القبرصي لذلك، ومما يرى: أن فرحة المأمون بتلك الكتب كانت توازي فرحته بالنصر الذي حققه الجيش.! وقد وصف القلقشندي دار العلم هذه بقوله: (كان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة، ولا تقوم عليه نفاسة، ولم تزل كذلك حتى دهمت التتر المغول بغداد) وكانت النهاية المؤسفة والمأسوية التي يئن لها تاريخ المعرفة والثقافة.

ولم تكن دار العلم والحكمة مقصورة على بغداد وإنما كان هناك مثيلاتها في كل مصر من الأمصار وهوتوجه عام للدولة، ولذلك العصر.. حتى أن الفاطميين أنشأوا مكتبة كبيرة أطلقوا عليها نفس

الاسم، نقل إليها الحاكم بأمر الله الفاطمي من خزانة كتبه الخاصة وخزائن الأمراء ما يقارب ٦٠٠ ألف مجلد ليصل مجمل مجلداتها على مليون ونصف مليون مجلد.

كما روى القفطي على لسان ابن سينا لدى دخوله مكتبة (منصور بن نوح) سلطان بخارى: (فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، في كل بيت كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد)كما أنشئت في بغداد وبجوار دار العلم والحكمة فيما بعد مكتبات عدة مثل مكتبة دار العلم التي أنشأها البويهيون عام ٣٣٨هـ، ومكتبة المستنصرية ومدرستها التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله، وكان إلى جانب هذه المكتبات الرسمية أوالتابعة للحكام مكتبات خاصة كثيرة وضخمة تفتح أبوابها لطلاب العلم، وتقوم كذلك بالدور نفسه في جمع الكتب من كل مكان وترجمتها ونسخها ونشرها على غيرها من المكتبات في دور الخلافة، حتى يعم النفع والفائدة، ومنها مكتبة أبناء شاكر التي ضمت ذخائر الكتب التي بذل أصحابها من أجلها مبالغ طائلة، ومكتبة الطبيب أمين الدولة بن غزال الذي بلغ عدد كتبه٢٠,٠٠٠ مجلد ومكتبة الطبيب أمين الدولة ابن التلميذ والتي نقلت بعد وفاته على ٢١ جملا إلى دار المجد بن الصاحب ومكتبة الطبيب أفرائيم بن الزفان في مصر حيث ترك بعد وفاته أكثر من ٢٠,٠٠٠ مجلد، ومكتبة الشريف الرضي ومكتبة أبي نصر سابور بن أردشير وغيرها من المكتبات التي لا تعد ولا تحصى.

وفي هـذا الزمـان لم تكـن حركـة التأليـف موقوفـة عـلى المسـلمين وحدهـم، وإنمـا اصطبـغ العـصر كلـه بتلـك السـمة، فظهـرت كتـب لمـن يعيشـون في دار الخلافـة ولا يدينـون بالإسـلام، فألفـت كتـب عـن الديـن المسـيحي وعقيــدة التثليــث وكتــب حــول الديانــات غــير الســماوية وشرحــت عقائدهــا.

.وفي أيـام السـعديين بالمغـرب كان المنصـور الذهبـي مولعًـا باقتنـاء الكتـب وجمـع منهـا خزانـة عظيمـة، وسـار خلفـه ابنـه زيـدان عـلى سـنته في الاهتـمام بالكتـب، فنمّـى الخزانـة التـي كانـت عنـد والده.ولمّـا قـام عليـه أحـد أقاربـه واضطـرّ للفـرار كان أوّل مـا فكـر فيـه خزانـة كتبـه فوضعهـا في صناديـق ووجّههـا الى مدينـة آسـفي لتشـحن في سـفينة كانـت هنـاك لأحـد الفرنسـيين لينقلهـا الى أحـد مـراسي سـوس. فلـمّا وصلـت السـفينة انتظـر رئيسـها مـدّة أن يدفـع لـه أجـرة عملـه، ولمـا طـال عليـه الامـر هـرب بمركبـه وشـحنته الثمينـة، فتعـرض لـه في عـرض البحـر قرصـان إسـباني وطـارده حتّـى إسـتولى عـلى المركـب الفرنـسي وأخـذ الصناديـق، فلـمّا فتحوهـا ولم يجـدوا بهـا الا الكتـب، فكـروا، مـن حسـن الحـظ أن يقدّموهـا هديـة لملكهـم. ولمـا وصلـت هـذه الكتـب الى الملـك فيليبـي الثـاني، الـذي كان منهمـكا في بنـاء الديـر الفخـم للقدّيـس «لوريـنثـو» بالمحـل المسـمّى الإسـكوريال أوقفهـا عـلى هـذا الديـر، وهـي التـي لا تـزال إلى اليـوم موجـودة بـه، ويقصدهـا العلـماء مـن كل الأقطـار للإسـتفادة مـن ذخائرهـا ونفائسـها الثمينـة .

أما فيما كان يبذل للعلماء لدى تأليفهم كتشجيع لهم ولغيرهم، فكان شيئًا لم نسمع به من قبل في أمة من الأمم، فقد روى المؤرخون أن حنين بن إسحاق كان يتقاضى من الخليفة المأمون وزن ما يقوم بترجمته ذهبا مثلا بمثل، ولذلك كان يختار من الورق أثقله ويفسح ما بين الكلمات ما استطاع.

ويقول الطبيب (جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع): (صنفت مئتي ورقة أخذت عنها ألف دينار).

ولنا أن نقول: بأن كل هذه المكتبات والحركة العلمية الزاهية الزاهرة، كانت البذور الأولى لتكوين جيل عظيم من العلماء ورواد المعرفة الذين قادوا ركب الحضارة والتقدم، ووضعوا أسس العلوم التي قامت عليها الحضارة الحديثة، وما أروع أن تعرف الأجيال الناشئة ويقرر عليهم في مناهج التعليم سفرا يضم حياة هؤلاء وجهودهم وما قدموه للدنيا وكيف أضاؤوا للعالم دروب الجهالة والظلام.؟

نحتاج للأجيال أن تعرف الخوارزمي وجابر بن حيان وابن نفيس والإدريسي وابن طفيل وابن رشد والطوسي وابن خلدون وغيرهم كثير ممن وضعوا أسس الحضارة في كتبهم، فاستكملت أوروبا مشوارهم العلمي..أما نحن فتراجعنا وأصابتنا غيبوبة مزمنة..!

ومن باب الأمانة لابد أن نذكر هذا التحول الخطير في حياة هذه الأمة وكيف كانت قبل هذه الموجة العاتية من ولعها بالكتب والمكتبات..

هل كانت هذه الروح وهذا الشغف له جذوره قبل مجيء الإسلام أوفي بداياته.. والحق أن الدارس والمتابع لتلك الفترات ليجدن موقفا مختلفا تمام الاختلاف ولكنه اختلاف له أسبابه وظنونه وتداعياته..

وإنك لتعجب من هذه الأمة حينما تقارن بين سلفها وخلفها.. فمع هذا الشره في حب الكتب والمكتبات كان لها قديمًا موقفها السلبي الذي رفضت معه كل محاولة للتدوين، وحذرت فيه من كل صحيفة مكتوبة..ولم يكن ذلك بُغضًا للعلم أوإلفا للجهل، وإنما كانت لها ظروفها الخاصة وملكتها التي حباها الله بها.. كما كان لها تصورها الذي تعذر فيه..

فالرسول ﷺ يقول: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)٩

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنا لا نكتب العلم ولا نُكتبه)١٠

وهي نصوص تقرر بأمية الأمة التي ظهر فيها الإسلام، فكانت وسائلهم العلمية تعتمد على الحفظ الذي رفعوا من شأنه ومجدوه حتى أنه كان الوسيلة في تحمل الرواية ونقل الحديث النبوي الشريف، وقد ذم بعض الصحابة كتابة الحديث نفسه.. حيث روي عن أبي نضرة قال: (قيل لأبي سعيد: لوأكتبتنا الحديث .فقال: لانكتبكم، خذوا عنا كما أخذنا عن نبينا ﷺ)

9 - رواه ابن ماجة وأبوداود والنسائي
10 - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

وكان ابـن عبـاس ينهـى عـن كتابـة العلـم ويقـول: (إنمـا ضـل مـن كان قبلكـم بالكتـب)

وقال أعرابي: (حرف في تاموركِ خير من عشرة في كتبك) .

وهـذه العـادة كانـت مشـهورة عنـد العـرب فـكان منهـم مـن يحفـظ أشـعار غـيره بسـمعة واحـدة وقـد جـاء أن (ابـن عبـاس) حفـظ قصيـدة (عمـر بـن أبي ربيعـة): أمـن آل نعـم أنـت غـاد فمبكـر) في سـمعة واحدة، وقـد دفعهـم إتقانهـم لهـذه الملكـة أن يحتقـروا كتابـة العلـم في قراطيـس وتوارثـه المسـلمون في صـدر الإسـلام

حتـى أن عليـا ﷺ كان يخطـب يومـا ويقـول: (أعـزم عـلى كل مـن كان عنـده كتـاب إلا يرجـع فمحـاه، فإنمـا هلـك النـاس حيـث تتبعـوا أحاديـث علمائهـم وتركـوا كتـاب ربهـم وعـن أبي بـرده ابـن أبي مـوسى الأشـعري قـال: (كتبـت عنـد أبي كتابـا كبـيرًا فقـال إءتنـي بكتبـك، فأتيتـه بهـا فغسـلها)

وعنـه أيضـا:كان أبومـوسى يحدثنـا بأحاديـث فقمنـا لنكتبهـا فقـال: أتكتبـون مـا سـمعتم منـي ؟ قلنـا: نعـم قـال: فجيئـوني بـه، فدعـا بمـاء فغسـله، وقـال: (احفظـوا عنـا كـما حفظنـا).

وغـير هـذا مـن النصـوص التـي وردت في التحذيـر مـن التدويـن والكتابـة ولأن الحفـظ عندهـم كان سـمة تميـزوا بهـا.. ومـع تغـير الأزمـان واختـلاف الطبـاع والاحتـكاك بالأمـم تطـورت الفكـرة، وعـرف العـرب النسـخ

والكتابـة والتدويـن.. كـما كانـوا يرفضـون أي كتـاب آخـر غـير (القـرآن الكريم)لتهتـم بـه النفـس وتعنـى بـه همـة القـاريء..!

عشاق القراءة

تعالـوا بنـا نعايـش بعـض العاشـقين، ونـرى مـن غرائـب عشـقهم وهيامهم مـا فاقـوا فيـه عشـاق النسـاء، والمتغزلـين بسـحر المـرأة ومفاتنهـا وخطوتها وحركتهـا ونظرتهـا وهمسـتها،كانت القـراءة هـي العمـل الـذي يصبحـون عليـه ويمسـون، ويقومـون ويقعـدون، وكان أحدهـم يسـتطيع أن يفـارق زوجـه وأبنـاءه.. لكنـه أبـدًالا يسـتطيع أن يفـارق كتابـه، فهوصاحبـه وأنيسـه، وجليسـه ولصيقـه، الـذي لا يتركـه في حلـه أوترحالـه، وصحـوه أومنامـه.

كان للجاحـظ منـذ نعومـة أظفـاره ميـل واضـح ونـزوع عـارم إلى القـراءة والمطالعـة حتـى ضجـرت أمـه وتبرمـت منـه، وظـل هـذا الميـل ملازمًـا لـه طيلـة عمـره، حتـى أنـه اشـتهر عنـه أنـه لم يكـن يقنـع أويكتفـي بقـراءة الكتـاب والكتابـين في اليـوم الواحـد، بـل كان يكـتري دكاكـين الوراقـين ويبيـت فيهـا للقـراءة والنظـر..!

وأورد (ياقـوت الحمـوي) قـولًا لأبي هقـان، وهومـن معـاصري الجاحـظ ومجالسـيه مـا يـدل عـلى نهـم الجاحـظ بالكتـب وقراءتهـا، حيـث يقـول فيــه: (لم أر قــط ولا ســمعت مــن أحــب الكتــب والعلــوم أكــثر مــن الجاحـظ، فإنـه لم يقـع بيـده كتـاب قـط إلا اسـتوفى قراءتـه كائنًـا مـا كان ولا عجـب إذ ذاك في أن يفـرد الصفحـات الطـوال مـرات عـدة في كتبـه، للحديـث عـن فوائـد الكتـب وفضائلهـا ومحاسـنها)، لقـد كان كـما قيـل:

أشبه بآلة تصوير، فليس هناك شيء يقرأه إلا وينطبع في ذهنه ويظل في ذاكرته آمادًا طويلة .!

لقد طلب العلم في سن مبكر، فقرأ القرآن وتعلم مباديء اللغة، ولكن اليتم والفقر كان حائلًا منعه من التفرغ للعلم وطلبه، فلم يجد إلا أن يبيع السمك والخبز بالنهار ويكتري دكاكين الوراقين في الليل، فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته، حتى كان السبب في موته هوسقوط محبوبته عليه، وهي المكتبة بما فيها من كتب ومخطوطات.

بل كان من الذين يرون في إنفاق المال على الكتب، لذة لا تعدلها لذة إذ يقول في الحيوان: (من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه)

وقال (سليمان الحموي) أحد شيوخ ابن حجر:

وقائلة أنفقت في الكتب ما حوت

يمينك من مال فقلت دعيني

لعلي أرى فيها كتابًا يدلني

لآخذ كتابي آمنًا بيميني

ولـك أن تتخيـل أن يصـل هـذا النـوع الخطـير مـن العشـق بأصحابـه إلى حـد المـرض وهومـا حـكاه (ابـن القيـم الجوزيـة) رحمـه اللـه عـن شـيخ الإسـلام (ابـن تيميـة) قـدس اللـه سره حيـث قـال:

(وحدثنـي شـيخنا قـال: ابتـدأني مـرضي، فقـال لي الطبيـب: إن مطالعتـك وكلامـك في العلـم يزيـد المـرض! فقلـت لـه: لا أصـبر عـلى ذلـك وأنـا أحاكمـك إلى علمك..أليسـت النفـس إذا فرحـت وسرت وقويـت فدفعـت المـرض فقـال: بـلى !فقلـت لـه: إن نفـسي تـسر بالعلـم فتقـوى بـه الطبيعة فأجـد راحـة، فقـال: هـذا خـارج عـن علاجنـا)١١

ووصفـه تلميـذه (ابـن عبـد الهـادي) في العقـود الدريـة بقولـه: (لا تـكاد نفسـه تشـبع مـن العلـم، ولا تـروي مـن المطالعـة، ولا تمـل مـن الاشـتغال ولا تـكل مـن البحـث، وقـل أن يدخـل في علـم مـن العلـوم في بـاب مـن أبوابـه، إلا ويفتـح لـه مـن ذلـك البـاب أبـواب، ويسـتدرك أشـياء في ذلـك العلـم عـلى حـذاق أهلـه)

وقـال عنـه الشـيخ (محمـد خليـل هـراس): (كان لابـن تيميـة بـصر نافـذ، ونفـس طُلعـة لا تـكاد تشـبع مـن العلـم ولا تـكل مـن البحـث، ولا تـروي مـن المطالعـة، مـع التوفـر عـلى ذلـك وقطـع النفـس لـه وصرف الهمـة نحـوه، حتـى أنـه لم ينقطـع عـن البحـث والتأليـف طيلـة حياتـه في الشـام أوفي مـصر، في السـجن أوفي البيـت، بـل إنـه كان يتوجـع ألمـًا وحـسرة حينـما أخرجـوا الكتـب والأوراق مـن عنـده في أخريـات أيامـه)١٢

11 - روضة المحبين لابن القيم

12 - ابن تيمية السلفي – الدكتور محمد خليل هراس

كـما كان (ابــن الجــوزي) عصيًــا في عشــقه.. فقــد ســجل حالــه وصــور هيامــه ونفســه الطويــل في القــراءة في كتابــه الجليــل (صيــد الخاطــر) فـكان مـما قـال:(وإني أخـبر عـن حـالي: مـا أشـبع مـن مطالعـة الكتـب، وإذا رأيـت كتابًـا لم أقـرأه، فـكأني وقعـت عـلى كنـز، ولقـد نظـرت في ثبـت الكتـب الموقوفـة في المدرسـة النظاميـة، فـإذا بـه يحتـوي عـلى سـتة آلاف مجلـد وفي ثبـت كُتـب أبي حنيفـة، وكُتـب الحميـدي، وكُتـب شـيخنا عبـد الوهـاب بـن نـاصر، وكتـب أبي محمـد الخشـاب، وكانـت إجـمالًا وغـير ذلـك مـن كل كتـاب أقـدر عليـه، ولوقلـت: إني طالعـت عشريـن ألـف مجلـد كان أكـثر، وأنـا بعـد في الطلـب)

وقــال الســخاوي في الضــوء اللامــع في ترجمــة محمــد بــن أحمــد الصغــاني:(وكان إمامــا علامــة متقدمــا في الفقــه والأصلــين والعربيــة، مشـاركا في فنـون، حسـن التقييـد، عظيـم الرغبـة في المطالعـة والانتقـاء بحيـث بلغنـي عـن أبي الخـير بـن عبـد القـوي أنـه قـال: أعرفـه أزيـد مـن خمسـين سـنة، ومـا دخلـت إليـه قـط إلا ووجدتـه يطالـع أويكتـب)

وكان (ابــن المبــارك) يكـثر الجلــوس في بيتــه للقــراءة والتــزود مــن العلــم ومطالعــة الكتــب ومعرفــة أحــوال النبــي ﷺوصحبــه الكــرام، فقيــل لــه: ألا تسـتوحش فقـال: كيـف أسـتوحش وأنـا مـع النبـي ﷺ وأصحابـه..!

وغضـب حينـما قيـل لـه: إنـك تكـثر الجلـوس وحـدك؟ وقـال: أنـا وحدي؟! أنـا مـع الأنبيـاء والأوليـاء والحكـماء والنبـي وأصحابـه ثـم أنشـد هـذه الأبيـات:

ولي جلساء ما أمل حديثهم ألبـاء مأمونـون غيبـا ومشـهدا

إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم معينـا عـلى دفـع الهمـوم مؤيَـدا

يفيدونني من علمهم علما مضى وعقـلا وتأديبـا ورأيـا مسـددا

بلا رقبة أخشى ولا سوء عشرة ولا أتقـي منهـم لسـانا ولا يـدا

فإن قلت: أحياء فلست بكاذب وإن قلت:أمـوات فلسـت مفنـدًا[1]

وحينـما نذكـر كلمـة عشـق فلابـد أن تغير النسـاء، وهوما حـدث بالفعـل وعـبرت عنـه زوج (ابـن شـهاب الزهـري) حينـما جمـع كتبًـا كثـيرة ولازمهـا ملازمـة شـديدة فقالـت: واللـه إن هـذه الكتـب أشـد عـلي مـن ثـلاث ضرائـر.!

وكان (ابـن سـينا) فيلسـوفا وطبيبًـا عبقريًـا وهـولم يتجـاوز العشريـن بعـد، وفي يـوم مـن الأيـام اسـتدعاه الأمـير (منصـور بـن نـوح) ليعالجـه مـن مـرض مسـتعص، فعالجـه ابـن سـينا وتـم شـفاؤه، ثـم قـال لـه يريـد مكافأتـه ماهـي الهديـة التـي تحـب أن أهديهـا لـك؟ فقـال ابـن سـينا: إننـي منـذ زمـن بعيـد أتـوق إلى هديـة واحـدة أطمـح إليهـا، فاسـتعد الأمـير ليجيـب طلبـه وقـال لـه ماهـي إذن: فقـال لـه أتمنـى أن تفتـح لي خزانـة كتبـك.. وروي عـن (الحسـن اللؤلـؤي) أنـه قـال: لقـد مـرت عـلي أربعـون عامًـا مـا قمـت ولا نمـت إلا والكتـاب في صـدري..!

هـذا قسـط مـن أخبـار العاشـقين القدامـى، ومـازال الزمـن ولـودا

بأمثالهـم.. فـلا يرحـل منهـم راحـل إلا ويولـد غـيره قائمـا بالعهـد سـائرا عـلى النهـج، يوالـون القـراءة بالعشـق جيـلا بعـد جيـل.. لقـد كان (برنـارد شـو) يبـدأ في قـراءة الكتـاب أثنـاء ارتـداء ملابسـه، فيلبـس القميـص ويجلـس ليقـرأ قليـلًا، ثـم يلبـس البنطـال، ثـم يعـود ليقـرأ، ثـم يلبـس ربطـة العنـق، وينكـب عـلى القـراءة، ثـم الجـوارب، ثـم الحـذاء، ويفعـل نفـس الـشيء عندمـا يخلـع ملابسـه!

وعندمـا ذهـب (نابليـون) للمنفـى، كان ينتظـر السـفينة القادمـة مـن فرنسـا المحملـة بكتـب جديـدة حتـى قـرأ في منفـاه سـبعة آلاف كتـاب، وحتـى في الجبهـة وميـدان القتـال، كان شـغوفا بالقـراءة ولم يتركهـا ولا يـكاد يفـرغ مـن كتـاب حتـى يلقيـه مـن نافـذة عربتـه، أويعطيهـا للجنـود..!

كان العـالم الانجليـزي (إسـحاق نيوتـن) لا ينـام لسـاعات ممتـدة متواصلـة كبقيـة النـاس، وإنمـا كان ينـام بشـكل متقطـع، ينـام لسـاعتين ثم يسـتيقظ ليقـرأ ويعمـل، ومتـى نـال منـه التعـب نـام لسـاعتين مـرة أخـرى وقـام مجـددًا ليقـرأ ويعمـل، وهكـذا يقـضي يومـه.!

ومـا أعجـب أن تقـترن النهايـة أيضـا بالكتـب تلـك النهايـة التـي تفـزع المـرء مـن كل مـآرب الحيـاة، لكـن صولـة الفـزع مهـما كان قـرع طنينهـا، لم تكـن أبـدا لتثني(سـارتر)عن معشـوقه حينـما قال:(بـدأت حيـاتي كـما سـوف أنهيهـا بـين الكتـب)

وكان منهـم مـن يراهـا غـذاء للـروح، ولابـد لـه أن ينفـق لتحصيلـه كـما ينفـق في تحصيـل طعـام الجسـد، فهـذا العمـلاق (زكي مبـارك) أيـام اعتقالـه كان يقسـم مالـه قسـمين، قسـم لطعامـه وقسـم لكتابه..لأنـه يـرى أن غـذاء الـروح والعقـول لا يقـل عـن غـذاء البطـون.!

ويصـف أحدهـم مكتبـة (أحمـد لطفـي السـيد) بقولـه: (تكـون المكتبـة في العـادة جـزءًا مـن البيـت، ولكـن بيـت لطفـي السـيد باشـا هوجـزء مـن مكتبتـه، وهويرصـد كل وقتـه تقريبـا للقـراءة والدراسـة، ولا ألاقيـه مـرة إلا وأجـد لـه اهتمامـا بموضـوع ثقـافي أولغـوي يثـير المناقشـة بيننـا..!)١٣

وحـكى عاشـق آخـر شـغفه بالكتـب وحبـه للقـراءة فقـال: (اشـتريت كتابـا مـن مدينـة غـير مدينتـي ثـم رحلـت إلى بلـدتي، فـما اسـتطعت السـير بسـيارتي شـوقًا إلى الكتـاب، فـما كان منـي إلا أن توقفـت في الطريـق وقـرأت الكتـاب بأكملـه، ثـم أكملـت مسـيري..!

وقـال غـيره: (لقـد مـرت عـلي أيـام كنـت أهـرب فيهـا الكتـب إلى مكتبتـي العامـرة في المنـزل مـع الخضـار خشـية غضـب الوالديـن)

ثـم يذكـر لنـا (توفيـق الحكيـم) حياتـه مـع القـراءة وعشـقه لهـا.. ذلـك العشـق الـذي بلـغ أن يؤثرهـا عـلى الطعـام والـشراب.. هاهويذكـر تلـك السـنوات التـي التهـم فيهـا الكتـب والعلـوم التهامًـا، فبعـد أن قـرأ حـوار الشـيطان مـع فوسـت في ليلـة شـاتية، وهـي القصـة التـي ذكرهـا في كتابيـه (ثـورة الشـباب) و(يقظـة الفكـر) حيـث كتـب يقـول:

13- حياتنا بعد الخمسين — سلامة موسى

(مضى على تلك الليلة عشرات الأعوام التهمت فيها الكتب التهاما، وأحطت بمختلف العلوم والفنون علمًا، وعشت مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين، وأحببت فيها المعرفة حبًا كالجنون.. فلم أكن أطيق صبرًا على الجهل بفرع من فروعها، وكنت أحيانا لا أملك من النقود غير الضروري لآكل بقية الشهر وأصادف في واجهة الحانوت كتابًا أوكتابين فما أحجم، وأدفع فيهما ما معي، وأتبلغ طول أيامي بمرق الأرز ونقيع الشاي.. وذهب بي الجنون إلى حد الرغبة في الاطلاع على مالا لزوم لاطلاع أديب عليه، فنظرت في كتب الفلك، والعلوم الروحانية، والرياضيات العليا..!)

أما (خالد) فإن قراءته كانت لا تقف عند حد، وكانت واسعة غزيرة تشرق وتغرب، وكان يقول: (أكببت على الفكر الغربي في مؤلفاته المعربة أقرؤه رويدا رويدًا.. ثم بعد ذلك جاء الوقت الذي تفرغت فيه له ورحت أطالعه بنهم وإعجاب.. (تولستوي - ومكسيم جوركي – وفيكتور هيجو- وجوليان والدوس – هكسلي - فولتير - روسو- أناتول فرانس – ويلز- إمرسون - وقرأت لماركس).

وكان أديب الدعاة أستاذنا وشيخنا الدكتور (محمود عمارة) طيب الله ثراه،حريصًا في صباه على قراءة الأهرام يوميًا، وكان لهفا عليها لما فيها من مقالات أدبية شبهها بباقة الزهر الجامعة لكل ما في بستان المعرفة من أفانين، من المقالة الأدبية إلى القصيدة الشعرية والطرافة والتعليق، وقد شكلت هذه الصحيفة تكوينه الثقافي،

وكانـت البدايـة التـي تولـدت منهـا عاطفتـه نحـو القـراءة، فـكان يـأوي إلى سـطح البيـت في قريتـه الريفيـة، حتـى لا يقطـع عليـه قاطـع هـذه المتعـة التـي يجدهـا في قـراءة الصحيفـة مـما ترتـب عليـه حرمانـه أحيانـا مـن الطعـام.. ومنـذ ذلـك الوقـت وبسـبب صحيفـة الأهـرام تكونـت لديـه عـادة القـراءة وهـي العـادة التـي يؤكـد أنهـا لا تولـد مـع الإنسـان وإنمـا يتحصلهـا بالـدأب والمعانـاة)

وكان (بورخس)قـد أصابـه العمـى والـذي عـده أفـدح مصـاب لـه في الحيـاة، لا لأنـه حجـب عنـه النـور، ولكـن لأنـه منعـه مـن القـراءة ومطالعـة الكتـب، وهوالعاشـق الهائـم بهـا، كان ذلـك في بدايـة الأربعـين مـن عمـره مـما اضطـره أن يعتمـد عـلى أمـه وأصدقائـه في قـراءة الكتـب التـي يريدهـا ثـم يكتبـون لـه مـا يريـد، ولم تمنعـه علتـه وعجـزه أن يكـون أشـهر كتـاب عصره..لكنـه في نفـس الوقـت كان يـواسي نفسـه ويصـبر عـلى بلائـه ويقـول: (لقـد وهبنـي الخالـق عشـق الكتـب وابتـلاني بالعمـى في آن واحـد، يالـه مـن تناقـض رائـع)

ويبـدوأن غرامـه بالكتـب وحبـه للقـراءة يرجـع إلى والـده الـذي حـاول أن يكـون كاتبـا لكنـه فشـل، أمـا بورخـس فلـم يفشـل لأنـه عشـق القـراءة وكانـت أمنيتـه تلـوح في خيالـه، قـال عنـه الشـاعر الإسـباني (مونتـيرو) حينـما التقـي بـه في عـام ١٩٨٤م: (لقـد علمنـي كيـف أكـون قارئـًا أصيـلًا لتمريـن القـراءة دومـًا، بحيـث يصبـح الكتـاب جـزءًا منـي وليـس مجـرد شيء بـين يـدي كـما أنـه يشـترط إعـادة قراءتـه)

ويقـول (ألبرتومانغويـل): (لقـد علمنـا كيـف نقـرأ، وقـد كان يكتـب وهويقرأ،ويقـرأ وهويكتـب، وربمـا هوالقـاريء الـذي انتهـى كاتبًـا، والكاتـب الـذي انتهـى قارئًـا)

ارتبـط (بورخـس) منـذ صغـره بالكتـاب، وقـضى عمـره في القـراءة والمطالعة،وقـد قيـل عنـه: إنـه لوأتيـح لـه أن يدفـن نفسـه بـين دفتـي كتـاب لفعـل، كانـت الكتـب شـاغله الشـاغل فهـي في بيتـه وفي عملـه وفي طفولتـه وصبـاه وهرمـه، لقـد تـولى أمانـة المكتبـة الوطنيـة في العاصمـة (بوينـس آيـرس)، حينـما كان في منتصـف عمـره وهـي أكـبر مكتبـة في الأرجنتـين، وأصبـح بهـذه الوظيفـة حائـزا عـلى الكنـز الـذي حلـم بـه في مقتبـل عمـره، كنـز مـن كتـب عتيقـة، ومخطوطـات مهملـة، ومجلـدات غطاهـا الغبـار، وأرفـف تزاحمـت فيهـا الكتـب التـي طبعـت في القـرن التاسـع عـشر والقـرن العشريـن..

إن عشـق الكتـاب حالـة فريـدة مـن الهيـام والإخـلاص يصعـب فهمهـا عـلى الإنسـان العـادي، الـذي لا تمثـل الكتـب ولا القـراءة شـيئًا في حياتـه، ولربمـا عـد أصحابهـا مـن زمـرة المجانـين الذيـن فسـدت عقولهـم.. ! ثـم إذا حـاول أن يفـسر هـذا الغمـوض الـذي يكتنـف هـذه الحالـة، فإنـه لا يسـتطيع ولا يهتـدي إلى ذلـك سـبيلًا..!

والإنسـان القـاريء لا يتخـذ الكتـاب مسـلاة أوشـاغلًا لـه عـن الفتـور أومؤنسًـا لـه في أوقـات الضيـق والفـراغ، وإنمـا يكـون الكتـاب بالنسـبة للقـاريء محبوبـه وهـواه الـذي لا يطيـق بُعـاده أوهجـره وجفوته..ولعـل

هـذا مـا يفـسر لنـا بعضًـا مـن أحـوال السـابقين.. فقـد كان أحدهـم في سـكرات المـوت، وعـلى فـراش الرحيـل، ويطلـب ممـن حولـه أن يقـرؤوا عليـه، لأنـه يحـب أن يمـوت وهوقائـم عـلى القـراءة، ذلـك العشـق الـذي لازمـه طـوال حياتـه.. !

ويـأتي الحديـث الشريـف ليلقـي بظلالـه عـلى تلـك الحالـة فقـد قـال ﷺ: (منهومـان لا يشـبعان: طالـب علـم وطالـب دنيـا)

ويقول الشاعر:

ليـس عنـدي شيء ألـذ مـن العلـم	فـلا أبتـغي سـواه أنـيسًا
مـا تطعمـت لـذة العيـش حتـى	صـرت للبـيت والكـتاب أنيسًا
إنمـا الـذل فـي مخالطـة النـاس	فدعـهم عـزيـزًا رئـيسًا

لماذا نقرأ ؟

لا يولـد الإنسـان مـن بطـن أمـه قارئًـا، وإنمـا لابـد مـن عوامـل طبيعيـة وأسـباب حياتيـة تقـوده لهـذه الهوايـة النفيسـة، وأول مـا نجـد ذلـك عنـد المبكريـن إليهـا.. فمنهـم مـن تعلمهـا عـن طريـق المحـاكاة والتقليـد.. كأن يقلـد الولـد أبـاه أوأخـاه أوأمه..حينـما انفتحـت عينـه عـلى الدنيـا فـرأى أيديهـم تحمـل الكتـب، وأعينهـم تقلـب في صفحاتهـا، أوعـرف القـراءة حينـما شـجعه عليهـا معلـم الفصـل أورغبـت فيهـا الأنشـطة الثقافيـة التـي تنظمهـا المدرسـة.. !

والقـراءة في ذاتهـا كأي شيء في الحيـاة لا تتولـد الرغبـة فيـه إلا إذا وجـدت الحاجـة إليـه، (وهومـا أشـار إليـه علـم النفـس بـأن كل إدراك عقـلي مهـما كان نوعـه لا يصبـح محـل تطبيـق إلا حـين يكـون مرتبطًـا بشـكل وثيـق بحاجـة مـن الاحتياجـات الأساسـية التـي أوردهـا العـالم الأمريـكي (ابراهـام ماسـلو) عـن سـلم الحاجـات وإذا لم ترتبـط بـشيء منهـا فلـن يهتـم بهـا الإنسـان وقدأوردهـا ماسـلوفيما يـلي:

١- الحاجـات الفسـيولوجية أي حصولـه عـلى المـأكل والمـشرب والمسـكن وخلافـه

٢- حاجته للشعور بالأمن والأمان الفيزيائي.

٣- حاجته للإشباع الاجتماعي، كحصوله على الأصدقاءوالأحبة.

٣- حاجته للشعور بتقدير الآخرين له والإشادة بفضله.

٤- حاجتـه لتحقيـق ذاتـه والنجـاح في الحيـاة وبالتـالي شـعوره بالرضـا عن نفسه.)١٤

وأمـام هـذه الاحتياجـات كان القـاضي (هولمـز) رئيـس المحكمـة العليـا في واشـنطن، وهـي المحكمـة التـي تفصـل بـين حقـوق الولايـة وحقـوق الحكومـة المركزيـة، بـل بـين حقـوق البرلمـان وحقـوق الرئيـس في أمريـكا حينـما تجـاوز سـنه التسـعين أذاع حديثـا افتتحـه بكلمـة الشـاعر اللاتينـي القديـم:(إن المـوت يجـذب أذني ويقـول: عـش فـإني قـادم)

وأمـام هـذه القولـة الآسـية..لم يمنعـه هـذا الشـعور العميـق بدنوالأجـل وكـبر العمـر، أن يعمـل ويتجمـل بالأمـل، ويطـور مـن قدراتـه ومعارفـه وذهنـه..!، فحينـما زاره روزفلـت عـام ٢٣٩١م عقـب انتخابـات الرئاسـة، وجـده يقـرأ كتـاب الجمهوريـة لأفلاطـون، فسـأله: مـاذا تبغـي مـن قـراءة هـذا الكتـاب ؟، فأجـاب القـاضي (هولمز):أبغـي ترقيـة ذهنـي يـا مسـتر روزفلـت.. !

إنـه الاحتيـاج إذن مـا دفـع صاحبـه.. ومنعـه أن يتـسرب إليـه أي شـعور باليـأس مـن الحيـاة، خاصـة بعدمـا عـبر التسـعين التـي تجعـل الكثيريـن يقضـون أيامهـم في الفـراش وأوقاتهـم في التسـلية والراحـة.. لقـد انطلـق الرجـل ليعمـل ويـدرس ويتثقـف ويقـرأ ويرتقـي.!

---

14 – كيف تجعل القراءة جزءًا من حياتك – ساجد العبدلي

كـما نجـد أولائـك الذيـن يشـعرون بالحرمـان مـن القـراءة.. يقـف أحدهم ليقــول: مــاذا أقــرأ ؟ لأنــه لا يســتطيع ولا يــدري كيــف يلــج إلى عــالم القـراء.. ومـن هنـا لابـد مـن البحـث العميـق في أبعـاد نفسـه ليتسـاءل: أي مجـال يحـب حتـى يقـرأ فيـه، إذ لابـد لـه أن يقـرأ فيـما يحـب وهـي الخطـوة الأولى لصنـع الإنسـان القـاريء..

ومـن هنـا.. كان عـلى المـرء أن ينظـر في نفسـه بمـاذا تحقـق لـه القـراءة حتـى يقبـل عليهـا؟، هـل ستكون طريقـه للتفـوق ؟ هـل تزيـد مـن حـب النـاس لـه؟ هـل هـي لازمـة لـه كأسـتاذ جامعـي أومحـاضر أوباحـث ؟ هـل هوإعلامـي أومعـد لبرامـج يوميـة أوكاتـب لعمـود يومـي بالصحـف ولابـد لـه مـن الجديـد عـن طريـق البحـث والقـراءة ؟ هـل يحـاضر في نـادي ثقـافي أوصالـون أدبي ويطـرح عـلى المشـاركين رأيـه وحلولـه لكثـير مـن القضايـا التـي يصقـل المعرفـة بهـا عـن طريـق القـراءة ؟ هل يسـتمتع بهـا وترتـاح نفسـه لهـا؟ هـل تحقـق لـه اللـذة التـي تغنيـه عـن العـالم وتسـاعده عـلي الهـروب مـن مشـكلاته وأزماتـه.؟

هنــاك مــن يقــرأ.. لأنــه يريــد أن يكتشــف ميادــن مجهولــة عليــه ولا ســبيل للوقــوف عليهــا إلا بالقــراءة، وهنــاك مــن يقــرأ ليبحــث عــن معلومـة ولبكتشـف مصدرهـا وهـي القـراءة الباحثـة، وهنـاك مـن يقـرأ بغـرض النقـد وكشـف العـورات وتصيـد الهفـوات التـي يقـع فيهـا كاتـب الكتــاب، وهنــاك مــن يقــرأ حتــى يقتبــس الأفــكار والجمــل والتراكيــب اللفظيـة ليسـتعملها في أحاديثـه وكلامـه مـع النـاس، وبعضهـم يجعلهـا

سـبيلًا للفخـر والمباهـاة ويشـعر بنفسـه حينـما يستشـهد بالكتـب التـي يقرأهـا.. !

ومـن هنـا كان تحديـد الغـرض والهـدف مـن القـراءة ودراسـة الدافـع إليهـا شـيئا ضروريًـا ضروري لبدايـة الطريـق الصحيـح للقـراءة، فالمهـم أن تبحـث عـن الغـرض، وتحـدد الهـدف، ومـع وجـود العزيمـة تصـير مـن القارئـين..!

إن الإنسـان يظـل طـوال حياتـه يتعلـم.. فهويخـرج إلى الحيـاة فيقتبـس معارفـه مـن بيتـه وأسرتـه ومدرسـته ومحيطـه ومجتمعـه الـذي يعيـش فيه..ولكنهـا مـوارد لا تُغنـي صاحبهـا ولا تشـبع رغبتـه في المعرفـة، كـما أنهـا لا تضعـه عـلى طريـق العلـم والفهـم للحيـاة، أوتُعـده الإعـداد الكامـل والمطلـوب لإدراك حقائقها..ومـن هنـاكان لابـد مـن طريـق آخـر لبنـاء العقـل والمعرفـة، وتحصيـل الخـبرة والدرايـة والإحاطـة بمـا يخفـى عـلى العقـول.. إن الجسـد يطلـب نمـوه بالطعـام والـشراب وكذلـك العقـل ينموبالمعرفـة والقـراءة والعلـم والاطـلاع، وإذا امتنـع الجسـد عـن الطعـام هلـك وهـزل وضمـر وخرجـت منـه الـروح، وكذلـك العقـل يهـزل ويقـصر ويضمحـل إذا لم نعطـه ونمنحـه غـذاءه مـن العلـم والثقافـة والمعرفـة، وهـذا هوالهـدف المبـاشر للقـراءة التـي نكـرم بهـا هـذا العقـل الـذي هوأعظـم مخلوقـات اللـه، والقـراءة لا تكـون للتسـلية وإنمـا هـي رسـالة كبـيرة ووسـيلة مثـلى لرقـي الإنسـان والمجتمـع ورقـي الحيـاة كلهـا، فبهـا يتعـرف الإنسـان عـلى كثـير مـما يجهلـه وكثـير مـما يجـب معرفتـه،

بها يتقرب الإنسان إلى ربه ويعرفه معرفة حقيقية تؤهله للقرب منه سبحانه، حينما يقرأ كتابه وسنة نبيه ﷺويتعرف على مغزى الشريعة وغاية الأمر والنهي، كما أنها تُنمي ملكة التفكير والتأمل التي إذا وصل إليها الإنسان وبلغها صار على جانب كبير من الحكمة وفهم حقيقة الأشياء والبصيرة النافذة، التي تخترق الغيوم والضباب..فكل كتاب تقرأه يُفجر فيك طاقات من التفكير والإبداع تستقر في أعماقك وتظهر في أعمالك، فهي تطوير فعال للقدرات العقلية تستطيع من خلالها أن تتعامل مع مشكلات الحياة وأزماتها التي تواجهها..!

ومن أعظم ما تكسب القراءة صاحبها معرفة النفس والوقوف على خصائصها وخباياها وعلاتها وأدوائها فيعالجها، وتبصره بنقائصها فيكملها أوإفراطها فيحد منه..ونستطيع بالقراءة كذلك أن نقود من حولنا بأيسر الطرق نحوالوئام والوحدة والتآلف، رغم اختلاف الطباع والغرائز والنزعات والنحل، والقراءة غير التعليم الذي يُعد الخطوة الأولى نحوالثقافة والوعي، نستطيع بالقراءة أن نفهم طبائع الشعوب وسلوك الأمم وسجايا الأوطان لنعرف ما يناسبها وما يفسدها وما يصلح أمرها، فنستدعي الدواء ونتجنب الداء، وندرك المداخل التي تؤثر فيها وعليها فيسهل تعاملنا مع عناصرها وننجح في علاقتنا بها.. إننا نقرأ لأن القراءة طريق النهوض حسب ما أدركت الدول المتقدمة، التي تتصارع على القمة وتتسابق نحوالريادة.. وهي التي تذهب بنا في آفاق الماضي فنستفيد من التاريخ، ونقتبس منه

الـدروس والعبر،ونتعلـم مـن مواقفـه وأحداثـه، والأمـة التـي لا تاريـخ لهـا تشـعر باليتـم والتيـه فهـي محرومـة مـن التجربـة، وليـس لهـا مـاض يرشـدها ويوجـه أزماتهـا ويعلمهـا العدومـن الصديـق، ويبصرهـا بالتعامـل الجيـد مـع الأحـداث.

يقـول شـيخنا (القرضـاوي): (قـراءة التاريـخ توسـع الآفـاق وترينـا أحـوال الأمـم وتاريـخ الرجـال، وتقلبـات الأيـام بهـا وبهـم، فقـد يـرى الإنسـان بعـين بصيرتـه كيـف تعمـل سـنن اللـه في المجتمعـات بـلا محابـاة ولا جـور ؟ كيـف ترقـى الأمـم وتهبـط ؟ كيـف تقـوم الـدول وتسـقط ؟ وكيـف تنتـصر الدعـوات وتنهـزم؟ وكيـف تحيـا الحضـارات وتمـوت؟ وكيـف ينجـح القـادة ويفشـلون ؟ وكيـف تنـام الشـعوب وتصحـو؟ التاريـخ كثـيرًا مـا يعـين عـلى فهـم الواقـع الماثـل، ولا سـيما إذا تماثلـت الظـروف، وتشـابهت الدوافـع، وهــذا مــا جعـل العــرب قديمًــا يقولــون: مــا أشــبه الليلــة بالبارحـة! وجعـل الغربيـين يقولـون: التاريـخ يعيـد نفسـه.!)١٥

تعطينـا القـراءة حيـاة فـوق حياتنـا وأعـمارا فـوق أعمارنـا، وخـبرات فـوق خبراتنـا وهـي المعـاني التـي فهمهـا الأسـتاذ (العقـاد) حـين قـال: (لسـت أهـوى القـراءة لأكتـب، ولا أهـوى القـراءة لأزداد عمـرًا في تقديـر الحسـاب.. وإنمـا أهـوى القـراءة لأن عنـدي حيـاة واحـدة في هـذه الدنيـا وحيـاة واحـدة لا تكفينـي ولا تحـرك كل مـا في ضمـيري مـن بواعـث الحركـة..

15 – ثقافة الداعية — د. يوسف القرضاوي

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق،وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب..

فكرتك أنت فكرة واحدة..

شعورك أنت شعور واحد..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أولاقيت بشعورك شعورًا آخرًا، أولاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أوأن الشعور يصبح شعورين أوأن الخيال يصبح خيالين..كلا.. وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الأفكار في القوة والعمق والامتداد.. والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة ومحسوس في عالم العطف والشعور..ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانا واحدا أوإنسانين اثنين، ولكنه يرى عشرات متلاحقات في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه.)١٦

ويقول د.(طه حسين): (وما نعرف للإنسان شيئًا يحقق تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة، فهي تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ).

وتأتي القراءة كأداة الرقي والتهذيب والوقوف على ما يُحسن المشاعر ويقوِّم الأحاسيس ويغرس معالم الرحمة والعدالة في الوجدان، وهوما

16 - أنا — عباس العقاد

اهتـدى إليـه الأسـتاذ (عمـر التلمسـاني) رحمـه اللـه وظهـر لـه أن أعظـم فوائـد القـراءة في نفسـه أنهـا أكسـبته أخلاقـا عظيمـة وجعلتـه قـدوة في الـذوق والإحسـاس ونمـت فيـه كثـيراً مـن المشـاعر التـي اسـتطاع أن يكسـب بهـا القلـوب.. فقـد قـال: (الـشيء الوحيـد الـذي اسـتفدته مـن وراء كل هـذه المعانـاة أننـي أعـرف للنـاس أقدارهـم، فلـم أمـس إنسـانا بقلمـي ولا بلسـاني، حتـى الذيـن هاجمـوني ونالـوا منـي لخـلافي معهـم في الـرأي)

جـاء ذلـك بعـد مـا قـرأ في يفاعتـه أول مـا قـرأ قصـص (أبي زيـد الهـلالي سـلامة) و(عنـترة بـن شـداد) و(سـيف بـن ذي يـزن)، ثـم تـدرج حتـى قـرأ روايـات (اسـكندر ديمـاس) وابنـه وتعـرف إلى أبطـال قصصـه، وكانـت شـجاعتهم ودفاعهـم عـن معشـوقاتهم تملـك كل أوقاتـه في شـهور الإجـازة، ثـم قـرأ الأرض لـ(إيميـل زولا) وقـال عنهـا: (لم تنـل منـي اهتمامـا لوقاحتهـا وخروجهـا عـن حيـز الـذوق واللياقـة رغـم الطنطـة التـي أثـيرت حولهـا)، ثـم قـرأ البؤسـاء وكل مـا كتبـه (المنفلوطـي) وكان كـما قـال: (كنـت نهـمًا في القـراءة، ورغـم هـذا العشـق لـلأدب لم أسـتطع أن أكـون أديبـًا، وأقبلـت عـلى القـراءة الدينيـة فقـرأت الزمخـشري وابـن كثـير والقرطبـي وسـيرة ابـن هشـام وغيرهـا مـن السـير، وقـرأت أُسـد الغابـة والطبقـات الكـبرى ونهـج البلاغـة والأمـالي والعقـد الفريـد لابـن عبـد ربـه والعقـد الفريـد لابـن سـيده والبخـاري ومسـلم مـن الجلـدة إلى الجلـدة.. ورغـم كل هـذا فـإني أؤمـن بـأن مـا قرأتـه قطـرة مـن بحـر لا تـروي ظـمأ)١٧

17 - ذكريات لا مذكرات- عمر التلمساني

مـا مـن عظيـم مـن العظـماء أوقائـد مـن القـواد إلا وللقـراءة في حياتـه أثـر كبـير واهتـمام بالـغ، إن لم تكـن هـي السـبب الأسـاس في بـزوغ نجمـه وانبعـاث موهبتـه، لأن القـراءة تطـرد الجهـل والتخلـف مـن سـماء العقـل والتفكـير، ليخلـوا الطريـق أمـام الإبـداع والابتـكار.. القـراءة تعطـي القـدرة عـلى الخلـق والإبـداع، وكل مـن ظهـر ونبـغ في عالمنـا العـربي كان أساسـه القـراءة، كمشرفـة والسـنهوري والعقـاد، كـما كان لهـا كبـير الأثـر فيمـن ظهـر مـن السياسـيين أمثـال تشرشـل و(أبراهـام لينكولـن) الـذي أدرك علاقتهـا القويـة في اتخـاذ القـرار السـياسي فـكان لا يفتـأ يقـرأ ليـل نهـار لإيمانـه الكبـير بقـدرة القـراءة في مسـاعدته عـلى إدارتـه وكثـيراً مـن قراراتـه، كـما نجـد العلاقـة القويـة بـين القـراءة والحريـة فالذيـن يقـرؤون هـم الأحـرار، لأن القـراءة تطـرد الخرافـات والهواجـس التـي تسـيطر عـلى الإنسـان ولا تسـتطيع هـذه الأمـور أن تغـش الإنسـان المطلـع المثقـف..

حاجـة الإنسـان إلى القـراءة حاجـة ماسـة، وعنـصر هـام مـن عنـاصر الحياة السـعيدة، فـإذا كان للقـراءة كل هـذا التأثـير في الحيـاة، فكيـف نُهملهـا ونتغافـل عنهـا ؟! أولى بنـا أن نُغـير مـن بلادتنـا فنهـب إلى المطالعـة، ونصـادق الكتـب، وننحـي عنهـا غبـار الإهـمال، ونعاهدهـا أن لا تغيـب عـن أيدينـا أبـدًا (فالكتـاب هوالصديـق الصـدوق وهومخـزن المعلومـة وهوالـذي تعيـش معـه ويعيـش معـك، ولا يعـترف بالعمـر ولا بالزمـان ولا بالمـكان، إنـه يعطيـك مـن فرائـده ومـن خيراتـه، مـن فضلـه وعطائـه)

ولله در القائل:

وَخَيْرُ جَلِيْسِ الْمَرْءِ كُتْبٌ تُفِيْدُه
عُلُومًا وَآدَابًا، كَعَقْلٍ مُؤَيَّدِ

وقال غيره:

سلوا التاريخ عن هدي الكتاب   وما يحويه من رأي صواب
وكم من جيل ساروا في هداه   وكم قد ضم من عجب عجاب
وما للجيل عن كتب غناء   وفيها الجمع دوما للرغاب
وبدء الوحي للمختار اقرأ   معان الوحي غيث في انسكاب
لدينا مكتبات فلنزرها   هي البستان يا خير الصحاب
وكم في الكتب من فتح لباب   وكم في الكتب من علم لباب
رياض العلم فيها ضوء علم   وتذليل عظيم للصعاب
بطون الكتب تحوي كل كنز   ومن يقرأ رآها في انسكاب
لها تأثيرها في كل آن   وفي الأجيال كهل أوشباب
وتصنيع الكتاب اليوم أمر   مهم كالمطاعم والشراب[18]

18 - من قصيدة للشاعر عبد الرحمن الحارثي

التشجيع على القراءة

يقول العقاد: (إنني أومن بكلمات التشجيع التي يتلقاها الناشيء في مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم فيمضي إلى وجهته على يقين من النجاح)

إن التشجيع على القراءة والدفع إليها ليست بعيدة عن حديث العقاد، فقد كانت نصيحة السابقين والمتأخرين، وكل من يلتمس نبوغا مبكرا فيمن حوله من الناشئين النابهين، ولعل النصيحة بالقراءة هي أول ما تلقاها أديبنا الكبير الأستاذ الشيخ (خالد محمد خالد) في أول لقاء له بالشيخ الأزهري (محمد عبد اللطيف دراز) فقد حضر خالد مجلس (النقراشي) يوما ولما هم بالرحيل طلب منه النقراشي أن يمكث حتى يتعرف على الشيخ (دراز) لأنه كما قال له: ثائر كبير، ولما حضر الشيخ دراز حيا النقراشي وساعتها هم خالد بالاستئذان قال له الشيخ: انت ساكن فين يا وله؟ فأجاب خالد: في الحي الحسيني يا مولانا.. فقال له: خلاص اقعد لما نمشي سوى، فطريقنا واحد، يقول خالد: (صافحنا معالي الباشا وانصرفنا، وكان فضيلته يسكن في حي الحلمة أمام المحكمة الشرعية العليا، وأثناء سيرنا راح يناقشني في قضايا السياسة، فشرعت أقارن بين موقعه من مؤتمر الصلح بباريس وموقف سعد زغلول مفضلا موقف الأول على الثاني، والشيخ يحاورني، وقد وضع ذراعه في ذراعي ويصحح لي بعض

أخطائي واستنتاجاتي، وكان مما قاله لي:شوف يا خالد يظهر انك ذكي، وذكاؤك السياسي يبشر بالكثير، ولكن أنصحك أن تقرأ كثيرًا وكثيرًا، ثم قال وهويضحك: ومين عارف يمكن يطلع منك حاجة كويسة، ثم ودعته أمام باب فيلته ومضيت لسبيلي).

وهي ذات النصيحة التي وجهها خالد نفسه للشباب الذين يولون وجوههم شطر الأدب والكتابة حيث قال عنهم في مذكراته: (والشباب المولي وجهه شطر الأدب والكتابة عليه أن ينضج موهبته على نار هادئة.. كما عليه أن يتوسل بالأناة وبالتواضع ويكرس جهوده للحقيقة، حتى يكون من رعاياها وحدها وليس من رعايا ملك ولا رئيس ولا عظيم.. !! فإذا فعلوا فإني من خلال تجربة واعية وصادقة أبشرهم بأن سيكون لهم إن شاء الله ما يشتهون..

اقرؤوا.. ثم اقرؤوا..ثم اقرؤوا..واختاروا لأنفسكم ما تقرؤون..!!

وفكروا.. وتأملوا.. وارفضوا.. وتقبلوا..

واذكروا الحكمة القائلة:(بالمثابرة والصبر، يصبح ورق التوت حريرًا)

كثير من العباقرة لا يعدونبوغهم أن يكون كما أشرنا نابعًا من حفاوة والد أوتحفيز أم، أوتشجيع معلم دفعه إلى غايته بكلماته، التي تمثل سقاءً يروي في نفسه منابت النبوغ، فتورق وتُثمر أينع الثمار.. وكم يتحين الإنسان منا أن يلقى عالمًا كبيرًا أومفكرًا مرموقًا!. فيمثل بين يديه، ويعرض له ما عنده حتى يحظى منه بإعجاب أوكلمة تجدد طاقة نفسه.. وقد وفرت الظروف للأستاذ العقاد وهوصغير أن يلتقي

بالأستاذ الإمام (محمد عبده) الذي زار مدرستهم، فعرض معلم الإنشاء كراسة العقاد على الإمام، فنظر فيها وأعجب ببعض كلامه وناقشه فيه، وكان الموضوع عن (الحرب والسلام) ثم قال وهوينظر إلى معلمه: ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا فيما بعدُ.!.

ودفعته كلمات الإمام للأمام.!.

وكم يحتاج شبابنا لكلمات الأئمة والمفكرين والموجهين! التي تغرس فيهم الأمل، وتوجههم نحوالقراءة،وتولد فيهم الطاقات الكامنة التي تنفع الأمة وتثري نهضتها!.

يُقر (نجيب محفوظ) دوما بفضل (توفيق الحكيم) عليه.. وكان يردد: (لولا الحكيم لما كنت أديبًا).

وقد أغرتني تلك المقولة بقراءة كتب (توفيق الحكيم) فتخطيت ما كتبه هو.. لأقرأ ما كتب عنه.

وكان أولها كتاب (توفيق الحكيم يتذكر) لـ(جمال الغيطاني)، الذي ذكر فيه حديث (الحكيم) عن شخصية الرجل الذي شجعه وحبب في نفسه قراءة الأدب والعناية به، وهومدرس اللغة العربية، شيخ معمم، إلا أنه عصري في تفكيره، لم يتقيد بالأساليب القديمة في التدريس، وأسلوبه فريد جعل يحبب الأدب العربي إلي الطلاب، ويجذبهم إليه ببعض أشعار الغزل الرقيق للعباس بن أحنف، ومهيار الديلمي، وعمر بن أبي ربيعة، ومن شابههم والإقلال من شعر المديح

والحكـم والمواعـظ، فـما أن يلقـي مـا لديـه عـلى الطـلاب المراهقـين إلا ويضجـون بالإعجـاب ويطالبـون بالمزيـد، بـل ويسـألون عـن المصـادر ويدونـون مـا يسـمعونه في دفاترهم..وهـم بحكـم مرحلتهـم العمريـة، تشـتعل عواطفهـم ويألفـون الحديـث عـن الحـب والهيـام والشـعور الجميـل والخيـال البديـع، كانـوا يحبـون أن يسـمعوا:

ابعثـوا أطيافكـم لي في الكـرى   إن أذنتـم لعيـوني أن تنـــامْ

أو:

غيـض مـن عبراتهـن وقلـن لي   مـاذا لقيـت مـن الهـوى وليقينـا

ولم يكن على حد تعبير الحكيم يهمهم أن يسمعوا:

علـوفي الحيـاة وفي الممـــاتِ   لحـق أنـت إحـدى المعجـــزاتِ

أو:

لـه بفنـاء البيـت سـوداء فخمـة   تلقـم أوصـال الجـذور العراعـر

ومنـذ ذلـك الحـين، وعـلى يـد هـذا المعلـم، بـدأ اهتـمام الحكيـم بـالأدب العـربي، الـذي أحبـه كل الطـلاب، وبـدا ذلـك في موضوعاتهـم الإنشـائية التـي كانـوا يرصعونهـا بأبيـات الشـعر والعبـارات الرصينـة والسـجع، وصـور البيـان المختلفـة.

ثـم يعتـب الحكيـم عـلى نفسـه؛ لأنـه نـسي اسـم هـذا الشـيخ، وكان مـن الواجـب أن ينقـش في ذاكرتـه.!

أحيانًـا تدفـع غـيرك للنجـاح دون قصـد، وقـد يكـون هـذا الدافـع بمثابـة

التشـجيع، ورسـم طريـق جديـدة لمـن يسـتلهمه تـصرف عادي..لكنـه يعتمـل في نفـس متلقيـه فيوجـه حياتـه ويطـرق أبـواب مواهبـه، وهومـا حـدث للأديـب الكبـير (ثـروت أباظـة) الـذي أعطـاه والـده يومًـا مجموعة قصصيـة أدبيـة للأطفـال، كان أهداهـا لـه مؤلفهـا الكاتـب الأديـب (كامـل كيـلاني)..

ولم يكن للوالد أن يتخيل يومًا أن تكون هذه المجموعة هي المنطلق الذي سيكون منه فيما بعد، الأديب الكبير (ثروت أباظة).!

ففي كتابه (لمحات من حياتي) يقول: (أذكر وأنا في الثامنة من عمري أن الأستاذ (كامل كيلاني) أهدى عشرة كتب من مؤلفاته إلى أبي، وأعطاني أبي هذه الكتب، ودخلت إلى غرفتي وانبطحت أرضًا وبدأت أقرأ الكتب، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا في عالم سحري عجيب..وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتي، وأجمل أوقاتها هي تلك التي بدأت فيها أتعرف على الكتاب وأصاحبه صحبة دامت حتى يومنا هذا، واستطعت بفضل مكتبة (الكيلاني) أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون أن أشعر بأي جهد، فحين بدأت قراءته سيطرت عليّ متعة القراءة، وانتقلت بعد ذلك إلى (تيمور)..ثم في غير ترتيب زمني رحت أقرأ للعمالقة مبهورًا بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقلي ووجداني وكياني كله، وأنا أقرأ لطه حسين وهيكل والعقاد والزيات وأحمد أمين والزيات.)

وهكذا كانت البداية التي جعلت من الفتى الصغير أديبًا مرموقًا فيما بعد..!، وإذا كانت من قدرة بعض التصرفات العادية الطبيعية أن تصنع مستقبلًا باهرًا..!

فكيف بنا لوتعهدناها وتعمدناها، وأردنا فيها غايتنا إلى غدٍ مشرق لمن نريد؟!

أمـا الكاتبـة والأدبيـة (نعـمات أحمـد فـؤاد) فـإن نبوغهـا كان وراءه تشـجيع كبـير مـن والدهـا ومعلمهـا..

أمـا الوالـد فقـد أحـس بموهبـة ابنتـه مـما جعلـه أن يـصر عـلى تعليمهـا ويقـاوم رغبـة جدهـا في منعهـا مـن التعليـم، فأرسـلها إلى القاهـرة لتلتحـق بمدرسـة حلـوان الثانويـة الداخليـة للبنـات، وكان شـتاؤها دراسـة وصيفهـا قـراءة لما أعـده والدهـا لهـا، هـذا الوالـد المشـجع مـن كتـب سـبق لـه قراءتهـا وتعليقـه عـلى مـا فيهـا مـن أشـياء هامـة كي تلحـق ابنتـه صاحبـة الرؤيـة بقراءتهـا ويناقشـها بعـد ذلـك فيـما قرأتـه..!

أمـا هـذا المعلـم المشـجع فقـد كان نعـم المعلـم الـذي تفتقـده أجيالنـا اليـوم.. هـذا الرجـل لم يقتـصر عـلى مجـرد كلـمات التشـجيع، وإنمـا تبناهـا وذهـب لوالدهـا يرجـوه أن يهتـم بهـا.. إنهـا لا تنسـاه أبـدًا وتذكـر فضلـه عليهـا وتحـكي قصتـه معهـا فتقـول:

(عندمـا كنـت في الصـف الثالـث الابتـدائي بمدرسـة مغاغـة بالمنيـا، ذهبنـا في رحلـة لمصنـع السـكر وبعـد عودتنـا طلـب منـا الأسـتاذ(أحمد عطيـة) معلـم اللغـة العربيـة كتابـة موضـوع تعبـير مـن عـدة جمـل عـما شـاهدناه في الرحلـة، فكتبـت ٢١ صفحـة بهـت بهـا المعلـم إلى حـد أنـه بـكى مـن شـدة التأثـر

،وذهـب لوالـدي يطلـب منـه معاونتـه في رعايـة موهبتـي الأدبيـة، يومهـا تأكـد لوالـدي ماشـعر بـه مـن قبـل، وبـدأ الاثنـان في إمـدادي بالكتـب

والمجلات التي يمكنها تنمية ملكة الكتابة عندي، وزاد هذا من مكانتي

لدي أستاذي حتي إنني عندما كنت أذهب له لشأن ما أثناء تدريسه في فصل غير فصلنا، كان يطلب من البنات الوقوف لتحيتي من شدة تأثره بموهبتي وأنا عمري لم يتعد العاشرة

وعندما التحقت بالمدرسة الثانوية الداخلية في القاهرة، تكرر موقف المساندة لموهبة الكتابة لدي من قبل مدرس اللغة العربية الأستاذ محمد الحوفي الذي كثيراً ما كان يثني علي موضوعات التعبير التي أكتبها بعبارات مؤثرة في الصفحة الأولي من الكراسة، وكلما تذكرت أساتذتي جالت بخاطري حالة من المقارنة بين حال جيلي والجيل الحالي، فلا أعتقد أن هناك الآن معلمًا يتبني موهبة تلميذه ويحاول الدفع بها على نحوما لقيت)١٩

وعلى ذات الخطى نبعت موهبته من المدرسة ومعلميها الذين وجهوه صغيراً حيث يذكر الروائي (إبراهيم عبد المجيد) صاحب (لا أحد ينام في الإسكندرية) بداياته مع القراءة، والتي كان السبب فيها تشجيع البيئة المحيطة به وخاصة المدرسة والمعلم الذي بدأ يغرس فيه الميل إلى حب القراءة والاطلاع فيقول: (في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، حينما كنت في المدرسة الابتدائية وهي بالمناسبة مدرسة حكومية، حيث كانت المدارس الخاصة هي مدارس الجاليات الأجنبية

---

19 – صحيفة المصري اليوم بتاريخ ١٤ يوليو٢٠٠٨م

كانـت هنـاك جماعـة للشـعر، جماعـة للموسـيقى، جماعـة للخطابـة، جماعـة للجوالـة، وغيرهـا مـن النشـطة، وقـد سـاهمت هـذه المجموعـات في صقـل موهبتـي ومواهـب الكثيريـن غـيري .

ومـن هنـا أسـتطيع القـول: إن المدرسـة والسـينما وحكايـات الغربـاء هـم ثالـوث الإغـواء في مسـيرتي الأدبيـة: أديـن بالفضـل لمـدرس اللغـة العربيـة، حينـما كنـا في الصـف الرابـع الابتـدائي وأتذكـر اسـمه جيـدا، هوالأسـتاذ (حسـان)، هـذا الأسـتاذ المحـترم كان يدخـل الفصـل ومعـه جريـدة الأهرام أوالأخبـار ويقـرأ لنـا المقـالات ويعرفنـا بكتابهـا، فهـذا مقـال لمصطفـى أمـين، وهـذا لطـه حسـين،رغم أن أعمارنـا لم تتجـاوز العـاشرة، الأمـر الـذي شـجعنا عـلى شراء الجرائـد وكان ثمـن الجريـدة نصـف قـرش، فكنـت أشـتري يوما بمـصروفي اليومـي، ويومـا آخـر أشـتري سـندوتش أوحلويـات..

المدرسـة أيضًـا أتاحـت لي قـراءة الكتـب، فقـد كانـت هنـاك حصتـان أسـبوعيا مدتهـما سـاعتان، يختـار فيهـا كل تلميـذ كتابـا يقـرأه؛ في السـاعة الأولى تتـم القـراءة الحـرة ، وفي السـاعة الثانيـة يحـكي كل تلميـذ للآخريـن مـا اسـتوعبه، ويعلـق المـدرس عـلى مـا قـرأه التلاميـذ، ومـن هنـا جـاء الحـكي، لقـد أحببـت القصـص التاريخيـة لمحمـد فريـد أبوحديـد، وقصـص الأطفـال لكامـل كيـلاني..

ويتابـع في حديثـه عـن دور المدرسـة في تنميـة خيالـه وتشـجيعها لـه في أن يكـون أديبًـا يقـول: كانـت المدرسـة تنظـم رحلـة يـوم الجمعـة لسـينما مـن سـينمات الدرجـة الثانيـة كان اشـتراكها ٣ قـروش وهواشـتراك زهيـد

الثمـن بالنسـبة لمعظـم الأسر، وكان الاشـتراك يشـمل الانتقـالات ووجبـة وتذكـرة السـينما التـي يبلـغ ثمنهـا أصلا ٠١ قـروش، فهـي رحلـة مدعمـة مـن المدرسـة، والسـينما تعنـي الخيـال، وحينـما كـبرت قليـلا ًكنـت بعـد أن أشـاهد الفيلـم، أبحـث عـن الروايـة التـي تناولهـا مـث لروايـة (الإخـوة كرامـازوف) أو(الإليـاذة والأوديسـا) وفي تلـك الفـترة كنـت شـبه مقيـم في السـينما..

ثـم ظهـر للكاتـب طريـق آخـر اسـتطاع أن يوفـر لـه الكتب ويشـجعه على ذلـك المسـار ويلبـي نهمتـه المتعطشـة للقراءة،فقـد كان في صغـره ذا قـدرة شرائيـة محـدودة، وكان يلجـأ لمكتبـة المدرسـة والمكتبـات العامـة أومكتبـة الجامعة،كـما كان عـم سـيد بائـع الصحـف في منطقـة محطـة الرمـل بالإسـكندرية، وكان يسـتعير منـه الكتـب ويقرأهـا في مقابـل مـادي بسـيط يقـل كثـيرا عـن ثمـن الـشراء، فقـد كانـت هنـاك كتـب زهيـدة الثمـن مثـل سلسـلة اقـرأ التـي كانـت تبـاع بقـرش واحـد، وكانـت هنـاك كتـب غاليـة الثمـن، مثـل أعـمال (دستويفسـكي) التـي كانـت تبـاع بــ ٥٧ قرشـا وهومبلـغ كبـير وقتهـا.. وبعـد أن تخـرج في الجامعـة، بـدأ تكويـن مكتبتـه التـي بلغـت في بعـض الأوقـات نحـو٦ آلاف كتـاب، ثـم بـدأ في توزيـع الكتـب عـلى أصدقائـه ومعارفـه قبـل أن يغـادر الإسـكندرية للقاهـرة.. وكانـت فلسـفته في ذلـك أنـه قرأهـا.. وعـلى الآخريـن أن يسـتفيدوا منها..!

إن التشـجيع عـلى القـراءة وتقديـم الكلـمات المحفـزة عـلى المطالعـة، تـؤتي ثمارهـا إذا وجـدت أذنـا مصغيـة أوأذهانًـا ملبيـة، بـل إن بقدرتهـا

لواستجابت لها العقول وتقبلتها العزائم أن توجد الجيل القاريء الذي نطمح إليه وننشده في أبنائنا.. ما على المرء فقط إلا أن يهتم بالأمر ولا ينفك يبذر كلمات التشجيع هنا وهناك علها تصادف أرضًا خصبة فتنموفيها وتؤتي أكلها، كما عليه أن يفكر في ابتكار الوسائل المرغبة كتقديم الجوائز والهدايا ليعرف الصغير أن القراءة طريق يجر عليه السعادة والتفوق والجوائز التي يتوق إليها..!

كما نجد لونا آخر من التشجيع يجب أن نهتم به وندفع أصحابه لمزيد من التألق فيه، وهم أولائك الذين يقرؤون ببطء وهدوء وروية، فيأتي تحصيلهم ضعيفًا ضئيلًا وارتباطهم بالكتاب ليس على المستوى المطلوب والمرغوب فيه، وهؤلاء ليسوا كغيرهم.. فهم يفهمون معنى الكتاب وقيمة المطالعة، لكن عزائمهم تحتاج لشحن مستمر وتحفيز متواصل، وتشجيع متتابع، حتى يزيدوا من إنتاجهم ويحترفوا القراءة، وينتقلوا من مجرد مطلعين إلى قراء عاشقين والهين.!

وللتشجيع على القراءة المستمرة بشكل يومي قدم موقع lfiehack استراتيجيتين بزيادة معدل القراءة بفعالية، بحيث يمكن قراءة أكثر من ٣٠ كتابا خلال السنة الواحدة.

أما الطريقة الأولى فتتمثل في قراءة ٢٠ صفحة لكل يوم، فمع كل صباح وبعد تناول كأس من الماء وكتابة ٣ نعم تحمد الله عليها، يفضل قراءة ٢٠ صفحة من أي كتاب على الأقل لمدة١٠ أسابيع، وعلى هذا النحويمكن قراءة نحو٣٦ كتابا خلال عام واحد.

وتـأتي الطريقـة الثانيـة في السـاعات الأولى مـن اليـوم، حيـث يقـضي أكـثر الأشـخاص سـاعات الصبـاح الأولى في الاسـتعداد للذهـاب إلى العمـل أوالجامعـة، لكـن مـاذا لوتـم تخصيـص بعـض سـاعات الصبـاح لتطويـر الـذات، لـذا قبـل الخـروج مـن النـزل ينصـح بقـراءة صفحـات قليلـة مـن أي كتـاب لزيـادة النشـاط والحماسـة لبـدء يـوم جديـد.. فليكـن التشـجيع إذن بدايتنـا الأولى لإيجـاد جيـل قـاريء ومثقـف ينهـض بالحيـاة وينتقـل بالمجتمـع مـن الجهـل إلى العلـم، ومـن الظـلام إلى النـور، ومـن الذهـول إلى الوعـي والإدراك.

في صحبة الكتب

اعتـزل الكاتـب الأرجنتيـني (بورخـس) أقرانـه في طفولتـه لسـوء أخلاقهـم ولأنــه كان ضعيــف البــصر، وانطلــق في عــالم آخــر غــير عالمهــم، فأخــذ يغــذي نفســه بالقــراءة، ولازم الكتــب منــذ الصغــر، وســن لنفســه في القـراءة قواعـد صارمـة لا يحيـد عنهـا، وكان نابهًـا نابغًـا.. فقـد اسـتطاع أن يتقـن الإنجليزيـة والفرنسـية والإسـبانية، ومـن خـلال هـذا الإتقـان كانـت كتبـه التـي يقرأهـا لا تقـف عنـد حـد لغتـه الأصليـة وإنمـا كان يـشرق ويغـرب في القـراءة بمـا أتقنـه مـن لغـات..!

لقـد نـذر (بورخـس) حياتـه في القـراءة وصحبـة الكتـب، وهوما سـاقه إلى إظهـار نبـوغ مبكـر حـين ترجـم وهـوفي التاسـعة مـن عمـرة كتـاب (الأمـير السـعيد) لأوسـكار وايلـد مـن الإنجليزيـة إلى الإسـبانية ونـشر بالصحـف، وظـن النـاس أن والـده مـن قـام بهـذا العمـل..!

ينتقـد (بورخـس) نفسـه ككاتـب لكنـه أبـدًا لا ينتقدهـا كقـاريء.. فيقـول: لا علـم لي إن كنـت كاتبًـا جيـدًا، لكننـي قـاريء جيـد وذلـك أهـم.

أمـا زواره فـكان يدهشـهم منـه ذلـك البيـت الصغـير الذي حشـده بالكتب وأعجبهـم منـه كذلـك تقديـره لهـا، فهـذه معاجـم وهـذه موسـوعات وهنـاك مختـارات أدبيـة تصحبهـا بعـض عيـون الآداب العالميـة، مرصوصـة كلهـا عـلى الرفـوف، قرأهـا كلهـا بلغاتهـا قبـل أن يُصـاب بالعمـى، وأصبـح الرجـوع إليهـا عسـيرًا إلا بوجـود قـاريء يجيـد لغاتهـا..!

ولـك أن تتعجـب فعـلى الرغـم مـن عـماه والرؤيـة التـي فقدهـا، فإنـه إذا أراد كتابًـا مـن مكتبتـه ينهـض إلى مكانـه ويسـتله وحـده مـن بـين الكتـب دون أن يخطـيء، ويرجـع ذلـك لحالـة الإلـف والـود التـي نشـأت بينـه وبـين كتبـه وحينـما عـين أمينـا للمكتبـة الوطنيـة،كان يحمـل في مكتبـه حقيبتـين كبيرتـين محشـوتين بالكتـب ومرتبـة عـلى نظـام معـين يعرفـه ويتمكـن مـن خلالـه أن يخـرج مـا يريـد منهـا ويحـدد مـا يبتغـي مـن أنواعهـا، ثـم يعـود إلى منزلـه فيقـرأ إلى أن يبلـغ الليـل، وكانـت أمـه البالغـة مـن العمـر تسـعين عامـا خـير معـين لـه عـلى هوايتـه ورغبتـه في المعرفـة، فقـد كانـت تقـرأ لـه كتبـه المحببـة بصـوت عـالٍ كـما أعـادت عليـه قـراءة بعـض الكتـب التـي سـبق لـه الاطـلاع عليهـا، وحينـما أصيـب العمـى صـار ولوعـا بإعـادة قـراءة مـا سـبق لـه قراءتـه، وكأنـه يريـد اكتشـاف مـا سـبق لـه اكتشـافه..

إن عشــاق الكتــاب مولعــون باقتنــاء الكتــب الكثــيرة والجديــدة ولا يفكـرون أويطـرق في خاطرهـم إن كانـوا سـيقرؤونها أم لا.. ! وهنـاك مـن يشـجع عـلى ذلـك ويدعولاقتنـاء الكتـب حتـى ولوكانـت تتجـاوز القـدرة عـلى القـراءة ويحثـون عـلى الزيـارة الدائمـة للمكتبـات والتعـرف فيهـا عـلى كل جديـد واقتنـاء مـا يناسـبهم منـه..

والذيـن لديهـم حـب القـراءة ويريـدون أن ينتقلـوا لمرحلـة العشـق، لابـد لهـم أن يجعلـوا مـن القـراءة عـادة مزمنـة في حياتهـم، ولابـد لهـم أن يكـون الكتـاب دومًـا في صحبتهـم لا يفارقهـم في حـل أوترحـال.. وفي هـذا

الحين ومع هذه العادات، ومع مرور الوقت في ممارستها، يجد المرء أن حالةً من الألفة والارتباط والهيام قد نشأت بينه وبين القراءة، وهي ذات الحالة التي وجدناها في (الحكيم) حينما آثر كتابه على ثيابه في رحلته إلى أوروبا، وكيف جرى في نفسه صراع الاختيار الذي لم يدم طويلًا لأن حُب الكتاب صار يجري في دمه: يقول الحكيم: (هبطت هذه الجنة عام ١٩٣٨م أحمل حقيبة واحدة فيها بذلة واحدة وكتاب واحد هوالعقد الفريد لابن عبد ربه بكامل أجزائه..!ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسي من الأسفار من كثرة الحقائب، فطار ترددي وأنا أتجهز للسفر:أأحمل بذلة أخرى وأترك ابن عبد ربه ؟واستقر عزمي آخر الأمر على إيثار الزميل أعبر به البحار والجبال وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه، وأريه مناظر لم ترها عينه، فللأديب على الأديب حق، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة، فنبذت الثياب وأخذت الأديب وانطلقنا..

لم يكن يخطر لي على بال.. أن هذا الأديب يلازمني على هذا النحوفي كل مكان، لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل ملازمة عصاي.. فأنا لا أخرج من الفندق في الصباح ولا أعود في المساء ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهى إلا ومعي ابن عبد ربه.. حقيقة أن في جوف هذا الأديب كثير من طلي الحديث وهوخير أنيس وجليس في مثل وحدتي)٢٠

20- ثورة الشباب – توفيق الحكيم

وإذا كان الحكيم قد نجح في الاختبار وآثر العقد الفريد فإن هناك من كان يهيم في القراءة فلا يدري بما حوله من الدنيا.!

أما ثروت أباظة فكان يقهر الصعاب ويتحدى العوائق من أجل القراءة.. فقد كان لا يكره شيئا في حياته كما كان يكره الاستيقاظ مبكرا والسبب في ذلك أنه كان يسهر إلى ساعات متأخرة من الليل يقرأ، وكانت القراءة تستهويه وتبتلعه حتى لا يفيق إلى الساعة التي ينام فيها، وظل عمره كله لا ينام إلا بعد أن يقرأ، وقد يقرأ ساعات متصلة أوأقل أوأكثر ولكن لابد له أن يقرأ على أية حال، ومن عجب أنه كان في رأس البر ولم تكن الكهرباء متاحة له، فكان يضع على صدره بطارية جيب ويقرأ عليها حتى يخفت نورها وتصبح الكلمات غير مقروءة فينام مرغمًا..

وفي غير ترتيب زمني راح يقرأ للعمالقة مبهورًا بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقله ووجدانه وكيانه كله، فأخذ يقرأ لطه حسين والعقاد وهيكل والزيات وأحمد أمين والمازني الذي جعله بخفة ظله يقيقه وهويقرأ وحده في غرفة مغلقة.. وتعلوقهقهته ويسمعها الذين بخارج الغرفة.. والله وحده يعلم ماذا كانوا يظنون به..

وهوتفاعل واندماج بالقراءة تفصل وعي صاحبها عن عامله ومحيطه فلا يدري بمن حوله أويعيرهم أي اهتمام، ولعله يذكرنا باسماعيل الجوهري،حينما استدعاه خاله الفيلسوف الفارابي ذات يوم من

حجرتـه فلـم يـرد عليـه لأنـه كان مسـتغرقًا في القـراءة رغـم صغـر سـنه، حتـى أيقظتـه أمـه مـن سـباحته العميقـة في بحـر المعرفـة العميـق.!

وصـدق (الجاحـظ) الـذي كان أكـثر النـاس أنسـا بالكتـب وحبـا في المطالعة وهوفخـر أمتنـا بمـا تـرك مـن تـراث فريـد يتمتـع بالظـرف والطرافـة والفائـدة وقـد حـداه الشـوق أن يصـف الكتـاب ومـاذا يعنـي لـه فقـال: (إنْ وَعَـظ أسـمَع، وإنْ أَلْهَـى أَمتَـع، وإنْ أَبْـكَى أدمـع، وإنْ ضرب أوجَـع، يفيـدك ولا يسـتفيد منـك، ويزيـدك ولا يسـتزيد منـك، إن جـدَّ فعـبرة، وإن مـزَح فنزهـة، قـبر الأسرار، ومخـزن الودائـع، قيـد العلـوم، وينبـوع الحِكَـم، ومعـدِن الكـرَم، ومُؤنِـس لا يسـأم، يفيـدك علـم الأوَّلـين، ويخـبرك عـن كثـيرٍ مـن أخبـار المتأخِّريـن، إن أطَلْـت النظـر إليـه أطـال إمتاعـك، وشحَـذ طباعـك، وفخَّـم ألفاظـك، إن ألَّفتـه خلَّـد عـلى الأيـام ذكـرَك، وإن درَّسـته رفـع في الخلـق قـدرَك، فأكـرِم بـه مـن صاحِـب، وأعـزِز بـه مـن موافِـق!)

ويقـول: (الكتـاب نعـم الأنيـس في سـاعة الوحـدة ونعـم القريـن ببـلاد الغربـة، وهووعـاء مـليء علـمًا وليـس هنـاك قريـن أحسـن مـن الكتـاب، ولا شـجرة أطـول عمـرًا ولا أطيـب ثمـرة ولا أقـرب مجتنـى مـن كتـاب مفيـد، والكتـاب هوالجليـس الـذي لا يمدحـك، والصديـق الـذي لا يذمـك والرفيـق الـذي لا يملـك ولا يخدعـك، إذا نظـرت فيـه أمتعـك وشـحذ ذهنـك، وبسـط لسـانك، وجـود بيانـك، وغـذى روحـك، ونمـى معلوماتـك، وهوالمعلـم الـذي إن افتقـرت إليـه لم يحقـرك وإن قطعـت عنـه المـادة لم يقطـع عنـك الفائـدة.

ولـولم يكـن مـن فضلـه عليـك إلا حفظـه لأوقاتـك فيـما ينفعـك وصونهـا عـما يـضرك مـن فضـول النظـر والـكلام والاسـتماع والمخالطـة ومجالسـة مـن لا خـير فيهـم، لـكان في ذلـك عـلى صاحبـه أسـبغ نعمـة وأعظـم منـة، فالكتـاب صديـق يقطـع أوقـات فراغـك في مؤانسـة تنجيـك مـن الوحـدة المملـة كـما ينقـل إليـك أخبـار البـلاد النائيـة فتعـرف أنباءهـا كـما تعـرف أنبـاء بلدتـك)

أمـا (عائـض القـرني) فيرسـم لنـا مـا يمثـل الكتـاب للقـاريء، وكيـف هـوفي حيـاة المطلـع، في سـفره الممتـع الـذي اعـترف فيـه بأنـه عاشـق فقـال: (مـا نظـر رجـل في كتـاب إلا خـرج بفائـدة فالغنيمـة الرابحـة قطـف الحكمـة مـن الصحـف.. إنـك يـوم تخلوبالكتـاب تطـوى لـك الزمـان وتطـل عليـك الدهـور وتناجيـك العـبر وتشـجيك العظـات وتصقلـك التجـارب وتدهشـك العجائـب، احلـب درر العلـم مـن ثـدي الأسـفار فـإن في الدفاتـر مملكـة الأفـكار، وصاحـب الكتـب مـع كتبـه أغنـى مـن قـارون الكنـوز، وأعـز مـن نعـمان الكتائـب وأحسـن حـالا مـن البرامكـة ومصاحـب القرطـاس أطيـب عيشـا مـن نديـم الـكاس، إن مصاحبـة الكتـب تصونـك مـن تيـه الملـوك وتحميـك مـن صلـف الجبابـرة وتحوطـك مـن سـطوة الظلمـة وتحفظـك مـن لـوم الحاسـد وتشـفي الشـامت ورؤيـة الثقيـل ومنـة البخيـل وكـدر الغبـي ومؤونـة المغتـاب وطيـش السـفيه لذلـك أدعـوإلى الإكثـار مـن فـلي الكتـب ودوام تفتيـش الصحـف والمصابـرة في مسـامر المصنفـات فـما قيمـة الزمـن بـلا مطالعـة ؟ ومـا فائـدة العمـر بـلا قـراءة ؟ وكيـف يحلوالعيـش بـلا كتـاب؟ ذهبـت الـدول ونـسي الملـوك وتعطلـت الأسـواق

ودرست المنازل وتهدمت القصور وبادت الحدائق وفنيت الأموال وهلك الرجال، ولكن خلدت الحكمة في الكتب وبقيت المعرفة في الصحف، وقر العلم في المؤلفات..

وبعد تجربة طويلة مع الكتاب، ورحلة عسيرة مع الأوراق، عدت بقناعة أنه لا أوفى ولا أصفى ولا أحفى مِن الكتاب، الصديق الذي لا يَملّ، أويعتب، أويهجر، أويجفوأويصد، أويخون، أما الكتاب فلا ملل ولا عتب ولا هجر، ولا جفاء، ولا صدود ولا خيانة فلما تيقنت ذلك صحبت الكتاب، فهوعلى ذراعي إذا نمت، وعلى صدري إذا اضطجعت وفي حضني إذا جلست، وتحت إبطي إذا مشيت)٢١

وقد حاز السلف العظيم قصب السبق في صحبة الكتب والأنس بها ففي الحيوان: (كان عبدُالله ابن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مقبُرَة من المقابر، وكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئل عن ذلك، وعن نزوله المقبُرَة؟ فقال:لم أرَ أوْعظ من قَبْر، ولا أمنعَ من كتابٍ، ولا أسلَمَ مِن الوَحْدة، فقيل له: قد جاء في الوَحْدة ما جاء! فقال: ما أفْسَدَها للجاهل وأصلحها للعاقل..)

وقال الحافظ أبي طاهر بن أبي الصقر:(هذه كتبي أحب إلي من وزنها ذهبا)..

---

21 – عاشق — عائض القرني

وقال الإصمعي لرجل: ألا أدلك على بستان تكون منه في أكمل روضة، ويكف عنك إذا سئمت ؟ قال: نعم قال: عليك بالكتاب.!

وذكر ابن رجب في (الذيل) في ترجمة عبدالصمد البغدادي العلامة المتفنِّن المتوفي (٦٧٦) أنه صنَّف خُطبًا انفرد بِفنِّها وأُسلوبها وما فيها من الصَّنْعة والفصاحة، وجمع منها شيئًا كثيرًا ذهبَ في واقعة بغداد مع كتبٍ له أُخرى بخطِّه وأُصوله، حتى كان يقول: (في قلبي حَسْرتان: ولدي وكُتُبي) (وكانا قد فُقِدا جميعًا في واقعة بغداد)٢٢

ولعل ما يعبر عن أسفه ويجسد معنى حسرته قول أحدهم:

أجلّ مصائب الرجل العليم مصائبه بأسفار العلوم
إذا فقُد الكتاب فذاك خطب عظيم قد يجل عن العميم
وكم قد مات من أسف عليها أناس في الحديث وفي القديم

وجاء في ترجمة الفيروزآبادي أنه اقتنى كتبًا نفيسة حتى سمعه بعضهم يقول: (اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهبًا كتبًا وكان لا يسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال، ويخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل)

كان الإمام السيوطي قد نشأ في بيت علم وتقوى، (وتفتحت عيناه على والده الذي يواظب على قراءة القرآن وعلى كتب العلم التي يراها أمامه في كل ركن من أركان البيت وهوصغير، والإنسان ابن

22 - ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٩٢).

بيئته قاعدة عامة قد تشذ أحيانا ولكنها مع السيوطي لم تشذ، وكانت ولادته بين الكتب.. ذلك أن أباه كما يقول العيدروس في (النور السافر من أخبار القرن العاشر) احتاج إلى مطالعة كتاب فأمر الأم أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعته فأطلق عليه: ابن الكتب)٢٣

وقال فيه البستاني (هوصاحب التصانيف الكثيرة في كل فن، ولا غروفإن ما كان عليه من الفكر الثاقب والحذق الشديد والاجتهاد في المطالعة والاقتصار من الدنيا على القلم والقرطاس، مع خلوالظروف من بوائقها، ومساعدة الاحوال له في أعماله، وإعطاء أوقاته حقوقها من العمل، وقريحته شوطها في ميدان البلاغة، وإطلاق غارة أفكاره في ميدان الأدب، كل هذا قد أدى بهذا العالم المدقق إلى إنشاء تصانيف كثيرة)٢٤

(وكان رحمه الله لا يكتب في موضوعًا إلا بعد الرجوع إلى ما كتب حوله وكان دائب القراءة لا يفتر كثير الاطلاع، وحينما كتب كتابه الشهير الاتقان في علوم القرآن اطلع على كتب لا تحصى تدور حول كتب التفسير وعلوم القرآن وجوامع الحديث والمسانيد وكتب الاحكام والإعجاز وفنون البلاغة وغير ذلك، وقد ذكر كل الكتب التي رجع إليها في صدر كتابه وفي أثناء مقدمته بما يقرب من مائتي كتاب

23- الحافظ السيوطي – عبد الحفيظ فرغلي القرني
24 - دائرة معارف البستاني ج١٠ ص ٣٥٨

وكلها من الكتب الجوامع التي تفيض بالعلم وتزخر بالمعرفة)٢٥

ونقل الشوكاني عن المؤيدي اليماني قوله في البدر الطالع: (كان من عجائب الدهر وغرائبه في مجموع عمره تسع وعشرون سنة، وقد فاز من كل فن بنصيب وافر، وصنف في هذا العمر القصير التصانيف المفيدة، والفوائد الفريدة العديدة وذكر عددًا منها ثم قال: وإذا سافر أول ما تضرب له خيمة الكتب، وإذا ضربت دخل إليها، ونشر الكتب والخدم يصلحون الخيم الأخرى، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم ويحرر ويقرر مع سلامة ذوقه..)

وقيل:

نعم المؤانس والجليس كتاب تخلوبه إن خانك الأصحاب

لا مفشيًا سرًا ولا متكدرًا وتفاد منه حكمة وصواب

وقال عمروبن العلاء: ما دخلت قط على رجل ولا مررت بداره، فرأيته في بابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه أنه أفضل منه عقلًا.

وقيل لرجل: ما يؤنسك؟ فضرب على كتبه وقال: هذه.. قيل: فمن الناس، قال: الذين فيها.!

وقيل لبعضهم: أما تستوحش؟ قال: يستوحش من معه الأنس كله؟

---

25 - الحافظ جلال الدين السيوطي –عبد الحفيظ فرغلي - سلسلة أعلام العرب ص١١١

قيل وما الأنس؟ قال: الكتب.!

وكان منهم من يعز عليه فراق الكتاب، حكى التِّبْريزي أن أبا الحسن الفالي الأديب، كانت له نسخة بكتاب (الجمهرة) لابن دُرَيْد في غاية الجَوْدَة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها، واشتراها الشريف المرتضى أبوالقاسم -المذكور- بستين دينارًا، وتصفَّحها فوجدَ بها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أنِسْتُ بها عِشرينَ حولًا وَبِعْتُهـا لقدطالَ وَجْدي بعدَها وحنيني

وما كان ظَنِّي أَنَّني سأَبيعها ولوخلَّدتني في السجون ديوني

ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ صِغارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شُئوني

فقلتُ ولم أَمْلك سوابق عَبْرةٍ مقالة مكويِّ الفؤادِ حَزِينِ

وقد تُخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنينِ

وجاء في السير للذهبي في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس أنه (كان ذا غرم بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة حقها وباطلها، بحيث أنها قاربت نحوًا من مئتي ألف سِفر.. وكان باذلًا للذهب في استجلاب الكتب ويعطي من يتجر فيها ما يشاء، حتى ضاقت بها خزائنه لا لذة له في غير ذلك وقل أن تجد كتابا إلا وله فيه نظر وفائدة)

وساق (ابـن عبدالـبر) في (جامـع بيـان العلـم وفضلـه) أن (أحمـد بـن محمـد بـن شـجاع) بعـثَ غلامًـا مـن غِلْمانـه إلى أبي عبدالله بـن الأعـرابي - صاحـب الغريـب- يسـأله المجـيءَ إليـه، فعـاد إليـه الغـلام، فقـال: قـد سـألته ذلـك، فقـال لي: عنـدي قـوم مـن الأعـراب، فـإذا قضَيـتُ أَرَبي منهـم أتيـتُ، قـال الغـلام: ومـا رأيـتُ عنـده أحـدًا، إلا أن بـين يديـه كتبًـا ينظـر فيهـا، فينظـر في هــذا مـرَّة وفي هــذا مـرة، ثـم مـا شـعرنا حتـى جـاء، فقـال لـه أبوأيـوب: يـا أبـا عبداللـه! سـبحان اللـه العظيـم، تخلَّفـت عنَّـا وحَرَمْتنـا الأُنـسَ بـك، ولقـد قـال لي الغـلامُ: إنـه مـا رأى عنـدك أحـدًا، وقلـتَ: أنـا مـع قـومٍ مـن الأعـراب، فـإذا قضيـتُ أَرَبي معهـم أتيـتُ، فقـال ابـنُ الأعـرابي:

لنـا جُلَسـاءٌ مـا نَمَـلُّ حديثَهـم   أَلِبَّـاءُ مأمونـون غَيْبًـا ومَشْـهدا

يُفيدوننـا مـن علمهـم علـمَ مـا مضى   وعقـلًا وتأديبًـا ورأيًـا مُسَـدَّدا

بِـلا فتنـةٍ تُخـشى ولا سـوء عِـشْرةٍ   ولا يُتَّقَـى منهـم لسـانًا ولا يـدا

فـإن قلـتَ: أمـواتٌ فـلا أنـتَ كاذِبٌ   وإن قلـتَ: أحيـاءٌ فلسـتَ مُفنَّدا

وأخـيرا قـال (جلـبرت وايـت): (ليـس هنـاك كتـب أوأكـوام مـن الأوراق الميتـة عـلى الأرفـف.. بـل هـي عقـول حيـة)

ولعلنـا نـدرك بعـد المعنـى حينـما نعيـش مـع خالـد في تأملـه لهـذه الصحبـة حيـث يقـول:(وهنـا نتأمـل مـاذا لواسـتطاع العلـم أن يـرد إلى

الحياة بعض الناس لبعض الوقت، وأذيع مثلا أن سقراط وأفلاطون والغزالي وشكسبير والمعري وتوم بين وروسووفولتير وابن رشد والفارابي وهيجل وماركس وجيته وأرسطوسيكونون يوم كذا في مكان ما من العالم.. وخلال الفترة التي سيقضونها أحياء سيستقبلون زائريهم ويتحدثون إليهم ويجيبون عن أسئلتهم.. أفلا تركب إليهم ثبج البحار، ومخاطر الجووتنفق من ثروتك بسخاء، كي تبلغ مكانهم وتجلس إليهم ؟!

ألا فاعلم أن العلم قد دهم إلى الحياة فعلا، وأنهم وجميع إخوانهم المفكرين جالسون هناك ينتظرونك في كل وقت.. وفي أقرب مكان وبأيسر نفقة.. !! أجل في أي مكتبة من المكتبات المبثوثة تلتقي بهم في مؤلفاتهم.. لقد اخترع العلم الطباعة، وصنعت الطباعة الكتاب، وخلدت بين دفتيه أعظم تراث للبشرية كلها؛ وهوالفكر..

واعلم أيضا أنك حينما تجلس مع كتب أفلاطون أوشكسبير أوابن خلدون، فأنت في الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء في أصفى ساعات حياتهم، وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لوكنت تجالسهم أحياء..!)٢٦

---

26 – الوصايا العشر لخالد محمد خالد

حتى لا يضيع العمر !

يا لها من مأساة محزنة حينما تجد المقاهي تغص بالشباب والشيوخ، فإذا اقتربت من أحدهم وسألته ماذا تصنع هنا؟ يقول لك: أقتل الوقت.. وهكذا أصبح أثمن شيء في الحياة عبئًا على الإنسان يريد أن يقتله ويتخلص منه، وهولا يعرف كيف يستثمره ويستفيد منه، أويرفع من قدراته عبر اكتساب المعارف والثقافات، أوالشراكة في مشروع أوخطة تهدف إلى نموالمجتمع وازدهاره..!

وتأتي القراءة من أعظم السبل التي تقضي فيها وقتك، وتذهب فيها ساعات عمرك..والتي بالتأكيد لا تذهب هباء، بعدما أحيت فيك قيمة العقل وأصقلته بالمعرفة والحكمة والخبرة والدراية..

أما الذي عاش عمره دون أن يطالع كتابًا، فهومسكين لابد أن نتحسر عليه قبل أن نسخط منه، لأنه جهل طريق المعرفة ولم يجد من يرشده لطريق السعادة..أما الفطنون لقيمة أعمارهم،فقد سارعوا ليملأوا كل لحظة فيها بالفائدة، وكان منهم محبوالقراءة والمدركون لقيمة الكتاب، فإنهم لم يشغلوا أوقاتهم بالقراءة فحسب، بل راحوا يبحثون في أعمارهم عن هذه الأوقات الضائعة التي تضيع من حياة الناس دون أن تستلفت انتباههم..!

يناير- ٢٠١٦

نعم.. ففي حياة كل منا أوقات كثيرة ضائعة تفلت من وقته ومن حياته من حيث لا يدري،خاصة إن كان من هؤلاء الحريصين على أوقاتهم، ولوأنه جلس في نهاية كل أسبوع ليحصي هذه الأوقات الضائعة على مدار هذه الأيام السبعة، لوجدها كثيرة كبيرة، فإذا اغتنمها في شيء نافع لربما حقق إنجازا يذكر.

وتأتي هذه الأوقات كأوقات الانتظار في عيادات الأطباء أوالوقوف في الطوابير لانتظار دورنا فيما نريده من أمور المعاش، أوالانتظار في الدوائر الحكومية لإنجاز الإجراءات اللازمة لإنجاز مصالحنا، أوالانتظار في السيارة وقت الزحام، أوفي أوقات السفر في المطارات والطائرة والقطار..!

ولعل القراءة والثقافة هي أروع وأليق ما يستطيع المرء إنجازه في مثل هذه الأوقات، وعليه دومًا أن لا يسير إلا وبصحبته كتابه الذي يقرأ فيه، ليكون سلوته في مثل هذه الظروف الفاترة والمواقف المملة، وحتى لا يسبب له الكتاب أي حرج في حمله والسير به، فإنه ينصح بحمل الكتب ذات المقطع الصغير والحجم القليل، التي لا تُسبب أي شعور بالعناء في حملها، أوالعبء في السير بها..كروايات وكتب الجيب أوما يشبهها من الطبعات الصغيرة التي أعدت خصيصا لهذا الغرض، والقراءة في هذه المواقف قادرة أن تزيل أي نوع من الشعور بالقلق والتوتر، وتساعد القاريء قضاء وقته بإفادة عظيمة وتجنب أي إحساس بالملل والفتور.!

ويذكر أن (تشارلز داروين) صاحب كتاب (أصل الأنواع) كان يقسم الكتاب إلى نصفين، ويحمل كل نصف في جيب من جيوبه، وكان يقول: إنه لا يستطيع حمل الكتاب بيده، وكذلك من الصعب وضع الكتاب كله في جيب واحد.)

ويقول (كونفوشيوس):(مهما بلغت درجة مشغولياتك، فلابد أن تجد وقتًا للقراءة، وإن لم تفعل فقد أسلمت نفسك للجهل بمحض إرادتك) ولعل أروع المواقف التي عرفت في هذا الإطار هوما جاء عن الإمام (ابن القيم الجوزية) أنه ألف كتابه العظيم (زاد المعاد في هدي خير العباد) وهوذاهب للحج على راحلته، وكذلك موقف الإمام الشهيد (حسن البنا) رحمه الله، فحينما صدر كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور (طه حسين) غفر الله له وأحدث ضجة هائلة بين المثقفين، الذين تحولوا بين قادح ومادح ناقد ومؤيد وأعلن حينها أن الأستاذ (حسن البنا) سيناقش الكتاب ويعطي فيه رأيه في حديث الثلاثاء الذي كانت تحتشد فيه جماهير غفيرة ومن كل الشرائح والطبقات لتستمع إلى (حسن البنا) وهنا عزم الدكتور(طه حسين) أن يحضر هذا اللقاء في مكان خفي، حتى يسمع رأي (حسن البنا) ونقده للكتاب.. ولم يجد البنا رحمه الله متسعًا من الوقت ليقرأ فيه الكتاب إلا ذهابه وإيابه في الترام، حيث قرأ الكتاب واستوعبه وخط النقاط التي منها سينطلق حديثه، لقد اغتنم وقته ولم يضيع منه هفوة.. ولم تكن قراءة الكتاب حجة له ليأخذ إجازة أوينعزل عن الناس بعلة الوقوف على مكامن النقد فيه، خاصة وأن الجميع

ينتظر رأيه، وحينما حان وقت الحديث.. عرض الكتاب بدقة باهرة، وكان يستشهد منه بنقاط يحفظها وكأنه قد عكف على قراءته ليل نهار، فأُعجب الدكتور طه برأيه وتحليله الذي خلا من كل مسحات الهجوم والتوبيخ والتعريض، وطلب بعدها أن يلتقي بحسن البنا وكان قوله الشهير:(لوكان كل أعدائي مثل حسن البنا، لكنت أول من مددت لهم يدي بالعون.!)

ولك أن تتخيل أن ينصرف ذهن أحدهم إلى نموذج من هذه الأوقات الضائعة من حياتنا، والتي لا يفكر فيها أحد، وهووقت قضاء الحاجة، فقد حاول رجل أن يستفيد من هذا الوقت المهمل والضائع في حياة الكثيرين، فأخذ معه كتابًا صغيرًا وصمم على قراءته في وقت قضاء الحاجة، فاكتشف أن هذا الوقت الذي يخجل بعض الناس من التحدث عنه، يمكن أن يُغتنم في المطالعة وأنه لواغتنم بشكل جيد، فسوف يوفر ما يقارب من المائة والخمسين دقيقة شهريًا !

ولعل هذا الموقف شبيه بما قاله ابن القيم في روضة المحبين: (وحدثني أخوشيخنا (يقصد أخوالإمام بن تيمية) وهوعبد الرحمن بن تيمية عن أبيه عبد الحليم قال: كان الجد أبوالبركات إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع).. وذلك لكي لا يضيع الوقت في غير القراءة ومطالعة العلم..ويوجد في أمريكا ما يسمى بهيئة قراء الحمام وهي مؤسسة تجارية للطباعة والنشر ظهرت في عام ١٩٨٨م، وتقوم فقط بطباعة كتب ثقافية خفيفة الطابع مخصصة للقراءة أثناء التواجد في الحمام لقضاء الحاجة.!

وبعضهـم ومـع تطـور الزمـن لجـأ إلى فكـرة جيـدة، وربمـا يستحسـنها الكثـيرون ممـن يحبـون القـراءة أويصعـب عليهـم حمـل الكتـاب وهـي وسـيلة الكتـاب المسـموع، وهوعبـارة عـن تسـجيل صـوتي لمجموعـة مـن الكتـب المتنوعـة يمكـن للشـخص أن يسـمعها بأذنـه وهـوفي أي مـكان سـواء كان مسـافرا أومنتظـرا أويمـارس الرياضـة، ويقـال بإنهـا بـدأت في الغـرب وحققـت نجاحـا ملموسًـا عـلى مستوى مـن يرغبـون في اغتنـام أوقاتهـم والاسـتفادة منهـا.. !

كان أحـد أخـوالي وهوخريـج دار العلـوم لديـه مكتبـة كبـيرة، وقـد بلـغ السـتين مـن عمـره وأحيـل إلى المعـاش، وكان مولعًـا بـشراء الكتـب حتـى بعـد خروجـه للمعاش،وهومـا دعـاني لأسـأله: لمـاذا تشـتري الكتـب وتحشـدها في مكتبتـك، وكأننـي ألمـح بسـؤالي إلى سـنه الكبـير وأن مـا سـلف لـه لـن يكـون بحجـم مـا بقـي، فـإذا بـه يعاجلنـي قائـلًا: إن زمـن القـراءة لم يـأت بعد..بـل هوقـادم في الطريـق.. وهومـا أثـار عجبـي واندهــاشي..!

وتذكرتـه وأنـا أقـرأ للأسـتاذ (عبـد الوهـاب مطـاوع) في كتابـه (أرجـوك أعطنـي عمـرك) قولـه (إن قـوة الخلـق والابتـكار لـدى الإنسـان تبـدأ غالبًـا بعـد الأربعـين لأن عقلـه لا يهـرم ولا يشـيخ، وإنمـا يـزداد توهجًـا إذا حافظ عـلى اهتمامـه بالحيـاة مـن حولـه وحـرص دائمـا عـلى أن يجعـل لنفسـه في كل مرحلـة مـن مراحـل العمـر هدفـا صغـيرا يسـعى لتحقيقـه، ثـم ينتقـل مـن بعـده إلى هـدف آخـر قريـب فالشـيخوخة الحقيقيـة هـي الإحسـاس

المدمر بأن العمر قد انقضى ومات الأمل وضاعت الأهداف والغايات والاهتمامات وليست في أي شيء آخر..)

ثم يسرد الأستاذ مطاوع قصة رجل كان موظفا حكوميا كبيرا أحيل للمعاش منذ ٨٢ عاما إلى كتابة هذا الكلام حيث كان الرجل يقضي أوقاته في القراءة والبحث والكتابة بالرغم من أنه لم يكن في يوم من الأيام كاتبًا ولا باحثا، لكنه أراد أن يحافظ على توهج الشمس الداخلية لديه فخلق لنفسه هذا الاهتمام الجديد وراح يقرأ ويبحث ويكتب، حتى ولولم يقرأ أحد ما كتبه!

وقد فاجأ الأستاذ عبد الوهاب يومًا بدراسة من ٣٠٠٠ صفحة كتبها بخط يده وبخط جميل مرتب عن مشكلات الأسرة المصرية من خلال رسائل بريد الجمعة في فترة زمنية محددة وأهداها له فأعجب الأستاذ بها وبهمة الرجل وحيويته وحسن اختياره لما شغل به نفسه ووقت فراغه، طبعها له في الأهرام ٥٠٠ نسخة وأهداها لمكتبات كليات الإعلام والدور الصحفية والمهتمين بهذه النوعية من الدراسات.. ثم غاب عنه فترة ورجع إليه بدراسة أخرى من ٣٠٠صفحة عن بريد الأهرام وتيارات الرأي العام التي يعكسها خلال فترة محددة، ثم بدراسة ثالثة ورابعة حتى بلغ مجموع صفحات دراساته هذه ١٤٠٠ صفحة كتبها بخط يده وظل الرجل بعدها يقرأ ويبحث ويكتب.!

إن العمـر لم يتوقـف بـه حينـما توقفـت وظيفتـه، وإنمـا اسـتطاع أن يوجـد لنفسـه حيـاة أخـرى، وأضـاف لنفسـه عمـرًا آخـر، وكان ميـدان القـراءة والكتابـة هوالـشيء الوحيـد الـذي بقدرتـه أن يمنحـه هـذا الشـعور.

(لـكي يتمكـن أي شـخص مـن أن يجعـل القـراءة جـزءًا مـن حياتـه اليومية، عليـه أن ينمـي هـذه الملكـة حتـى تصبـح عنـده شـيئا اعتياديـا ونظامـا دائمـا في حياتـه كالأكل والـشرب..! تقـول إحـدى الإحصائيـات:

إن ثمانــين بالمائــة ممــن لا يقــرؤون كتابًــا في الشــهر يتذرعــون بأنــه ليـس لديهـم وقـت لذلـك، وهـذا أمـر غريـب لأنـه مثلـما يجـد المـرء وقتـا للطعـام والـشراب، ومثلـما يجـد وقتًـا للتسـوق ولمشـاهدة التلفـاز وللجلـوس مـع الأصدقـاء يمكنـه لـوأراد أن يجـد وقتًـا للقـراءة، وأمـا أولئـك الذيـن يقضـون سـاعات طـوالًا في النـوم فهـؤلاء لا يقبـل منهـم بـأن يعتـذروا بقلـة الوقـت المتـاح للقـراءة.!)٢٧

يقــول (ابــن القيــم) رحمــه اللــه: (وقــت الإنســان هوعمــره الحقيقــي ومــادة حياتــه الأبديــة في النعيــم المقيــم، ومــادة معيشــته الضنــك في العـذاب الأليـم وهويمـر مـر السـحاب فـما كان مـن وقتـه للـه وباللـه فهوحياتـه وعمـره وغـير ذلـك ليـس محسـوبا مـن حياتـه وإن عـاش فيـه عـاش عيشـة البهائـم، فـإذا قطـع وقتـه في الغفلـة والسـهووالأماني الباطلـة وكان خـير مـا قطعـه بـه النـوم والبطالـة فمـوت هـذا خـير مـن حياتـه)

---

27 - القراءة الزكية — ساجد العبدلي

ويقـول ابـن الجـوزي: (ينبغـي للإنسـان أن يعـرف شرف زمانـه وقـدر وقتـه، فـلا يضيـع منـه لحظـة في غـير قربـة، ويقـدم فيـه الأفضـل فالأفضـل مـن القـول والعمـل، ولتكـن نيتـه في الخـير قائمـة مـن غـير فتـور بمـا لا يعجـز عنـه البـدن مـن العمـل).

وكان عليـه رحمـة اللـه، مـن أحـرص النـاس عـلى أوقاتهـم وإفنائهـا في العلـم والقـراءة والتصنيـف، وكان يشـتكي مـن زواره لأنهـم يكـثرون زيارتـه فيفسـدون عليـه وقتـه ويضيعونـه، فـماذا يفعـل ليسـتفيد مـن هـذا الوقـت ؟! قـال: (أعـددت أعـمالا لا تمنـع مـن المحادثـة، ولكـن لابـد منهـا لأوقـات لقائهـم لئـلا يمـضي الزمـان فارغـا، فجعلـت مـن الاسـتعداد للقائهـم قطـع الكاغـد وبـري الأقـلام، وحـزم الدفاتـر، فـإن هـذه الأشـياء لابـد منهـا ولا تحتـاج إلى فكـر وحضـور قلـب فأرجأتهـا لأوقـات زيارتهـم لئـلا يضيـع شيء مـن وقتـي)

ومثلـه كان (مصطفـى صـادق الرافعـي) رحمـه اللـه فمـن يـأتي لزيارتـه، كان يجلـس معـه ويـأتي بكتـاب ويقـرأ مـع زائـره لـكي يغتنـم وقتـه فـلا يضيـع في القيـل والقـال ومـا لا نفـع فيـه.!

أمـا الإمـام (سـليم بـن أيـوب الـداري) وهومـن كبـار أئمـة الشـافعية، فكان يحاسـب عـلى الأنفـاس أن تضيـع دون فائـدة فقـد قـال التنوخـي الصوري: وحدثـت عنـه أنـه كان يحاسـب نفسـه عـلى الأنفـاس، لا يـدع وقتًـا يمـضي عليـه في غـير فائـدة، إمـا ينسـخ وإمـا يـدرس وإمـا يقـرأ، فينسـخ شـيئا كثـيراً، ولقـد حدثنـي عنـه شـيخنا الإسـفراييني وهوأحـد تلامذتـه بقولـه:

أنـه نـزل يومًـا عـلى داره ورجـع فقـال: قـد قـرأت جـزءًا في طريقـي.!

وكان لموقـظ الـشرق (جـمال الديـن الأفغـاني) همـة كبـيرة وفي سـن مبكـرة حيـث كتـب عنـه تلميـذه المسـيحي (أديـب إسـحاق) فقـال:

(إنـه تبحـر في العقـول والمنقـول وغلبـت عليـه مذاهـب قدمـاء الحكـماء، فداخلـه في ذلـك بـداءة بـدء شيء مـن التصـوف، فانقطـع حينًـا بمنزلـه يطلـب الخلـوة لكشـف الطريقـة وإدراك الحقيقـة، حتـى صـار لـه في القـوم كثـير مـن الأتبـاع والمريديـن، كل ذلـك وهـودون العشريـن)

كـما أن التمـرس في القـراءة يُعطـي فائـدة هامـة وهـي الحفـاظ عـلى الوقـت مـن الهـدر والضيـاع، فلوأنـك قـرأت يومـا لكاتـب مـن الكتـاب، ورأيـت أن كتابتـه وصياغتـه وأسـلوبه وتناولـه لا يروقـك، فإنـك لـن تقـرأ لـه مـرة أخـرى، وهـذا مـن أهـم عوامـل حفـظ الوقـت، وربمـا نجـد ذلـك في بعـض دور النـشر التـي تنـشر كتبـا لا تسـتهويك،لأنها تنتهـج انتهاجـا فكريًـا يخالـف توجهـك ولاينسـجم معـك، فإنـك بالبديهـة سـتعرض عـما تنتجـه مـن هـذه الكتـب، فـلا يضيـع وقتـك فيـما لا تحبـه..

وقـد ألمـح أحـد الكتـاب إلى شيء هـام جـدا يحفـظ عـلى القـاريء وقتـه وجهـده، فقـد يخطـيء كثـير مـن القـراء حينـما يقعـون في فـخ إحساسـهم أواعتقادهـم بوجـوب إكـمال أي كتـاب يشرعـون في قراءتـه، فالحقيقـة أن هـذا فـخ خطـير يـصرف القـاريء عـن اسـتكمال سـياحته في عـالم القـراءة البديـع..

ويقـول أحـد الأشـخاص:إنه شرع في قـراءة كتـاب منـذ سـنوات عـدة، ولا يـزال لم ينتهـي منـه لأنـه كتـاب عسـير وثقيـل، ثـم يـردف قائـلًا: بأنـه وبالرغـم مـن ذلـك مصمـم عـلى إنهائـه، طـال الزمـان بـه أوقـصر، والحقيقـة أنـه مخطـيء، وربمـا يظـن أنـه يحسـن صنعًـا !

وذلـك لأن هـذا الوقـت الـذي أهـدره في مصارعـة كتـاب لا يحبـه، كان بإمكانـه أن يصرفـه لقـراءة كتـب عديـدة، أقرب لنفسـه وفهمه واسـتيعابه، لأن قـراءة الكتـاب ليسـت هـي الغايـة، وإنمـا القـراءة والفائـدة منهـا هـي الغايـة الكـبرى، فالقـراءة رحلـة وسـياحة في عـالم الفكـر لأجـل الاسـتمتاع والحصـول عـلى الفائـدة، فـإن وجـد الإنسـان في رحلتـه أنـه لا فائـدة ولا متعـة، فلـماذا يواصـل الرحلـة إذن. ؟!عليـه أن يقطعهـا ويتجـه إلى رحلـة أخـرى فيهـا مـا يريد..)ومـن هنـا جـاء النصح بالسـؤال عـن الكتـب الجيـدة، والبحـث عنهـا وقراءتهـا، حتـى يتحقـق المقصـود ويحافـظ المـرء عـلى وقتـه الثمـين..

يقـول (رينيـه ديسـكارتيس): (إن قـراءة الكتـب الجيـدة هـي بمثابـة التحـاور مـع أعظـم العقـول التـي عاشـت عـبر العصـور).

أطفالنا والقراءة

تقول (جاكلين كيندي):(ليس من طريقة تتسع بها آفاق وعوالم طفلك مثل تحبيبهم للقراءة)

حينما يطبع حب القراءة في نفوس الصغار، فلا شك أنهم سيكونون قراءً في المستقبل، وسيمثل لهم الكتاب ضرورة هامة في حياتهم لا يفارقونه أويستغنون عنه، وهذا تحديدًا ما نريده إن أردنا السير على درب الرقي والنهوض.

كثير من النابغين ما ألفوا الثقافة، وشقوا طريقهم الذي ارتسم لهم، إلا حينما وجدوا من يشجعهم ويدفعهم إلى القراءة وصحبة الكتاب والتعرف عليه والولوج إلى داخله، حتى تصير القراءة موهبة تجري في عروقه ويشب عليها طبعه..وكثير منهم لم يجدوا تشجيعًا أوحرصًا.. ولكن قدر لهم أن يروا من آبائهم أوإخوانهم من يقرأ أمامهم فشرعوا في محاكاتهم وتقليدهم وصاروا يهتمون بالكتاب حتى تولدت موهبة القراءة في وجدانهم.

أذكر وأنا صغير وفي بداية علاقتي بالكتاب أن من أكبر العوامل التي حفزتني على القراءة، صورة أخي الكبير وهويقرأ وهوما ولد في نفسي اندفاعا لمحاكاته وتقليده..

وقد أثبت تاريخ القراءة أن القدوة فيها عنصر هام وخطير في تدريب الناشئة والأجيال على القراءة، وإذا ما أردنا درسًا عمليًا واقعيًا في ذلك، فليس أرفع فيه مما حدث للطبيب الدكتور (نجيب محفوظ) وهوغير الأديب الكبير (نجيب محفوظ)، وتشابه الاسم بينهما ليس مصادفة، فالدكتور (نجيب محفوظ) هوالذي أشرف على ولادة أم الأديب الكبير التي كانت متعسرة، فما كان من تقدير الأب لهذا الجهد، إلا أن سمى وليده باسمه.!.

لم يكن الاسم وحده الذي يربط بين الشخصين، فقد كان الدكتور (نجيب محفوظ) أديبًا جديرًا بقدر ما كان طبيبًا عبقريًا، تَعرِفُ ذلك من كتابه (حياة طبيب) الذي عرض فيه سيرته الذاتية ومشوار حياته، وقدم له عميد الأدب العربي (طه حسين)، وأشاد فيه بأسلوبه، وذكر أنه من فرط حلاوته قرأه مرتين، ويعزم على قراءته للمرة الثالثة.

ولك أن تعلم أن هذه الملكات الثقافية، كانت نتاجًا للظروف التي أحاطت به وشجعته، فوالده كانت له مكتبة كبيرة، حوت كتبًا كثيرة في ميادين شتى، وأبرزها كُتب الدين التي طالعها نجيب في أوقات فراغه، وتعلم منها آداب المناظرة والإيمان بالحرية لكل ذي فكر، كما كان أبوه مشتركًا في شتى الصحف اليومية والمجلات العلمية، وكانت تعقد بمنزلهم جلسات في قاعة الاستقبال، يدور فيها الحوار بين أزواج أخواته، ويتناولون مختلف الموضوعات، فكان أحدهم يتلوالصحيفة بصوت عال وتدور بعدها المناقشات.

ويحـكي الدكتـور (نجيـب) في كتابـه: (مـا أذكـره لأبي أنـه كان يريـدني أن أقـرأ لـه قبيـل نومـه إصحاحًـا مـن الكتـاب المقـدس، ويـشرح لي مـا يخفـى عـلي أثنـاء القـراءة مـن دقائـق المعـاني، وكانـت أمـي تسـتظهر كثـيراً مـن الآيـات، وتفـسر لي مـا يغمـض مـن معانيهـا، وفيـما بـين الثامنـة والثانيـة عـشرة مـن عمـري، اشـتد شـغفي بالقـراءة، فلـم أكـن أدع مـن مكتبـة أبي كتابًـا إلا طالعتـه، كـما أني كنـت أحـرص عـلى قـراءة مـا يأتينـا مـن نـشرات تجاريـة تبـين أسـعار القطـن وحركـة الأوراق الماليـة، فـإذا اسـتعصى عـلي فهـم شيء منهـا اسـتعنت بـأبي عـلى حـل مـا يعترضنـي مـن غمـوض).

كل هـذه العوامـل ومـا إليهـا.. قـد وجهتـه نحوالثقافـة والقـراءة وحـب العلـم والمعرفـة، فهـي تشـجيع ودافـع صنـع منـه عقليـة ماهـرة متفوقـة.

وهنـــاك مـــن لم يكـــن لآبائهـــم دور في توجيههـــم نحوالقراءة..وإنمـــا كان هنـاك وفيـما يحيـط بهـم، منـاخ يذكـر الكتـب ويقـود إلى مـا فيهـا مـن متعـة.. ومـن هـذا الصنـف كان عميـد الأدب العـربي (طـه حسـين) فرغـم فقـده لبـصره ووجـوده في بيئـة ريفيـة تمـوج بالفقـر تـارة وبالخرافـة تـارة أخـرى، إلا أنـــه عـــرف الكتـــاب وعـــرف الطريـــق للقـــراءة ولعلهـــا كانـت البدايـة التـي صنعـت منـه هـذا الأديـب الكبـير، فقـد كان باعـة الكتـب يتنقلـون في القـرى والمـدن بخليـط مـن الأسـفار،وكانوا يحملـون في حقائبهـم مناقـب الصالحـين، وأخبـار الفتـوح والغـزوات، وقصـة القـط والفـأر، وحـوار السـلك والوابـور، وشـمس المعـارف الكـبرى في السـحر وكتبًـا أخـرى، وقصـص المولـد النبـوي، ومجموعـات مـن الشـعر الصـوفي،

ثـم كتبًـا في الوعـظ والإرشـاد، وأخـرى في المحـاضرات وعجائـب الأخبـار، ثـم قصـص الأبطـال مـن الهلاليـين والزناتيـين، وعنـترة، والظاهـر بيـبرس، وسـيف بـن ذي يـزن، والقـرآن الكريـم، وكان النـاس يشـترون الكتـب كلهـا، ويلتهمـون مـا فيهـا التهامًـا، وكانـت عقليتهـم تتكـوّن مـن خلاصتـه كـما تتكـون أجسـامهم مـن خلاصـة مـا كانـوا يأكلـون ويشربـون.

وقـد قـرئَ لطـه حسـين مـن كل هـذه الكتـب، وكان يحفـظ منـه الـشيء الكثـير، ولكنـه عُنـي بشـيئين عنايـة خاصة:عُنـي بالسـحر، وعُنـي بالتصوف،(وما كان أبعـد صبينا وأترابـه عـن (ابـن خلـدون) وأمثـال (ابـن خلـدون)! إنمـا كانـت تقـع في أيديهـم كتـب السـحر ومناقـب الصالحـين وكرامـات الأوليـاء، فيقـرؤون ويتأثـرون ثـم لا يلبثـون أن يتجـاوزوا القـراءة والإعجـاب إلى الاقتـداء والتجربـة، وإذا هـم يسـلكون مناهـج الصوفيـة ويأتـون مـا يأتيـه السـحرة مـن ضروب الفـن، وكثـيرًا مـا يختلـط في عقولهم السـحر والتصـوف، فيصبـح كلاهـما شـيئًا واحـدًا، غايتـه تيسـير الحيـاة والتقـرب إلى اللـه.)٢٨

وكان السـحار أول مـن قـرأت لـه مـن الأدبـاء، وقـد كانـت لـه طفولـة عـرف فيهـا طريقـه للكتـاب والقـراءة، حيـث يصـور لنـا ذلـك الميـلاد الـذي جـاء عـن طريـق المحـاكاة والتقليـد، والـذي لم يكـن متعمـدًا، أوإلى ذلـك قاصـدًا، حينـما كانـت الأحاديـث تـدور في السـلاملك بـين أخويـه أحمـد وسـعيد وأصدقائهـما حـول الروايـات التـي قرؤوهـا وحـول المجلـة،

---

28 – الأيام — طه حسين

وكانت الأحاديث في الليل بين أبيه وصحبه تدور حول الكتب التي كانوا يقطعون الوقت بقراءتها والتعليق عليها، فاشتهى أن يشارك في تلك الأحاديث، وشحذ ذلك همته فعزم على القراءة كما يقرؤون وأن يدلي برأيه فيما يقولون..يقول: (فأقدمت متهيبا على قراءة ماجدولين للمنفلوطي ولكن ما أن قرأت بضع صفحات حتى أحسست سرورًا يغمرني؛ إنني أستطيع أن أفهم ما أقرأ وأن أتأثر به وأن أنفعل به.

ومرت الساعات وأنا عاكف على الكتاب، فنسيت كل ما حولي، وعشت مع أبطال الرواية حتى أوشكت على نهايتها، ومست أذني أصوات مهمهمة فذهبت على حيث كانت الأصوات منبعثة والكتاب في يدي، فرأيت ابنة أخي الصغيرة نائمة شاحبة اللون تلتقط أنفاسها في جهد، وأهل الدار حولها مطأطئي الرؤوس في حزن، ففطنت إلى أنها في النزع الأخير فانقبض صدري، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أترك ماجدولين وهي تجود بأنفاسها، فأسرعت إلى القراءة وسالت عبراتي ونسيت كل شيء، إلا أن ماجدولين تموت، ذهبت ماجدولين في الغابرين، وانطلقت الأصوات مفجوعة مولعة في الحجرة التي سحبت فيها ابنة أخي، فخيل إلي أن الصوت ما انطلق إلا لموت ماجدولين.)٢٩

لم يكن السحار وحده من ساهمت الظروف المحيطة بدفعه لعالم القراءة دون قصد منه، أورغبة من مشجع، وإنما هناك كثيرون صاروا أدباء ومفكرين وتسامعت الدنيا بإبداعاتهم، لمجرد صدفة أوتقليد

29 - حياتي – عبد الحميد جودة السحار

أوتصرف معين، لم يكن صاحبه يدري ما يجره من أثر عظيم على هذا الطفل الناشيء!

وقد قرأت أن بعض الدراسات الاجتماعية أوضحت: أن الأطفال يصبحون أكثر إيجابية وقربًا من القراءة إذا هم عاشوا نوعًا من التواصل الايجابي مع والديهم أثناء القراءة .

لابد من الجلوس مع الطفل والقراءة له بمعدل ٣٠ دقيقة يوميًا والتأكد من أن معلمه في الحضانة أوالروضة يقرأ له وبصوت مرتفع يوميًا، ويعطيه كتبًا لكي ينظر إليها.. لبناء علاقة من الألفة بين الطفل والكتاب.

ومن المهم أن يقدم الوالدان قدوة جيدة لطفلهما حيث سيدرك الطفل أن القراءة شيء مهم في حياة الإنسان عندما يرى أباه وأمه يقرأان بشكل مستمر في المنزل، وعليهما أن يقترحا القراءة كنشاط يمكن أن يقوم به الطفل أثناء وقت الفراغ، وأن يوفرا له الكتب الجيدة في مكتبة منزلية قريبة من متناول يده، كما يأخذاه وبشكل مستمر لزيارة المكتبات وشراء ما يروق له من الكتب تحت إشرافهما، ومن المفيد أن يقوما بمناقشته فيما يقرأ، كأن يعطى أسئلة مكتوبة، ويطلب منه البحث عن إجاباتها في كتاب ما..

ولكي يدرك الأبوان قيمة دورهما في نبوغ الأبناء، لابد من معرفة قصة بن كارسون وأمه..فنحن نستطيع بالقراءة أن نصنع المعجزات

في حياتنـا وحيـاة أبنائنـا لوأننـا وجهناهـم إليهـا وأدخلناهـا في حياتهـم، وهومـا أدركتـه هـذه الأم البسـيطة التـي لم تتلـق تعليـمًا يؤهلهـا لإدراك هـذه الفكـرة والقناعـة الكاملـة بـدور القـراءة كحـل سـحري يرتقـي بالأفهـام ويحـول مسـار الإنسـان مـن القـاع إلى القمـة..!

لقـد تركـت هـذه الأم المدرسـة وهـي في الصـف الثالـث وتزوجـت وعمرها ٣١ عامًـا ثـم انفصلـت عـن زوجهـا وتـرك لها ولديـن لتقوم وحدهـا بعملية التربيـة.. لقـد كافحـت وكدحـت وتعبـت كثـيرا في تربيـة ولديهـا، فعملـت خادمـة في المنـازل، وكانـت تـزاول عملـين أوثلاثـة في اليـوم الواحـد، حتـى تملـك القـدرة التـي تؤهلهـا لتوفـير مـا يحتاجانـه مـن معيشـة حسـنة.. وعاشـوا جميعًـا في شـقق متداعيـة تعبـث فيهـا الجـرذان والصراصـير في أحيـاء سـكنية تنتـشر فيهـا الجريمـة والعنـف .!

وفي ظـل هـذه الآلام.. أصابتهـا الصاعقـة وشـعرت أن أملهـا في ولديهـا يتبـدد، حينـما علمـت أن ولدهـا الأصغـر (بـن كارسـون) يعـاني انحـدارا في مسـتواه الـدراسي، وأنـه أغبـى طفـل في المدرسـة وأنـه يُعـرف بـين أصدقائـه بالطفـل الغبـي.. كان ذلـك و(بـن كارسـون) في الصـف الخامـس وفي الثامنـة مـن عمـره..!

وأمـام مـا ترسـمه الأم مـن طموحـات وأحـلام في خيالهـا وعقلهـا لولديهـا مـن مسـتقبل كبـير يعوضـان بـه مـا حُرمـت هـي منـه، ويكونـا حبـل النجـاة مـن هـذه الحيـاة المؤلمة،كانـت لهـا ردة فعـل قويـة عـلى هـذا النبـأ المزعـج وعزمـت أن تعالـج الأمـر وتصحـح مـن مسـار ولدهـا،

وكانت طريقة علاجها على درجة كبيرة من الوعي، حينما قامت كلها على القراءة حتى تزيل هذا التبلد في عقل طفلها وتنسحب غيوم الغباء من سماء نفسه..إنها لم تفعل شيئًا إلا أن قللت من أوقات مشاهدة التلفاز واللعب لتكون أوقاتًا قصيرة جدا في اليوم، وأن يقوم ولدها باغتنام بقية الأوقات في المكتبة العامة بالمدينة يقرأ ويطلع ويتثقف!.

ولم تحدد له ما يقرأه، ولكنها تركت له حرية الاختيار وطلبت منه أن ينهي كتابين في الأسبوع الواحد في أي مجال أونوعية من الكتب التي يُحبها ولكن بشرط أن يقدم لها تقريرًا في نهاية الأسبوع يلخص لها فيه ما قام بقراءته، مع ملاحظة أنها لم تكن تعرف القراءة، ولكنها كانت توهمهم بذلك وتقوم بوضع خطوط على التلخيص!

احتج عليها كثير من الجيران والأصدقاء لأجل هذا الأسلوب القاسي في معاملة ولديها وحرمانهما من حقهما الطبيعي في اللعب كسائر أترابهما، ولكنها لا ترعوي للاحتجاج، لأنها كانت فزعة على مستقبلهما، واستمرت في خطتها إلى أن آتت أكلها.. لقد كان بن كارسون يحب علم الحيوان فقرأ الكثير في هذا العلم، وعلم الصخور،كان يقرأ في المكتبة ويطبق هذا العلم بشكل عملي على البيئة الفقيرة التي يعيش فيها بين السكك الحديدية..

وبعد فترة وفي أثناء الدراسة، وبعد تنفيذ هذه الخطة للأم، دخل المدرس على التلاميذ في الفصل الدراسي وكان بيده صخرة وقال لهم:

مـن يعـرف اسـم هـذه الصخـرة؟ وهنـا انتظـر بـن كارسـون الـذي قـرأ كثـيراً وزادت معارفـه أن يجيـب أحـد الطـلاب الأذكيـاء عـلى السـؤال، ولكـن لم يقـم أحـد منـه بالجـواب، انتظـر أن يجيـب أحـد مـن بقيـة الفصـل وكانـت نفـس النتيجـة لم يجـب أحـد، وفي ظـل هـذا الصمـت الرهيـب والخيبـة الشـاملة والجهالـة التـي أطبقـت عـلى الجميـع رفـع بـن كارسـون يـده طالبًـا مـن معلمـه أن يجيـب عـلى السـؤال، لم يتلـق التلاميـذ طلـب صديقهـم بحفـاوة وتشـجيع، وإنمـا كانـت ضحـكات مدويـة وسـخرية كبـيرة، انفجـروا جميعـا بالضحـك والتعجـب فكيـف لـ(كارسـون) الغبـي الـذي يرسـب في كل المـواد أن يجيـب ويعـرف مـا عجـزوا هـم عـن معرفتـه؟!

وقـام صديقهـم ليجيـب عـن السـؤال إجابـة كاملـة شـافية مـع وصـف كامـل لهـذه الصخـرة البركانيـة التـي أتى بهـا المعلـم وطريقـة تشـكلها مـع تصـادم الحمـم المنصهـرة مـع المـاء البـارد.. وحينـما فـرغ مـن الإجابـة توقـع زمـلاؤه أن يكـون مـا قالـه خطـأ وانتظـروا اللحظـة التـي ينهـره فيهـا المعلـم حتـى يضحكـون عليـه مـرة أخـرى، ولكـن رد المعلـم فاجأهـم حينـما قـال لـه: أحسـنت يابـن فالإجابـة صحيحـة.. ! وهنـا وفي هـذه اللحظـة الفريـدة في حيـاة بـن لحظـة التفـوق عـلى أقرانـه أدرك أن الـذي انتشـله وارتقـى بـه مـن مرحلـة أدنى طالـب إلى طالـب يثـير الانبهـار إنمـا هـي القـراءة، وطريقـة أمـه حينـما وجهتـه إليهـا، وهنـا قـرر صاحبنـا أن يوسـع مجـال القـراءة لديـه ويبـدأ بقـراءة المنهـاج الـدراسي، حتـى أنـه أصبـح لا يضيـع وقتـا بـدون قـراءة أودراسـة، وكان التحـول العجيـب

حينـما أصبـح هـؤلاء الذيـن يرمونـه بالغبـاء قديمًـا يأتـون إليـه ليسـألونه ويستشـيرونه في كثـير مـن المسـائل .!

وأنهـى بـن دراسـته الثانويـة والتحـق بالجامعـة وحصـل عـلى البكالوريوس في علـم النفـس، ثـم التحـق بكليـة الطـب لينتقـل مـن علـم النفـس إلى جراحـة الأعصـاب وأصبـح مديـرًا لمستشـفى (بالتيمـور) لجراحـة الأعصـاب للأطفـال وهـوفي سـن ٣٢عامًـا، وكان أول شـخص ينجـح في فصـل التـوأم السـيامي الملتصـق بالـرأس وأحـد أبـرز جراحـي العـالم ويُجـري مئـات العمليـات الحساسـة والمعقـدة في كل سـنة في مناطـق الجسـم الحساسـة..

وأنقـذ حيـاة آلاف الأطفـال بفضـل موهبتـه وعبقريتـه، وقيـل: إنـه لم يتعـد عـدد النتائـج السـيئة للعمليـات الجراحيـة الدقيقـة التـي أجراهـا (كارسـون) عـلى أدمغـة الأطفـال الذيـن يعانـون مـن مشـاكل عصبيـة، عـدد أصابـع يديـه، وفي عـام ١٩٨٥، أتقـن إجـراء عمليـة اسـتئصال نصـف دمـاغ الأطفـال الصغـار المصابـين بنوبـات صرع مزمنـة دون الإضرار بنموهـم أوبوظائـف أعضائهـم بدرجـة كبـيرة، وسـاعد (كارسـون) أكـثر مـن ١٠٠ طفـل مـن خـلال إجـراء هـذه العمليـة الجراحيـة، بعـد مـضي سـنتين عـلى هـذا الاخـتراق الطبـي، قـاد (كارسـون) فريقًـا جراحيًـا مؤلفًـا مـن ٧٠ عضـوًا أجـروا أول عمليـة جراحيـة ناجحـة لفصـل توأمـين متصلـين عنـد الـرأس. عـاش التوأمـان الألمانيـان بعـد عمليـة جراحيـة دامـت يومًـا بكاملـه تقريبًـا.

وفي عام ٢٠٠١ وصفته مكتبة الكونغرس الأميركية بأنه أحد (الأساطير الحية) الـ ٨٩، كما منحه الرئيس السابق جورج دبليوبوش الميدالية الرئاسية للحرية عام ٢٠٠٩م، وهي أعلى تكريم تمنحه الحكومة الأميركية إلى المدنيين. وجاء الاعتراف الشعبي بعبقريته مع عرض الفيلم التلفزيوني (يدان موهوبتان: قصة بن كارسون) (٢٠٠٩)، حول حياته وإنجازاته الاستثنائية..وله أكثر من ٠٩ مؤلفا طبيا وهي من أكثر الكتب مبيعًا.!، وهكذا كانت النتيجة.. .نتيجة القراءة.. !

وتأتي قصة كارسون لتؤكد ما أكدته بعض الدراسات التربوية أن هناك ارتباط وثيق بين القراءة والطفل، وبين تقدمه الدراسي والعلمي بل أثبتت أن الطفل القاريء لديه تفوق لغوي ومهارة تعبيرية وسرعة بديهة وذكاء في الجواب، وارتفاع في مستوى الفهم، وتوسع دائرة الخبرات، وتفتح أمامه أبواب الثقافة والمعرفة..

كما كانت قصة صديقنا السعودي الأستاذ (طاهر التهامي الزهراني) مبهرة حينما عرض لنا دور والده في حياته وكيف دربه على حب الكتاب وعشق القراءة لتصير بعد ذلك طبيعة تجري في دمه، وهي تجربة رائعة ليت آباء اليوم يحذون حذوها، لقد ترك له والده ميراثًا خرافيًا أضاء له سنوات حياته بأكملها، وليس طفولته فقط.

ففي طفولته كان يحمل له القصص والحكايات وهوبعد لم يدخل المدرسة، ولم يتعرف على الحروف، وكان كلما استيقظ من النوم وهوصغير، يجد مجلة من المجلات المصورة تحت وسادته كمجلة

السندباد أوعلاء الدين أومجلة ماجد..لقد وضعها له أبوه الذي كان حريصًا أن تكون بينه وبين الكتاب صداقة مبكرة قبل أن يدخل المدرسة وبعد أن دخلها انتقل والده إلى طريقة أخرى من طرق التحفيز وهي المكافأة على القراءة، فقد كان يقول له ولإخوته: (من يقرأ كتاب كذا فله كذا وكذا من الريالات)..وفعلًا يكون عند وعده، وكان يراعي نوع الكتاب الذي يقرأه أبناؤه بحيث يناسب المرحلة العمرية التي هم فيها، ولم يكن يتردد في إعطاء المال عندما تكون السلعة كتابًا يريد أحد أبنائه أن يشتريه!

ثم سلك والده طريقة ثالثة وهي نفس الطريقة السابقة، غير أنه كان يختبر معلوماتهم بعد القراءة بسؤال أوسؤالين، وفي كل مرحلة من مراحل القراءة التي يمرون بها تقل الصور والرسومات في الكتب وتكثر الكلمات والمعلومات..كانت هذه طريقة والده حتى نهاية المرحلة الابتدائية، حينها كان صاحبنا قد أحب الكتب، ولكنه لم يحب القراءة بعد..!

وحينما سمع أبوه ذات مرة أن مدرسة ولده تعتزم فتح مكتبة، كان من الداعمين لتلك المكتبة، وكان الفتى يرى بعض كتبه وقصصه في أيدي الطلاب، وكان يشعر في ذلك بغيرة شديدة، والسبب أن هناك علاقة وصلة قوية مع هذه الكتب.. وعندما وصل ولده للمرحلة المتوسطة، توقف الأب عن هذه الطرق، وخلع أبواب خزانات الكتب، والتي كانت مغلقة في السابق، نزع تلك الأبواب وترك المكتبة مشرعة.

لقد جمع والده مواد مكتبته، فاشتملت على جميع العلوم والمعارف وكتابها من جميع أقطار العالم، عرب وعجم متقدمين ومتأخرين، حتى أنه يقول: لم أر في حياتي مكتبة مثل مكتبة والدي ليس في كثرة الكتب ولكن في تنوع محتواها كانت حديقة غناء، التنزه فيها لا يُمل أبدًا.

وبفضل هذه التربية أصبح الكتاب شيئًا مهمًا في حياة الأبناء، يقول طاهر: (كنت في أواخر المرحلة المتوسطة، تنتابني لحظات اكتئاب مرعبة، وأذكر أن فراشي الذي كنت أنام عليه كان بجوار المكتبة تمامًا، وذات مساء كئيب جلست وأسندت ظهري على الكتب، ومددت رجلي للفراغ السحيق، ثم كانت تلك اللحظة الفارقة، ذلك المنعطف العظيم الذي أتذكره دائمًا، حينما اتكأت يدي على رف المكتبة المغبر، ثم وقعت يدي على كتاب، سحبته وكان عنوانه «سطور مع العظماء» لمحمد كامل المحامي، كان ذلك في مساء يوم من أيام عام ١٩٩٢م، أتذكر تلك اللحظة التي بعدها أصبحت قارئًا نهمًا، لدرجة أن أبي أصبح يخشى على تحصيلي الدراسي بسبب القراءة، بعد ربع قرن من تلك اللحظة أصبحت كاتبًا، وأصبح أبي يقرأ لي)٣٠

في يوم من الأيام كتب أمين مكتبة المنصورة شهادة أعطاها للتلميذ (أنيس منصور) فيها: تشهد مكتبة المنصورة أن الطالب (أنيس

30 – من مقال لطاهر الزهراني بصحيفة عكاظ تاريخ ٢٠١٥/٣/٢٢م

منصـور) اسـتطاع أن يقـرأ كل مـا في المكتبـة مـن كتـب وعددهـا ١٤٣٥كتابًـا.. وكان يومهـا في الخامسـة عـشرة مـن عمـره!

ويقـرر أنـه حتـى سنة التخـرج لم يشـغل نفسـه بمطالعـة مجلـة مصـورة ولا قـرأ كتابـا للتسـلية.. بـل هـذه القـراءة الجـادة المفيـدة، كـما أنـه لم يدخـل السـينما حتـى تخـرج مـن الجامعـة!

وظلـت القـراءة هوايتـه إلى أن تخـرج مـن الجامعـة، وفي حديـث لـه بالأهـرام تحـدث عـن أبعـاد القـراءة وكيـف جعلهـا الإنسـان طريقـه للخلـود بنقـل تراثـه مـن جيـل إلى جيـل..!

الشباب بين الماضي والحاضر !

يقول محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

(إنَّ شـبابنا المتعلِّـم.. كسـولٌ عـن المطالعـة، والمطالعـةُ نصـفُ العلـم أوثلثـاه، فأوصيكـم يـا شـبابَ الخـير بإدمـانِ المطالعـة والإكبـاب عليهـا، ولْتَكُـنْ مطالعتُكـم بالنّظـامِ حرصًـا عـلى الوقـتِ أن يضيـع في غـير طائـل، وإذا كنتـم تريـدون الكـمالَ فهـذه إحـدى سبلِ الكـمال)

هل تعلم أن أعداءنا يقيسون قوتنا وضعفنا بحالة الشباب ؟!

وهـي وسـيلة قديمـة لجـأوا إليهـا كمقيـاس لقـوة الأمـة وصلابـة عودهـا وهمـة أبنائهـا ومـدى قدرتهـا عـلى النـزال والمواجهـة.. زيـغ وضيـاع وانحـدار.. أم يقظـة وحـماس وجهـاد.؟!

ولعل القراءة في نظري من أخطر الوسائل التي تُقاس بها حالة الشباب ومستوى الأمة، لأنها طريق الوعي والإدراك، وبدونها فلا وعي ولا إدارك، وحينها يكون كل شيء سهلا مستباحا..فالأمة التي تتخبط في الجهالة، ويعيش مجتمعها في الظلام، تكون هشة متهاوية، ولقمة سائغة بين أنياب المتربصين بها.

ولا أتعس مما نراه اليوم من حال شبابنا العربي الذي هجر القراءة، وخاصم الكتب، وضل طريق المكتبات، ولا يدرك أنه بهذا البُغض إنما يبغض المستقبل والريادة والتفوق والنهوض.. !

استطاعت الأجهزة الذكية والفضاء الالكتروني، والتكنولوجيا المتطورة، أن تأسره وتجره إلى غيها، وفي الوقت الذي نعذرهم فيه بسبب هذه الملهيات، نجد الشباب الغربي يقدس الكتاب ويجعل من القراءة ضرورة حياتية، وزادًا يوميًا لابد منه كالطعام والشراب، فلماذا يختلف شبابنا عن شبابهم ؟ ولماذا يتم التقليد في اللعب والهرج، ولا يتم في الإنتاج والإبداع والتفكير؟!

تأمل حديث (الطنطاوي) عن شبابه وشباب أترابه كيف كانت همتهم فيه؟ وكيف كان للكتاب والقراءة مكانه في مرحلته؟!..حتى نعرف إلى أي هوة سحيقة وصل إليها شبابنا، وإلى أي درجة أهدرنا قيمته في كثير من لهوالدنيا، ومما لا نفع فيه من الهرج والمرج... ولوأننا أهدرنا ذهبًا وجوهرًا لكان أرخص بكثير من هذا الشباب

الـذي لا يعـوض ولا يقـدر بثمـن، ولا يمكـن فـداؤه بالقناطـير المقنطـرة مـن المـال والـثروة..!

يقـول الشـيخ (عـلي الطنطـاوي) رحمـه اللـه: (رأيتنـي في الصفـوف الأوائـل مـن الثانويـة، وحـولي رفقـة مـا رأيـت بعدهـم مثلهـم في إقبالهـم عـلى الـدرس وجلدهـم عليـه، وفي رسـوخ ملكاتهـم الأدبيـة، وقـوة طبعهـم في الأدب، وسـليقتهم في اللغـة، وتسـابقهم إلى مطالعـة نفائـس المصنفـات، ومعرفـة المصـادر والأمهـات، ولم يكونـوا كشـباب اليـوم الذيـن يحاولـون الكتابـة قبـل القـراءة، ويغـترون بالنـشر فيحسـبون أنهـم أنـداد وأقـران لـكل مـن يكتـب في الصحيفـة التـي تنـشر لهـم، ويعلـن أحدهـم عـن كتابـه الـذي سـيتصدره قبـل أن يكتـب منـه عـشر صفحـات، وينتقـد الكاتـب الكبـير وهـولا يحسـن أن يقيـم لسـانه في قـراءة مقالـة مـن مقالاتـه، ويخـدع المجلـة عـن أدبـه فتظنـه شـيئًا فتخـدع عنـه القـراء، ومـا لم أذكـر مـن صفاتهـم آلم وأنـكى...

وكنـت قـد قـرأت طائفـة مـن الكتـب أذكـر أن منهـا (حيـاة الحيـوان للدمـيري) وهـوأول مـا طالعـت مـن الكتـب، وهودائـرة معـارف كـما يسـمونها اليـوم أوهومعلـم جامـع، فيـه فقـه ولغـة وأدب وقصـص وتاريـخ وخرافـات وعلـم وحقائـق.. أفـدت منـه كثـيرًا و(الصاحبـي) لأحمـد فـارس وقـد ألقـى في نفـسي إجـلال العربيـة والإيمـان بسـعتها وجلالهـا، وحبـب إلي جزالـة الأسـلوب وفحولـة اللفـظ، ولا أزال إلى اليـوم أعجـب برسـالة ابـن فـارس هـذا إلى مـن أنكـر فضـل الجديـد، لأنـه جديـد ومـال إلى تقديـس كل قديـم لأنـه قديـم، وأعدهـا مـن نفائـس الآثـار،

وهـي في مقدمـة الكتـاب، و(بلـوغ الأرب للآلـوسي) وقـد أورثنـي التعصب للعـرب والمبالغـة في ذلـك، ثـم علمـت أن قـد كان فيـه زيـف كثـير كـما كان فيـه صحـاح كثـير، ومـا زلـت أحفـظ جملـة صالحـة مـن أخبـاره صحيحهـا وباطلهـا، و(الأغـاني) قرأتـه كلـه، أعنـي أخبـاره وقصصـه دون مـا فيـه مـن أسـانيد وأصـوات وأشـعار وأنسـاب، وهـورأس مـالي في الأدب، وقـرأت (الكشـكول) و(المخـلاة) و(مراقـي الفـلاح) في الفقـه الحنفـي ألزمنـي والـدي قراءتـه، أسـبغ اللـه عليـه رحمتـه، و(شرح رسـالة ابـن زيـدون) المطبـوع عـلى هامـش (الغيـث المنسـجم)، وكانـت طريقتـي في المطالعـة أني إذا فرغـت مـن دروس المدرسـة، دخلـت مكتبتنـا فتخـيرت كتابـا فأخذتـه فنظـرت فيـه، فـإن أعجبنـي مضيـت فيـه لا أدعـه حتـى أتمـه وأخـذت غـيره، لا أسـتعين عـلى ذلـك بمرشـد، ولا أسـتهدي بهـاد، إلا مـا كان شـيخنا الأسـتاذ اللغـوي الشـيخ (عبـد القـادر المبـارك) يسـميه لنـا مـن الكتـب ويرشـدنا إليـه)٣١

وكان يقـول: (أنـا مـن سـتين سـنة أقـرأ كل يـوم خمسـين صفحـة ألزمـت نفـسي بهـا.)

ويالهـا مـن همـة جسـورة حـين قـرأ كل هـذه الكتـب وكل هـذه الأمهـات، وهـوفي مرحلـة الثانويـة التـي يعـد المـرء فيهـا في طـور الصبـا لم يخـرج منـه بعـد.! وإذا كان حديـث الطنطـاوي يثـير فينـا هـذا العجـب فإليـك مـن الحديـث مـا يثـير الألم والإحبـاط.!

31- من حديث النفس - علي الطنطاوي

ومثلـة كان أبي فهـر محمـود شـاكر رحمـه اللـه فقـد قـال في مقدمـة المتنبـي: (فأقدمـت إقـدام الشـباب الجـريء عـلى قـراءة كُل مـا يقـع تحت يـدي مـن كُتُـب أسـلافنا مـن تفسـير لكتـاب اللـه إلى علـوم القـرآن عـلى اختلافهـا إلى دواويـن حديـث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وآلـه وكـذا شروحهـا.. ! إلى مـا تفـرع عليـه مـن كتـب مصطلـح الحديـث وكتـب الرجـال والجـرح والتعديـل.. ! إلى كتـب الفقهـاء في الفقـه ثـم كتـب أصـول الفقـه قاطبـة! ثـم كتـب أصـول الديـن أي علـم الـكلام وكتـب الملـل والنحـل..! ثـم كتـب الأدب وكتـب البلاغـة وكتـب النحووكتـب اللغـة! ثـم عرجـت بعدهـا إلى كتـب التاريـخ! ومـا شـئت بعـد ذلـك مـن أبـواب العلـم وعمـدت في رحلتـي هـذه الأقـدم فالأقـدم.. حتـى قـرأت كل إرث آبـائي وأجـدادي)٣٢

ويـروي لنـا الأديـب (ثـروت أباظـة) هوسـه بالقـراءة في مرحلـة الشـباب، والتـي وصلـت إلى حـد عجيـب غريـب، فقـد كان يتغيـب مـن مدرسـته ويُغضـب معلميـه، حتـى أن أحدهـم اشـتكاه يومًـا لوالـده في رسـالة أرسـلها لـه فـكان رد والـده عليـه أن يُنـزل بـه مـا يشـاء مـن العقـاب، وأنـه سـيحرص عـلى أن لا يتغيـب عـن المدرسـة،أما ثـروت فإنـه علـل ذلـك بقولـه: (كان العلـم محقًـا في شـكواه مـن تغيبـي، فقـد كنـت قارئًـا متهوسًـا، ولم أكـن أتـرك المدرسـة لأذهـب إلى أي مـكان، وإنمـا كنـت أنـزل مـن الطابـق الأدنى وأقفـل البـاب وأروح أقـرأ في كتـب الأدب .!

---

32 - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا – محمود شاكر

وكان كبير الخدم عندنا اسمه (عم احمد) وكنا نناديه بلقب عم احمد توقيرا له، وفوجئت يومًا وأنا في خلوة قراءاتي بباب الغرفة يكاد ينخلع من مكانه من شدة الخبط عليه، وفزعت إلى الباب وفتحته، فإذا بوالدتي أمامي تتميز من الغيظ، ولولا أنني كنت قد تجاوزت الطفولة إلى مطالع الشباب لانهالت علي ضربا وأمرتني أن أذهب إلى المدرسة فورًا.)٣٣

ويقول مرة في واحدة من مقالاته التي نشرها في السبعينات: (أذكر أننا حين كنا طلبة في المدارس الثانوية كانت مكتبات المدارس حافلة بالكتب، وأذكر أنني قرأت من مكتبة المدرسة جميع أعمال (تيمور) وبعض كتب (توفيق الحكيم) التي كانت نافدة من السوق وغير هذين، فقد كانت كتب جميع الأدباء الكبار في المكتبة، بل كان بها أيضا الكثير من كتب النشء الحديث في ذلك الحين، وكانت كتب التراث جميعًا في مكتبة المدرسة، وقرأت منها أيضا كتب المنفلوطي، وأنا لا أستطيع أبدًا أن أتصور أن المدارس تخلوتماما من المكتبات وأن الميزانية المدرجة لها لشراء كتب تستنفد في أشياء أخرى لا شك أنها أقل أهمية من إتاحة الثقافة للطلبة)٣٤

أما الشيخ (محمد الغزالي) فقد عرف الكتاب والقراءة مبكرًا واغتنم شبابه ولم يهدره في اللهووالمرح فيقول: (أصبحت الشيخ محمد وأنا لم أبلغ الحلم! كنت أحب اللعب، ولكن كيف يلعب شيخ؟ وكنت

33 - لمحات من حياتي – ثروت أباظة
34 - الأعمال الكاملة –مقالات ثروت أباظة ج١

كثير الضحك، وجزائي على ذلك طول الزجر والتوبيخ، وتطلعت إلى المكتبة التي نرتزق منها وكنت منهومًا بالقراءة، فتركني أبي أقرأ، وإن كان قد لاحظ في أسف أني آبى القراءة في الكتب الدينية، وأوثر مطالعة الرِّوايات الأجنبية، وربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هومن كتب...

عرفت بعد ما كبرت أن هذه الكتب مليئة بالأحاديث الموضوعة والواهية والخرافات العلمية، ولكن الناس كانوا مقبلين عليها، مثل: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، والروض الفائق في الوعظ والرقائق، وتنبيه الغافلين، وقصص الأنبياء، والخمرة الإلهية، والفتوحات المكية... إلخ.

لقد كانت الثقافة الإسلامية -وما زالت- حافلة بالسموم والمخدرات، والحاجة ماسة إلى غربلتها ونفي الأقذاء عنها.

ولعل هذه القراءة في هذه السن المبكرة جعلت منه مثقفا كبيرا وشابا متسلحا بالعلم الغزير، الذي لا يضاهيه فيه بعض الشيوخ، وفي هذا المعنى موقف رهيب تجلد فيه للشيوخ الذين امتحنوه للعمل في وزارة الأوقاف كإمام وخطيب بمساجدها وكان هؤلاء الشيوخ أناس لا يستهان بهم، وعلى قدر عظيم من الثقافة والعلم ومنهم الشيخ أمين الخولي العالم المعروف، فماذا حدث؟

يقول الشيخ الغزالي: (حصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئًا بعيد المنال، وهذا جزء من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله.. ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف الإمامة والخطابة والتدريس الخالية بمساجدها .

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من العلماء العاطلين، وكانت تحريرية وشفوية .

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادّة؛ بدأت بعمل مني كان طائشًا! كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيدًا، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، وينتقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماض في التلاوة.. وردَّني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقا؟ فأنا أحفظ جيدًا!

وشتمني رئيس اللجنة، وكان الأستاذ (أحمد حسين) أخا الدكتور (طه حسين)، وهويومئذ مفتي الأوقاف، وجاء دور الأستاذ (أمين الخولي) الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني، وذكرت رأيًا آخر في التفسير فخطأني .

فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددْتُ لوأعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف!

قال: ذاك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ (سيد زهران) قائلًا للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه، فدُله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا... فقلت بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدَّى إذا كان هناك جواب آخر! وعاد الشيخ (أحمد حسين) إلى توبيخي، أما الأستاذ (أمين الخولي) فأدار ظهره معرضًا عني ومنهيًا المناقشة..ولكن سؤالًا وُجِّه إليَّ من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعددتها.

فقلت: اقترح أي موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت..وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات!

أما الأستاذ (بديع الزمان سعيد النورسي) فكان يُحب أن يَرفع من همة الشباب من تلاميذه وهوفي قمة الشيخوخة فيقول لهم: كم صفحة قرأتم اليوم ؟ وكنا نجيبه: قرأنا ثلاث أوخمس صفحات فيقول لهم: أما أنا فقد قرأت مئتي صفحة وبالرغم من عجزي عن الكتابة، فأكتب بشكل بطيء جدًا فقراءتي تختلف عن قراءتكم،فأنتم تقرؤون قراءة سطحية كقراءة الجرائد، ولكني أقرأ مع فهم المعاني والمقاصد وهاكم انظروا إلى تصحيحاتي..!

ويذكر أحد تلاميذه إحساسه بالكتب ورقته في التعامل معها فيقول: كان الأستاذ عندما يُريد أن يقلب صفحات الرسائل، كان يُقلبها ببطء واعتناء من غير أن يؤذي الورقة، ومن دون أن يُبلل أصبعه لقلب الصفحة، لقد كان الأستاذ كلما يقرأ يتجدد حيوية ونشاطًا وكأنه قد أصبح شابًا يناهز العشرين..!

ويحكي أحدهم موقفان لشابان عربيان نستطيع من خلالهما أن نقيِّم حجم الغيبوبة الموحشة التي يغط فيها شبابنا العربي، وندرك منها كذلك مدى المسافة بينه وبين القراءة والكتاب فيقول: (كنت جالسًا قبل أيام في إحدى مكتبات جامعاتنا الكبرى! فجاءني طالبان وقالا: نريد كتابًا عن موضوع معين! فقد طلب الدكتور منا ذلك، قلت لهما: هذه أجهزة البحث فابحثا من خلالها عن الموضوع أوبالعنوان ستظهر لكما جميع الكتب الموجودة في المكتبة عن الموضوع الذي تبحثان عنه!قالا: ولكننا لا نعرف طريقة البحث، فذهبت إلى الجهاز وبحثت لهما، فوجدت مجموعة من الكتب وقلت: أي هذه الكتب يناسبكما ؟! قالا: أي كتاب نحن نريد تصوير الغلاف والفهرس فقط كما طلب الدكتور !

اخترت أحد هذه الكتب وأخذت تصنيفه، وقلت: اذهبا إلى هذا الرقم وحسب الأحرف ستجدان الكتاب الذي اخترته لكم وحوله مجموعة من الكتب في نفس الموضوع وقريبًا منه ومن خلال العناوين والمقدمات والفهارس اختارا ما يناسبكما! ذهبا وهما

يشكران، وبعد فترة ليست بالطويلة عادا وقالا: لم نجد أي كتاب! فذهبت معهما ووجدت مجموعة كبيرة من الكتب، وتبين لي أنهما لا يعرفان طريقة البحث من خلال التصنيف، بل كان سؤال أحدهما: هل أستطيع آخذ الكتاب معي إلى البيت ؟!)٣٥

الطالبان يشعران أنهما دخلا عالما غريبًا عليهما أوأنهما في بيت المتاهة اللذان لوكانا فيه لما كانا يعجزان كل هذا العجز الكبير، والشعور بأنهما غارقان في عالم مجهول..!

ويبقى السؤال.. من أهمل هؤلاء حتى صاروا بهذا التيه وهذه الغربة عن الكتاب والمكتبة وطرقها ونظامها، أم أنهما يا ترى أهملا أنفسهما.؟!

وفي تقرير إحدى الجامعات في عالمنا العربي الذي أكد أن ٧٢٪ من خريجي الجامعات يتخرجون دون أن يقوموا باستعارة كتاب واحد من مكتبة الجامعة..!

وإذا كانت الشكوى قديمًا في الأصحاب الذين يهدرون الأوقات بالسمر والسهرات عن العلم والقراءة.. وإذا كان شوقي رحمه الله تبرم قديمًا من الأصحاب الذين يشغلونه عن القراءة وابتعد عنهم في قوله:

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وفيًا إلا الكتابا

صاحب إن عبته أولم تعب ليس بالواجد للصاحب عابًا

35 – من مقال الطريق إلى المكتبة – لـ شلاش الضبعان

فإن محنة الشباب اليوم أفدح وأشد.. لقد انعزل أحدهم عن الأهل والأصحاب لينفتح على العالم كله عبر الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي .

وحينما نرى أناسا يُدمنون القراءة، ويمعنون شغفًا وهيامًا بالكتب،وحاولنا أن نتتبع مصدر هذا الولع يتبين لنا جذوره البعيدة والممتدة من زمن الطفولة، فهي المرحلة التي قدم لهم فيها الكتاب وتعرفوا عليه ورأوا أن بإمكانهم أن يتخذوه صاحبًا وأنيسًا، وهوالوعي الذي أدركته الأسرة حين قدموا هذا الاهتمام عبر طرق مشوقة وأساليب جذابة، حتى تهواه نفوس أطفالهم ويشبعوا صداقتهم وملازمتهم له، ولم تستطع هموم الحياة ومشغولياتها أن تمحوه من اهتماماتهم مع مرور الوقت، فهم يختلسون الأوقات من حياتهم للقراءة مهما كانت الشواغل والاهتمامات من العمل أوالزواج أوتربية الأبناء، لأنهم في حقيقتهم عاشقون.. وقد يكون هذا الغرام يسيرًا إذا صغنا قصته من زمن الطفولة، أما الشباب.. فما أجهد أن نخلق فيهم هذا الميل الذي إن جاهدناهم فيه، فإن معطيات العصر العولمي ومباهجه التكنولوجية تتخطفهم منا وتشدهم إلى عالمها.!

الأدب في ساحة المواجهة !

هل تعلم أن إسرائيل تقوم بمنهجية مدروسة في تخريج أجيال حاقدة ساخطة على العرب؟!

هل تعلم أن هذه المنهجية المدروسة تتخذ من الأدب أقوى أسلحتها لإرساء هذه الصورة وتشكيل عقول الناشئة حيث يصدرون سلسلة للصغار منذ عام ٠٥٩١م، وكلما رحل منها كاتب أتوا بغيره حتى يقوم بنفس الدور في غرس الحقد والكره وتنمية روح المغامرة العسكرية، وتعزيز العداء للعرب والمسلمين، بل ينفتحون بهذه السلسلة على العالم، فيترجمونها إلى خمس لغات أوروبية، ويوزعونها بالمجان على الطفل اليهودي الأوروبي.

إن إسرائيل تؤمن بالقلم والأدب ودوره الفريد في صياغة العقول وإلهامها ما تريده من غايات، وليس هذا ما تفعله مع الأطفال وحدهم، وإنما هونفس سياستها مع الكبار حيث تدرك سحر الأدب في تشكيل عقول الشعوب، ولم تجد مناصًا من ركوبه وامتطائه حتى تجمل باطلها وتوهم شعوب العالم بحقها المزيف، تأمل ما حدث للكاتب المبدع (عبد المنعم الصاوي) في تلك الحادثة التي يرويها لنا فيقول: (قبل نحوثلاثين عامًا، أُتيح لي إعادة اكتشاف دور الأدب في الصراع الدولي، وقدرة رواية على أن تفعل في الهند ما لا تستطيع اثنتان وعشرون سفارة عربية، ومكتبان أحدهما لجامعة

الـدول العربيـة، كان يترأسـه د. كلوفيـس مقصـود، والآخـر لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية.

كنـتُ في زيـارة لإحـدى كـبرى مـزارع الـبن في جنـوب الهنـد، حـين كلّـف صاحـب المزرعـة الـثري، ابنتـه الشـابة بمرافقتـي، وزميـل صحافي فلسـطيني يحمـل الجنسـية الأردنيـة في جولـة بالمزرعـة، أثنـاء الجولـة سـألت الفتـاة عـن البـلاد التـي ننتمـي إليهـا، فقـال لهـا صديقـي -الـذي ينتمـي إلى عائلة فلسـطينية عريقـة، قدمـت أحـد رؤسـاء الـوزارات في الأردن- أنـا مـن فلسـطين، فاتّسـعت حدقتـا الفتـاة، وتسـاءلت بدهشـة: أيـن تقـع تلـك الفلسـطين؟! حـار صديقـي في الـشرح، ورحـت أحـاول مسـاعدته، فرسـمتُ لهـا خارطـة فـوق الرمـال، وأشرت إلى موقـع فلسـطين عـلى الخارطـة، وإذا بالفتـاة تـصرخ: لا.. لعلّـك تقصـد إسرائيـل؟! وعندمـا سـألتها: مـن أيـن سـمعت بإسرائيـل؟ قالـت: قـرأتُ روايـة ليـون أوري (sudoxE)، أي (سـفر الخـروج)، إنهـا الأكـثر مبيعًـا في الهنـد، بيعـت منهـا ملايـين النسـخ، ثـم قـرأتُ للكاتـب ذاتـه روايـة (melasureJ hO) (وا قدسـاه)، آنـذاك لم تكـن لإسرائيـل سـفارة بالهنـد، فيـما تفسـح نيودلهـي صدرهـا لاحتضـان مكتـب لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية، يقـضي رجالـه معظـم وقتهـم حـول مسـبح فنـدق (أوبـروى) بنيودلهـي؛ ليكحلـوا عيونهـم -عـلى حـد تعبيرهـم- بمشـاهد نسـاء شرق أوروبـا الـلائي يمضـين يومهـن بالمسـبح، بانتظـار عـودة أزواجهـن (الخـبراء الأجانـب) مـن أعمالهـم.

(سـفر الخـروج) للأديـب الأمريـكي اليهـودي (ليـون أوري)، فعـل لإسرائيـل

مـا لم تفعلـه كل سـفارات العـرب، وكل مكاتـب الجامعـة العربيـة، وكل مكاتـب منظمـة التحريـر الفلسـطينية.)٣٦

بـل بلـغ مـن فـرط اهتمامهـم بـالأدب أن صـاروا يترجمـون روايـات الأدبـاء العـرب الذيـن هـم أعداؤهم!!

يحدثنـا (نجيـب محفـوظ) كيـف حـرص اليهـود عـلى ترجمـة أعمالـه فيقـول: (سـمعت أن بعـض الإسرائيليـين اهتمـوا بأعـمالي قبـل الصلـح.. معظـم أعـمالي الروائيـة ترجمهـا الإسرائيليـون في زمـن الحـرب عندمـا لم تكـن هنـاك أيـة علاقـة تربطنـا بهـم- ليسـت أعـمالي أنـا وحـدي وإنمـا أعـمال أدبـاء العـرب – ومـا ترجـم بعـد الصلـح لا يقـاس بمـا ترجـم قبلـه مـن حيـث الكـم وحـين تـم الصلـح جاءتنـي الكتـب المترجمـة وبعثـوا يحاسـبونني)٣٧

تـأتي هـذه العنايـة في الوقـت الـذي أهملنـا فيـه الأدب وتراجـع الاهتـمام بالكتـاب والثقافـة والمعرفـة، وبعـد أن كان الأدب هوالرائـد الـذي يشـكل حياتنـا الثقافيـة، وكانـت كتبـه ومجلاتـه لهـا الصـدارة في المبيعـات وكان الأدبـاء هـم المثـل العليـا لـدى الشـباب.. تجردنـا عـن هـذه الغايـة لتنشـغل الأجيـال بالإنترنـت وثقافـة التيـك آوي..وقـد كنـت تسـأل الشـاب المـصري قديمًـا عـن هوايتـك فيقـول الأدب وإذا سـألته عـما يريـد لمسـتقبله ؟ فيقـول أديبًـا، وإذا سـألته مـن تحـاكي وتقلـد أومـن هومثلـك

36 – جريدة المدينة السعودية عدد ١٧٧٦٠ بتاريخ ١٤٣٣/١/١٣هـ
37 – أنا نجيب محفوظ –إبراهيم عبد العزيز ط مكتبة الأسرة

الأعلى الذي يؤثر في حياتك؟ فيقول لك: العقاد أوالرافعي أوالمازني أوالزيات.. بل كان الشباب وقتها يقلدون الأدباء في هيأتهم ومشيتهم وطريقة ملابسهم، وكانت المجلات الأدبية لها الصدارة في التسويق والانتشار، وتبدد كل هذا الماضي بواقع مختلف وغريب وبعيدًا كل البعد عن أي حفاوة بالثقافة والفنون.

إن جوانب القصور والضعف في التيار الإسلامي أتت عليه وهددت مستقبله خاصة إذا كانت هذه العوامل هي عوامل القوة والتي يمتلكها المناوئون بكل قوة وجدارة، حيث تجدهم متفوقون في الإعلام ويمتلكون القنوات والإعلاميين وبرامج التوك شوالمؤثرة في الجمهور، كما يملكون الشعراء في الفصحى والعامية، ويملكون الأدباء الذين يكتبون القصص والروايات، ويحتلون المنافذ الفكرية والثقافية، مما حدا بكثير من علماء الدعوة أن يوصوا شباب الصحوة الإسلامية باقتحام هذه الميادين والتفوق فيها لأثرها الفعال على العقول والأذواق، بل تساءل أحد الدعاة مستنكرًا بقوله : (لماذا لا يوجد بين الإسلاميين شاعر مثل عبد الرحمن الأبنودي أوأحمد فؤاد نجم...بل بالغ في التعبير عن غضبه بقوله: لماذا لا يوجد بين الإسلاميين امرأة مثل (نوال السعداوي).؟)

لا زلت أذكر رواية (عمالقة الشمال) لأديبنا الكبير الدكتور (نجيب الكيلاني) وكيف استمتعت بها؟ وكيف كان تأثيرها على نفسي ومشاعري عميقًا؟..وجمعتني مناسبة بأحد المعنيين بالدعوة الإسلامية

في أفريقيا، والمسؤول بواحدة من كبرى المنظمات الإسلامية، وقلت له: لماذا لا تترجمون رواية عمالقة الشمال بالإنجليزية أواللغة المحلية في نيجيريا حتى يقرأها النيجيريون.. أنا واثق أنهم لوقرؤوها، فسوف يكون تأثيرها البالغ في نفوسهم، وسيكون لها مردودها الهائل في كشف طبيعة الإسلام وإيضاح روحه السمحة، والتبصير بالأخطار التي تحيق بهذا البلد المسلم؟!

ولكن يبدوأن الوعي بقيمة الأدب وتأثير الرواية لم يأخذ مكانته في كثير من الأفهام والعقول بعد! وعندي أن رواية تتحدث عن سمت الإسلام، وتعرض أخلاقه في أسلوب قصصي ممتع، قد تؤتي ثمارها أكثر من كتاب بحثي يتحدث عن ذات الموضوع.!

نشرت صحيفة عكاظ خبرًا تحت عنوان: (نشرت روايتي فأسلم ٠٣ ألف قارئ)، حيث كشف رئيس قسم حوار الأديان في الجمعية الدعوية الكندية، وطبيب العيون الدكتور (عبد الله براون) عن قرب الانتهاء من ترجمة مؤلفاته إلى اللغة العربية، بعد أن سجلت مبيعات قياسية وحققت انتشارًا واسعًا في الأوساط الأمريكية والكندية.

وكانت رواية (الصحيفة الثامنة) والتي أهدى منها نسخة للرئيس الأمريكي (باراك أوباما) قد تصدرت مبيعات الكتب حسب الإحصائيات الرسمية في الثلاث سنوات الماضية، وتم تداولها في أغلب وأشهر المكتبات الالكترونية.

وأفـاد الدكتـور (بـراون) أن الروايـة تضمنـت قصصًـا متسلسـلة توضـح الصـورة الحقيقيـة للإسـلام والمسـلمين، ونقـاط التفاهـم والاختـلاف بـين الإسـلام والأديـان الأخـرى، وأنـه بمجـرد انتهـاء القـارئ مـن قـراءة الروايـة يكـون قـد كـون صـورة حسـنة عـن الديـن الإسـلامي، وأوضـح بـراون أن أكـثر مـن ٠٣ ألـف قـارئ للروايـة وحسـب الإحصائيـات الرسـمية، قـد أعلنـوا إسـلامهم بعـد قراءتهـم للروايـة.

وأوضـح الدكتـور (بـراون) أن مؤلفاتـه نالـت إعجـاب عـدد مـن العلـماء والمشـايخ في المملكـة، وأن هـذا هومـا دفعـه إلى ترجمتهـا للغـة العربيـة حتـى تصبـح متاحـة أمـام الجميـع.

ولا شـك أن العـدد ضخـم وكبـير، وهونفـس العـدد الـذي حققـه فيلـم الرسـالة لمصطفـى العقـاد حينـما عـرض بـدور السـينما الأمريكيـة.. والحـق أنـه لا يعـرف روائي أثـر في العقليـة الأوروبيـة في العـصر الحديـث كـما أثـر (بـراون) الـذي أعلـن إسـلامه..ولعل إسـلامه هوالسـبب في عـدم شـهرته وحديـث الإعـلام عنـه، فرجـل يؤثـر في هـذا العـدد الكبـير شـخص لا يسـتهان بـه.. لقـد أضـاف للإسـلام وخدمـه، وفعـل مـا لم يسـتطع فعلـه أسـاطين العلـماء ونوابـغ الدعاة..لأنـه اتخـذ مـن الأدب الـروائي طريقًـا للتأثـير فيمـن يؤمنـون برسـالة الأدب في نهضـة الشـعوب.

الفرنسـيون يعظمـون الروايـة ويحتفـون بهـا، لأنهـا تصـور مجتمعهـم، خاصـة إذا جسـدت مشـكلاته وصـورت أنـين طبقاتـه المعذبـة..

جاء في صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ٢٠١٣/١١/٧م، خبراً تحت عنوان:

(بمناسبة مرور ١٥٠ عامًا على صدور رائعة (فيكتور هوغو) ٢٠٠فرنسي يتناوبون ليومين على تلاوة (البؤساء) احتفالًا بالذكرى ١٥٠ لصدور رواية البؤساء للكاتب والشاعر الفرنسي (فيكتور هوغو) (١٨٠٢ - ١٨٨٥)، سيقوم ٢٠٠ رجل وامرأة بتلاوة متصلة لنص الرواية كاملًا، بصوت عال، في واحد من أقدم المباني المهجورة بمدينة تولوز، جنوب البلاد.

تهدف الاحتفالية إلى التذكير براهنية الرواية التي تبدوكأنها تصلح للقراءة في كل زمن، لا سيما العصر الحالي الذي ينتشر فيه البؤس في الأوساط الفقيرة، وتتصاعد فيه معدلات الجريمة، وتتكرر الأسئلة التي طرحها المؤلف حول شرعية الحكام والقوانين ومفهوم العدالة، وقد جرى اختيار مكان العرض في مبنى (لا شابيل) المتداعي نظرًا لأنه ينسجم مع أجواء الرواية ويجمع تحت سقفه المشردين البؤساء الذين لا يجدون سقفًا يبيتون تحته.

تبدأ التلاوة في الثامنة مساء الجمعة دون توقف، وتنتهي مع منتصف ليل الأحد المقبل، حسبما جاء في بيان لجمعية «الورشة المثالية» التي تدير مبنى (لا شابيل)، ودعا المنظمون الموسيقيون والرسامون والراقصون والممثلون والحواة وحتى الطباخين، سواء أكانوا محترفين أوهواة، لمرافقة التلاوة بما يتناسب وأحداث الرواية الخالدة.

وحفاوة فرنسا بالأدب والأدباء كبيرة وقديمة.. فحينما بلغ هوجوالثمانين من عمره، احتفلت فرنسا بعيد ميلاده احتفالا قوميًا

هائلًا، وأقيم قوس للنصر في الشارع الذي يقع فيه البيت، وراحت الوفود الشعبية تعبر القوس أمام الكاتب الكبير لتحيته وهويقف بشرفة مسكنه، تغرورق عيناه بالدمع وهويرى أكثر من نصف مليون فرنسي يعبرون أمام بيته تحية للشاعر العظيم، في حين انهالت على البيت الصغير باقات الزهور من كل أنحاء فرنسا وصدر قرار بإعفاء جميع تلاميذ المدارس والمعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم ابتهاجًا بهذه المناسبة العظيمة!.

وزار رئيس مجلس الشيوخ الأديب الكبير في بيته مهنئًا بعيده الثمانين، ثم دعاه لحضور جلسة خاصة ستعقد لتكريمه بعد أسبوع، وحين دخل الشاعر العظيم قاعة المجلس وقف جميع الأعضاء يصفقون بحرارة شديدة تحية للأديب الكبير الذي أسموه شاعر القرن التاسع عشر.. وضميره وقلبه!. وبعد بضعة شهور من هذه المناسبة، صدر قرار من بلدية باريس بتغيير اسم هذا الشارع من إيلوإلى شارع فيكتور هوجو!.

وقبل هذه المناسبة ببضع سنوات شهدت باريس مناسبة أخرى أكثر أهمية، وهي عودة الشاعر العظيم إلى بلاده عام ١٨٦٩م بعد ١٩عامًا في المنفى، ممنوعًا من العودة إلى بلده، بسبب أفكاره الجمهورية، ومشاركته في الثورة الشعبية ضد الإمبراطور نابليون الثالث، ثم استسلم الإمبراطور أخيرًا واضطر لإعلان الجمهورية.. فغادر هوجوبروكسل بالقطار يوم ٤ سبتمبر ١٨٦٩، وبلغ القطار محطة الشمال بباريس

مساء نفس اليوم، فما إن وصلها حتى أحاط به طوفان من البشر، اضطر هوجولأن يخطب فيهم أربع مرات، رادًا تحيتهم له، وتمتم والدموع تلمع في عينيه (لكم يحبني هذا الشعب وأحبه)، وقال لمن استقبلوه بهذا الطوفان من الحب والتكريم:

لقد رددتم لي في ساعة واحدة ثمن عشرين عامًا عشتها في المنفى!. وحملته الجماهير على الأعناق، تريد أن تذهب به إلى مقر بلدية باريس، فرفض قائلًا: كلا أيها الأصدقاء، فإني لم أحضر لزعزعة مركز الجمهورية المؤقتة.. وإنما لأؤيدها!.)٣٨

ربما تتعجب من تأثر الشعوب الأوروبية بالأدب والأدباء الذين يتمكنون من تغيير الحياة السياسية والاجتماعية بأفكارهم ورواياتهم التي تعد وقودًا دافعا للثورات التي حدثت فيها، وكذلك إذا أردت أن تعرف لماذا لا تتأثر شعوبنا بما تتأثر به أوروبا وشعوبها ؟، ولماذا لا يكون للأدب وأهله في حياتها مكانة أونفوذ بحيث يستطيع أن يوجه ويوقظ وينهض..فعلينا أن نوقن أن هناك فرقًا إما في الشعوب أوفي الأدباء..وبعضهم يري أن الفرق في الأدباء لا في الشعوب، لأن الأديب هناك يقضي عمره في نضال وجهاد وعراك مع الدنيا والناس ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، (وما شرق مشرق أوغرب مغرب في دعوة وطنية أواجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب، ولا استبسل جبان أواستقبل شجاع إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أوكاتب

38- ساعات من العمر لعبد الوهاب مطاوع

أوخطيب) «(كما أن الكاتب الأوروبي لا ينشيء قصة إلا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث، وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظرة الباحث المتعمق، فيعرف ما يحيط به من المعضلات الذوقية والاجتماعية والاقتصادية، فيكون لقصته مغزى مأخوذًا من أزمات النفوس والقلوب)٣٩

39 – راجع زكي مبارك لأنور الجندي

كتب مؤثرة

وجـدت الصبيـة الأمريكيـة (هارييـت بيتـشر سـتو) رغبـة في أن تكتـب خواطرهـا وهـي في السادسـة عـشر مـن عمرهـا، ولمـا بلغـت السـابعة والعشريـن تزوجهـا عـالم اللاهـوت (كالفـن سـتو) ومنـذ ذلـك الـزواج تحملـت أعبـاء البيـت وشؤون الأسرة وأنجبـت مـن زوجهـا سـتة أطفـال شـغلوا كل حياتهـا، وفي غمـرة هـذا الانشـغال، لم يتركهـا الحنـين للقلـم، فكانـت تغتنـم أوقـات الفـراغ لتسـطر بعـض مـا تجـد في نفسـها مـن خواطـر وأشـعار ومشـاعر ومقـالات، ثـم جـدت لهـا فكـرة بـأن ترسـل مـا تكتبـه للصحـف المحليـة التـي شـجعتها ونـشرت لهـا واسـتجابت لكثـير مـن رسـائلها، ولم تسـتطع المسـؤولية التـي أنيطـت بهـا مـن أعبـاء الحيـاة الزوجيـة أن تقتـل أوتميـت في وجدانهـا هـذا الحنـين إلى الكتابـة.. لقـد أخـذ مـع الأيـام يكـبر ويتعمـق شـيئا فشـيئًا..

وفي تلـك الفـترة مـن حيـاة أمريـكا كانـت تجـارة الرقيـق مشـهورة ومشروعـة في حـق الزنـوج الذيـن سِـيقوا إلى أمريـكا كرهًـا.. كـما بلـغ الرجـل الأبيـض ذروتـه في معاملتهـم بقسـوة مفرطـة وإذلال لا مثيـل لـه، وكانـت هـذه الشريحـة المعذبـة تنتظـر مـن القـدر أن يمـن عليهـا بهـذا المخلـص الـذي يُزيـل الكـرب مـن حياتهـم، ويضـع حـدًا لهـذه الكارثـة الإنسـانية،وكانت هارييـت أوكان قلـم هارييـت، هوذلـك المخلـص الموعود الـذي تحلـم بـه مأسـاة العبيـد الزنـوج.

كان السادة يقهرونهم ويعاملون على أنهم شيء لا حق له في الحياة، بل كانوا يعاملون حيواناتهم أرقى مما يعاملون به عبيدهم وفي ظل هذا الألم كانت هارييت تستمع لمآسيهم وتنصت لقصصهم الدامية التي يرويها الناس ويتناقلونها من أمر هذه البشائع..

ومع ما تجد من الحنين إلى القلم ومع ما يعتمل في نفسها من الحزن على هذه الطائفة من البشر وجدت قلمها يسطر بحرقته محنة هؤلاء البائسين ويسجل بعض ما يجدونه من مرارة الحياة في قصصهم المروعة المفزعة كانت تكتب كل يوم فصلا من الفصول ثم ترويها على أولادها فتجدهم يتأثرون ومنهم من كان يبكي بحرقة لما يسمعه من أمه، وأمام هذا التأثر العميق من أبنائها تمنت أن يتأثر المجتمع الأمريكي بما تكتبه فيتحرك لمحوهذا الظلم والعار من حياته.. ولما أتمت جزءًا كبيرًا من كتابتها، أطلقت على روايتها اسم (كوخ العم توم) ونشرتها في حلقات مسلسلة في مجلة واشنطن الأسبوعية (العهد الوطني) وأقبل الناس على قراءتها بشغف وتذوقوا معانيها حتى زاد توزيع الصحيفة التي تنشرها، ويوم أن أعلنت هذه الصحيفة أن الكاتبة ستتوقف عن كتابة الرواية، ثارت جماهير القراء الذين بلغ عددهم أكثر من١٠,٠٠٠ متظاهر أمام مبنى الصحيفة واقتحموا مبناها وطالبوا بنشر حلقات أخرى للكاتبة.!

ثم تمت الرواية وصدرت منها الطبعة الأولى في جزءين عام ١٨٥٢م ووزعت بأرقام مذهلة حيث نفذت الطبعة الأولى بعد ٣ أسابيع

من صدورها ويقدر عددها بـ ٥٠٠٠ نسخة، ثم صدرت طبعة ثانية من ٢٠,٠٠٠ نسخة فنفذت هي الأخرى، ثم طبعة ثالثة من ١٥,٠٠٠ نسخة فنفذت كما نفذ الآلاف الأخرى بعد شهر واحد من صدورها، وفي أقل من ٣ شهور تم توزيع ٤٠,٠٠٠ نسخة، وهوحدث فريد في عالم الكتاب لم تشهده أمريكا من قبل، وأصبحت هارييت ملء السمع والبصر، وذاع صيتها وترجمت روايتها إلى أوروبا، وإلى ٧٣ لغة في العالم، وجاءتها أرباح روايتها فانقلبت بها من الفقر إلى الغنى..!

أما الزنوج فإنهم نظروا إليها على أنها قديسة، وأنها المخلص الذي ينتظرونه، وكانوا يقبلون يديها، ويتزاحمون عليها لمجرد لمس ثيابها والاستماع لكلماتها الإنسانية الرحيمة.. !

وفي نفس الوقت كان تجار الرقيق يسخطون عليها وعلى روايتها ويهددونها بالقتل، لأنها فتحت أعين العبيد على نبرة جديدة في المجتمع ومعاني الحرية والتمرد التي تفسد عليهم تجارتهم وأموالهم، وكان ذلك تحديدًا في ولايات الجنوب الأمريكي التي أصدرت قانونًا بمنع الرواية وحظر نشرها، ومن يمتلكها فهوخارج على القانون ويلقى أشد العقاب، ولكن الرواية كانت تتسرب سريًا، وكان هناك من يقرأها في الخفاء، حتى قامت الحرب بين الشمال والجنوب وكان من أسبابها الرئيسية تلك الدعوة التي قادتها هارييت بروايتها لتحرير العبيد وخلق أمريكا جديدة تحترم الإنسان وحقوقه، وفي ظل هذه الحرب التي فني فيها أكثر من٦٠٠,٠٠٠ ألف رجل يعلن (أبراهام

لنكولـن) نـداءه بتحريـر العبيـد مـن كل أمريـكا ويدعوهـا هارييـت إلى زيارتـه في البيـت الأبيـض ولما صافحها قـال لها: (إذن هـذه هـي المـرأة الصغـيرة التـي أشـعلت الحـرب الأهليـة في البـلاد !)

وصـدق فيـما قـال.. فروايتهـا أيقظـت الضمائـر، وأفاقـت المجتمـع مـن غيبوبتـه الحيوانيـة وردتـه إلى إنسـانيته..!

في دروب الظـلام وسـاعات اليـأس الحالكـة تـأتي الكلـمات لتشـد مـن أذرك وتدفعـك بقـوة لتحقـق مـا كان مسـتحيلًا أوكاد أن يكـون مسـتحلًا.. فـإذا بهـذا الوقـود السـحري يدخـل سـاحة المعركـة ليكـون أقـوى فتكًامـن أسـلحة النـار وقاذفـات الجحيم..ومـن هنـا كانـت خطـورة الكلمـة وروعـة القـراءة وقـدرة المفكريـن في قيـادة الأمـم.

كـما كانـت أمريـكا عـلى موعـدٍ مـع كتـاب آخـر، أومؤثـر آخـر جلـب لهـا النـصر وولـد فيهـا التحـدي، وكانـت قصتـه أروع مثـال لقصـة الكلمـة ودورهـا المؤثـر في حيـاة الإنسـان.

أرادت أمريـكا أن تتحـرر مـن تبعيـة الامبراطوريـة التـي لا تغيـب عنهـا الشـمس، وتنعـم باسـتقلالها الـذي سـيوجد لهـا وطنًـا جديـدًا يُعـلي مـن قيـم الحـق والعـدل والمسـاواة.. ولكـن انجلـترا بليـة العـالم.. دأبـت عـلى النهـب والسـلب والاسـتعمار، ولم تكـن تؤمـن بهـذه القيـم التـي تتطلـع لهـا أمريـكا.. حتـى جـاء كتـاب (الأزمـة) أو(تومـس بـين) البطـل الحقيقـي لاسـتقلال أمريـكا..!

ولـد تومـاس بـين في انجلـترا لأسرة فقـيرة عـام ١٧٣٧م، ولما بلـغ عمـره الثالثـة عـشر بـدأ يعمـل أعـمالًا شـاقة حتـى يُوفـر المـال الـذي يحيـى بـه ويسـاعد بـه عائلتـه الفقـيرة فعمـل أعـمالًا كثـيرة، منهـا بقـال ومعلـم وبائـع للتبـغ إلى محصـل في الجمـرك، لقـد كان وحيـدًا فقـيرًا.. عـانى صنوفًـا شـتى مـن الحرمـان والشـقاء، شـأنه في ذلـك شـأن الطبقـات الشـعبية الكادحـة في المجتمـع البريطـاني الـذي بلـغ ذروتـه في الظلـم والجحـود والطبيقـة اللعينـة، كان بـن واحـدًا مـن هـؤلاء المعذبـين الذيـن لا يجـدون قـوت يومهـم، ولا يعرفـون كيـف يتحصلـون عـلى لقمـة عيشـهم في ظـل مجتمـع لا يشـعر بهـم ولا يـرى وجودهـم؟، إنـه لا يـرى فقـط غير السـادة المتسـلطين مـن الأغنيـاء الأثريـاء، هـؤلاء هـم الذيـن فقـط يسـتحقون العيـش بهنـاء ونعيـم، وبقيـة الشـعب يسـحق وجـوده وحياتـه مـن أجـل بقائهـم يُعـاني الحرمـان والتقشـف ويـذوق القهـر والجـور مـن أجلهـم.

أخـذ (بـين) في هـذا الوقـت يقـرأ كثـيرًا ويفكـر أكـثر.. وبـدأ يسـخط عـلى مـا حولـه مـن أوضـاع مهينـة لا تليـق بالإنسـان، ورفـض واسـتنكر كل هـذه الصـور الشـوهاء التـي جعلـت حيـاة الإنسـان أشـبه بالغابـة الموحشـة التـي يفـترس الكبـير فيهـا الصغـير ويطغـى القـوي فيهـا عـلى الضعيـف..! العـالم كلـه يتصـارع لحسـاب الفئـة الثريـة الحاكمـة، بينـما يمـوت النـاس ويحرمـون مـن الحيـاة بعدمـا حرمـوا مـن العيـش الكريـم وراحـة البـال،كل هـذا العنـت وَلَّـدَ إليـه الرغبـة ليـترك هـذه الأمـة الظـالم أهلها،وكانـت في بغيهـا نموذجـا للدولـة العتيـة التـي مـلأت الدنيـا ظلـمًا وجـورًا فسرقـت قـوت الشـعوب وأحـلام الأمـم.. كان عليـه الرحيـل إلى

أرض أخـرى ووطـن جديـد ينشـد مـا تتـوق إليـه نفسـه مـن أفـكار ومبـاديء، وكانـت أمريـكا هـي الأرض الجديـدة التـي تعكـس حلمـه الأثـير فالتقـى فيهـا بجـورج واشـنطن وجيفرسـون وغيرهـما مـن دعـاة الاسـتقلال والتحـرر مـن التبعيـة البريطانيـة.. وسرعـان مـا أدرك هـؤلاء أن (بـين) هورجـل المرحلـة، وأن أمريـكا أحـوج مـا تكـون في هـذا الظـرف الراهـن لقلمـه ومبادئـه وحماسـه مـن أجـل الحريـة، لقـد لمسـوا فيـه القـدرة القويـة عـلى جمـع النـاس حـول كلماتـه السـاحرة الجريئـة، وتحويلهـم إلى قـوة محركـة تمحوالصعـاب وتحقـق الهـدف المأمـول.

(وهنـا أصـدر (تومـاس بـين) أول كتبـه في أمـيركا بعنـوان (الوعـي العـام) ودعـا فيـه إلى اسـتقلال أمريـكا عـن انجلـترا، وإقامـة جمهوريـة جديـدة حـرة تقـوم عـلى المسـاواة بـين النـاس واحـترام حقـوق الإنسـان، وصـدر الكتـاب عـام ١٧٧٦م وتخطفتـه الأيـدي واجتمعـت حولـه العقـول والقلـوب، وأصبحـت دعـوة الحريـة والاسـتقلال عـلى لسـان الأغلبيـة السـاحقة مـن أبنـاء أمريـكا، ولم يمـض عـلى الكتـاب عـدة شـهور حتـى أعلنـت أمريـكا اسـتقلالها واشـتعلت الحـرب بـين أمريـكا وانجلـترا وكادت أمريـكا تنهـزم وتفقـد هـذه الحلـم الموعـود في الاسـتقلال .

وفي لحظـات اليـأس والخـوف مـن الهزيمـة، كان لابـد لتومـس بـين مـن دور يرفـع بـه حجـب هـذا الإحبـاط المـروع حتـى يبعـث الأمـل في النفـوس ويجـدد الفـداء في العزائـم، فـإذا بـه يصـدر كتابـه الرائـع تحـت اسـم (الأزمـة) ووزع الكتـاب عـلى الجيـش الأمريـكي الـذي يناضـل مـن

أجـل التحريـر، وصـدرت تعليـمات عُليـا بقـراءة الكتـاب عـلى الجنـود المحاربـين، وكان للكتـاب فعـل السـحر في نفـوس المقاتلـين الأمريكيـين الذيـن يواجهـون الانجليـز، وانتـصرت أمريـكا في حـرب الاسـتقلال بأسـلحة كان في مقدمتهـا كلـمات (تومـاس بـين) الـذي كان منهـا: (إني لسـت عديـم الإيمـان بحيـث أتصـور أن اللـه قـد تنـازل عـن حكـم الكـون وتـرك مسـؤوليته للشـياطين، وحيـث إننـي لا أعتقـد بذلـك فـإني لا أسـتطيع أن أرى الحجـج التـي يتمتـع بهـا ملـك انجلـترا مـن الصـلاة للسـماء طالبـا منهـا أن تنـصره ضدنـا، فـإذا كان لـه الحـق في تلـك الصـلاة، فـإن القاتـل وقاطـع الطريـق والمعتـدي عـلى البيـوت الآمنـة يكـون لهـم الحـق في صـلاة مشـابهة).. لقـد سرى كتابـه في نفـوس المقاتلـين كالسـحر الـذي ألهـب حماسـهم وولـد شـجاعتهم وزادهـم إيمانًـا باسـتقلاهم الـذي تحقـق بعـد انتصـار عظيـم..)٤٠

إن غـزارة التأليـف لا تعنـي بالـضرورة قـوة التأثـير، خاصـة إذا تركـزت قـوة التأثـير في الأسـلوب والإجـادة الأدبيـة، وحيويـة الموضـوع وأهميتـه، كـما نجـد مؤلفـين فاقـت كتبهـم المائتـي كتـاب، وليـس معنـى هـذا أن كل مـا كتبـوه كان مؤثـرًا، وفي عالمنـا العـربي حـاز الكتـاب المصريـون قصـب السـبق في هـذه الغـزارة فأنيـس منصـور تقـدر كتبـه بنحو١٤٠كتابـا ومصطفـى محمـود بــ ٩٠ كتابـا ويوسـف ميخائيـل أسـعد ٤٩ كتابـا.. وعـن نفـسي فليسـت كل هـذه الكتـب مؤثـرة وإنمـا يوجـد بعضهـا مـما لا تستسـيغه نفـسي ولا تتفاعـل معـه

40- راجع القصة كاملة في كتاب عباقرة ومجانين – رجاء النقاش بتصرف

وقد عاين العالم جملة من الكتب الهامة التي أثرت في الفكر البشري وغيرت مسار البشرية، وأضافت الكثير لرحلة الإنسان في الحياة، ويأتي على رأسها كتب التراث الإسلامي التي نهلت منها أوروبا، وكانت المصباح الذي أضاء لها الطريق وكشف عنها الغيوم ككتاب المقال لابن رشد والقانون لابن سينا، ومقدمة ابن خلدون الذي يعد رمزًا للعبقرية الإسلامية وأسس لعلم الاجتماع.. !

لقد استكمل الغرب مشوار الحضارة بعد تراجع المسلمين وورثوا عنهم تركتهم التي كانت المنطلق لما وصلوا إليه اليوم من تقدم عظيم..فمن الكتب المؤثرة والشهيرة مما سطره الغرب يأتي كتاب (النسبية) لأينشتين الذي كان اللبنة الأولى للفيزياء النظرية الحديثة، وكتاب (أصل الأنواع) لداروين الذي أحدث ضجة كبيرة لاصطدامه بالموروثات الدينية، وقد فرح به اليهود لأنه يكرس مفهوم العرقية لديهم، وكتاب (المباديء) لإسحاق نيوتين، الذي كان النواة الأولى للصحوة العلمية الفيزيائية والرياضية، واعتمد عليه كثير من المخترعين والمكتشفين في تحليل الظواهر الكونية، وكتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين؟) لديل كارينجي والذي قيل عنه: إنه أشهر كتاب بعد الكتب السماوية، وقد وضع ليكون مرجعًا عمليًا لطلابه وغامر بعرضه في السوق مؤملًا أن يبيع منه ٣٠,٠٠٠ نسخة، فإذا الكتاب يباع منه على مدار ٢١ عاما ثلاثة ملايين نسخة، ويطبع٥٦ طبعة، ويصفه النقاد بأنه أوسع الكتب الجدية انتشارا،وكتاب الأمير للفيلسوف ميكافيلي وهومن أكثر الكتب التي

أثرت في الوعي الإنساني خاصة لدى المهتمين بالشأن السياسي، وتبنى فيه نشر ثقافة الغاية تبرر الوسيلة وهوما وسمه بالسمعة السيئة، لكن يبقى تأثيره كبيرًا في نظم الإدارة والحكم، وكتاب تفسير الأحلام لفرويد الذي يضم نظريات نفسية ويعد مرجعًا للمشتغلين بالطب النفسي،وكانت له تفسيراته العلمية للأحلام وتفسيرها النفسي.

وكتاب دور الأفلاك السماوية لكوبر نيكوس الذي أسهم في إطلاق علم الفلك الحديث وقلب النظرية السائدة بأن الأرض هي مركز الكون،وأن الأجرام السماوية بما فيها الشمس تدور حول الأرض ليثبت أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية والكواكب تدور حولها، وكتاب الجمهورية لأفلاطون الذي وضع الأسس والمبادئ الأولى للديمقراطية والفرضيات السياسية والأخلاقية، وكتاب ثورة الأمم لآدم سميث الذي كان باكورة الفكر الاقتصادي الرأسمالي العالمي، وغيرها كثيرًا من النظريات الاقتصادية التقليدية إلى مفاهيم الاقتصاد الحر، ويستحيل أن لا يطالعه أي دارس أومهتم بعلم الاقتصاد، وكتاب رأس المال لماركس وهوثورة اقتصادية وعلمية واجتماعية، وتسببت دعواته في اختلاف عقائدي وحروب باردة استمرت لعقود، حينما أصبحت أفكار مؤلفه مذهبًا سياسيًا وأعطى تصورًا لمعنى التطور الصناعي للبلدان، ورأى أن الذي يحكم مسيرة الحياة هوالمال والمادة وليس للدين فيها أي دور، وكتاب المبادئ الخمسة لكونفوشيوس، والذي ما زالت مبادؤه حية في أعراف وأخلاقيات الشعوب الآسيوية، وكتاب التأملات لديكارت الذي أسس المذهب العقلي وأبطل خرافات

المذاهب الإغريقية..وكتب كثيرة غيرها كان لها تأثير في عقول البشر وتحولاتهم الفكرية وقناعاتهم العقلية والأخلاقية..

ولعلي هنا لا أذكر كتب الوحي.. فهي ميدان آخر، والتأثير الإلهي شيء والتأثير البشري شيء آخر..فالتأثير الإلهي معجز خارق، أما التأثير البشري فمحوط بسياج العبقرية التي هي من شأن البشر، ولا تعرف الدنيا كتابًا زلزل الأفئدة كالقرآن الكريم، ولم لا؟ والله تعالى أنزله لهذا الغرض فصرع أساطين البلاغة والبيان العربي الذين لم يتحملوا عذوبة آياته ورشاقة كلماته وركعوا أمامه منهزمين خاضعين، حتى ظنه بعضهم سحرًا وقالوا من أين يأتي محمد بهذه الكلمات..؟! وعده بعضهم من فعل الحواة ومن مجالب الجن، وقال سيد قريش وقتها: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلوولا يعلوعليه..!

وهذا عمر الجبار يسحق أخته بقسوة فلما أبصر القرءان.. خر جبروته، وخمدت ناره، وانهزمت قسوته، وتوهج فيه الإحساس وغسلت وجهه الدموع..!

يقول السيوطي: (وإن كتابنا القرآن لهومفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء وأبان فيه كل هدي وغي فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج، حكم الحلال والحرام والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه

والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولوالفكر والإعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب)٤١

ولا يفوتنا المقام أن نذكر كتابًا من أهم الكتب التي أثرت في حياة المسلمين الروحية وهوكتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الكبير (أبي حامد الغزالي) فلم يكن الكتاب مجرد مؤلف سطره صاحبه ليزين به رفوف المكتبات، أوليكون إضافة لصاحبه تضع قدمه واسمه بين المصنفين والمؤلفين الكبار..!

وإنما يعد هذا الإحياء من الكتب الرائدة في تاريخ الأمة الإسلامية وحياة المسلمين، حيث ارتقت مادته بالنفوس وعززت جانب الأخلاق وسمت بالروح ودفعت إلى التقوى والالتزام، والتحلي والقيم والفضائل، ومقاومة الشهوات والمغريات، والدعوة للرياضة النفسية،والتحميس إلى درب الروحانية.

لقد كان لهذا الكتاب مكانته الكبيرة، ولم يعرف مثله من المصنفات في التأثير على قرائه وسعة انتشاره، مما دفع الأجيال تلوالأجيال لاقتنائه والاستزادة منه، وقد أدرك علماء الأمة قيمة هذا المصنف العظيم

41- الاتقان في علوم القرآن – الجلال السيوطي ج٢

فكان لهم فيه إشادات وإطراءات.. حيث قال النووي: كاد الإحياء أن يكون قرآنًا.

وقال (العراقي) في تخريجه للإحياء: إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه)

قال عبد الغافر الفارسي: إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها.

قال أبومحمد الكازروني: لومحيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء.

قال عبد الله العيدروس: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره، فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة، ومفهومات غزيرة غير التي قبلها.

ومن كلامه: أنا أشهد سرًا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهومن المهتدين.

ومن كلامه: من أراد طريق الله وطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر

والباطـن، فعليـه بمطالعـة كتـب الغـزالي خصوصًـا (إحيـاء علـوم الديـن) فهوالبحـر المحيـط.

عليـك بإحيـاء العلـوم ولبّهـا وأسرارهـا كـم قـد حـوى مـن دقائقِ

وكـم مـن لطيفات لـذي اللـبِّ منهل وكـم من مليحات سَـبَتْ لـبَّ حاذقِ

فكـم مـن بديـع اللفظ يجلي عرائسًـا وكـم مـن شـموس في حـماه شـوارقِ

معانيـه أضحـت كالبـدور سـواطعًا عـلى درَ لفـظ للمعـاني مطابـقِ

بسـاتين عرفـان وروض لطائـف وجنـة أنـواع العلـوم الفوائـقِ

قـال عـلي بـن أبي بكـر السـقاف: لوقلـب أوراق الإحيـاء كافـر لأسـلم، ففيـه سر خفـي يجـذب القلـوب شـبه المغناطيـس.

وهوالـذي أنشـد فيـه: لقـد ذهـب الشـيخ (محمـد مصطفـى المراغـي) رحمـه اللـه ليعـود الأسـتاذ الإمـام (محمـد عبـده) في مرضـه قبـل أن يسـافر إلى السـودان لاسـتلام وظيفتـه في القضـاء الشرعـي هنـاك، فسـأله الإمـام (محمـد عبـده) مـاذا أخـذت معـك في سـفرك؟ فقـال لـه: الإحيـاء! فقـال الأسـتاذ الإمـام: نعـم الـزاد في السـفر.

ويحـكي لنـا شـيخنا الدكتـور (يوسـف القرضـاوي) كيـف كان للإحيـاء دورًا كبـيرًا في ثقافتـه وصفـاء روحـه وتهذيـب نفسـه،حينما ارتبـط بـه في وقـت مبكـر فيقـول: (كنـت في الخامسـة عـشر مـن عمـري بعـد أن أنهيـت

السنة الأولى من القسم الابتدائي بمعهد طنطا، وكان عندي نهم القراءة في غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر، وكانت قراءاتي في طنطا – خارج الدراسة - في كتب الأدب وخصوصًا أدب المنفلوطي في نظراته وعبراته ورواياته التي كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطي في دار الكتب بطنطا، شبه بالية لكثرة تقليبها في الأيدي..أما قراءتي في قريتي (صفط تراب) فلم يكن فيها دار كتب، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده في مثل تلك القرى، وفي ذلك العصر، لهذا حين أردت أن أقرأ وجدت كتب التصوف هي المتاحة لي..وشاء القدر أن يهيئ لي كتاب (إحياء علوم الدين) فقد كان يقتنيه جار لنا من نبهاء أهل القرى الذين كان لهم حظ من الاطلاع، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء، وكان تلميذًا لأحد مشايخ الطريق، ثم استقل بطريقة قوامها: العبادة والذكر ثم قراءة الإحياء، وشعارها الذي يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان ولابد من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين!

فهذا ما جعل جارنا الشيخ (بيومي) رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب الإحياء، الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف، وخصوصًا:ربع المهلكات وربع المنجيات منه، مع تحفظي شخصيا على بعض ما فيه من غلو، ولم يكن ملائمًا لطبيعتي، ولكني كنت أتأثر بما فيه من رقائق، وترتعش جوانحي، ويترقرق دمعي، وهذا دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله .

ولما رآني الشيخ بيومي حريصًا على الكتاب، تركه لي هدية، وقد بقي عندي حتى أني اصطحبته معي إلى المعتقل سنة ١٩٤٩م)٤٢

وهناك قصة طريفة ذكرها الصوفية في بيان فضل الإحياء والتحذير من الإنكار عليه ونبذه والإعراض عنه فقد ذكر اليافعي أن الشيخ الإمام الكبير (أبا الحسن علي بن حرزهم) الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب (إحياء علوم الدين) وكان مطاعًا مسموع الكلمة، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة، فرأى ليلة تلك الجمعة،كأنه دخل الجامع فإذا هوبالنبيﷺ فيه ومعه أبوبكر وعمر والإمام الغزالي قائم بين يدي النبيﷺ ؛ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: هذا خصمي يا رسول الله فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله، وإن كان شيئًا حصل لي من بركتك واتباع سنتك فخذ لي حقي من خصمي.

ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء، فتصفحه النبي ورقة ورقة من أوله إلى آخره، ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله الصديق فنظر فيه فاستجاده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفتري، فجرد وضرب، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق وقال: يا رسول الله

---

42 – الحياة الربانية والعلم — د.يوسف القرضاوي

لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متألمًا من أثر السياط وهويتضرع إلى الله ويتشفع برسول الله، إلى أن رأى النبي ﷺ دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفي وشفي بإذن الله، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه ونال المعرفة بالله، وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر.

ولم يسلم كتاب الإحياء من الطعن والإنكار على ما فيه، وهومن أكثر الكتب في تاريخ الأمة التي تنازع فيها الفريقان بين مادح وقادح، هؤلاء يرفعون قدره ويغالون في مدحه، وأولئك يغتالونه ويحطون منه ويأمرون بحرقه ويحرّمُون النظر فيه، وقد تضمن الكتاب بعض الأغاليط والشطحات الصوفية، وجملة من الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وهوما أثار الثائرون عليه..لكننا في هذا المقام لا نغالي بالكتاب فنرفعه عن مواطن الخطأ ولا نهوي به إلى الأرض فنبخسه حقه، وإنما نسير فيه مسيرة أسلافنا من أئمة أهل السنة المشهود لهم برجاحة العقل واعتدال الإنصاف كابن تيمية والذهبي وابن كثير، الذين أشادوا بالكتاب وأقروا له أثره وقدره ومقام صاحبه، لكنهم في ذات الوقت لفتوا إلى ما فيه من أخطاء وثغرات ولكنها لا تمنع مع العلم بها أن يستفاد منه..

قـال شـيخ الإسـلام في الفتـاوى: (والإحيـاء فيـه فوائـد كثـيرة، لكـن فيـه مـواد مذمومـة)

وقـال (الذهبـي) في سـير أعـلام النبـلاء: (فرحـم أبـا حامـد، فأيـن مثلـه في علومـه وفضائلـه ولكـن لا ندعـي عصمتـه مـن الغلـط والخطـأ، ولا تقليـد في الأصـول)

أمـا الإمـام (ابـن كثـير) فقـال في البدايـة والنهايـة: (هوكتـاب عجيـب يشـتمل عـلى علـوم كثـيرة مـن الشرعيـات، وممـزوج بأشـياء لطيفـة مـن التصـوف وأعـمال القلـوب، لكـن فيـه أحاديـث كثـيرة غرائـب ومنكـرات وموضوعـات)

الأمم الواعية

بعض رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ارتبطوا بعلاقة خاصة بالكتاب والمثقفين، وكان منهم المهتمين بالأدب والثقافة وكان منهم المؤلفون وتعد خطب (ابراهام لنكولن) نموذجًا رائعًا للفصاحة وفن مخاطبة الجماهير، وكان لا يفتأ يقرأ ليل نهار لإيمانه المطلق أن القراءة هي المحرك الأول والأعظم للإدارة والطريق لسلامة قراراته، والرئيس (تيودور روزفلت) كتب كتبًا في التاريخ والسياسة، وكان (فرانكلن روزفلت) يحيط نفسه بنخبة من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين ويحب أن يقرأ التاريخ والروايات والتراجم.

وكيندي كما تذكر كتب التاريخ كان يقرأ بمعدل ١٢٠٠ كلمة في الدقيقة، وأن الرئيس (تيودور روزفلت) كان يقرأ يوميًا كتابًا كاملًا قبل تناول طعام الإفطار!

وكان الرئيس (جيمي كارتر) على دربهم ففي الحديث الذي أجراه معه الصحفي (هارفي شابيرو) محرر باب الكتب في صحيفة (نيويورك تايمز) بمناسبة صدور مجموعة لخطبه في كتاب بعنوان (حكومة صالحة مثل شعبها) لقد أظهر كارتر ولعه بالقراءة وحبه للشعر والأدب فقد كان طوال حياته قارئًا نهمًا، وكان يحب الشاعر (ديلان توماس) ويقول: أحب أن أمضي وقتًا ممتعًا في قراءة أشعاره وهي مازالت مفضلة عندي، وحصلت مؤخرًا على مجموعة خطب (ادلاي

ستيفنسون) و(جون كينـدي) وقـد قرأتهـا كلهـا بعنايـة كبـيرة.. ولمـا سـأله الصحفـي: هـل تحـب قـراءة كُتّـاب الجنـوب مثـل فوكـنر ورانسـوم فلانـيري اوكتـور وألـين تيـت ووكـر بـيرسي.؟ رد قائـلًا: إن (فوكـنر) هوأكـبر كاتـب قـرأت لـه ودرسـته وأقتنـي كل كتبـه، وفي بعـض المناسـبات كنـت أقـرأ منهـا لأولادي بصـوت عـال، أعتقـد أنـه فعـلًا كـما ذكـرت أنـه حلـل صفـات الإنسـان وصـور الـصراع بـين الخـير والـشر، النجـاح والفشـل، الزهووالانحطـاط أكـثر مـن أي كاتـب آخـر، أمـا زوجتـي فـإن كاتبهـا المفضـل هوكارسـون مـاك كولـيرز، وفي سـؤال آخـر قـال الصحفـي: قلـت في ترجمتـك الذاتيـة أنـك كنـت تقـرأ ثلاثـة أوأربعـة كتـب كل أسـبوع.. هـل مـازال يصـدق عليـك ذلـك حتـى اليـوم؟

رد كارتـر: لا أسـتطيع أن أقـرأ هـذا العـدد مـن الكتـب اليـوم، ولعلنـي أسـتطيع أن أقـرأ كتابـين كل أسـبوع، فلابـد أن أقـرأ أشـياء كثـيرة تفـرض عـلي، وصلنـي الآن ملـف كامـل لمحادثـات نيكسـون-كسـينجر- مـاو- شـو، وبطبيعـة الحـال لا يمكـن اعتبارهـا كتبًـا ولكنهـا موضوعـات لابـد مـن قراءتهـا..!

وعـن واجـب الحكومـة نحوالكتـاب قـال كارتـر: إن (ليونـارد راندولـف) رئيـس برنامـج تنميـة الآداب والفنـون يريـد أن يكـرس مـالًا أكـثر مـن أجـل الشـعراء، ومـالًا أكـثر مـن أجـل المكتبـات التـي تعـاني مشـكلات عويصـة هـذه الأيـام، حتـى تسـتطيع أن تقتنـي كتبًـا أكـثر للشـعراء، وعندمـا كنـت حاكـمًا لجيورجيا،كنـت أهتـم كثـيرًا بالكتـاب والمكتبـات، وكنـا نقيـم حفـلًا

ندعوإليه كل الكتاب لتأكيد مدى تقديرنا لهم وتفهمنا لأدبهم.

نشر هذا الحوار في صحفنا بالعربية عام١٩٧٨م بواسطة الأديب الكبير ثروت أباظة الذي ألقى الضوء على اهتمام أكبر رأس في أكبر دولة في العالم بالقراءة ومكانتها في حياته..وهوالاهتمام الذي يشير إلى ضرورة القراءة كعنصر فعال للمجتمعات القوية المزدهرة.

لا أعرف لماذا تعيش مجتمعاتنا وشعوبنا في غفلة عن هذا العلاج الفعال لكثير من مشكلاتها..؟!

في إبان الحرب الباردة (كلفت الحكومة الأمريكية خبراءها لدراسة سر قوة الاتحاد السوفيتي آنذاك وتفوقه العسكري والاقتصادي، وانتهت الدراسة إلى حقيقة واحدة: معدل ما يقرأه الفرد الروسي يفوق أضعاف معدل ما يقرأه الفرد الأمريكي، وإن هذه النتيجة تعكس ما للقراءة من أهمية ودور في بناء شخصية متكاملة ناضجة للمجتمعات إذ إن القراءة ليست فعلا ترفيا وإنما سلاح يحفظ للمجتمعات كرامتها وقوتها ويحفظ مكانتها وكيانها الثقافي بين الأمم وعلى المستوى الشخصي تؤدي القراءة دورا فاعلا في تنمية الشخصية الإبداعية من خلال تحفيز القدرات الذهنية كالتركيز ومهارات الاستذكار والتحليل القراءة - إن شئنا الدقة – ليست هذه وتلك فحسب إنها أكثر من حياة.!)٤٣

43 – صحيفة الرياض عدد الخميس ٤ رجب ١٤٣٦ هـ

وفي فيينا عاصمة النمسا.. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قام بعض المتسولين بالاستيلاء على كتب المكتبات المهجورة وبيعها بالطرق بالشكل الذي ترونه.. وبأبخس الأسعار.. لعدم ادراكهم قيمة هذه الكتب.. وبعد عدة سنوات لاحظ المثقفون في المدينة ازدياد ثقافة المتسولين بشكل لا يصدق.. .ودخولهم بمحاجات ثقافية في ما بينهم في الطرق وقد بدؤوا يحسنون من كلماتهم التي يستخدمونا في ما بينهم.. .وعندما تتبعوا الامر وجدوا ان هؤلاء «المتسولين» كانوا يقرؤون هذه الكتب التي يبيعونها لمعرفة محتواها والنداء بالاسواق بمحتوياتها لجذب المشترين..وقد تأثروا ايما تأثير بها

لقد كبرنا في أوساطنا وأوطاننا ولم نجد من يشجعنا أويدفعنا نحوالقراءة ويلهمنا بأهميتها وضرورتها لعقولنا ومستقبلنا فلا البيت ولا المدرسة ولا الأصدقاء..لم يكن أحد ممن يحيط بنا يلفتنا إليها وهي غفلة كبيرة وبلادة منقطعة النظير لم يجن الفرد من تبعاتها إلا التردي والتراجع، أما الأمة فهي من أكبر بلاياها وأشد محنها..

يحدث هذا في الوقت الذي توجد فيه شعوب تصر على القراءة بل تدمنه..ا لأنها فهمت وعرفت أنها أفضل وأهم وأسرع الطرق لنهضة الإنسان والمجتمع.. فقد حرصوا عليها وأكدوا على أهميتها في كل مراحل الإنسان العمرية بداية من الطفولة التي هي المرحلة الخصبة التي تمكنهم من غرس هذه الفضيلة، وإنماء هذه العاطفة القوية، مرورا بالشباب وانتهاء بالكهولة.

وواقعنا المشاهد يئن من خصومة عنيفة بين الشباب وبين القراءة، وبعضهم يعده عدوا لدودا لا يتعامل معه إلا في حدود دراسة مقرر أوالاستعداد لاختبار، ثم الويل له بعد ذلك.

وقد أجريت بعض الدراسات بهدف التعرف على معدل قراءات الشعوب في العالم، فكانت النتيجة أن معدل قراءة الرجل العادي الذي يعمل في المحلات والأعمال الحرفية ما يلي: في اليابان أربعون كتابًا في السنة، الفرد الأوروبي عشرة كتب في السنة.. في الوقت الذي كان معدل قراءة الفرد في الوطن العربي عُشر كتاب، بمعنى أنه يقرأ في العام عشرين صفحة من كتاب تبلغ عدد صفحاته مائتي صفحة.!

وإذا أردنا التحول لمجتمع المعرفة، فلابد من العمل على تكريس حب القراءة واعتبارها هواية مفضلة، وهذا يتطلب جهودًا تربوية ضرورية بدءًا من الأسرة التي تتحمل مسؤولية رعاية الميول وتنمية الاتجاهات نحوالقراءة منذ الصغر، مرورًا بالمدرسة التي تتولى مسؤولية تعليم القراءة وتعزيز حبها في نفوس الناشئة ثم المجتمع بجميع مؤسساته التي تتحمل مسؤولية تشجيع القراءة وتيسير الحصول على مصادرها.

ومهمة البيت أن يقدم القدوة القارئة داخل البيت فحينما يشاهد الأبناء آباءهم وأفراد أسرتهم يقرؤون، ويطالعون الكتب، فإنهم سوف يحاكونهم، وستعرف أيديهم طريقها للكتاب وتبدأ معه العلاقة، ومن هذه المحاكاة يحسن القيام باقتناء المكتبة المنزلية وتخصيص

مـكان مناسـب لها،كـما نهتـم بصالـة الطعـام وغيرهـا مـن مرافـق المنـزل.

قـال أحـد الشـعراء الإنجليز:(قـد تكـون عنـدك ثـروة ضخمـة لا تسـاويها ثـروة أخـرى، تمـلأ بهـا الكثـير مـن الخزائـن، ولكنـك لـن تكـون أبـدًا أغنـى منـي.. فقـد كانـت لي أم اعتـادت أن تقـرأ لي)٤٤

وكـم يغمـرني سرور كبـير حينـما أسـمع عـن معلـم قـدم لتلاميـذه جائـزة إن هـم قـرؤوا كتابًـا حـدده لهـم وامتحنهـم فيـه، أونـادٍ قـدم للشـباب مسـابقة بحثيـة في إطـار كتـب مختـارة علميـة كانـت أوأدبيـة، أوجمعيـة جعلـت مـن ضمـن أعمالهـا ومناشـطها تشـجيع المجتمـع عـلى القـراءة التــي تدشــن لهــا المســابقات والنــدوات والحمــلات، أومؤسســة مــن المؤسسـات عقـدت مكافـأة لموظفيهـا إن هـم قـرؤوا كتابًـا يخـدم تخصـص أفرادهــم ويدعــم مســيرتها ويزيــد مــن خبرتهــم بالعمــل ومتطلباتــه، ويطـور آداءهـم وإبداعهـم وإنتاجهـم.

نعم..فكـم تكـون السـعادة بالغـة حينـما نبـصر مجتمعًـا يعـي رسـالة القـراءة في حيـاة أفـراده، ومـدى قدرتهـا عـلى توجيـه مسـاره نحومقومـات البنـاء وعنـاصر الازدهـار، بـل يـدرك عمـق تأثيرهـا في صياغـة العقـول والنفـوس نحوالايجابيـة والتميـز .!

44- من مقال للدكتور عادل غنيم بصحيفة اليوم السعودية — تاريخ ١٠/١١/١٤٣٥هـ عدد ١٥٠٥٧

تأمل معي هذه المبادرة الايجابية التي قام بها بعض أفراد المجتمع الانجليزي لتشجيع جماهيره على بذل المزيد من حب الكتاب والعناية بالقراءة والمطالعة.. ورغم أن الغرب عالم قاريء إلا أن هذه الدعوة تؤكد مدى وعيهم بضرورتها في حياتهم، وتمثل دعوة تحذير من نسيانها أوالتغافل عنها..!

فوجيء بريطاني قبل أسبوع بوجود كتاب جميل وجديد في مقعده في الباص، وعبثًا حاول الرجل العثور على صاحبه ولكن دون جدوى، وبعد ثوان انتبه إلى عبارة غريبة على غلاف الكتاب الأخير تقول له: لا تسلم هذا الكتاب إلى قسم الأمانات إذا وجدته فهولك..والتقطت شابة بريطانية رواية عندما جلست في المطعم، وفي الحال نادت على الجرسون قبل أن تطلب قائمة الطعام وقالت له: لقد وجدت هذا الكتاب على مقعدي، فضحك الجرسون وطلب منها أن تقرأ العبارة المكتوبة على ظهر الكتاب، وهي نفس العبارة التي كانت مكتوبة على الكتاب الذي وجده البريطاني في الباص.!

وبعد أسابيع اكتشف الكثير من البريطانيين كثيرًا من الكتب الجميلة المخبأة لهم في أماكن لم يتوقعوها مطلقًا، ولم يمض وقت حتى عرفوا الحكاية.

فقد دعت إحدى الجمعيات الأدبية ضمن حملة قومية لمكافحة المخدرات بين الشباب وقتل أوقات فراغهم، دعت كل كاتب ومؤلف وأديب إلى التبرع بكتاب واحد على الأقل من كتبه، واستجاب لهذه

الدعـوة الكثـير مـن الكتـاب وجمعـت خـلال أسـبوع واحـد فقـط حـوالي ٣٠٠٠ كتـاب، ثـم قـام فريـق مـن متطوعيهـا بتوزيعهـا عـلى مقاعـد المقاهـي والمطاعـم ومقاعـد الحافـلات ومتروالأنفـاق، وتضـع الجمعيـة الكتـاب عـلى المقعـد وتكتـب عليـه العبـارة الشـهيرة، لقـد نجحـت الفكـرة ولاقـت ترحيبـا ًكبـيرًا مـن الشـباب ومـن الكبـار أيضـا كـما شـجع هـذا النجـاح جمعيـات أخـرى لتنفيـذ أفـكار مشـابهة في مسـاعدة النـاس عـلى القـراءة ومـلء الفـراغ، وبعـد فـترة قليلـة مـن هـذا العمـل الجميـل اكتشـف أصحـاب الفكـرة في الجمعيـة الأدبية، أن الشـباب يريـدون القراءة ولكنهـم يحتاجـون إلى تشـجيع وأفـكار جذابـة ومثـيرة مثـل هـذه، كـما أن بعضهـم يريـد فعـلًا مـلء فراغـه بالقـراءة ولكـن الكثـير مـن الكتـب أصبحـت غاليـة الثمـن ولا يسـتطيع دفـع ثمنهـا في المكتبـات!

أمـا نحـن فـما أحوجنـا لمـن يحـول مـلء فراغنـا ويقـول لنـا: هـذا الكتـاب لك.)٤٥

بعـض الدراسـات أشـارت إلى أن النـاس في المنطقـة العربيـة يخصصـون أقـل مـن ٦ دقائـق في السـنة لمطالعـة كتـاب، وهواسـتنتاج خطـير يسـتدعي وقفـة ودراسـة مـن الجميـع، لأنـه مـؤشر للأميـة والانحـدار، إذ لا يمكـن للخـير أن ينبـت في مجتمـع يهجـر الثقافـة والاطـلاع إلى هـذا الحـد الرهيـب!

أمـا الأمريـكي فقـدروا معـدل قراءتـه ١١ كتـاب، والانجليـزي إلى سـبعة

45- بتصرف من مقال خالد البسام بصحيفة الشرق الأوسط

كتب سنويًا.. ورغم هذا فقد استشعر الناس في أمريكا بالخطر في بعض الفترات، حين لمسوا قصورًا في ميدان القراءة، فانطلق ١٠,٠٠٠ متطوع إلى مدنهم وقراهم مزودين بـ ٥٠٠,٠٠٠كتاب في إطار أنشطة مصحوبة بفعاليات لتشجيع القراءة استهدفت غير القراء لتحويلهم إلى قراء، وبالطبع وصلت إلى الناس والمؤسسات واعتمدت على التبرعات والدعم الكبير من الشخصيات المختلفة لكي ينجح المشروع، هذا غير الكتب التي تم إرسالها إلى مواقع القراءة الالكترونية وإمكانية تنزيلها مجانًا.

وفي بريطانيا أقروا مشروع القراءة العائلية وتقوم فيه المكتبات المدرسية والعامة بجمع الأطفال وأولياء أمورهم ويتم تدريب الآباء على اختيار الكتب المناسبة لأطفالهم بناء على خصائص نموهم العقلي والنفسي.

كما قامت بريطانيا بإيجاد ٣٥,٠٠٠مدرسة بها ١٠,٠٠٠متجر لبيع الكتب ذات الطبعات الشعبية الرخيصة حيث يقوم التلاميذ بشراء هذه الكتب من مصروف جيبهم ويبلغ متوسط مبيعات هذه المتاجر سنويًا نحو٢٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

(وفي أمريكا وبريطانيا تقوم المكتبات المتنقلة بنقل الكتب إلى المناطق النائية والمعزولة، وقد اتجهت المكتبات العامة إلى إيجاد هذه الوسيلة لتتمكن من خلالها الاتصال بمثل هذه التجمعات السكانية والقرى النائية لنشر الوعي الثقافي وقد تكون وسائل النقل

المستخدمة السيارة أوالعربة وقد يطلق على هذه المكتبات تسميات أخرى كالمكتبة الرحالة ومكتبات المعارض أوالعرض، والمكتبات المتجولة وباصات الكتب وقوافل الكتب وغيرها كما توجد المكتبات المنزلية التي تضم مجموعة من كتب الأطفال وتم وضعها في أحد المنازل الموجودة بالحي ويقوم بإدارتها مجموعة من الناشئة فيما دون العشرين ويطلق عليهم أمناء المكتبة، يضاف إلى هذا نوادي الكتب الأمريكية التي توفر مساحة للأمريكيين لمناقشة عديد من القضايا ذات الاهتمام المشترك للمترددين عليها وبعض تلك النوادي يعد فروعًا لجماعات تتبنى قضايا سياسية أواجتماعية معينة تدافع عنها وترتبط بعضها بمراكز بيع الكتب الضخمة منها مثل (بيرنز أند نوبل) أوبعض المؤسسات المستقلة بالمدن الصغيرة لزيادة مبيعات الكتب، وفي الوقت ذاته إتاحة مساحة للنقاش والاهتمام الأمريكي بالحوار الاجتماعي حول الكتب، يشار إلى أن الكثير من هذه النوادي أنشئت عن طريق منظمات تطوعية غير ربحية تهدف إلى تشجيع الأمريكيين على استثمار أوقات فراغهم في القراءة لا سيما الأدب الأمريكي)٤٦

ويذكر الكاتب والروائي البريطاني (نيل قيمان) في محاضرة له نشرتها صحيفة (الجاردين) أن أصحاب تجارة صناعة السجون الخاصة في أمريكا - وهي صناعة مزدهرة هناك كما يذكر - يستطيعون معرفة

46 – صحيفة الرياض – الخميس بتاريخ ٤ رجب ١٤٣٦ هـ – ٢٣ أبريل ٢٠١٥م – العدد ١٧١٠٤

عـدد السـجون التـي يلـزم بناؤهـا مـن الآن إلى١٥ سـنة قادمـة وفقًـا لإحصائيـة تقـوم عـلى حسـاب نسـبة عـدد مـن لا يقـرؤون اليـوم مـن الأطفـال الذيـن تـتراوح أعمارهـم بـين العـاشرة والحاديـة عـشرة.!

نحن وهم!

قـال (مـوشي دايـان) ردًا عـلى منتقديـه بسـبب كشـفه أسرارا عسـكرية لحـرب سـنة ١٩٦٧م، إذ خطـط أن يهاجـم العـرب بنفـس الخطـة التـي اتبعهـا في سـنة ١٩٥٦م في عدوانهـم عـلى مـصر، فثـار عليـه القـادة العسـكريون واتهمـوه بالجنـون، فقـال:

اطمئنوا فإن العرب لا يقرأون...

وإذا قرؤوا لا يفقههون...

وإذا فهموا لا يطبقون...!

ويقـول العقـاد: (إن القـراءة لم تـزل عندنـا سـخرة يسـاق إليهـا الأكـثرون طلبًـا لوظيفـة أومنفعـة، ولم تـزل عنـد أمـم الحضـارة حركـة نفسـية كحركـة العضوالـذي لا يطيـق الجمـود).

إن الغـرب الـذي تمـرد عـلى الديـن والضمـير.. سـاد الدنيـا وتحكـم في مصائـر الشـعوب يـوم أن احـترم العلـم، وقـدَّس الثقافـة واحتفـى بالكتـاب وصـادق المطالعـة.. ومـا زالـوا يدركـون هـذه القيمـة، وتشـب عليهـا أجيالهـم، لتسـتمر قيادتهـم وسـيادتهم.

أمـا نحـن فمهرجـون عابثـون،لا نألـف غـير الرتـوع في الشـهوات، والتلـذذ بالمغريـات، لا ننشـغل بغايـة أوقيمـة أوسـيادة أوعـزة، حتـى صرنـا ألعوبـة في يـد مَـن لا يرحـم.

تطالعنا كثير من الدراسات والكتب والمواقع بإحصاءات مؤلمة ومخجلة تظهر واقعنا مع الكتاب وتكشف الفروق الهائلة بيننا وبين الغرب في العناية بالقراءة، وتعري واقعنا العربي الذي ألف الجهل وأدمن خصومة المعرفة .

وهي أرقام تملأ قلوبنا غصة وحسرة على ما آل إليه حالنا وصارت إليه أمتنا،من هذا التردي المفجع الكئيب، ورغم ما تُسببه من آلام وشعور بالخزي إلا أنني أضطر لذكرها فعسى أن يولد هذا الشعور بعضا من الغيرة تستحث القراءة أن تغزوحياتنا وتملأ عقولنا وأوقاتنا..!

* الوقت المخصص للقراءة عند الطفل العربي لا يزيد عن ست دقائق في العام،

* معدل ما يخصصه المواطن العربي للقراءة هوعشر دقائق سنويًا، في حين أن الإنسان الغربي يُخصص لها سنويا ست وثلاثين ساعة!

كتاب واحد يصدر لكل ٣٥٠ ألف مواطن عربي، في حين أن النسبة في أوروبا هي كتاب واحد لكل ١٥ ألف أوروبي.

* كل٢٠ مواطن عربي يقرأ كتابًا واحدًا، بينما يقرأ كل مواطن بريطاني ٧ كتب، وكل يهودي إسرائيلي ٧ كتب وكل مواطن أمريكي ١١ كتابًا.

* يوازي عدد الكتب المطبوعة في العالم العربي منذ عهد الخليفة المأمون (منذ اثني عشر قرنا) وحتى صدور هذه الإحصائيات.

* أكثر من ٤٠٪ من الراشدين العرب (٧٠ مليون نسمة) هم أميون، في حين أن السويد احتفلت عام (٢٠٠٨م) بموت آخر أمي فيها!

* نسبة سكان العالم العربي إلى سكان العالم هي ٥,٥٪ بينما إجمالي ما تنتجه الدول العربية لا يزيد عن نسبة ١,١٪ من الإنتاج العالمي للكتب.

* لا يترجم العرب جميعا خمس ما يترجم اليونانيون وحدهم من الكتب، مع غياب الترجمات العربية العلمية والفلسفية.

* عدد النسخ من الكتب المطبوعة في الدول العربية يتراوح بين ١٠٠٠-٥٠٠٠ نسخة مقابل ٨٥ ألف نسخة في الدول الغربية.

* ٤٠٠ كتاب هوحجم الكتب المخصصة سنويا للطفل العربي، مقابل ١٣٢٦٠ كتاب للطفل الأمريكي، و٥٨٣٨ كتاب للطفل البريطاني، و٢١١٨ كتاب للطفل الفرنسي، و١٤٨٥ كتاب للطفل الروسي.

*مداولات سوق الكتاب العربي بيعا وشراء لا تتجاوز ٤ مليون دولارا أمريكيا سنويا، في حين يصل هذا الرقم في دول الاتحاد الأوروبي إلى ١٢ مليار دولار.

* إحصائيات عام ١٩٩٦ أشارت إلى أن كل ما تطبعه الدول العربية والبالغ عدد سكانها ٢٦٠ مليون نسمة لا يصل إلى نصف ما تنشره دولة إسرائيل التي لا يتجاوز عدد سكانها ٦ ملايين نسمة.

* تنفق الدول العربية أقل من ٣,٠٪ من إجمالي الناتج القومي على عمليات توظيف البحث العلمي من أجل التنمية بينما تنفق الدول المتقدمة ما بين ٢٪ و٤٪ في هذا المضمار.

* معدل نشر الكتب في المنطقة العربية هو١٪ فقط، أي ما يعادل ثلاثين كتابا لكل مليون مواطن عربي، بينما يختلف هذا المعدل كليا في أوروبا وأمريكا حيث تصل معدلات نشر الكتب في الأولى إلى ٥٨٤ وفي الثانية إلى ٢١٢ لكل مليون ساكن.

* الفرد العربي يقرأ ربع صفحة فقط في السنة، كل مليون عربي يقرؤون ٣٠ كتابًا فقط في السنة،

ينشر العالم العربي أقل من ٢٠٠٠ كتاب في السنة، كتب الطبخ تحتل الصدارة بنسبة ٢٣٪ على الإنترنت،

* تم تحميل ١٥٠ كتابًا في عام ٢٠٠٩، مقابل ٤٣ مليون فيلم وأغنية في نفس العام، * المطرب المصري تامر حسني يتفوق بضعفين على المتنبي ونزار قباني ونجيب محفوظ ومحمود درويش مجتمعين،

يحتل البحث عن كتاب في جوجل المرتبة الـ ١٥٣ من بين اهتماماتنا العربية، وأهم ٣ مواضيع يبحث عنها العربي في جوجل هي على الترتيب: الجنس ثم الطبخ ثم الفضائح

*عـدد الكتـب الأجنبيـة المترجمـة خـلال ثلاثـة عقـود (١٩٧٠ـــ ٢٠٠٠م) ٦٨٨١كتابًـا فقـط.

وسـواء كانـت هـذه الأرقـام دقيقـة مـن عدمـه، فإننـا نشـهد في واقعنـا ترديًـا ثقافيًـا يُحتـم علينـا أن نوجـه الدعـوة تلوالأخـرى لنلفـت العقـول إلى علـة تأخرنـا وتراجعنـا عـن ركـب الحضارة..الـذي تقـدم فيـه الغـرب وبلـغ أقـصى طموحاتـه..وفي أمريـكا إعلانـات تحـض الآبـاء أن يشـجعوا أطفالهـم عـلى القـراءة وأخذهـم للمكتبـات لأنهـم يعرفـون أن العقـول الممتـازة تصنعهـا القـراءة في الكتـب والموسـوعات، وأن معلومـات الإنترنـت والتلفزيـون معلومـات سـطحية لا تصـل حتـى إلى قـشرة الدمـاغ فضـلًا عـن تلافيـه.

إن ثقافـة القـراءة ونشرهـا في المجتمـع وحـث النـاس عليهـا لا تحتـاج جهـد الأسرة، أوجهـد المدرسـة، أوتشـجيع المصلحـين، وإنمـا تحتـاج منـا إلى صحـوة مجتمعيـة أوبمعنـى آخـر ثـورة لتغيـير هـذا الواقـع المـر الـذي يعـاني هزيمـة عقليـة وفكريـة، إنهـا أزمـة تسـتدعي سرعـة التدخـل مـن كل أطـراف المجتمـع عـلى المسـتوى الرسـمي والنخبـوي والشـعبي حتـى تنطلـق أمتنـا نحوالمسـتقبل المـشرق والنهضـة الواعـدة.

قـد نكـون بارعـين في التقليـد والمحـاكاة والتشـكل بصـور وألوان لا تناسـبنا، لكننـا غـير بارعـين في تغيـير أعماقنـا وقناعاتنـا التـي هـي الأسـاس لأي رغبـة في التطـور والنهوض.

سعدت كثيرا وأسفت أكثر حينما كنت مسافرا من مطار دولة عربية، وفي صالة الركاب وقعت عيني على مكتبة بين مقاعد المسافرين مليئة رفوفها بالكتب الهامة والهادفة، ولكن كما هوشأن شعوبنا ومواطنينا دوما لا قيمة للكتاب في حياتهم ولا تعني القراءة لهم شيئًا.. ومن ثم لم أر أي مسافر أعارها اهتمامه أووقف يكحل عينيه بمشهدها الفريد.. أما أنا فإن الكتب غايتي ومطلبي، وكان لهفي عليها قبل اختيار مقعدي وضبط حمائلي.

وإذا كنا نشكر إدارة المطار على هذه الفكرة الطيبة واللمسة الرائعة في تقديرهم للكتاب ومعرفتهم بدور وقيمة القراءة، فإننا نتساءل ماذا فعل المجتمع العربي بكل مؤسساته كي يغرس هذا المعنى في نفوس المواطنين؟.. وأين دور الأسرة في تنشئة الأبناء على حب هذا العمل الذي يشكل العقول وينمي التفكير؟.. أعتقد أن فكرة المطار غريبة في مجتمع لا يعرف قيمتها أويلتفت لمعناها.. ولكن لا بأس فلتكن بداية لأفكار تشابهها في مدارسنا ومؤسساتنا وبيوتنا.. يقول ألبرت مانغويل):إن القراءة هي مفتاح العالم)

وقال أحد الأطباء: (كلما قرأت أكثر عرفت أشياء أكثر، وكلما تعلمت أكثر حققت إنجازا أكبر)

وقال أحد المؤلفين: (نقوم بتعليم أطفالنا القراءة في المدارس، ولكننا ننسى أن نعلمهم حب القراءة)

وقال غيرهم: (إذا أردت أن ترى منزلة أمة من الأمم من الحضارة وتقيس حظها من الثقافة فانظر إلى منزلة القراءة فيها وموضوعها من سلم اهتماماتها)

وشبيه به قول سقراط: (إذا أردت أن أحكم على أي إنسان فإني أسأله كم كتابا قرأت؟)

وقال المفكر الروسي سولزر: (القراءة فن الحياة الرائع)

وقال مونتين: (أن تقرأ يعني أن تجد الصديق الذي لا يخونك)

وقال الرئيس الأمريكي جيفرسون: (إن الذين يقرؤون هم الأحرار لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهما من ألد أعداء الحرية)، وهذا ما أدركه الغرب في معنى وحقيقة القراءة فكانت زادهم وهدفهم ومعنى حياتهم..

وبمناسبة السفر تحديدًا فإنه أكثر الأعمال التي نشاهد فيها هذه الخيبة العربية، خاصة حينما يتصادف سفرك مع بعض المسافرين الأجانب الذين يشعرونها وينبهوننا برسائل غير مباشرة إلى قيمة القراءة، ولكننا غافلون عنها ولا نهتم بها، بل من الممكن أن نستنكرها ونتعجب من فعل أصحابها، فكم من مرة سافرت فيها ورصدت بعيني هذا المشهد..نحن غارقون في التفاهات بينما هم يقرؤون!

كنت مسافرًا في رحلة أخرى وبينما أقضي وقت الانتظار، لمحت مشهدًا يستحق التأمل..شاب وشابة من دولة غربية منهمكان في

القـراءة والتأمـل العميـق لمـا بـين السـطور.. أعجبنـي المشـهد وهممـت أن أصـوره، لكنـي اسـتحييت أوتحرجـت، وعـزائي.. أن المشـهد لا ينمحـي مـن ذاكـرتي ولا أدري لمـاذا؟ ربمـا ليكـون تـذكارًا أرثي بـه شـباب أمتنـا الـذي يعيـش في غيبوبـة.. وبينـه وبـين القـراءة شـقاق بعيـد.

يممـت بـصري يمينًـا ويسـارًا لأجـد مثـل هـذه الصـورة بـين الجالسـين مـن شـبابنا العـربي الذيـن ينتظـرون الرحيـل كـما ينتظـر هـؤلاء.. لكنـي للأسـف لم أجـد، فشـبابنا يختلفـون عـن هـؤلاء، وينشـغلون باللهووالمـرح والتنكيـت والهـرج، أوسـماع الأغـاني والأفـلام في الحاسـب والمحمـول.

مـن هـذه اللمحـة البسـيطة، أدركـت كيـف سـاد الغربيـون واعتلـوا عـرش الدنيـا، وتقدمـوا وتطـوروا، في الوقـت الـذي تأخرنـا فيـه وتقهقرنـا للـوراء.

هـذا السـفر الـذي هوقطعـة مـن العـذاب ونسـتعين فيـه بـكل مـا يرفـه عنـا ويخفـف مـن وعثائـه، يسـتعينون هـم بالقـراءة لأن فيهـا راحتهـم وترفيههـم.!

يقـول الكاتـب (عبداللـه الجميلي):(لوقادتـك الصدفـة يومًـا إلى رحلـة دوليـة طويلـة بالطائـرة، فسـوف تسـجل ذاكرتـك صـورة ذلـك المسـافر الغـربي أوالأوروبي الـذي يقـضي وقـت الرحلـة في مطالعـة كتـاب ورقـي أوكمبيوتـري، بينـما المسـافر العـربي غالبـا يفنـي وقتـه في مطـاردة المضيفـة بنظراتـه أويزعـج جـاره بشـخيره وتنهداتـه أويعبـث بلحيتـه أوبشـنباته، أمـا القـراءة فهـي آخـر اهتماماتـه عـلى الطائـرة أوحتـى في كل تفاصيـل

حياتـه !

يؤكـد ذلـك تقريـر سـابق صـدر عـن مؤسسـة الفكـر العـربي حـول التنمية الثقافيـة في الوطـن العـربي وفيـه أن هنـاك كتـاب يصـدر لـكل ١٢ ألـف مواطـن عـربي، بينـما هنـاك كتـاب يطبـع لـكل ٥٠٠ انجليـزي وكتـاب لـكل ٩٠٠ ألمـاني وفيـه أيضـا أن معـدل القـراءة في العـالم العـربي لا يتجـاوز ٤٪ مـن معـدل القـراءة في انجلـترا!!

كذلـك ذكـرت بعـض الإحصائيـات أن المواطـن العـربي يقـضي في القـراءة فقــط ٦ دقائــق في العــام مقابــل ٢٠٠ســاعة للمواطــن في أوروبــا وأمريــكا.)٤٧

ويخبرنـا أحـد الدارسـين أن سـيدة فرنسـية كانـت تـدرس معـه، فـما أن بـدأت فـترة الاسـتراحة بـين المحـاضرات فـإذا هـي تخـرج كتابـا وتقـرأه وهـي تنتظـر المحـاضرة.. !

أمـا أنـا فقـد قمـت برحلـة إلى تنزانيـا وفي طريـق عـودتي إلى مـصر، تحملـت عنـاء ٨ سـاعات طـيران لأقطـع نصـف القـارة الأفريقيـة جـوًا وفي جـوف الطائـرة آملـت أن تلفحنـي سـنة مـن النـوم، فـلا أسـتيقظ إلا في نهايـة الرحلـة.. ولكـن لا ضـير فحتـى لـولم يـأت النـوم، فلتكـن القـراءة بديـلًا عنه..وحينـما صعـدت إلى الطائـرة وجـدت كثـيرًا مـن المصريـين

47- من مقال بين الشخير والقراءة – عبدالله الجميلي – صحيفة المدينة ٥ /١٢/ ٢٠١٥م

والسـودانيين، وجـاء مقعـدي بجـوار فتـاة أوروبيـة شـقراء كانـت تقـرأ كتابًـا تقبـض عليـه بيديهـا وكأنهـا تقبـض عـلى كنـز ثمـين.. أعجبنـي مشـهدها وهـي تقـرأ وكنـت أرقـب تفاعلهـا مـع الكتـاب فهـي مسـتغرقة في القـراءة وتتفاعـل ملامحهـا وتقاطيـع وجههـا مـع السـطور، فـإذا مـا قـرأت طرفـة ضحكـت، وإذا مـا قـرأت غريبـة دهشـت، لا تحيـد عينيهـا يمنـة أويـسرة.. مـا هـذه الصلابـة الفولاذيـة، في القـراءة وعشـق الكتـاب؟

لقـد مـرت خمـس سـاعات وهـي لا تعبـأ بمـن حولهـا ومـا حولهـا ولا تـرى غـير الكتـاب بـل سـطور الكتـاب.. وأمـام هـذه الفـترة الطويلـة لا أذكـر أننـي في يـوم مـن الأيـام واصلـت القـراءة بمثـل هـذا الوقـت كـما فعلـت هـذه الفتـاة.. التـي فجـرت في نفـسي ينابيـع الغـيرة، فـلا أراني إلا وأخرجـت كتـابي مـن حقيبتـي لأسـابقها في هـذا التحـدي.. نعـم لابـد أننـي أسـابقها لأعرفهـا معنـى القـراءة الحقيقيـة.. بـل تزايـد عنـدي هـذا الشـعور ليتحـول إلى صراع بـين الـشرق والغـرب ولـن أتـرك الغـرب إلا صريعًـا مجندلًا..وواصلـت أقـرأ وأقلـب الصفحـات، صفحـة تلوأخـرى ثـم أسـترق بعـض النظـرات إليهـا، عسـاي ألمـح عـلى وجهها بـوادر السـأم والهزيمـة.. فأشـعر بتحقيـق النـصر، ولكنـي كلـما نظـرت إليهـا أراهـا عـلى حالهـا هائمـة مسـتغرقة في القـراءة حتـى خيـل إلي أنهـا فارقـت الحيـاة وأن مشـهدها أمـام الكتـاب لا يعدومشـهد سـليمان عليـه السـلام وهومتـكيء عـلى عصاتـه، ولم تعـرف الجـن وفاتـه إلا حينـما أكلتهـا الأرضـة فانكـب بوجهـه عـلى الأرض.

ظننت ذلك، ولكن هاهي تفعل بعض الحركات وتصدر بعض الإنفعالات التي تشير إلى استمرار الحياة فيها..فكيف لي إذن أن أصارع هذه التي لا تمل؟، إن عزمها جسور لا أستطيع غلبته، كيف لي أن أقف الساعات الطوال متجمدًا أمام الكتاب مهما كان حبي وعشقي له ؟.. إنني وبكل أسف أعلن هزيمتي وأرفع الراية البيضاء أمام هذا الصمود الرهيب.. ولكن هزيمتي لم تكن بالهزيمة اليائسة المحبطة، لأنني تعلمت منها كيف أثابر مع الكتب، وكيف يكون الكتاب صديقًا وأنيسًا وجليسًا بمعنى الكلمة، بل ومعشوقًا لا أبصر معه غيره من هذا العالم..كما أنني عرفت لماذا تأخرنا وتقدم الغرب.!

وقديمًا تحدث (سلامة موسى) عن عناية الإنجليز بالكتاب وتفوقهم في ذلك عن أمريكا فيذكر (أن الشعب الإنجليزي يفخر بأنه لا يزيد على خمسين مليونًا – في ذلك الوقت- ومع ذلك يزيد عدد الكتب التي تطبع في بلاده على ما يطبع منها في الولايات المتحدة، وله كل الحق في هذا الفخر؛ فإن شئون الذهن من الاهتمامات الأصلية عند الإنجليزي المتعلم، ورف المكتبة في البيوت الفقيرة له حرمة المكتبة في البيوت الكبيرة، والسيدة الإنجليزية تقتني الكتاب كما لوكان تحفة تحتفظ به كنزًا بعد أن تقرأه ثم تتركه تراثًا ساميًا لأبنائها.

إن وجودنا يكبر في الدنيا بالكتب، تلك الكتب التي تصل بيننا وبين الأمم القديمة قبل ألفين أوثلاثة آلاف سنة من التاريخ، وتلك التي تكشف لنا عن النجوم أكبر الأجرام وعن الذرة أصغر الأجرام في

هـذا الكـون، وتلـك التـي تقـص علينـا قصـة الإنسـان، بـل قصـة الأحيـاء، كيـف تألَّفـت جزيئاتهـا مثـل الفـيروس ثـم ارتفعـت حتـى صـارت خليـة مثـل الأميبـة؟، وتلـك الكتـب الأخـرى التـي تُغنـي لنـا بالأشـعار عن أسـمى الأفـكار، وأخـيرًا تلـك الكتـب التـي تلهمنـا وتولـد في أذهاننـا بصيرتنـا التـي نـكاد نـشرف بهـا عـلى الكـون، نـرى مـا خفـي منـه ونفهـم مـا التغـز .

أجـل، يجـب ألَّا يشـغلنا التفكـير العـادي في شـئوننا اليوميـة عـن التفكـير الذهنـي في شـئون المجتمـع والطبيعـة والكـون، والسـبيل إلى كل ذلـك.. هوالكتـاب الـذي يؤلِّفـه لنـا المخلصـون مـن الكُتَّـابِ الذيـن ينشـدون ارتقاءنـا وتطورنـا.. ليكـن للكتـاب مكانـه المحـترم في كل بيـت متمـدن كي تدخـل الإنسـانية المثقفـة في رؤوس سـكانه.. وبيـت بـلا كتـب هوبيـت واعـر في الجهـل يجـب أن نخـشى سـكانه ونتجنبهـم، أوبالأحـرى يجـب أن نتقـرب إليهـم ونربيهـم.)

ومـن بعـده تعجـب شـيخنا الغـزالي مـن حـال أمتنـا التـي هجـرت الكتـاب والقـراءة حـين قـال: (والغريـب أن الكتـاب ليـس لـه موضـع عتيـد في البيـت الإسـلامي، مـع أننـا الذيـن علمنـا الغـرب كيـف يقـرأ ويتثقـف؟! ينبغـي أن تكـثر الكتـب العلميـة والأدبيـة والتاريخيـة والدينيـة في بيوتنـا، وأن يكـون الكتـاب سـفيرًا متجـولًا في عواصـم العـالم يعـرف بنـا ويحـدث عنـا..)٤٨ ولله در القائـل: (يقـال إذا أردت ألا يـسرق منـك شيء ضعـه في كتـاب فهـذه الأمـة لا تفتـح كتابًـا!)

48- مستقبل الإسلام خارج أرضه – محمد الغزالي

وأمـام هـذا الانحـدار.. وأمـام إدراك هـذه القيمـة العظيمـة، مازلنـا مقيديـن لا نتحـرك ولا نثـور لخلـق هـذا الاهتـمام العمـلي بالقـراءة، ولا نجـد مـن يتبنـى دعـوات صادقـة لدفـع المجتمـع كلـه إلى حـب القـراءة واقتنـاء الكتـاب كـما تفعـل الأمـم الأخـرى ؟!

في عـام ٢٠٠٣م أشـارت إحـدى الدراسـات الحديثـة إلى أن ٥٠٪ مـن الفرنسـيين عزفـوا عـن شراء الكتـب واتجهـوا للإنترنـت للحصـول عـلى المعلومـة والمتعـة.. فـماذا حـدث إزاء هـذه النتيجـة الخطـيرة؟ لقـد تنبـه المسـؤولون وقامـت الدنيـا ولم تقعـد، وكان التحرك السريع لعلاج المشـكلة، حيـث سـارع وزيـر الثقافـة الفرنـسي وأعلـن حالـة الطـواريء، وفي مبـادرة تبناهـا ومعـه كبـار الكتـاب والمؤلفـون بحكـم مسـؤوليتهم المجتمعيـة ومسـؤوليتهم نحوالمعرفـة، نزلـوا إلى الشـوارع وذهبـوا للحدائـق العامـة والمراكـز الثقافيـة والمكتبـات العامـة يقـرؤون ويتحدثـون مـع النـاس عـن القـراءة والكتـب في مهرجـان أسـموه (مهرجـان جنـون المطالعـة)

الإرث المهدور !

كثيرون يلهثون وراء إرث آبائهم.. إذا كان من المال أوالعقار أوالذهب والفضة.. لكن الإرث الحقيقي والذي لا يقدر بثمن هوالكتاب والمكتبة، فهل فكر الآباء في إرث أبنائهم ؟! وتأمين حياتهم العقلية والروحية كما أمنوا حياتهم المادية، ولله در القائل: المال يفنى والكتب تبقى..

يقول الدكتور (راغب السرجاني): (المكتبة التي تكونها تعد صدقة جارية من الصدقات العظيمة الجارية، لأنها تنفعك وتنفع أولادك.. وربما أحفادك وأحفادهم بعد ذلك)

ذكرت الثرثارة التشيلية الفنانة (إيزابيل الليندي) في كتابها الأليم (باولا) أنها عاشت في بيت مليء بالمشكلات مما أدى إلى انفصال والديها في وقت مبكر، فعاشت في بيت جدها لأمها، والذي كان مجرد النطق فيه باسم والدها من المحرمات !

وذكرت أن قبوبيت جدها كان مرمى لكل الخردوات والأساس المكسور، وجمع الأشياء التي لا حاجة لبقائها في المنزل، وكان مكانا موحشا حتى أن الخادمات كن يخشين النزول إليه خوفا من الأشباح!

وحتى تحطم هذا الرعب الذي تولد في نفسها نزلت إلى هذا القبويوما بحثا عن هذه الأشباح المزعومة، لكنها لم تجد أشباحا، وإنما وجدت من ضمن الأشياء التي هناك صندوقا منقوشا عليه

الحـروف الأولى مـن اسـم والدهـا، ففتحتـه فـكان بـه مجموعـة مـن الكتـب القيمـة، قالـت عـن ذلـك الصنـدوق فيـما بعـد: إنـه مـيراث خـرافي أضـاء سـنوات طفولتـي.. !

ولكـن أنى للآبـاء اليـوم أن يدركـوا قيمـة الكتـب في حيـاة أبنائهـم وأنى لأبنـاء اليـوم أن يقـدروا مثـل هـذا الإرث الثمـين لوتركـه لهـم آباؤهـم؟!

مـا أتعـس أن يرحـل هـذا الراعـي صاحـب اليـد الحانيـة الـذي يصبِّـح كتبه ومكتبتـه كل يـوم، يسـأل عـن أفرادهـا ويعـود مجموعاتهـا، ينفـض عنهـا الغبـار، ويجـلي الصفحـات، ويصفهـا بأناقـة، وينظـم أحجامهـا، ويفـرق بين أنواعهـا ويـزود نقائصهـا، ثـم فجـأة يمـوت ويرحـل عنهـا ليتركهـا بـين من لا يعرفـون قدرهـا ولا يثمنـون قيمتهـا.. ربمـا يثمنـون قيمتهـا عنـد الوراقـين وبائعـي الخـردة والكتـب القديمـة، حينـما يجعلونهـا شـيئا لا قيمـة لـه في بيتهـم بعـد أن كانـت سـيدة البيـت وأهـم مـا فيـه في مـزاج سـيده، ولكـن هـذا السـيد العطـوف رحـل عنهـا ليتركهـا همـلا ليـد المعتديـن..!

وهــذه المأســاة ليســت نــادرة ولا غريبــة يكفيــك أن تذهــب لأســواق الخـردة أوشركات إعـادة تدويـر الـورق لـترى بعينـك هـذا الـتراث المهـدور والإرث الضائـع، كتـب ثمينـة قيمـة وبتوقيـع أصحابهـا لم يقدرهـا ورثتهـا تبـاع بثمـن بخـس ولا يـدرك الكثـيرون قيمتهـا.. وربمـا نتحـدث ونشـجب غفلـة هـؤلاء الآبـاء الذيـن لا يعلمـون أبناءهـم حـب القـراءة، لكننـا أمـام هــذه الكارثــة نحتــاج إلى تعليمهــم شــيئًا آخــر وهواحــترام هــذا الإرث الثمـين الـذي لا يقـدر بمـال، وتعليمهـم أن الكتـب في البيـت لا تقـل

أهميـة عـن أثـاث الحيـاة إن لم تكـن أهـم منـه وأكـبر وأعظـم قيمـة.!

يقــول الكاتــب أحمــد ســماحة:(تذكرت مــا حــدث في العــراق أثنــاء الغزوالأمريـكي ومـا بعـده عندمـا أضحـت السـاحات في شـارع المتنبـي وغيرهـا مليئـة بالكتـب الملقـاة عـلى الأرصفـة ولا تمـد إليهـا يـد في حـين سرقـت السـيارات والبيـوت ونهبـت المتاجـر!!

وأيضــا وأنــا أتجــول مؤخــرا في جنــاح ســور الأزبكيــة بمعــرض كتــاب الإسـكندرية، اقتنيـت بعـض الكتـب التـي أهداهـا مؤلفوهـا مـن المشـاهير والكتــاب أمثــال طــه حســين والعقــاد ومحفــوظ إلى أصدقائهــم لهــم، وباعهـا الورثـة بعـد وفاتهـم أوهجرتهـم إلى تجـار الخـردة والروبابكيـا.. وباعهـا هـؤلاء بدورهـم إلى تجـار الكتـب وبأبخـس الأسـعار، وتلمسـت ذلـك مـن الثمـن الـذي اشـتريت بـه تلـك الكتـب.. ولعـل تغريـدة: بيـت بـلا مكتبـة هومقـبرة أضحكتنـي كثـيرا، فبعـض أصدقـائي ومعـارفي يطلقـون عـلى بيتـي مقـبرة لأنـه مـليء بالكتـب.. وأقـول لكاتبهـا: كـم كتابـا تملـك؟!)٤٩ والشـاعر الكبـير (عبـد الرحمـن صدقـي) صاحـب ديـوان (حـواء والشـاعر) وأحـد أصدقـاء العقـاد وتلاميـذه، لم يكـن لـه ولـد ولم ينجـب أوتكـون لـه ذريـة.. وكان يعلـن أنـه سـعيد بذلـك حتـى أنـه قـال يومًـا للأسـتاذة عايـدة الشريـف: هـل تعـرفي مـا هـوأروع عمـل قمـت بـه في حيـاتي.. ؟! إنـه عـدم الإنجـاب.. إننـي حتـى الآن حـر طليـق أسـتيقظ في الوقـت الـذي يحلـولي.. أدور حـول فيلتـي الصغـيرة صباحًـا ومسـاءً..

49- من مقال بصحيفة اليوم السعودية تحت عنوان (اليوم العالمي للكتاب.. وقفة)

أستنشق الهواء الذي لم يشمه أحد قبلي أرنو إلى البراعم وهي تتفتح، أداعب كلابي، أقرأ وأتثاءب دون انشغال على ولد نجح أو رسب سافر أم بقي.. تزوج أم طلق.. إنها الجنة على الأرض حقًا..

ولعل هذه الفلسفة مقبولة بعض الشيء وإن كانت تخالف الفطرة والحنين إلى الولد، ولكن هناك أناس يعشقون الحرية إلى أقصى حدودها ولا يفضلون عليها شيئا من متع الحياة، وبقدر هذا العشق فإنهم يبغضون القيود وكل ما يجر إليها حتى ولو كان متعة أو شهوة.. !

ورغم هذه السعادة الكبيرة التي ترجمها الشاعر الكبير في فلسفته إلا أن الكتب كانت هي الشيء الوحيد الذي حزن من أجله على عدم الإنجاب وكانت مكتبته الثرية الثمينة هي التي ردته إلى طبيعته وكفر بسببها بفلسفته وراحته في عدم الإنجاب حيث قال يومًا: (هذه المكتبة لو كان لي ولد يرثها عني لصانها من الضياع وقام عليها وانتفع بها ونفع)

ثم تأمل حينما كان يلح عليه خاطر الموت.. إنه لم يكن يفزعه أو يخيفه وإنما كان يخيفه شيء آخر لا يغيب عن الكتب فيقول: لم يكن خاطر الموت يفزعني، وإنما كان يحز في نفسي أن أموت قبل أن أشفي غليلي من القراءة.. إن خزائن كتبي زاخرة بعشرات المئات من المؤلفات المختارة في أكثر من لغة ولم تترك لي الوظيفة فسحة من الوقت لدراسة الجزء الأكبر منها.. لقد اقتنيت معظمها بالشراء

مـن مخلفـات مـن سـبقوني إلى دار الفنـاء وسرح بي خيـالي فتخيلـت كتبـي بعـد مـوتي مبعـثرة في أسـواق الوراقـين تتناقلهـا أيـدي الباعـة مـن أنصـاف المتعلمـين وتطـرح في كل مـكان مطـارح الهوان..أمـا كان أولى لوأوصيـت بهـا لـدار الكتـب حـين كان في العمـر متسـع..

أخـبرني يومـا مسـؤولي في العمـل أن في المخـزن أكـثر مـن ٢٥ كرتونـة مليئـة بالكتـب، اعترتنـي سـاعتها أمـواج مـن الذهـول والـشرود والتوهـان وهـي الحالـة التـي تصيبنـي حينـما تذكـر أمامـي لفظـة الكتـب فأصـير إلى غيبوبـة وكأن هنـاك مـن يحدثنـي عـن ذهـب أوكنـوز نزلت من السـماء.. تسـمرت في مـكاني ثـم قلـت لـه أعـد عـلي مـا قلت:مـا القصـة تحديـدًا؟ قـال لي: إن خـالي كان مـن علـماء الأزهـر ومـن معلمـي اللغـة العربيـة القدامـى، وهـوالآن مريـض مـرض المـوت وممتـدٌ عـلى فراشـه لا يسـتطيع حـراكًا ولا كلامًـا، وضـاق أبنـاؤه بكتبـه وأرادوا أن يتخلصـوا منهـا بحرقهـا أوالذهـاب بهـا إلى أحـد المسـاجد، فطلبـت منهـم أن يأتـوني بهـا لعـلي أجـد مـن ينتفـع بها..وقبـل أن يكمـل كلامـه ويـشرح قصتـه تركتـه مهـرولا إلى المخـزن حتـى أرى هـذا الكنـز الثمـين والـذي لا يقـدر بثمـن وحينـما وقفـت بـين هـذه الحاويـات الضخمـة وشـاهدتها بعينـي كنـت أنظـر لهـا وأشـعر أننـي كمـن غمـس في النعيـم، بـل أنـا تمامًـا كعـلي بابـا الـذي دخـل مغـارة الأربعـين حرامـي فوجـد فيهـا الكنـوز المبهـرة وهويـردد بأعـلى صوته:(ذهـب - ياقـوت - مرجـان) وبعـد هـذه المنحـة ظللـت أسـبوعا كامـلا، حينـما أنتهـي مـن عمـلي أنـزل إلى المخـزن المـليء بكنـوز الفكـر والأدب واللغـة أنتقـي منهـا مـا لـذ وطـاب حتـى جمعـت كتبـا

عظيمة أفادتني فائدة كبيرة، وكان منها كتبا لم تعد تطبع ونادرة كما يقولون ندرة الكبريت الأحمر، ومع كل كتاب قيم كنت أستخرجه كنت أشعر بسعادة غامرة لأنه أصبح لي ومن مقتنياتي وفي الوقت نفسه كنت أتحسر على هؤلاء الورثة الجهلاء المغافيل الذين لم يبروا أباهم في أعز ما كان يملكه، والذي لوقدر له أن يعود لعالم الوعي مرة أخرى ليرى ما فعلوا بمكتبته، لأعلن براءته منهم وطردهم من حياته كما طردوا أحبته، كما كان لدي إحساس بأن روح الرجل معذبة لهذا التفريط الكبير وكنت آمل لوتصل إليه رسالة مني لأقول له: جزاك الله خيرا على هذا الكنز الثمين الذي ذهب لأهله ولم يضع هباء فلا تحزن أوتضجر، ولتسكن روحك هادئة مطمئنة، لقد فرط الأبناء في إرث أبيهم، والحق الذي أراه أنه شفاه الله كان أول المفرطين، واللوم عليه ابتداء قبل أن نلوم أبناءه، لأنه لم ينشئهم على حب الكتاب وعشق المكتبة، والحفاوة بالثقافة والمعرفة، ومن هنا رأوها حشوا زائدًا في بيتهم لا قيمة له ولا مكانة، فسارعوا بعد مرضه للتخلص منها والقضاء عليها وإفنائها، ولولا أن قريبهم طلبها منهم لكان مصيرها إلى مقالب القمامة..

وأمام هذه الأسرة التي استهترت بالمكتبة والكتب وطردتها من بيتهم واعتبرتها حشوا زائدًا لا قيمة له، أتمثل هذه الأسرة التي حكى التاريخ عنها حينما فرت من الموت المحقق وهي تحمل كتبها قبل أرواحها لأنها أعز ما تملك في الحياة وأثمن ما لديها في الدنيا.. !

ماذا بك لوبليت في موطنك الذي نشأت فيه، وترعرع على ترابه

صباك وشبابك، لا شك أنه بلاء أليم فللوطن في النفوس حب عظيم ومكانة سامية لا تعدلها مكانة..ولكن لا مفر من هجرها والفرار منها حينما تكون مرتعا لغارات المعتدين والمحتلين الغاصبين يحتلونها وينهبون أهلها ولا يبقون فيها حياة ولا أحياء.! وأمام هذا التهديد الوشيك والهلاك الأكيد لا يجد الإنسان أمامه أي اختيار، فإما أن يبقى في وطنه الحبيب ليفقد حياته ويعرض نفسه لسيف المغتصبين وإما أن يهرب بها لحياة جديدة، وهوما فعلته أسرة الإمام ابن تيمية رحمه الله، التي كانت تسكن وتقيم في بلدة (حران) حين تعرضت لهذا البلاء على يد قوم ما عرف التاريخ أبشع ولا أقسى ولا أفجر منهم في هدر الأرواح والتنكيل بالنفوس.

كان العالم الإسلامي كله في تلك الفترة يرتجف من التتار الوحوش، وحينما كان الإمام ابن تيمية في سن السابعة أغار التتار على بلدته فرأت أسرته أن تفر إلى الشام خوفًا من هذا الهلاك المحقق والوشيك، وفي ظل هذا الفزع وهذا الوضع الصعب لا يملك الإنسان إلا أن يفكر في نفسه فقط،كيف ينجوبها ويسلمها من هذا الخطر؟ فلا قيمة للبيوت والأطيان والأموال أمام نجاة الروح وسلامة النفس.. لكن أسرة ابن تيمية وأفرادها المباركين، كان لهم رأي آخر حينما رأوا أن لديهم شيئا لا تستغني عنه أرواحهم ولا تستمر بدونه دنياهم، ألا وهوكتبهم..! فهي تراثهم الذي يعتزون به ويعدونه أثمن ما يملكون من متاع الدنيا، فلم يرضوا بفراقها والتخلي عنها في ظل هذا الظرف العصيب والمخيف، فقاست من حملها والسير بها، وعانت في سبيل

ذلـك صعوبـة كبـيرة، خرجـوا بهـا ليـلًا يدفعونهـا بأيديهـم لعـدم توفـر الـدواب، وأمـام هـذا الزحـف البطـيء، أدركهـم التتـار ولكـن اللـه تعـالى كتـب لهـم النجـاة منهـم حينـما تضرعـوا إليـه متوسـلين مسـتنجدين..!
مـا أروع هـذا المثـال لأسرة عشـقت الكتـب، هـذا العشـق الـذي امتحنـوا فيـه بمحنـة شـديدة حتـى تبـين صدقـه وتمكنـه مـن نفوسـهم، لقـد قبلـت الأسرة أن تهجـر موطنهـا الـذي أحبتـه لكنهـا أبـدا مـا قبلـت أن تهجـر مكتبتهـا التـي تمثـل لهـا المعنـى الحقيقـي للحيـاة، ولـوأن أي إنسـان وضـع في محنـة هـذه الأسرة فلـن يعبـأ بالكتـب ولا بأضعـاف مثلهـا مهـما كانـت أثـيرة عنـده أمـام هـذه الهلـع الكئيـب ورائحـة المـوت التـي تفـوح في كل مـكان، فـلا شيء يعـادل النجـاة بالنفـس وليـس للإنسـان أغـلى مـن حياتـه، لكـن أسرة ابـن تيميـة، وضعـت معادلـة أخـرى، وكانـت حالتهـا عجيبـة في عشـق الكتـب التـي سـاوتها بأرواحهـا..!
وحـق لهـذه الأسرة التـي تقـدر الكتـب بهـذا القـدر العظيـم، أن يخـرج منهـا هـذا الإمـام الكبـير الـذي دوى سـمعه في الآفـاق، وانتـشر علمـه في بقـاع الدنيـا شرقًـا وغربًـا، فهوالـذي قـال عنـه (الزملـكاني) مـن أئمـة عـصره: (قـد ألان اللـه لـه العلـوم كـما ألان لـداود الحديـد، كان إذا سـئل عـن فـن مـن العلـم ظـن الـرائي والسـامع أنـه لا يعـرف غـير ذلـك الفـن، وحكـم أن أحـدًا لا يعرفـه مثلـه.. وكان الفقهـاء مـن سـائر الطوائـف إذا جلسـوا معـه اسـتفادوا في مذاهبهـم منـه، مـا لم يكونـوا عرفـوه قبـل ذلـك، ولا يعـرف أنـه ناظـر أحـدًا فانقطـع فيـه، ولا تكلـم في علـم مـن العلـوم سـواء أكان مـن علـوم الـشرع أم مـن غيرهـا إلا فـاق فيـه

أهلـه والمنسـوبين إليـه، وكانـت لـه اليـد الطـولي في حسـن التصنيـف.) وهكـذا عشـقوا كتبهـم فـكادت أن تهلكهـم، ولم يسـتطع هـذا الخـوف الكبـير أن يقتـل هـذا العشـق الـذي تلبـس بالنفـس ففـروا بهـا قبـل أن يفـروا بأرواحهـم.!

الأقلام المتقعرة

فيـما دون العشريـن قـرأت للشـيخ الغـزالي رحمـه اللـه، وكلـما انتهيـت مـن كتـاب شرعـت في غـيره حتـى أوشـكت أن آتي عـلى كل كتبه..لقـد كان أسـلوبه رائعًـا رائقًـا، ملـك عـلي جوانحـي، وسـيطر عـلى مشـاعري، ولامـس أحاسـيس نفـسي..

إن روعـة الشـيخ الغـزالي وعبقريتـه هـي التـي جعلـت فتـى في هـذا السـن، يمسـك بكتبـه ويفهمهـا ويسـتوعب أفكارهـا ومراميها..والذيـن لا يهـوون الأدب، يسـتطيعون تذوقـه حينـما يطالعـون أسـلوب الشـيخ الغـزالي.

وحينـما مثلـت بـين يـدي كتـب العمـلاق العقـاد، جافتهـا نفـسي، وفـرت منهـا عواطفـي، بخـلاف كتـب الشـيخ الغزالي.!! فقـد كنـت مغرمـا بهـا غرامـا عظيـمًا..، وإذا مـا عقدنـا مقارنـة بـين الرجلـين، فـإن العمـلاق عـلى قـدره الرفيـع، وهامتـه الضخمـة، لا ينـال الحظـوة في نفـسي كـما ينالهـا الشـيخ الغـزالي، فالعقـاد قـد اهتـم في كتاباتـه بالنظـر الفكـري والصيـال العقلي..وهونفـس مـا كان يفعلـه الشـيخ الغـزالي إلا أنـه زاد عـلى العقـاد باهتمامـه بالعاطفـة والوجدان..اللـذان كان يسـيطر بهـما عـلى مشـاعر القـراء، فيعيشـون معـه قضيتـه التـي يتناولها..وليـس مـن شـك في أن انتـماء الشـيخ الغـزالي للأزهـر الشريـف، يعـد مفخـرة لـه ولرجاله..حتـى

أن بعضهـم دهشـوا حينـما علمـوا أن صاحـب هـذا القلـم الفتـي، والبيـان القـوي، والأدب الشـجي، شـيخ معمـم وواعـظ أزهـري..

وكان شـيخنا (يوسـف القرضـاوي) واحـدًا مـن هـؤلاء الأزهريـن الذيـن دهشـوا حينـما عرفـوا هـذه الحقيقـة فهويحدثنـا عـن الشـيخ وأسـلوبه فيقـول: (كان الغـزالي يكتـب في مجلـة الإخـوان المسـلمين الأسـبوعية في بـاب ثابـت تحـت عنـوان: (خواطـر حـرة) وكان يشـدني إليـه فكـره الثائـر، وبيانـه السـاحر، وأسـلوبه السـاخر.

فقـد كنـت أرى فيـه إلى جـوار كونـه داعيـة.. أديبًـا مـن الطـراز الأول، وكان الأدب والشـعر في تلـك المرحلـة هوشـغلي الشـاغل، ومحـور قـراءاتي واهتمامـي، وكان أول مـا قرأتـه أدب المنفلوطـي والرافعي، وأحيانـا العقاد، وكان الغـزالي يحمـل روح الرافعـي وتألقـه وسـهولة المنفلوطـي وتدفقـه، وتأمـل العقـاد وتعمقـه، وانعقـدت بينـي وبـين الغـزالي الكاتـب عـلى بعـد صلـة عقليـة وروحيـة عميقـة، مـن جانـب واحـد طبعًـا، هوجانبـي بحيـث كنـت أترقـب المجلـة لأقـرأ أول مـا أقـرأ فيهـا مقالتـين: مقالـة محمـد الغـزالي، ومقالـة عبـد العزيـز كامـل.

ولم يكـن يخطـر ببـالي أن صاحـب هـذا القلـم البليـغ شـيخ أزهري؛فعهـدي بالمشـايخ الذيـن قـرأت لهـم في بعـض المجـلات الدينيـة مثـل مجلـة الإسـلام أن يكتبـوا في غـير الموضوعـات التـي يكتـب فيهـا الغـزالي، وبـروح غـير روحـه، وطريقـة غـير طريقتـه .

ولكنــي فوجئــت يومــا بأنــه وقــع عــلى إحــدى مقالاتــه (الواعــظ) فســألت بعــض النــاس عــن هــذا الوصــف الجديــد الواعــظ.. أهولقــب أم وظيفة؟فأكــد لي العارفــون أنهــا وظيفــة، وأن الغــزالي واعــظ أزهــري، وشــيخ معمــم، وخريــج كليــة أصــول الديــن التــي أحبهــا وأتطلع للانتســاب إليهــا)٥٠

ولا يحســبن القــاريء أننــا نــسرد هنــا قصــة الشــيخ الغــزالي، وإنمــا ســقت عنــه هــذا الحديــث كنمــوذج للكاتــب الكبــير صاحــب الأســلوب الجميــل الــذي يشــع ســهولة وليونــة، ويخاطــب الإحســاس والوجــدان ويملــك العقل والعاطفــة دونمــا أي تقعــر أوتعقيــد.. غــير أن الزمــام أفلــت والجمــل كــر بعضهــا عــلى بعــض.. لأنــه محمــد الغــزالي.!

نعــم فالغــزالي كان أبعــد مــا يكــون عــن تعقيــد العبــارة، وغمــوض الكلمــة، وتقعــير الألفاظ..وهوللأســف آفــة كثــير مــن الأدبــاء والمفكريــن الذيــن يؤمــن أحدهــم أن العبقريــة لا تكــون في ذروتهــا إلا حينــما يصاحبهــا تقعــر الكلــمات وغمــوض الألفاظ..وهنــاك طائفــة تخلــط بــين التعقيــد والتعمــق، والســطحية والتبســيط، ومنهــم مــن يســتطيع عــرض فكرتــه بالأســلوب الواضــح المفهــوم، لكنــه لفهمــه الســابق يُعــرض عنــه ليلجــأ لهــذا الأسى الــذي يجهــد العقــول، ويُبــدد التركيــز، ويضيــع جــمال الأفــكار.

وحــال هــؤلاء كحــال الطبيــب مــع (أبي علقمــة النحــوي) وقصتهما الشــهيرة حيــث يحــكى عــن أبي علقمــة النحــوي وهومــن المتقعريــن في اللغــة

50- الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن — د.يوسف القرضاوي

واستعمال غريب الكلام واللفظ، أنه دخل إلى طبيب فقال: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة إلى أدية العنق، فلم يزل يربوويمى حتى خالط الخلب فألمت له الشراسف فهل عندك دواء؟. فقال له الطبيب: خذ خربقًا وشلفقًا وشبرقًا، فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روثٍ وأشربه بماء الماء. فقال أبوعلقمة: أعد علي ويحك، فإني لم أفهم شيئًا. فقال له الطبيب: لعن الله أقلّنا إفهامًا لصاحبه، وهل فهمت منك شيئًا مما قلت!

إن الكاتب الذي يملك سهولة العبارة ووضوح الأسلوب أتخيله أمامي يحاورني ويفهمني ويخاطبني بما أستوعبه وأتبينه..أما كتب الجامدين المتقعرين، فإنها أمامي كجثة هامدة، أقلبها بين يدي عساي أجد فيها بقية من روح.. ولكن لا مجيب..!

إنها الروح إذن.. التي تسقي بها سطورك لتنطق عنك، وتنقل ما تريده إلى عقول القراء والمثقفين.. ولقد كنت أظن أن هذه الأحاسيس خاصة بي وحدي، ربما لضيق ثقافتي وقلة معرفتي، التي لا ترقى بي إلى إدراك ما يكتبه المتقعرون..ولكنني وجدتها نفس أحاسيس بعض الكتاب والمفكرين الكبار الذين أعلنوا نفرتهم من التقعر وأصحابه.. فأديبنا الكبير (توفيق الحكيم) كان واحدًا من هؤلاء فهويقول: (البساطة أمر مهم جدًا للوصول إلى القراء، أوسع قاعدة من القراءة، والتكوين الثقافي الجيد، يجب ألا يؤدي إلى تعقيد الأسلوب، وإنما إلى بساطته، إن كل المحصلة الثقافية يتضمنها الأسلوب، مثل شراب

الليمـون أوالبرتقـال الـذي يحتـوي عـلى أكـبر قـدر مـن الفيتامينـات دون أن يبدوذلـك في طعمـه أوشـكله.. مـن الـتراث العـربي عرفـت ابـن المقفـع، أسـلوبه سـهل ولا يشـبه اللغـة العربيـة المقعـرة، المعقـدة، التـي لم تكـن تظهـر إلا في عهـود الانحطـاط، هنـاك الجاحـظ إنـه فنـان عظيـم وكان أسـلوبه مـن السـهولة إلى درجـة أن اتهمـوه بأنـه يكتـب باللغـة العاميـة، نفـس الـشيء بالنسـبة لموليـير اتهمـوه في البدايـة بأنـه يسـتخدم اللغـة العاميـة إلى أن كتـب مسرحياتـه الشـعرية.. وفي أدبنـا العـربي لم يسـتطع الكثـيرون أن يفهمـوا القـوة التصويريـة عنـد الجاحـظ، وقدرتـه عـلى البسـاطة المعجـزة، وقـد قلـده المنفلوطـي في العـصر الحديـث.

مـن كُتـاب الغـرب الذيـن امتـازوا بسـهولة الأسـلوب الأديـب والمفكـر اللامـع (أناتـول فرانـس)، كان مفكـرًا أيضًـا الفونـس دوديـة رقيـق وجميـل لكـن (أناتـول فرانـس) أسـلوبه صـاف وجميـل وسـهل جـدًا، ويحتـوي الفكـرة العميقـة في نفـس الوقـت كان يتحـدث دائمًـا عـن تعبـه في البحـث عـن أبسـط الكلـمات، وإذا وجـد أي كلمـة صعبـة لا يسـتخدمها أبـدًا كان أسـلوبه في منتهـى السـهولة، كل هـؤلاء الكتاب أثروا فيّ بـدون أن أدري، إذا جـاز التشـبيه، فـإن قـراءتي لهـؤلاء سـواء كانـوا مـن الـشرق أوالغـرب تشـبه عمليـة الطعـام الـذي يهضمـه الجسـد ويتـسرب إلى الدمـاء والعـروق فينموالإنسـان ويعيـش..

هنـاك البعـض يعتمـد أن يـأكل بشراهـة وأن يفـرط، ثـم يصـاب بعـسر هضـم.. كنـت أتـشرب مـا قرأتـه، أتلقـى وأهضـم، أخـذت مـن الأدب

العربي ومن الأدب الأوروبي قرأت الكثيرين، ولكنني لن أنس أبدًا فضل ابن المقفع والجاحظ من أدبنا العربي، وأناتول فرانس والفونس دوديه من الأدب الغربي، كل منهم علمني الوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد.

العقاد رحمه الله كان له قيمة فكرية وأدبية كبيرة، لكنه كان يتعمد الصعوبة، الكلمة السهلة يرمي بها جانبًا، ويستخدم كلمة صعبة بدلا منها، وأظن أن هذا يرجع إلى رغبته في إثبات ثقافته، وأنه يفهم أكثر من المتعلمين..كانت كتابته رحمه الله فيها تعال تمامًا مثل كاتب يكتب حتى لا يفهمه أحد، وإذا قيل له إن ما كتبه فهم بسهولة فإنه يحزن.

لقد كان هدفي أن أكون بسيطا وتم ذلك بتلقائية دون أن أتعمده.. وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هوروح وشخصية..وكان أحد أصدقائي الفرنسيين يدعونني إلى ترك الكتابة بالفرنسية لا لأني لا أحسنها، بالعكس لأنه رآني أتكلفها وأنمقها وأستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة مما حبس روحي وسجن شخصيتي في أغلال من الكذب والتصنع، لقد أصاب الحقيقة، لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه يُنشيء أسلوبًا، البلاغة الحقيقية هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط، هي التواضع في الزي والتسامي في الفكرة، وهكذا كان أسلوب الأنبياء)٥١

51- توفيق الحكيم يتذكر – جمال الغيطاني

لم يكـن الحكيـم متجنيًـا في وصفـه لأسـلوب العقـاد..ولم يكـن وحـده مـن يستخشـن طريقتـه في الكتابـة، وإنمـا كان هنـاك غـيره مـن كبـار الأدبـاء يـرون مثـل رأيـه ويقولـون بقولـه ويجـدون حالتهـم حالـه.. يقـول الأسـتاذ ثـروت أباظـة: (لم يشـق عـلي أن أقـرأ الأيـام وأنـا في البواكـير الأولى مـن العمـر، وإذا كنـت قـد قـرأت الأيـام فـما أيـسر أن أقـرأ مـا كان قـد ظهـر حتـى ذلـك الحـين مـن كتـب توفيـق الحكيـم والمـازني وتيمـور، ولعـل الكاتـب الوحيـد الـذي شـق عـلي هوالعقـاد رحمـه اللـه، فلـم أسـتطع أن أقـرأ لـه إلا بجهـد جهيـد وعنـت شـديد، وقـد ظـل هـذا شـأني مـع كتبـه حتـى الآن، ولكننـي مـع ذلـك أقرأهـا معجبًـا مكـبرًا مهـما تكلفنـي مـن المشـقة لأنـه العقـاد، ولابـد أن يقـرأ للعقـاد) وكان الحكيـم أكـثر صراحـة في نقـد أسـلوب العقـاد مـن ثـروت أباظـة ولعـل مـا دفعـه لذلـك قـرب السـن أومعـاصرة الإنتـاج ومضاهاته..ولكـن هـذه الصراحـة لم تمنعـه أبـدًا مـن تقديـر العقـاد وإنزالـه منزلتـه اللائقـة بـه..كـما كانـت ليونـة الألفـاظ وسـهولة التراكيـب والعبـارات مـما يمتدحـه عميـد الأدب العـربي فيمـن حولـه مـن الكتـاب والأدباء..نعـم فطـه حسـين تمامًـا مثـل توفيـق الحكيـم في حـب البسـاطة وانسـياب العبـارة، وسلاسـة الأسـلوب، لقـد وصـف أسـلوب المـازني بقولـه: (المـازني أديـب مـرح يعشـق الفكاهـة والسـخرية وكان لـه أسـلوب خـاص في الكتابـة يجنـح فيـه إلى اليـسر، وقـد ظـن بعـض قرائـه أنـه يسـتعمل ألفاظًـا عاميـة، ولكـن هـذا الظـن

في غـير موضعـه، لأن مـا يظنـه عاميًـا هوفصيـح كل الفصاحـة، غـير أن جريانـه عـلى الألسـن وشـيوعه بـين النـاس قـد يوحـي بأنـه عامـي، وكان المـازني يمقـت الإغـراب وينـأى عـن التعقيـد، فهويطلـق نفسـه عـلى سـجيتها لا يتكلـف أبـدًا)٥٢

أمـا طـه حسـين نفسـه فـكان عـلى ذلـك الطريـق ويـدرك تمامًـا أهميـة أن يكـون الأسـلوب واضحًـا حتـى يعـرف طريقـه إلى عقـل القـاريء وقلبـه.. ويحدثنـا الجـوادي عـن هـذه السـمة في أسـلوب طـه حسـين ومعـه أحمـد أمـين فيقـول:(تميـز أحمـد أمـين وطـه حسـين في كتابتهـما بوضـوح الفكـرة، وهـي مـن أبـرز سـماتهما التـي حببـت إنتاجهـما إلى القـراء، كـما سـاعدت بقـدر كبـير عـلى اسـتحواذ أعمالهـما للاحـترام والذيـوع والخلـود.

وغنـي عـن البيـان مـا تميـز بـه أسـلوب أحمـد أمـين مـن وضـوح وبعـد عـن المحسـنات وعـن التقعـر معًـا، حتـى كاد بعـض زملائـه مـن الأدبـاء الكبـار يخرجونـه مـن زمرتهـم بسـبب البعـد عـن التقليدية..وليـس مـن شـك أنـه كان بإمـكان أحمـد أمـين أن يقـدم لقارئـه أسـلوبًا مسـجوعًا أوممتعًـا، ولكنـه آثـر أن يعطـي الاهتـمام الأول للفكـرة والمعنـى.. وكان أميـل للتعبـير البسـيط المعبر..أمـا نصاعـة أفـكار طـه حسـين وجلاؤهـا فهوالأمـر الـذي لا يحتـاج إلى مزيـد مـن الحديـث عنـه)٥٣

---

52 – المصدر السابق

53 – أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي – د .محمد الجوادي

يقـول رجـاء النقـاش في كتابـه عقـلاء ومجانـين: (منـذ سـنوات طويلـة وأنـا ألاحـظ أن كثيريـن مـن أبنـاء الأجيـال العربيـة الجديـدة حتـى بـين المتعلمـين وخريجـي الجامعـات ينظـرون إلى الأدب والفكـر والثقافـة نظـرة سـلبية فهـم يتصـورون أن الثقافـة بصـورة عامـة هـي شيء ثقيـل الظـل مرهـق للعقـل والنفـس، ولذلـك فـإن الثقافـة الخفيفـة وحدهـا هـي التـي تثـير اهتـمام الأجيـال الجديـدة وهـذه الثقافـة الخفيفـة هـي الأفـلام الترفيهيـة والغنـاء والموسـيقى السـهلة والعـروض المسرحيـة الضاحكـة أمـا وسـائل الثقافـة العميقـة الجـادة وعـلى رأسـها الكتـاب فقـد أصبحـت مـن الأمـور التـي يحسـن بالإنسـان أن يبتعـد عنهـا حفاظـا عـلى صحتـه ومعنوياتـه مـن الضعـف والاعتـلال ولا شـك عنـدي أن شـباب هـذه الأيـام ليسـوا هـم وحدهـم المسـئولين عـن هـذه الظاهـر السـلبية في حياتنـا الثقافيـة فكثـيرون مـن الأدبـاء والكتـاب قـد سـاهموا في خلـق هـذه الظاهـرة وذلـك عندمـا اتجـه هـؤلاء الأدبـاء والكتـاب إلى التعقيـد في التعبـير والتفكـير حتـى أصبحـت الثقافـة العامـة وكأنهـا نـوع مـن الحكـم بالأشـغال الشـاقة المؤبـدة عـلى إنسـان بـرئ لا ذنـب لـه ولا جريمـة.

المهمـة الأساسـية للكاتـب هـي أن يكـون أداة توصيـل جيـدة وممتعـة بـين القـارئ والأفـكار المختلفـة أمـا إذا حـاول الكاتـب أن يكـون مصـدرًا لتعذيـب القـارئ بالاصطلاحـات الصعبـة والتعبـيرات المعقـدة فإنـه يصبـح مثـل المعلـم الـذي يحمـل الكربـاج لتلاميـذه ويحـاول أن يفـرض عليهـم ألـوان المعرفـة بالعنـف والقـوة والعقوبـة البدنيـة الصارمـة وقـد أثبتـت التجـارب الإنسـانية المختلفـة أن هـذا الأسـلوب لم ينجـح في خدمـة العلـم

والثقافـة بـل كان عـلى الـدوام أسـلوبا يـؤدي إلى نتائـج عكسـية غـير مطلوبـة.

ولا أعـرف كيـف يخفـى عـلى الكتـاب المتقعريـن أنهـم يفسـدون نشـوة القـراءة لـدى المثقفـين، ويتسـببون في بـوار بضاعتهـم وهـروب القـراء مـن مؤلفاتهـم..! تمامًـا كـما هـرب (خالـد محمـد خالـد) مـن كتـاب رأس المـال لماركـس!

إنـه يحـكي عنـه فيقول:(اشـتريت نسـخة مـن كتـاب رأس المـال لماركـس وفرحـت باقتنائـه وشرعـت أُهـيـء نفـسي لقراءتـه ودراسـته..بيد أننـي لم أكـد أجـاوز فيـه بضـع صفحـات حتـى أرهقنـي وكلفنـي مـن أمري عـسرًا.. فالكتــاب ليــس فيــه مسـحة مــن الأدب أوالإنشــاء، وكلــه مصطلحــات وكلـمات فنيـة دقيقـة وبعيـدة كل البعـد عـن طـلاوة الأسـلوب وحـلاوة التعبير..وعـلى الرغـم مـن أن ماركـس كان في شـبابه شـاعرًا إلا أن العـالم فيـه قهـر الأديـب، وأخـلاه تمامًـا عـن فكـره ووجدانه..عندمـا عكـف عـلى دراسـة التاريـخ والاقتصـاد وصياغـة فلسـفته ونظريتـه.. وهكـذا تميـز مؤلفـه الضخـم رأس المـال، بجفـاف أدبي لم أسـتطع عليـه صـبرًا فتركتـه وودعتـه، واكتفيـت بـأن أقـرأ لغـيره عنـه وعـن فلسـفته)

أمـا الأديـب اللامـع الدكاتـرة زكي مبـارك فقـد كان أسـلوبه سـهلًا ميسـورًا، وكانـت تغلـب عليـه النزعـة الوجدانيـة والطلاقـة ووضـوح العبـارة مـع أصالـة المفـردات، وعـرف مبـارك بالبسـاطة في التعبـير والبلاغـة في الأداء والفكاهـة الحلـوة.. وكان أحمـد لطفـي السـيد ممـن عـاب زكي مبـارك

أسـلوبهم فقـال عنـه: (بطـيء الحركـة إلى حـد الجمـود، وهوخـال مـن البشاشـة البيانيـة، وأنـه كاتـب متعمـل، متكلـف وهويجـر كلامـه بتثاقـل وإبطـاء، وأنـه كاتـب هيـوب، والحـذر المأثـور عنـه هوالـذي قـضى بـأن تمـر ثورتـه الفكريـة بـلا ضجـة ولا ضجيـج.)

أمـا تعرضـه للرافعـي فكتـب يقـول لـه: (مـا رأيـك إذا وقـف لـك أحـد الصحفيـين في معركـة فاصلـة ورمـاك بحـب التكلـف والافتعـال في علـم الإنشـاء والتأليف؟ومـا رأيـك إذا جـازاك أحـد الصحفيـين ظلـمًا بظلـم، وقـال: إنـك تعيـش في غـير زمانـك، وأن أسـلوبك ليـس إلا صـورة مـن العـوج والإلتـواء؟)

وبـين هـذا وذاك نتمنـى ألا نصـل إلى مـا وصـل إليـه (النحـوي) مـن فـرط تقعـر ولـده في الحديـث، ففـي روايـة تقول:إنّـه كان لبعضهـم ولـد نحـوي يتقعـر في كلامـه فاعتـل أبـوه علـة شـديدة أشرف منهـا عـلى المـوت، فاجتمـع عليـه أولاده وقالـوا لـه ندعولـك فلانـًا أخانـا، قـال: لا، إن جـاءني قتلنـي. فقالـوا: نحـن نوصيـه ألّا يتكلـم، فدعـوه فلـما دخـل عليـه قـال لـه: يـا أبـت قـل لا إلـه إلا اللـه تدخـل بهـا الجنـة وتفـز مـن النـار. يـا أبـت واللـه مـا شـغلني عنـك إلّا فـلان، فإنّـه دعـاني بالأمـس فأهـرس وأعـدس واستبذج وسـكبج وطهبـج وأفـرج ودجـج وأبصـل وأمـضر ولـوزج وافلـوذج.. .فصـاح أبـوه: غمضّـوني فقـد سـبق هـذا الشـقي ملـك المـوت إلى قبـض روحـي.

وأحب هنا ألا يفوت المقام دون ذكر أخطب وأبلغ من عرف القرن العشرون من الأئمة المصلحين وهوالإمام حسن البنا الذي وصفه أحدهم بقوله: بأنه كان إذا خطب فإنه لم يكن يخطب وإنما كان يسحر.

ولقد وصفه تلميذه (عمر التلمساني)، وسجل وصفًا رائعًا لأسلوبه الذي تميز به فقال: كان بسيطًا في أسلوبه لا تعقيد ولا تقعر في الألفاظ، ولا التواء في الحديث، يفهمه الجاهل والمتعلم على السواء.

ولم يكن هذا في الخطابة وحدها، وإنما أيضًا أوجده فيما كتب، فحينما تطالع كتابه (مذكرات الدعوة والداعية)، تجد سهولة لا تقعر فيها ولا تعقيد، وهوما لمسه والدي رحمه، الذي رغب في قراءته حينما رآه بيدي فلما قرأه قال لي: توقعت أن يكون الكتاب عنيفا في لغته لما نعرف من بلاغة صاحبه لكنه كتبه بأسلوب بسيط ممزوج بالتشويق..

الأقلام التافهة

كدت أموت من الضحك وأنا أقرأ هذا النبأ:كارثة أدبية وأخلاقية في معرض الكتاب الدولي بالجزائر.. والمتمثلة في عرض كتاب يحمل عنوان (كيف تعلم ابنك الحمار بدون تكرار)، وغيرها من المؤلفات التافهة على غرار (كيف تحلب نملة)، و(هل أنت حمار شغل؟)، فكيف سمحت إدارة المعرض بدخول مثل هذه العناوين بلا رقابة، مسوقين بذلك فكرا أخرسا بليدا لا يضيف للمواطن الجزائري شيئا من العلم والمعرفة، بل ويجعله يتراجع بدرجات كثيرة عن سبيل الثقافة والإدراك.

سبق أن تحدثت عن الأقلام المتقعرة، التي تشتت عقلي وتذهب تركيزي فلا أستطيع الاستفادة مما تكتبه أوأتفهم ما تخطه من أفكار، فاللفظ المتقعر أوالجملة المتكلفة، ما هي إلا صدمات ذهنية تصيبني كلما قرأت.

إنني أنوه هنا إلى نوع آخر من الأقلام، لا تقل إزعاجًا عن التقعر وأهله، إن لم تكن أمل وأقبح، فكم تصيبني الصدمة حينما أشتري كتابًا فأتوهم أهميته وثقله وروعته فإذا به تافه سخيف يصيب بالإعياء والسآمة..وأكون تمامًا كهذا الذي تلقى طعنة في ظهره من قريب أورفيق يأمن جانبه، أوأرى نفسي كمن سلك طريقًا يتوسم فيه الخير، فإذا هي طريق الحسرة والندامة، وقد يخطر ببال

أحدهـم فيقـول: لعـل عقلـك لم يبلـغ مسـتوى الكتـاب بعـد، فرأيتَـهُ تافهًـا وعمـي عليـك مقصـوده! تمامـا كـما قيـل في الأسـلوب المتقعـر..! ولهـذا وغـيره أقـول: إن الكتـاب الجيـد والأسـلوب الشـيق يفـرض نفسـه عـلى النفـوس فيمتـع أرواحهـا، ويـأسر عقولهـا، ويشـعرها بجـمال صفحاتـه.

لقـد كان العقـاد رحمـه اللـه صاحـب جلـد وتحمـل، ولعـل هـذا مـن تمـام عبقريتـه وعزيمتـه، لقـد كان يقـرأ كل شيء ويصـبر عـلى قـراءة كل شيء، حتـى الكُتـب التافهـة، ولمـا سـئل عـن مغـزى ذلـك قـال:

(ليـس هنـاك كتابـا أقـرأه ولا أسـتفيد منـه شـيئًا جديـدًا، فحتـى الكتـاب التافـه أسـتفيد مـن قراءتـه، أني تعلمـت شـيئًا جديـدًا هومـا هـي التفاهة؟ وكيـف يكتـب الكتـاب التافهـون؟ وفيـم يفكـرون؟)

ويقـول الأسـتاذ عبـد الوهـاب مطـاوع: (ليـس هنـاك كتـاب مهـما بلغـت تفاهتـه لا يسـتفيد منـه القـارئ الـذكي، ولكـن بـشرط واحـد؛ وهـوأن تكـون قارئـا ذكيًـا، فالقـارئ الغبـي قـد يقـرأ الكتـاب القيـم فـلا يسـتفيد منـه شـيئًا، أمـا القـارئ الـذكي، فهووحـده يسـتطيع أن يجـد في أكـثر الكتب تفاهـة، شـيئًا أومعنـى يسـتحق مـن أجلـه عنـاء قراءتـه!)

ولكـن القـراءة مهجـة حيـاتي ولحظـة السـعادة التـي أتـوق لهـا في هـذه الحيـاة الصاخبـة بـالآلام، ولا أقبـل أبـدًا أن يكـون هنـاك مـن يكدرهـا بتفاهتـه وهزالـه وتهريجـه، أويقتحمهـا ليفسـد عـلي ذوقـي ومزاجـي الـذي شـكلته القـراءة الهادفـة المفيـدة..لا أطيـق أبـدًا أن أتحمـل تحمـل

العملاق العقاد في معاينته للكتاب التافه..وأتضامن مع الرائد (سلامة موسى) في رغبته لا عقيدته، حينما قال للشباب: (يجب أن نتجنب الكتاب التافه الذي نمضي الساعات والأيام في قراءته فلا نستدل منه على شيء ولا ننتفع به، وعلى الأديب أن يسخط وأن يجن وأن يكتب في غلواء وألا يكون فاترًا يقيئه القراء)

وهونفس ما عبرت عنه نملة القراءة (ميساء الخطيب) بقولها: (أُصاب أحيانًا بخذلان بعد قراءة كتاب لم يعجبني! لكني أتجاوز ذلك دائمًا بإيماني بأن الطريق إلى الكتب الممتعة، يمر أحيانا بما هوغير ممتع)

في أحيان كثيرة أصاب بالدهشة والحيرة حينما أرى بعض المبدعين، وقد تبدل أمرهم من حال إلى حال، فمنهم أصحاب الأقلام الرائعة، والبيان الرصين، والفكرة الهادفة، فألتهم كتبهم واحدًا تلوآخر، وسرعان ما أكتشف العجب العجاب، فبعض كتب هؤلاء فيها غموض وتكلف، وربما فصول كثيرة من التفاهة،أشعر في سطورها بالفتور وقلة الإفادة.. ورغم غضبي وفاجعتي.. إلا أن ما سبق من إبداع هذا الكاتب، يغفر له هذه النزوة العارضة، وإن عشرته الطيبة، تفرض التغاضي عما عبث به قلمه في لحظة شاطحة.

هناك بعض الكتب أقبل عليها لسمعة مؤلفيها، وسرعان ما أكتشف فراغ محتواها من أول وهلة، ولكن بريق أصحابها يدفعني للاستمرار والمعاناة، لعلي أجد ما يأسرني في سطورها.

وفي أحيان أخرى أخجل أن أعبر عن رأيي أوأن أفصح عن مكنوني تجاه كتاب لم يعجبني، والسبب في ذلك شيئان..أولاهما: أن الكتاب لكاتب مرموق ذائع الصيت، والثاني: أن كل من حولي يصعد بالكتاب وصاحبه إلى السماء، وهونفس ما وقع لصديقة عربية تُقيم في باريس، حينما حدثتني أنها قامت بشراء (مائة يوم من العزلة) لماركيز، وما أدارك ما ماركيز.. وأخذت في القراءة وتنتقل من صفحة لأخرى، وسرعان ما خاب أملها، وانطفأ إعجابها، واستبدلت بالانبهار إدبار.!

وهي ليست قارئة عابرة، أوامرأة تسلي وقتها، وإنما هي متذوقة شاعرة، صبورة على الكتاب، فقد تسابقت معها مرة في قراءة كتاب (تحت راية القرآن) للأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعي) فكانت تسير في قراءته كالريح الهادئة، أما أنا فأصابني ملل من الأسلوب ولم أستطع مواصلة المسير، فتركت لها الميدان لتفز وحدها بالسباق، وفي الوقت نفسه لا أملك أن أقول شيئًا عن الكتاب وصاحبه، فهوالرافعي أديب الأدباء ومفخرة البلغاء.. بل أسارع أمام قامته الشامخة، فأتهم نفسي بكل رضًا، أنني لم أرق لمستواه بعد، وأناقض ما قلته في ردي على من يتهمني بالقصور، بأن الكتاب القيم يفرض نفسه على النفوس ويمتعها ويُشعر العقول بجمال صفحاته.

وأتمثل هنا ما قاله أبوتمام حينما سألوه: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب: ولماذا لا تفهمون ما أقول؟!

ولكـن مـالي أناقـض نفـسي، وكيـف غـاب عنـي أن الأمـر كلـه لا يعـدوأن يكـون اختلافًـا في الأذواق والرغبـات والميـول، فهنـاك مـن يهـوى الكتـب الأدبيـة، وهنـاك مـن يهـوى الكتـب العلميـة، وأنـاس يروقهـم الأسـلوب الفلسـفي، وغيرهـم يحبـون العاطفـي، بـل هنـاك مـن يسـتهويه الكتابـة المتقعـرة.! لكـن الـذي أصر عليـه، وأؤمـن بـه، أن الكتابـة التافهـة هـي تافهـة.. ولا يستحسـنها إلا مـن فقـدوا التـذوق.

وبعضهـم يـرى أن القلـم الرسـالي مقـدم عـلى كل قلـم، ولابـد أن نبحـث عنـه ونأنـس لـه، ونغفـر زلاتـه وأخطائـه مقابـل مـا يعطينـا مـن قيمـة وإفـادة وتوجيـه إنسـاني في الحياة..وهومـا عـبر عنـه أحـد الـرواد بقولـه: هنـاك الكاتـب الرخيـص الـذي يشـغل ذهنـك بالاهتمامـات التافهـة، والكاتـب الطاهـي الـذي يُعنـى بحـلاوة اللفـظ ورنـين العبـارات، والكاتـب المنافـق الـذي يقـول مـا لا يؤمـن بـه، حتـى هنـاك الكاتـب الفنـان الـذي يحسـن الفـن ولكـن مـع ذلـك ليسـت لـه رسـالة.

إن كثيريـن مـن الكُتَّـابِ القدامـى يحسـون الفـن، تجـد عندهـم الرنـين والحـلاوة، والجزالـة في تأليـف الكلـمات وهندسـة العبـارات، ولكنـك لا تجـد لأحدهـم رسـالة، والرسـالة للأديـب هـي كل شيء.

ولـوأن كاتبًـا كتـب باللغـة العاميـة، أوكان أسـلوبه يتقلقـل مـن الركاكـة، ولكـن كانـت لـه مـع ذلـك رسـالة، يحـس قيمتهـا ويلهـج بهـا ويلهـث إلى غايتهـا، لـكان أديبًـا عـلى الرغـم مـن كل نقائصـه هـذه، ولكـن لـوكان هـذا الكاتـب مبدعًـا في ابتـكار المعـاني وترصيـع الكلـمات، ثـم يكتـب

وليس له هدف عظيم أي رسالة؛ لما كان شيئًا، وقصارى ما كنا نجد عنده عندئذ أننا نتطعم الحلاوة من كلماته ولكننا لا نغتذي بها، ونخرج من مؤلفاته ونفوسنا في جوع إلى الغذاء.

إن الأديب في أيامنا يقوم مقام الكاهن في العصور الماضية، هوكاهن مدني نسترشد به حين يعطينا ويعين لنا قيم الحياة..فإذا قرأت لأحد الكتّاب وأردت أن تقيس أدبه فاسأل ما هي القيم التي تأخذها منه؟ هل هي قيم رخيصة أم غالية؟ هل هويعطيك الفن، اللَّذة فقط، أم يعطيك الحكمة أي الرسالة والهدف الإنساني أيضًا؟ فليس المهم أن تكتب بقدر ما تتتساءل: ماذا تكتب؟

الكتاب التافه تماما كالرجل التافه، يذهب معه وقتك بلا فائدة.. ولا تستفيد منه بحكمة أونصيحة أوشيء ذي بال.. وربما يكون الكتاب التافه أكثر إزعاجًا من الرجل التافه، لأنك صرفت فيه مالك وتعرضت به لخديعة كبيرة، وإذا كانت مشاهد الكتب المصفوفة على أرفف المكتبات من أروع المشاهد التي تعتز بها عيني، فإني لا أشعر بهذا مع الكتب التافهة إذا وقفت صفًا كأنها بنيان مرصوص، ولولا حرمة الورق في نفسي لمزقتها أوحرقتها حتى لا تصيب غيري بتفاهتها، أوتأكل من وقته الثمين شيئًا.

ربما لا يوافق الكتاب هواك في القراءة، ومن هنا لا تحكم عليه بأنه تافه فمن الممكن أن لا يقدم لك الكتاب أي فائدة لأنه في مجال غير مجالك وهذا لا يعني أن تصدر حكمك على كل ما تجهله..

بعض الكتاب ينتج كتبًا رائعة وهادفة، ثم لا تمنعه هذه الإجادة أن يقدم بعض الرديء الذي لا ثمار فيه، وهوتماما كالأرض التي تخرج شجرة مثمرة، وفي نفس الوقت بجوارها شجرة يابسة..إنها على نفس الأرض ومن ذات المنبع، أتعجب كثيرًا من كتاب لا قيمة له ولا إفادة فيه، ثم أرى الدولة تنفق عليه وتقدمه وزارة الثقافة للقراء.. أحاول أن أبحث فيه عن شيء مفيد فلا أجد، ثم أظن أنهم أرادوا أن يعرفوا الناس معنى الكتاب التافه فقدموا لهم هذا النموذج..!

ربما يكتب أحدهم مقالًا في شيء من العلم.. لكنني لا أتورع أن أدرجه في زمرة الكتاب التافهين حينما أجده يحاول أن يجتر عقولنا بما يكتب لتنشغل بفرعيات العلم وثانويات المعرفة.. في الوقت الذي تعاني فيه الأمة جهلًا ساحقًا في عظائم الأمور، وتشهد عقولنا جفافًا في العقل والوعي، وخرابًا في النفس والروح!أولى بك أن تُنذر قلمك لتعيد به الحرية المسلوبة، وتطرد به الجهل الذي تربع، وتمحوبه الضلال الذي عشش في الأدمغة والمفاهيم.. بهذا يكون قلمك جادًا هادفًا.. ويكون مدادك وقودًا يدفع شعوبنًا لتنفض عن كاهلها غبار هزائمها وتراجعها فتؤهل نفسها لصحوة مرتقبة..!

أعرف أحدهم وفي ظل البلايا التي تكبل حياتنا، والجهل الذي يبدد أحلامنا، يخوض معركة علمية وكل همه أن يثبت الجواز الشرعي للاحتفال بالمولد النبوي.. تعجبت من هذا الفهم المختل وقلت له: يا هذا لقد ضللت الطريق إلى ميدان الجهاد، فالمعركة الحقيقية

هناك في هذه الساحة الكبيرة، حيث ينتظرك أعداء أمتك ليقضوا على وجودك وبقائك..وإنك إن ظللت على ما أنت فيه فهولا يعني إلا هروبًا جبانًا من قضايا المصير..!

ولوأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا لغضب من فعلك ورفض ما أنت فيه، وعده فرارًا من الزحف..وكالمتوقع كانت التهمة جاهزة ومعدة.. أنت وأمثالك تُبغضون الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ولا تقدرونه قدره فقلت له: دعنا من هذا الاتهام الخطير ولتعلم أن الرسول الكريم، كان أشد الناس كراهية لمن يشغل الأمة عن معالي الأمور ويغرقها في التفاهات والترهات، لتكون لقمة سائغة تمزقها أنياب الحاقدين..!

حياتكم ملك لنا!

إن حبك للشخص يسوقك لتقليده ومحاكاته، والتطلع بنهم إلى أدق تفاصيل حياته الشخصية، ومعرفتها يُعد شيئًا ممتعًا لمن يبحثون عنها..والأجدر بالمبدعين والعباقرة، أن لا يبخلون بالحديث عن حياتهم الخاصة..وإبداء آرائهم وانطباعاتهم في الأذواق والألوان والرغبات والأشخاص، وكل دروب الحياة..

إن التواصل بين القاريء والكاتب الذي يُحبه، لا يجب أن يقف عند بوصلة الفكر وحدها، والكاتب الذي يبخل على مريديه بحديثه الذاتي، ويُعده نوعًا من الفضول والاستطالة على حياته الشخصية، فإنه يحرمهم من متعة كبيرة من حيث لا يدري، كما أن التجارب الذاتية في ميدان الحياة الخاصة، هي أدب ذاتي من أمتع ما تقرأ من صنوف الأدب، وكم عشقنا الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) الذي كان يقص علينا تجاربه الحياتية، فنقرأها بمتعة واشتياق، حتى أنه لما مات، حزنت لأن قطار التجارب قد وقف في محطته الأخيرة، ولن يعود ليحدثنا عن رحلاته مرة أخرى.

ولا أعرف كُتُبًا أفادتني واستقيت منها وساهمت في بنائي الثقافي والمعرفي،كما استقيت من كتب التراجم والسير الذاتية، التي تضم الخبرات والتجارب والأحداث والسلوك، وتعكس صورة لعظماء الرجال

وعباقـرة الدنيـا، وكيـف سـاهمت الأقـدار في تكويـن هـذه الأشـخاص ومكانتهـم في الحيـاة.

إن أي إنسـان، لابـد لـه أن يكتـب مذكراتـه، أوالمواقـف الهامـة والمؤثـرة في عمـره.. مهـما كان شـأنه في الحيـاة، فإنـه لابـد أن تكـون لـه تجـارب ونـوادر وآمـال وآلام، تسـتحق القـراءة والاسـتفادة منهـا، وإني لأتخيـل الآن لـوكان جـدي رحمـه اللـه والـذي لم أره ولا أعـرف صورتـه، قـد كتـب مذكراتـه أوأملاهـا عـلى أحـد أبنائـه.. كيـف سـيكون الأمـر سـاعتها ؟ لا شـك أنهـا سـتكون ذكريـات أثـيرة لـدى أحفـاد يتعرفـون منهـا عـلى كثـير مـن حيـاة هـذا الشـخص المجهـول، وتُعطـي لأحفـاده والأجيـال المنحـدرة مـن نسـله، صـورة لملامـح حياتـه.

ولا آسـف في الدنيـا عـلى رجـل حُرمنـا مـن قـراءة مذكراتـه كالشـيخ (محمـد الغـزالي) رحمـه اللـه، وكنـت أتمنـى وأرجـوأن أتعـرف عـلى الشـيخ الغـزالي وبيئتـه وتكوينـه ونشـأته، وخصوصًـا كيـف طلـب العلـم؟ وكيـف كان تكوينـه الثقـافي؟ وكيـف كان يقـرأ وكيـف كان يكتـب ؟..فالشـيخ أديـب رائـع، وداعيـة فـذ، ومفكـر عظيـم، يسـتحق مـن الأجيـال أن تتابـع أثـره وتفاصيـل نفسـه السـامية.

كنـت كثـيرًا مـا أتسـاءل كيـف للشـيخ أن يتنـاسى أمـر مذكراتـه ويغفـل عـن كتابتهـا؟، بـل كيـف لتلامذتـه أن يضـل عنهـم هـذا الأمـر، فـلا يطالبونـه بتدوينهـا؟ إنهـا خسـارة كبـيرة بـكل المقاييـس، ولقـد سـعدت حينـما وجـدت أسـتاذنا الأديـب (عبـد الوهـاب مطـاوع) قـد تحـدث عـما

جـال بخاطـري، وأسِـف كـما أسـفت لرحيـل الشـيخ (الغـزالي) دون أن يكتـب مذكراتـه.

حيـث يقـول: (مـذ فـترة اتصلـت بالداعيـة الكبـير فضيلـة الشـيخ (محمـد الغـزالي) ودعوتــه لأن يكتــب مذكراتــه ويــثري بهــا معارفنــا وخبرتنــا بالحيـاة، فقـال لي: إنـه قـد فكـر في هـذا الأمـر طويـلًا ورأي في النهايـة أن نـشر مذكراتـه في الظـروف الحاليـة، قـد يُـسيء إلى بعـض الأشـخاص الذيـن يتناولهـم فيهـا، وهـولا يريـد أن يُـسيء إلى أحـد حتـى ولـوكان اختلـف معـه في بعـض مراحـل حياتـه .

وجادلتـه في ذلـك بعـض الوقـت، واقترحـت عليـه أن يكتـب حتـى ولوقصة نشـأته الأسريـة والمؤثـرات العائليـة والاجتماعيـة التـي كونـت شـخصيته في مرحلتـي الصبـا وبواكـير الشـباب كـما فعـل عميـد الأدب العـربي (طـه حسـين) في أجـزاء الأيـام الثلاثـة، لكنـه لم يتحمـس لذلـك للأسـف، وقـال لي إنـه يفضـل أن يـدع ذلـك للمسـتقبل.!

ولم تمـض شـهور عـلى حديثنـا هـذا، حتـى كان الأجـل المحتـوم قـد وافـاه وهويشـارك في نـدوة علميـة بالمملكـة العربيـة السـعودية ودفـن بأرضهـا رحمـة اللـه عليه..وضاعـت عـلي وعـلى الآخريـن فرصـة الاسـتفادة بقـراءة مذكراتـه..)

وأنــا واحــد مــن هــؤلاء الذيــن ضاعــت عليهــم تلــك الفرصة..وللأسـف حتـى الآن.. لم نـر أحـدًا كتـب عـن الحيـاة الخاصـة للشـيخ الغـزالي واهتـم

بها من أبنائه وذويه، وفيهم أهل علم ودعوة، ويبدوأنهم يكررون خطأ أبيهم العظيم..ويريدون كما أراد أن يسدلوا ستار النسيان على كفاحه الطويل عبر سنوات عمره المديدة..

ولقد كتب الشيخ (القرضاوي) لمحات من حياة الشيخ في كتابه الرائع (الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن) ولكنها لمحات عابرة، وركز أكثر على حياته الفكرية، ورؤاه الإسلامية، وكذلك فعل عمارة، والمرحوم الدكتور (عبد الحليم عويس)، حينما كتبوا عن الشيخ رحمه الله.

ثم كانت المفاجأة أن الشيخ فعلا قد بدأ المحاولة في كتابة سيرته الذاتية ففي البحث في عالم الانترنت فوجئت بحوالي ٦٠ صفحة يقص فيها الشيخ الغزالي قصة حياته ومختصرًا لأهم المواقف فيها وكم كانت سعادتي بها كبيرة لحد لا يوصف لكنها صغيرة مما يجعلك تقول حينما تنتهي لآخر سطر فيها.. يا خسارة.!

إن أبرز من تعد أعمالهم إضافة للمكتبة العربية، هم أولائك الباحثين الذين يترجمون لحياة المفكرين والأدباء، ولكن أروعهم هم أولائك الذين يكتبون سيرتهم الذاتية، وتجاربهم الحياتية، وآخر ما قرأت من هذه الكُتب كتاب (أنا نجيب محفوظ) لإبراهيم عبد العزيز، حيث بذل الكاتب جهدًا كبيرًا في عرض حياة نجيب محفوظ واستخلص بعضهًا من حواراته ولقاءاته التلفزيونية والصحفية، لأن نجيب محفوظ لم يكن من هواة الكتابة عن نفسه، ولا يحب من

أحـد أن يتعـرف عـلى حياتـه الخاصـة، وكانـت لـه محـاولات في الكتابـة الذاتيـة، ولكنـه مزقهـا وقـال: أحـب أن يـرى القـاريء منـي مـا أريـد أن أقولـه أنـا لـه.

أمـا الدكتـور (عبـد الوهـاب المسـيري) فكانـت لـه رؤيـة وسـطيةٌ، حيـث قـدم ومنـع في ذات الوقـت، في كتابـه الرائـع (رحلتـي الفكريـة)، الـذي لم يذكـر فيـه مـن حياتـه الشـخصية وتجاربـه الذاتيـة، سـوى مـا كان لـه علاقـة بتطـوره الفكـري.. حيـث قـال: (ولعـل مـا دعـاني إلى اسـتبعاد بعـض تفاصيـل حيـاتي الخاصـة (المغرقـة في الخصوصيـة) وهـي تفاصيـل قـد تكـون مهمـة مـن منظـور شـخصي، وقـد تهـم أعضـاء أسرتي وأصدقـائي، ولكنهـا لا تهـم قـاريء هـذه الصفحـات، ولعـل هـذه الواقعـة توضـح تمامًـا مـا أود قولـه، فقـد حـضرت احتفـالًا رسـميًا بمناسـبة افتتـاح كوبـري في مديريـة البحـيرة وانهالـت الخطـب الواحـدة تلوالأخـرى.. ثـم قـام أحـد خـبراء النفـاق، وأخـذ يُعـدد مناقـب سـعادة الوزيـر الـذي جـاء لافتتـاح الكوبـري، فسـعادته طيـب جـدًا وعـلى خلـق متـين للغايـة ويقيـم الصـلاة في مواقيتهـا (وميفوتـشي فـرض)...إلـخ، فقـام أحـد المسـتمعين محتجًـا، قائـلًا: (إن هـذه صفـات إيجابيـة إن كان الحديـث عـن زوج ابنتـي، لكـن إن كان الحديـث عـن وزيـر (أي شـخصية عامـة) فالأمـر جـد مختلـف، وهـذا هومـا فعلتـه في هـذه الرحلـة، أي أننـي اسـتبعدت كل الوقائـع والتفاصيـل التـي ليـس لهـا علاقـة مبـاشرة أوغـير مبـاشرة بتطـوري الفكـري، مـا لـوني المفضـل ؟ مـا نوعيـة قـماش بدلتـي؟ ومـن خالتـي؟... إلـخ، فهـي وقائـع لاتهـم مـن يريـد أن يتعـرف عـلى تطـوري الفكـري،

وحينـما كنـت أذكـر إحـدى الوقائـع في حيـاتي، كنـت كثـيرًا مـا أسـتبعد الأسـماء الحقيقيـة لأبطالهـا، حتـى لا أسـبب حرجًـا لأحـد منهـم، وحتـى يُركـز القـاريء عـلى مغـزى الواقعـة، لا عـلى تفاصيلهـا، وقـد يقـول قائـل إن كل الأمـور مترابطـة، وإننـي قـد أسـتبعد بعـض التفاصيـل المهمـة دون أن أدري وهومحـق، لكـن لا منـاص مـن الاختيـار والإبقـاء والاسـتبعاد والتهميـش والتركيـز حسـب نمـوذج محـدد)

ولـه الحريـة في ذلـك فكثـيرون يعتـبرون أن حياتهـم الخاصـة ملـك لهـم وحدهـم، ولديهـم حساسـية مفرطـة في أن يعـرف أحـد مـن النـاس شـيئًا منهـا.. ولا أعـرف ربمـا يكـون هـذا الباعـث مـن مكونـات تركيبتهـم النفسـية والتربويـة.. لكننـي وعـن نفسـي.. أرى أن حيـاة المبدعـين ليسـت ملـكًا لهـم وحدهـم وإنمـا هـي ملـك لملايـين المحبـين والمعجبـين.

لقـد كان العقـاد مـن هـواة التراجـم، وفي يـوم مـن الأيـام كان يقـرأ كتابًـا فسـأله الشـاعر (صالـح جـودت) مـاذا تقـرأ فقـال: أقـرأ كتابًـا عـن حيـاة الممثلـة الفرنسـية (بريجيـت بـاردو) واندهـش جـودت وقـال: العقـاد يقـرأ عـن بريجيـت باردو؟!فـرد بهـدوء: ولم لا؟ فليـس هنـاك كتـاب أقـرأه ولا أسـتفيد منـه شـيئًا مهـما كانـت ضآلتـه، وفي حيـاة كل إنسـان، مـا يسـتحق أن يتأملـه المـرء ويسـتفيد منـه.

أمـا عـن المسلسـلات التلفزيونيـة التـي تجسـد سـيرة هـؤلاء العباقـرة فأنـا مولـع بهـا، وتسـتهويني بصـورة أخـاذة كمسلسـل الأيـام وجـمال الديـن الأفغـاني، ومسلسـل العمـلاق الـذي يجسـد شـخصية العقـاد.

أما الدهشة الحقيقية، فهي التي تراها على من يدخل علي فيجدني أشاهد فيلم (٦٢ يومًا من حياة دوستويفسكي).. الفيلم بالروسية، ومع ذلك أهيم في مُشاهدته، وقد بحثت كثيرًا عن أي شيء يجسد لي حياة (دوستويفسكي) فوجدت هذا الفيلم فيما وجدت،فأدب(دوستويفسكي) كان يهز روسيا كلها، وكانت كتاباته تغير ملامح المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك المجتمع الذي كان مليئًا بالشقاء والبؤس والعناء.. أما الغريب في الأمر فهوأنني وأنا أشاهد الفيلم لا أعرف كلمة واحدة في اللغة الروسية، كما أن الفيلم غير مترجم، ومع ذلك أتابعه من البداية للنهاية، فمجرد صورة (دوستويفسكي) في حد ذاتها شيء مبهر، والشعور بأنك تراه شيء جذاب، ناهيك عن تلك المشاهد التي تصوره وهويكتب أعماله ورواياته، ويستجمع أفكارها من الخيال، فيبلل ريشته ليسطر إبداعه ويجهد ذهنه في استلهام أفكاره.

وللأسف تعرفت على (دوستويفسكي) مؤخرًا، وقمت بشراء مجموعته كاملة، وبدأت أقرأ في أول شيء منها وهي روايته الرائعة (ذكريات من عالم الأموات) ولم أزل أتابع أعماله حتى أستدرك ذلك الوقت الرهيب الذي مر علي وأنا غائب عن حقيقته ومعرفته.

ولعل من أبرز كتابنا وأدبائنا العظام الذين لم يبخلوا على القراء بكثير من تفاصيل حياتهم هوالمفكر والأديب الكبير (زكي مبارك) وقد عدها الباحثون من علامات الخلاف بينه وبين أدباء عصره، وأنه كان كتابًا مفتوحًا وصريحًا، سجل كل شيء ولم يخف أي شيء من حياته العامة والخاصة.

في حـين كان غـيره يظهـرون جوانـب القـوة، ويخفـون جوانـب الضعـف، وحـين تقـرأ مـا كتـب مـن حياتـه تـراه عظيـمًا فصراحتـه ونقـاؤه واضحـان في كل حركـة، حتـى في مجونـه واسـتقامته، حيـث يجعلـك تنظـر إليـه في ثقـة، حـين تـراه يحدثـك عـن كل شيء في جـرأة دون خـوف:

(إن الـذي يخدعـك هوالرجـل الـذي يخفـي عنـك أشـياء، ويظهـر أخـرى، إنـه الرجـل الـذي يـداري أنيابـه، ويبدولـك في صـورة الوقـار والسـماحة وهومطـوي الأضالـع عـلى الغـل والحقـد.)

لقـد جنـح إلى الخمـر في أخريـات أيامـه، وأسرف فيهـا أيمـا إسراف وابتعـد عـن المجتمـع، وأمـضى أعوامًـا مظلمـة حزينـة، لا يقـرأ كتابًـا ولا يُنـشيء بحثًـا وإذا بالمسـاجلات يريدهـا فـلا يسـتطيع الدخـول فيهـا، والكتـاب ينقـدون كتابيـه الغاليـين فـلا يقـدر عـلى الـرد والدفـاع، ثـم يعـود إلى البـلاغ فيكتـب فصـولًا ضعيفـة الأسـلوب، ليـس فيهـا بيـان زكي مبـارك الرائـع ولا فكاهتـه المعهـودة ولا قوتـه وعرامتـه، فيكتـب بأسـلوب سـاذج وعبـارات مفككـة، ومازالـت الخمـر تقصيـه عـن ميـدان البحـث والفكـر إلى النهايـة.

وفي هـذه الفـترة أخـذ يهمـل ملابسـه وكتبـه وإنتاجـه، ويظهـر في مكتبـة أصابتهـا الفـوضى.. واسـتطاعت بعـض الصحـف أن ترسـم لـه بعـض الصـور الفتوغرافيـة في برجـه العاجـي فقـال أحـد المحرريـن: (بـرج الدكتـور العاجـي مؤلـف مـن خمـس غـرف وصالـة كبـيرة، ويضـم أكـثر مـن عشريـن ألـف كتـب، وضـع بعضهـا في نحوثلاثـين دولابًـا، ووزع البعـض

الآخـر في أركان الغـرف، وبقـرب النوافـذ والمقاعـد، وعـلى الأرض.

وقـد حـرم الدكتـور عـلى النـاس بـلا اسـتثناء دخـول برجـه أوالدنومنـه، ولهـذا فـإن الـتراب وبقايـا السـجائر مازالـت في مكانهـا تزيـد وتتكاثـر منـذ عـشرات السـنين، وكثـيراً مـا يهبـط الوحـي عـلى الدكتـور بفكـرة رائعـة أوبيـت مـن الشـعر، ثـم لا يجـد في هـذا المخـزن العظيـم ورقـة بيضـاء، فيسـارع بتسـجيل الفكـرة أوالشـعر عـلى خشـب النوافـذ، أوجـدران الحائـط، وكثـيرا مـا غـرق التليفـون بـين المجلـدات والأوراق فـلا يعـثر عليـه الدكتـور إلا بعـد جهـد جهيـد.

وبرغـم الحيـاة الشـاردة التـي غـط فيهـا عقـل الأديـب، وبرغـم هـذه العزلـة المؤلمـة والغيبوبـة التـي ألمـت بـه، فـإن الصحيفـة وتصويرهـا لحالـه بـين كتبـه وأسـفاره، جعلتنـا كأننـا نعايـش محنتـه، ونشـعر بمعاناتـه.

عبودية الحرف !

القـراءة في حـد ذاتهـا لا تثمـر إذا لم تكـن مصحوبـة بتفكـير وتأمـل ووعـي وعقـل حـاضر يسـتعرض النصـوص عـلى موازينـه وإدراكاتـه، فـلا يتعامـل القـاريء مـع أي كتـاب يقـرأه كأنـه وحـي لمجـرد أنـه مطبـوع بـين دفتـي كتـاب، وإنمـا عليـه أن يحكـم عقلـه إن كان مـا في هـذا الكتـاب جيـدًا أم سـيئًا صالحًـا أم فاسـدًا حسـنًا أم رديئًـا مقبـولًا أم مرفوضـا سـلبيا أم إيجابيـا، وهـذا الوعـي مـن القـاريء يكـون وقايـة وحمايـة مـن الانجـراف لكثـير مـن الأفـكار المنحرفـة التـي تحملهـا بعـض الكتـب ومـن هنـا أشرنـا بـضرورة التوجيـه في عمليـة القـراءة لـدى الناشـئة نظـرًا لضعـف الوعـي والتمييـز لديهـم، مـما يسـهل وقوعهـم كفريسـة للأفـكار المنحرفـة التـي قـد تتنـافى مـع مبادئهـم ودينهـم وعاداتهـم .

وإذا كان البعـض يُعطـي الوقـت الكثـير للقـراءة، فلابـد لـه أن يعطـي وقتًـا أكـثر للتأمـل والتفكـر، والذيـن ينتفعـون بمـا يقـرؤون هـم أولائـك الذيـن يقـرؤون بعقولهـم مـع ألسـنتهم، ويسـتحضرون الموازيـن التـي يزنـون بهـا أحاديـث السـطور.. إن الغايـة الكبـيرى مـن القـراءة ليسـت في التسـلية أوقضـاء أوقـاتٍ ممتعـة أوالتعـرف عـلى الجديـد، وإنمـا تخلوالقـراءة مـن ثمرتهـا الحقيقيـة إذا لم يصاحبهـا التأمـل المنشـود والتفكـير المطلـوب.. نريـد أن نتـبرأ مـن عبوديـة الحـرف .!

والذيـن يجافـون التأمـل مـن القـراء لا يعرفـون قيمـة التفكـير ومـن ثـم

لا يتقدمـون ولوقـرؤوا آلاف الكتـب، عليـك أن تكـوِّن رأيـك الخـاص الـذي تسـتريح إليـه نفسـك، وتؤمن بـه قناعتك ولا تسـتصغر عقلك أوتسـتضعف فهمـك في تقييـم مـا يكتبـه الآخـرون، ولا تتحـرج في إبـداء رأيـك، ولكـن كـن حـذرا أن يسـوقك هـذا المنهـج في نفـس الوقـت إلى الجـدال الدائـم والتخطـيء المسـتمر لـكل مـا تقـرأ في محاولـة منـك لإثبـات الـذات عـلى حسـاب الكتـاب والكاتـب، فنتحـول مـن مفكريـن إلى مشاكسـين.!

أذكـر مـرة في مطلـع شـبابي أننـي حـضّرت مـادة علميـة لألقـي خطبـة الجمعـة في أحـد مسـاجد قريتنـا (سـنجرج) مـن ريـف المنوفيـة، وكان موضـوع الخطبـة عـن (حـب الرسـول ومكانتـه وتعظيـم المسـلمين لشـخصه الكريـم)، واجتمـع لـدي عـدد مـن الكتـب اسـتخرجت منهـا مـادة الخطبـة وعناصرهـا وكان مـن بينهـا كتـاب (الطبقـات الكـبرى) للإمـام الشـعراني رحمـه اللـه وهوكتـاب معـروف في التصـوف يـسرد فيـه المؤلـف تراجـم كثـيرة للأوليـاء الصالحـين، وكان مـن بعـض هـؤلاء الأوليـاء والعارفـين مـن هـم عـلى درجـة كبـيرة في حـب النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم ولهـم قصـص مأثـورة بلغـت مبلغهـا الرائـع في إجلالـه وتوقـيره، وكان مـما قـرأت منهـا: أن أحدهـم كان يتنـاول طعـام الغـداء مـع ولـده.. وكانـا يـأكلان دجاجـة فقـال الوالـد لولـده: يـا بنـي خـذ مؤخـرة الدجاجـة فـإن رسـول اللـه ﷺ كان يحـب مؤخـرة الدجاجـة! فـما أن سـمع الغـلام هـذا الـكلام حتـى قـال لـواده: يُحـب مؤخـرة الدجاجـة.. إنهـا قـذارة!

ولم يشعر الوالد حينما سمع هذه اللفظة المنكرة من فم ولده إلا وقد امتشق سيفه من غمده وهوى به على رأسه فأرداه قتيلًا..! تعظيما لجانب الرسول الكريم وثأرا لمقامه الشريف صلى الله عليه وسلم..!

والحق أن جمهور المستمعين حينما انتهيت من سرد القصة أخذ يمصمص الشفاه، ويهمهم بالتسليم والاتعاظ.. وظننت أنا.. أنني نَفَذَتُ إلى قلوبهم، وبلغت مقصدي من وعظهم،..وما أن انتهت الخطبة ورجعت إلى بيتي، حتى فوجت بوالدي رحمه الله يقول لي: الأستاذ (فلان) يطلبك على الهاتف فأجبه..فهرولت لأعرف ماذا يريد الأستاذ القدير، وهومعلم نابه ومرب فاضل من المثقفين المتدينين في قريتنا: فقلت له: مرحبًا استأذنا أسعدني سماع صوتك، فرد علي: أهلا ومرحبا أنا أتصل بك لأشكرك على هذه الخطبة القيمة.. ولكن لي بعض الملاحظات التي أحب أن أتناولها معك، خاصة هذه القصة التي ذكرتها.. فقلت له: لقد أتيت بها من كتاب الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، وظننت بذكري للكتاب أني ألزمه الحجة.. فهوعندما يسمع كلمة الشعراني لابد له أن يقف عن التشكك ولا يتكلم، ولكنه قال لي: ولنفرض أنها للشعراني، أين عقولنا في فهم النصوص والحكم عليها بالصواب والخطأ ؟، هناك كتب كثيرة محشوة بالخيال والشطحات ولا يعني أنها في كتب الأولين أنها صدق ويقين ومقدسة لا تقبل النقد والأخذ والرد..!

وهنـا تفتحـت مـداركي عـلى معنـى جديـد.. وتذكـرت قـول الإمـام الشـافعي: (كل إنسـان يؤخـذ منـه ويـرد إلا صاحـب هـذا القبر)، وعرفـت أن كل مـا نقـرأه يجـب أن يخضـع لميـزان التفكـير والتمييـز والعقـل والتأمـل، وأن الحكـم الحقيقـي هـي النصـوص والثوابـت المقـررة في ديننـا مـن الكتـاب والسـنة وهـي التـي لا تقبـل الزيـف والتجـوز.. ثـم واصـل الأسـتاذ تبصـيري بخطـأي حينـما قـال: هـل يمكـن أن نقبـل هـذه القصـة في مقاييـس ديننـا والأسـلوب النبـوي في التعامـل مـع المـسيء.. هـب أن الغـلام نطـق بمثـل هـذا الـكلام، فهـل يسـتدعي ذلـك أن يبطـش بـه والـده ويقـضي عـلى حياتـه بهـذه الوحشـية وهـذا العنـف ؟ لم لا يعظـه أوينهـاه، أوييـصره بخطئـه ووزر مـا اقـترف لسـانه..إن كتـب التفسـير تغـص بالكثـير مـن الإسرائيليـات والقصـص الغـير مقبولـة، فهـل يعنـي ذلـك أن نسـلم لهـا؟ أم نأخـذ منهـا مـا يتناسـب مـع ديننـا ونرفـض مـا يخالفـه؟ فقلـت لـه صدقـت..إن لنـا عقـولا لا يجـب أن تغيـب أبـدا أمـام مـا نقـرأ.. !

إن بعـض كتـب التفسـير القديمـة تكتـظ بالإسرائيليـات المهولـة والفادحـة التـي تحمـل قصصًـا تخالـف الديـن والاعتـدال، فهـل معنـى ذلـك أن نرويهـا ونصدقهـا لأنهـا جـاءت في كتـب التفسـير وسـطرتها أيـادي الأئمـة الكبـار؟

هنـاك كثـير مـن المرويـات تسربـت منـذ عهـد الصحابـة والتابعـين عـلى يـد (كعـب الأحبـار) ووهـب بـن منبـه وغيرهـم ممـن دخـل في الإسلام، ثـم توسـعت بعـد ذلـك وكـثرت وكانـت عفويـة في مبدئهـا لكنهـا صـارت طريقًـا للكيـد والـدس في حقائـق الديـن، وجعلهـا بعضهـم بمثابـة

غزوفكـري وثقـافي للإسـلام لجـأ إليـه أعـداؤه حينـما فشـلوا في قهـره عسـكريًا..ولم تمـض برهـة حتـى غصـت بهـا كتـب المسـلمين..!

إنَّ منهـا مـا يوافـق مـا جـاء في ديننـا وهـذا لا بأس مـن روايته والاستشـهاد بـه، ومنهـا مـا يخلفـه وهـذا تحـرم روايتـه لأنـه خـلاف الحـق والصـدق، ومنهـا مـا لا يخالـف ولا يوافـق وقـد قـال العلـماء:إن هـذا النـوع تجـوز روايتـه عـلى سـبيل التسـلية.

وهنـاك كتـب عظيمـة وكثـيرة كتبهـا أئمـة أجـلاء بهـا أحاديـث واهيـة وضعيفـة وموضوعـة، فهـل نأخـذ بهـا ونتلوهـا لأنهـا جـاءت في صحائـف الأئمـة العظـام؟ وهـؤلاء الأئمـة وارد ذلـك في حقهـم، لأنهـم بـشر غـير معصومـين والمجتهـد يخطـيء ويصيـب حتـى الإمـام ابـن عبـاس رضي اللـه عنهـما بجلالـة قـدره وهوحـبر الأمـة وترجـمان القـرآن لـه أراء تفسـيرية رفضهـا جمهـور العلـماء واعتبروهـا ضعيفـة وشـاذة وهـي ثابتـة عنـه وقـد خالفهـا عامـة الصحابـة كأقوالـه في المواريـث.. فكيـف لا نعـذر بمـن هـودون ابـن عبـاس؟!

والـذي أنصـح بـه أن يلجـأ القـاريء إلى الكتـب المحققـة حتـى يتقـي هـذا التخبـط والانحـراف فالكتـب المحققـة تبـصر القـاريء بمـا خفـي عليـه وهـي أشـبه بمصبـاح يـضيء لـه طريقـا ملبـدا بالغيوم..فالمحققـون لا يقيمـون وزنـا لروايـات الإخباريـين ولا يعتمـدون عليهـا ويعيبـون مـن ينقـل عنهـا في كتـب العلـم المعتـبرة .

ما معنى أن يقرأ الإنسان؟ ليس معناه أن يحصل ولكن أحسن مفهوم للقراءة هوأنها فن التعامل مع النص.. فهتلر في ألمانيا صنع دعاية كاذبة عنصرية، والشعب الألماني صدق أنه شعب الله المختار وليس في الدنيا مثله وحارب العالم كله على هذا الأساس، وكانت الهزيمة، ولوكان الألمان يفكرون جيدًا ما كانوا وقعوا في هذا الشرك، ولقد ظهر في عالم القراءة ما يسمى بالقراءة الناقدة، أي أن يكون لك وجهة نظر خاصة وقراءة جديد في النصوص، ولا تأخذ المفاهيم بالتبعية والتقليد.. الشعراوي مثلًا في تفسيره لآية (الرجال قوامون على النساء) كانت له رؤيته الخاصة،ولم يقلد حيث أصلها لغويًا وقال:قام بالأمر، وقام على الأمر أي اهتم به، وكان توفيق الحكيم يقول:أنا أقرأ كتابًا ولا أقرأ عشرة كتب.

فنحن إذن.. لا نريد القاريء الذي يعبد الحرف ويتعامل مع الكتب على أنها مسلمات ويقينيات لا تقبل النقاش والمجادلة، لا نريد منه أن يعاملها على أنها وحي من السماء وإنما عليه أن يدرك أن من كتبها بشر يخطئون ويصيبون، فقد يكون الكاتب منتميًا لحزب معين ويروج لأفكاره التي ربما تخالف رأي الأغلبية، أوأن يروج الكاتب لأفكار وسلوكيات لا تناسب المجتمع الذي يعيش فيه وتنافي قيمه ومبادئه..أوأن يكون من دعاة الغلووالتفريط، أويكون مخطئًا في نظرية من النظريات أوتحليلًا لبعض الأبعاد..وكل هذا يقتضي من القاريء نوعًا من اليقظة والوعي والحضور والإدراك حتى يعرف الصواب من الخطأ والحسن والأحسن.

وتتكـون هنـا مشـكلة كـبرى.. لـوأن هـذا الناقـد فهـم النقـد عـلى أنـه صـورة تسـلطية وتتبـع لسـقطات وهفـوات الكتـاب حتـى يشـنع عليهـم فهـولا يقـرأ للفائـدة والمعرفـة بقـدر مـا ينقـب بـين السـطور عـن ذلـة يتجنـى بهـا عـلى الكاتـب ويـؤول عليـه تهـما شـنيعة.. وقـد يتحـول هـذا الأسـلوب إلى مـرض عنـد الكثيريـن، يشـعرهم بنشـوة غامـرة بأنهـم انتـصروا عـلى مـن كتـب هـذه السـطور.

لقـد خرجـت إلى الدنيـا وكان في بيتنـا بقايًـا أسـفار مـن مكتبـة أبي التـي نهبهـا الناهبـون وسرقهـا السـارقون وسـطى عليهـا القناصـون مـن أقاربنـا.

كان مـن هـذه الكتـب روايـات وكتـب للعقـاد وطـه حسـين، كان لدينـا بعـض العبقريـات والمعذبـون في الأرض ودعـاء الكـروان والفتنـة الكـبرى ومـرآة الاسـلام، وتناولـت (الوعـد الحـق) لأقـرأه فوجـدت عالمًـا غريبًـا لحيـاة الصحابـة وشـخصياتهم وأسـلوبهم في التعامـل عـلى غـير مـا ألفنـا وتعلمنـا مـن أنهـم أهـل الفضيلـة وأربـاب الأخـلاق والقيـم، وأنهـم حققـوا في حياتهـم أسـمى مـا وصـل إليـه الإنسـان مـن كـمال النفـس ورقـي السـلوك.

إن (طـه حسـين) شـوه حيـاة الصحابـة، ولطـخ مسـيرتهم وطعنهـم في أخلاقهـم، ولم يـترك منهـم أحـدًا إلا وتطـاول عليـه، حتـى تمـوت القـدوة في حيـاة المسـلمين ليجدوهـا في حضـارات أخـرى والرجـل كان مولعًـا بالحضـارة الغربيـة وتاريخهـا القديـم ودعـا إلى أن نحـذوا حذوهـا حتـى نصـل إلى مـا وصلـوا إليـه..

لقـد تحـدث عـن ظلـم عثـمان ﵁ وجبروتـه وأنـه ضرب ابـن مسـعود ﵁ حتـى كـسر ضلعـه وأشـبع عـمار بـن يـاسر ﵁ ضربًـا حتـى أصابـه الفتـق وغـشي عليـه وفاتتـه صـلاة الظهـر والعـصر والمغـرب ونهر السـيدة عائشـة وقـال لهـا اصمتـي وان ابـن مسـعود كان في العـراق يعـرِّض بـه حيـنما يقـول في نهايـة الخطبـة (إن كل محدثـة بدعـة وكل بدعـة ضلالـة وكل ضلالـة في النـار) إشـارة إلى مـا أحدثـه مـن الآذانـين والجملـة مـن أساسـها واردة مـن أفعـال الرسـول ﷺ ولكـن (طـه حسـين) في كتابـه كان بذيئًـا خارجًـا قميئًـا كاذبًـا، شـعرت بحالـة مـن الغثيـان مـما أقـرأ كـما ألمـت بي حالـة مـن الحـزن عـلى هـؤلاء الأماجـد الأطهـار الذيـن يشـوه تاريخهـم ويُمحـى فضلهـم بهـذا الإسراف..؟! والمصيبـة أن الدنيـا كلهـا تهلـل للرجـل وتصفـه بأنـه عميـد الأدب العـربي وأنـه وأنـه.. حتـى أنـك إذا ناقشـت أحدهـم عـن أخطائـه الفادحـة تطـاول عليـك بجهـل واتهمـك أنـك أحمـق أغبـى مـن أن تـدرك قيمـة طـه حسـين، وذلـك كلـه مـن تأثـير الإعـلام وسـحره في تشـكيل العقـول التـي تربـت عـلى مـدح هـؤلاء وأنهـم قـادة الفكـر ورواد المعرفـة في بلادنـا.

ومهـما قيـض اللـه تعـالى لهـؤلاء مـن يفضحهـم ويكشـف ضلالهـم، فإنـه يعتـم عليـه أويتهـم في عقلـه وفكـره .! ولكـن أيـن العقـل الحصيـف الـذي يكتشـف هـذه الوقاحـة في تـراث الرجـل وهـي بينـة واضحـة جليـة، لقـد كان هدفـه واضحًـا مـن انتقـاص الصحابـة الكـرام، هوهـدم هـذا الـصرح الإسـلامي الـذي تقـوم عليـه السـنة والتاريـخ وسـير الغـزوات والحيـاة الإسـلامية في عـصر الخلفـاء الراشـدين ومـا بعدهـم وقـد أطلـق

لسانه فيهم جميعا يغمز بهم ويجرحهم في أمور ويكشف عنهم تلك الكرامة التي أمدهم الله بها الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم.. قال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه).

وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وقال أيضا:(لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فلوأن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم أونصيفه)٥٤

وهذا نموذج يسير من كتاباته.. فلوطالعنا البقية وسردنا ما بها من طعن وتجريح لوجدنا بلايا لا يستطيع المسلم البصير أن يسكت عنها..ولكن من أين تأتي البصيرة والناس لا يقرؤون وإذا قرؤوا فإنهم كما قيل عنهم لا يفهمون.!

أما روايات (جورجي زيدان) فكانت حربًا على التاريخ الإسلامي، ومحاولة قذرة لطمس معالمه المضيئة (استطاع أن يبث سمومه في مجال القصص التي ألف منها عددا تحت اسم روايات الإسلام دس فيها الدسائس والمؤامرات والأهواء وحاول إفساد مفهوم الشخصية والبطولة الإسلامية وأساء إساءة بالغة إلى الأعلام كصلاح الدين والرشيد والسلطان عبد الحميد وعبد الرحمن الناصر وابن طولون والغافقي وغيرهم كثيرون ممن تناولهم في قصصه حتى يخدع

54 – المد هوالرغيف الذي يتصدق به الصحابي.

الشـباب ويمـلي عليهـم تصوراتـه التـي تمثلـت في:

١- تصـور الخلفـاء والصحابـة بصـورة الوصوليـين الـذي يهـدرون كل شيء في سـبيل الملـك ولـوكان دينهـم وأخلاقهـم .

٢- تزييـف النقـول والنصـوص التـي نقلهـا المؤرخـون لتخـدم أغراضـه الحقـيرة.

٣- تعمـد إدخـال العلاقـات الغراميـة داخـل روايـات الإسـلام حتـى يثـير غريـزة الشـباب ويحـرك شـهوة المراهقـين مسـتغلًا ضعـف ثقافتهـم.

٤- قـال ببشريـة القـرآن ومـدح بنـي العبـاس لأنهـم أنزلـوا العـرب منزلـة الكلـب (عـلى حـد تعبـيره) ونسـب إحـراق مكتبـة الإسـكندرية إلى (عمـر بـن الخطـاب) رضي اللـه عنـه.

وقـد طبـع اللبنانيـون ودار الهـلال في مـصر روايـات (جورجـي زيـدان) مزدانـة بالصـور الملونـة والألـوان الصارخـة حتـى تسـتهوي الشـباب وتحثهـم عـلى قراءتهـا، والحقيقـة أنهـا لا تعطيهـم إلا صـورًا مشـوهة لتاريـخ أمتهـم.)٥٥

لقـد كان أغلـب هـؤلاء الذيـن طعنـوا في تاريـخ الصحابـة والتقمـوا كل هـذه المفتريـات مـن الروايـات الضالـة المنحرفـة، إنمـا اسـتقوها مـن بعـض المراجـع وعـلى رأسـها تاريـخ الطـبري، ولكنهـم تجنـوا عـلى الرجـل

55 – مؤلفات في الميزان — أنور الجندي

حينـما أخـذوا عنـه قبـل أن يفهمـوا منهجـه في تأليـف كتابـه، أوأن ذلـك أعجبهـم فأخفـوا غايتـه لغـرض خبيـث في أنفسـهم.. لقـد قـدم الرجـل كثـيرًا مـن الروايـات التـي وردت في كل حادثـة سـواء صحيحـة أم كاذبـة، (كان يجمـع كل مـا قيـل مـن وجهـات النظـر المتعـددة، ولم يكـن كتابـه متحيـزًا للصحيـح وحـده، كـما كان محايـدًا لا يحقـق ولا يدلـل عـلى صحـة شيء، وكانـت فـترة الفتنـة مـن أكـثر الفـترات حساسـية في تاريـخ الإسـلام، وهـي التـي كـثرت فيهـا روايـات أملتهـا عاطفـة الـرواة مـن أصحـاب الاتجاهـات السياسـية والمتغايريـن في الفهـم والتقييـم فلـم يكـن يتقيـد بقيـود أهـل الحديـث في عدالـة الـرواة، فأدخـل في الكتـاب روايـات الكذابـين والوضاعـين الذيـن تـروى أحاديثهـم ولا يحتـج بهـا، وهوالمنهـج المرسـوم عنـد علـماء الجـرح والتعديـل، وكل هـذا المنهـج نـوه بـه الرجـل في بدايـة تاريخـه وأشـار إليه..فهـل بعـد ذلـك نعتمـد عليـه ونقتبـس مـن رواياتـه ونقدمهـا لجمهـور القـراء عـلى أنهـا الصحيـح والأكيـد، فنـسيء للرجـل ونـسيء لرموزنـا والرجـل لم يذكرهـا عـلى أنهـا هـي الصحيحـة أويؤكـد عـلى سـلامتها وإنمـا كان لـه منهجـه الـذي شرحـه ونوهنـا بـه وغفـل عنـه الناقلـون)٥٦

خلاصـة الأمـر وكـما بـين العلامـة (محـب الديـن الخطيـب): أن الإمـام الطـبري في إيـراد الأقـوال الضعيفـة في تاريخـه مثلـه كمثـل رجـال القضـاء إذا أرادوا البحـث في قضيـة مـن القضايـا، فإنهـم يجمعـون كل مـا تصـل أيديهـم إليـه مـن الأدلـة والشـواهد المتصلـة بهـا مـع علمهـم بتفاهـة

56- من مقال د.محمد محزون - منهج الإمام الطبري في تاريخه - بتصرف

بعضها أوضعفه اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره.. (لقد أخذ المعاصرون من هذه الكتب غثها وثمينها، واحتجوا بها لأن مصدرهم الواقي والطبري وابن الأثير، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوا كيف كتب التاريخ الإسلامي في تلك العصور.. أما تاريخ الطبري فالذي دفعه إلى التقاط هذه المرويات هوحب الاستقصاء والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ولومن بعض النواحي..وغفر الله للطبري فإن تساهله شوه فجر الإسلام، وأساء إلى حملة رسالة الأولين، وفتح باب الاعتذار نفسه لمن بعده، فالجميع يعول عليه)٥٧

ولعلنا هنا ندرك أن القراءة الواعية الناقدة هي التي تحفظ لنا تاريخنا وتراثنا من التشويه والإفساد، هذه القراءة التي تتطلب منا ثقافة وخبرة ومعرفة ودربة حتى نستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، ونسير في درب القراءة على نور دون أن يخدعنا خادع أويفسد معارفنا فاسد.!

وهذا النوع من التغفل يقع فيه بعض الأفراد وخصوصًا من لا ثقافة لهم والمستجدون في عالم القراءة.. لكنني أتعجب حين تقع فيه أمة أومجتمع كبير مثقف ومتقدم وللقراءة فيه شأن عظيم.! لقد كانت حادثة غريبة ألغى المجتمع الأمريكي فيها عقله وصار يقرأ ويقرأ.. إلى أن كانت الصدمة التي أفاقته..!

57- ثقافة الداعية- د. يوسف القرضاوي

فقد نشرت صحيفة مكة في عددها ٦٨١ أن (كيفن مالاركي) وابنه أليكس الذي يبلغ من العمر ست سنوات تعرضا لحادث سيارة مروع عام ٢٠٠٤م تسبب في شلل أليكس، ومن الناحية الطبية كان احتمال بقائه على قيد الحياة شبه معدوم، وبعد شهرين استفاق من الغيبوبة ليروي قصة عجيبة لا تصدق، تضمنت أحداثًا جرت في مكان الحادث، والمستشفى أثناء فقدانه للوعي، فتحدث عن ملائكة أخذوه ودخلوا به أبواب السماء، وألف عن هذه الأحداث كتابه (الفتى الذي عاد من السماء) حكى فيه هذه التجربة.

واستطاع هذا الكتاب أن يحقق مبيعات ضخمة، وكان في أعلى قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا وبريطانيا وأماكن أخرى في ٢٠١٠م

وبعد خمس سنوات تقريبًا من نشر الكتاب، ظهر أليكس مرة أخرى ليتراجع عن إفادته التي سبق وأدلى بها في الكتاب، والمتعلقة برحلته إلى العالم الآخر..ووجه في رسالة مفتوحة إلى الدار، ونشرها على موقع **pulpit and pen** الالكتروني، كتب فيها:أنا لم أمت، لم أذهب إلى السماء، مشيرًا إلى إصابته التي لا يزال يعاني من آثارها، ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه بسببها، لقد قلت:إنني ذهبت إلى السماء لأنني أرغب في تسلط الأضواء عليّ، ولكني حققت أرباحًا بالكذب، مشيرًا إلى صغر سنه حينها، مما جعله يستسهل الكذب في الأمر.

بعد نشر الرسالة بعدة أيام اتصل مدير العلاقات العامة في الدار

تـود سـتارويتز، بصحيفـة واشـنطن بوسـت وأبلغهـا أن الـدار قـررت أن تتوقـف عـن طباعـة الكتـاب والمنتجـات الملحقـة بـه، وفي اليـوم التـالي، أصـدرت بيانـا كتبـت فيـه: (يؤسـفنا أن نعلـن أن (أليكـس مـالاركي)، الكاتـب المشـارك في (الفتـى الـذي عـاد مـن السـماء)، يقـول الآن: إنـه اختلـق قصـة المـوت والذهـاب إلى السـماء، ولذلـك قررنـا سـحب الكتـاب مـن النـشر)، وكان هـذا في ينايـر عـام ٢٠١٥م

وصرحـت المسـؤولة عـن قسـم الإعـلان (ماجـي روي) بعـد اعـتراف أليكـس: أنهـم كانـوا عـلى علـم منـذ سـنوات أن والـدة أليكـس (بيـث مـارلاركي)، ليسـت راضيـة عـن الكتـاب لاحتوائـه عـلى معلومـات غـير صحيحـة، وأضافـت: (طلبنـا أكـثر مـن مـرة الاجتـماع مـع أليكـس ووالديه، ووكيـل أعمالهـم لمناقشـة وتصحيـح المعلومـات الخاطئـة، لكـن بيـث لم تكـن توافـق عـلى مثـل هـذا الاجتـماع).

وفي أبريـل، ٤١٠٢، نـشرت بيـث تصريحًـا عـلى مدوِّنتهـا اعترضـت فيـه عـلى المذكـرات وقالت:مـن المـؤلم رؤيـة كتـاب (الفتـى الـذي عـاد مـن السـماء) لا يسـتمر فقـط في تحقيـق المبيعـات، ولكنـه أيضًـا لا يواجـه أي تشـكيك، فابنـي لم يحصـل عـلى أي مبالـغ ماليـة مـن الكتـاب، ومعظـم احتياجاتـه لم يتـم تمويلهـا مـن ريـع الكتـاب، وذلـك بسـبب توقيـع الـدار العقـد مـع والـده كيفـن.

وتؤكـد في نهايـة التدوينـة التـي كتبتهـا: أن اسـم ابنهـا وهويتـه يتـم اسـتخدامها ضـد رغبتـه، وتسـاءلت: كيـف اسـتمر الوضـع لهـذا الحـد؟!

القراءة والتفكير

القـراءة لا تقـوم عـلى حشـوالدماغ تمامًـا كـما يحشوالإنسـان معدتـه، ولكـن المهـم فيهـا هوعمليـة التأمـل والتفكـير فيـما تقـرأ، عليـك أن تطـوي الكتـاب جانبًـا وتتأمـل فيـما قـرأت مـاذا تسـتفيد، ومـاذا يهديـك عقلـك فيـما عرفـت، ومـا الفكـرة الجديـدة التـي تولـدت لديـك مـن قراءتـك ؟

القـراءة المتعجلـة لا يمكـن أبـدًا أن تمنـح صاحبهـا بصـيرة نافـذة يـدرك بهـا حقائـق الأمـور وماهيـة الأشـياء، لا بـد أن تدخـل المعـاني إلى قلبـك وحسـك وتتربـع في وجدانـك حتـى تتكـون هـذه البصـيرة التـي تتكشـف بهـا كثـيرًا مـما خفـي عليـك وتتوصـل بهـا إلى العديـد مـما كان بعيـدًا عـن إدراكك.. وكـما قيـل: إن حرفًـا في قلبـك خـير مـن ألـف حـرف في كتابـك.. وهوالمعنـى الـذي نؤكـد عليـه هنـا، حيـث نريـد أن يلتحـم الكتـاب بـك وتلتحـم أنـت بحروفـه وكلماتـه وأفـكاره، فيحـدث نوعًـا مـن الاندمـاج والتأثـير تتشـكل بـه نفسـك التـي تتحـول إلى آلـة منتجـة للجديـد مـن الأفـكار والآراء والإبداع..وهونفـس التفكـير والتأمـل الـذي وجـده المأمـون يومًـا في ولـده حينـما سـأله مـاذا تقـرأ ؟ فقـال: أقـرأ مـا يشـحذ الفطنـة ويؤنـس الوحشـة..!

فقـال المأمـون: الحمـد للـه الـذي جعـل في بنـي مـن يـري بعـين بصيرتـه أكـثر مـما يـرى بعينـي رأسـه.. !

وكان أفلاطـون ينتقـي النابهـين مـن تلاميـذه ويعطيهـم دروسًـا خاصـة، وكان ينطـق في أول الـدرس بكلمـة ثـم يسـكت مثـل كلمـة الزهـد أوكلمـة العفـة أوكلمـة الشـجاعة، ثـم يسـكت، ويكـون الـدرس سـطرًا واحـدًا لا أكـثر مـن ذلـك.. كان يسـكت ليـدرب التلاميـذ عـلى التفكـير المسـتقل المجـرد عـن الأسـتاذ..!

وقـد يتحـول غيـاب التفكـير إلى مأسـاة وكارثـة نجدهـا أكـثر مـا نجدهـا في أولائـك الحرفيـين أوالنصوصيـين الذيـن امتـلأت بهـم سـاحة الدعـوة الإسـلامية، يقتبسـون نصـوص الديـن دون فهـم لـروح الإسـلام ومقاصـد الشريعـة فيضلـون أكـثر مـما يهـدون، إنهـم يحفظـون المتـون ويتقنـون الحـواشي ولا يوجـد في أعماقهـم ذلـك التلاحـم والوعـي الـذي يدركـون بـه حكمـة الديـن في أوامـره ونواهيـه وأحكامـه وتعاليمـه .

هـم تمامًـا كذلـك الـذي يـؤدي صلاتـه بقيامهـا وقعودهـا وحركاتهـا.. بينـما الخشـوع والتفكـر غائـب منعـدم في أعماقـه، لتكـون صـلاة بـلا روح تجهـد الجسـد ولا تصقـل النفـس أوتصهـر الوجـدان..!

وقديمًـا رأى حكيـم غلامًـا حسـن الوجـه، فلـما اسـتنطقه، لم يجـد عنـده علـمًا، فقـال نعـم البيـت لـوكان فيـه سـاكن!

وكان هنـاك راهبـان يسـيران في يـوم مطـير ورأيـا في الطريـق فتـاة حسـناء تحـاول عبـور الشـارع، فـلا تسـتطيع مـن كـثرة الوحـل وشـدة المطـر، فحملهـا الراهـب الشـيخ وأنزلهـا عـلى الجانـب الآخـر..

وبعد وصول الراهبين إلى مقصدهما قال الراهب الفتى للراهب الشيخ:كيف تحملها، ولمس المرأة حرام ؟

فقال الراهب الشيخ: أنا حملتها من جانب ثم انتهيت منها بوضعها في الجانب الآخر، وأنت مازلت تحملها حتى الآن؟!

وهولا شك جواب يحمل سخرية من الذي يقف عند النصوص ولا يقيم وزنا للمأساة التي يمكن أن تواجهها فتاة تقف وحيدة في هذا الجوالمزعج.

إن فعلًا وإن كان محرمًا في نظر الراهب الصغير، إلا أنه توافق مع مقصد الدين من حفظ العرض لفتاة تعثرت في طريقها الذي أوشك أن يكون خطرًا عليها وإيذاءً لمصيرها لواستغل عجزها مريض هنا أوهناك.!

يقولون: إن الفيلسوف اليوناني (يمقرطس) خلع عينيه لئلا يشغله النظر عن التفكير والقراءة عن التأمل..!

وكان (فيثاغورث) أقل منه فظاعة حيث كان يقضي ليله في التفكير العميق في أحداث يومه.. وإذا كنا اليوم نطالب بالقراءة الواعية فإننا لا نريد للقاريء أن يكون كهذا أوذاك، وإنما نطالب بتفكير يعادل القراءة وتأملٍ يوازن النظر!

ومـن لطائـف المعـاني التـي قيلـت في القـراءة: القـراءة دمـع أزهـار والتفكـير: تأليـف طاقـة.

القراءة جمع خرزات والتفكير نظمها في عقد..

القراءة: جمع أزهار وحشائش، وضم حجر كريم إلى حجر كريم..

بينـما التفكـير: اختيـار الصالـح واختيـار المناسـب واسـتبعاد الفاسـد واسـتبعاد غـير المناسـب

القـراءة: ضـم عقيـم إلى عقيـم والتفكـير قـدرة عـلى الاسـتيلاء.. حتـى مـن العقيم..

القـراءة كتـاب وحفظـه: زيـادة نسـخة مطبوعـة منـه والتفكـير: نفـخ الحيـاة في الصـورة، ورد الحيـاة للميـت

كـثرة القارئـين في الأمـة، زيـادة مكتبـة جامعـة فيهـا.. وعقـل مفكـر واحـد: باعـث الـروح، ونـور الظـلام، وحافـزٌ للهمـم، وهـاديٌ للطريـق .

إذن فالقراءة المأمور بها: فهم عميق مستوعب..)

القراءة بلا تأمل كالأكل بغير هضم.

ربمـا تعجـز عـن التفكـير مـرة ومرتـين.. لكـن حـاول أن تجهـد نفسـك في اسـتحضار بصيرتـك مـع بـصرك، وربمـا تعجـز عـن الفهـم مـرة أومرتـين لكـن حـاول أن لا تقـرأ شـيئًا دون فهـم، ويـروى عـن بعـض حكـماء المسـلمين أنـه قـرأ كتابًـا أكـثر مـن ثـلاث مـرات فلـم يفهمـه، فيئـس

منـه وتركـه، فـرأى خنفسـة تتسـلق جـدارًا وتقـع، فعـد عليهـا الوقـوع فـزاد عـلى ثلاثـين مـرة ولم تيـأس، حتـى تمكنـت بعـد ذلـك مـن تسـلقه، والانتهـاء إلى حيـث أرادت فقـال: لـن أرضى أن تكـون هـذه الخنفسـة أثبـت منـى وأقـوى عزيمـة، فرجـع إلى الكتـاب فقـرأه حتـى فهمـه!.

وإذا كان (ماركـوس سـيزيرو) يقول:(بيـت بلاكتـب كجسـد بـلا روح) فأنـا أقـول قـراءة بـلا تفكير..هـي جسـد بـلا روح..

قـال السـباعي رحمـه اللـه: (لا ينموالعقـل إلا بثـلاث: إدامـة التفكـير، ومطالعـة كتـب المفكريـن، واليقظـة لتجـارب الحيـاة)

وتـأتي أروع ميـزات وخصائـص التفكـير أنـه ينقـل الفـرد مـن التبعيـة والتقليـد إلى الاسـتقلالية في التفكـير، وقـد قيـل: (أنـا أفكـر، إذن أنـا موجـود) التفكـير ملكـة يجـب العنايـة بهـا وتنميتهـا في عقـل الإنسـان لأنهـا الميـزة التـي ميـزه اللـه بهـا عـلى سـائر الكائنـات والمخلوقـات.. فهونعمـة عظيمـة، إن مارسـها الفـرد واهتـم بهـا وأعطاهـا حقهـا عـاش سـعيدًا وقـد ألـف العقـاد رحمـه اللـه كتابـه الشـهير(التفكير فريضـة إسـلامية) واللـه تعـالى أعطـى التفكـير حظًـا عظيـمًا في القـرآن الكريـم فقـال تعـالى: (وَمَـا يَذَّكَّـرُ إِلاَّ أُوْلُـواْ الأَلْبَـابِ) وهـم أصحـاب العقـول النـيرة المفكـرة، بـل أمـر اللـه عـز وجـل بـضرورة الاهتـمام بالتفكـير بقولـه تعـالى في أكـثر مـن آيـة: (لَعَلَّـكُـمْ تَتَفَكَّـرُونَ).

بـل جعـل منـه عبـادة يسـتطيع المؤمـن بهـا أن يكـون قريبًـا مـن خالقـه سـبحانه فهوعبـادة مـن العبـادات التـي يتقـرب بهـا العبـد إلى ربـه قـال

تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(وبعضهم طالب حديثًا بتدريس مادة التفكير في المدارس والجامعات وتحصيل كل ما يعين على تنميتها وهوما أدرك الغرب قيمته فبذلوا فيه جهدهم، حيث نجد بلدًا مثل فنزويلا تفرض حكومتها ساعتين على الطلاب في مادة أطلقوا عليها مهارات التفكير ودربوا على تدريسها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ معلم، ووضعوا لها مقرر وصاغه أحد أكبر وأشهر المتخصصين في هذا الميدان، وهونفس المقرر الذي استعانت به كل من بريطانيا وأستراليا وكندا وأيرلندا ونيوزلاندا..

(ونجد بعض المفكرين من كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة على التفكير، ومن المتفق عليه أنه لابد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير.. .ويمكن أن تغلب القراءة في البداية حتى نهيء لعقولنا مادة التفكير، فالطاحون لا تصنع شيئًا دون وجود شيء تطحنه)

ومما ينسب لعلي عزت بيجوفيتش رحمه الله قوله:(القراءة المبالغ فيها لا تجعلنا أذكياء، بعض الناس يبتلعون الكتب وهم يفعلون ذلك بدون فاصل للتفكير، وهوضروري لكي يُهضم المقروء ويُبني ويُتبني ويُفهم، عندما يتحدث إليك الناس يخرجون من أفواههم قطعًا من هيجل وهايديجر أوماركس في حالة أوليه غير مصاغة

جيدًا عند القراءة فإن المساهمة الشخصية ضرورية مثلما هوضروري للنحلة العمل الداخلي والزمن، لكي تحول رحيق الأزهار المتجمعة إلى عسل)

يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك: (إن القراءة لا تمد العقل إلا بمواد المعرفة البحتة لكن التفكير هوالذي يجعل ما نقرأه ملكًا لنا)

ومما قاله خالد رحمه الله في وصاياه العشر (اقرأ في غير خضوع! إن للكلمة المطبوعة سلطانا عظيما، ومالم تحتفظ بثبات رشدك؛ واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات الآسرة، وتلقى بك إلى متاهات، يصعب العثور عليك فيها.. !

فاقرأ قراءة الأحرار، لا قراءة العبيد..

اقرأ؛ لتكتشف نفسك لا لتفتقد نفسك..

اقرأ لتتبين الطريق، لا لتصير ذرة تائهة فوق الطريق

اقرأ وناقش ما تقرأ، واحفظ باستقلالك الفكري، ولا تجعل إعجابك بالكاتب بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله، وأن من الممكن أن يكون تحت سطح دماغك كنوز تفوق كنوزه..

لا تستسلم لكل ما تقرأ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة فثمت كلمات تقرر من غير أن تدري مصيرك كله، فإذا كانت من الكلمات الجامحة، أصابك منها ضر كثير.. والكتاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساخر آسر، سر معهم في أناة..

فنحـن لا نقـرأ لنزيـد معلوماتنـا، وننمـي معارفنـا فحسـب، بـل نقـرأ لأن القـراءة تلهمنـا وتطـل بنـا عـلى أفـكار عـذراء تنتظرنـا لنكشـفها ونضيفهـا إلى تـراث الفكـر الانسـاني..

وكأي مـن مخـترع أوحـى بـه لمخترعـه، مثـل هـذه العبـارات النابضة..وكـم مـن روائـع فكريـة ألهمهـا كاتبوهـا، حـين استجاشـت حماسـتهم العقليـة عبـارة مضيئـة قرؤوهـا أوحركـت رصيدهـم الفنـي، لفتـة مـن لفتـات الفكـر الخـلاق..!

كأن هـذه العبـارة أوهـذه اللفتـة عصـا المايسـترولا تـكاد تتحـرك، حتـى ينطلـق العازفـون في عـزف لحنهـم المحفـوظ.!!

إن في عقلـك الباطـن، كثـيرًا مـن الـرؤى والتجـارب، تنتظـر عارضًـا يسـيرًايدفع بهـا إلى وعيـك.. قـد يكـون هـذا العـارض كلمـة تسـمعها أومشـهدًا تـراه، أوعبـارة تسـتوقفك في كتـاب.. فـلا تقـرأ وأنـت غافـل سـاه.. بـل طالـع في يقظـة، وتفتـح ومتابعة.وهـيء بصيرتـك لتتلقـى مـا تفيئـه الكلمـة المسـطورة مـن حكمـة وإلهـام..

وإذا قـرأت، ففكـر.. لقـد ضرب اللـه للحقيقـة مثـلًا – أولئـك الذيـن حرموا نعمـة الفقـه والتفكـير فقـال تعالى:(جَعَلْنَـا لَهُـمْ سَـمْعًا وَأَبْصَـارًا وَأَفْئِـدَةً فَـمَا أَغْنَـىٰ عَنْهُـمْ سَـمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُـمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُـم مِّـن شَيْءٍ)

فعـش مفكـرًا، فكـر إذن، وفكـر دائمـا وحـول عقلـك في كل اتجـاه؛ فإنـك لا تـدري أي عمـلاق رابـض تحـت ضلوعـك.. فكـر لا لتكـون سـقراطا أوتـوم

بين أوالافغاني وإن كان من الممكن أن تكونه!

فكر لأنك إنسان ومن ضرورات انسانيتك، أن تكون مفكرًا، وأن تكون لك وجهة نظرك، تجاه عالمك، وتجاه كل قضايا الحياة..)٥٨ ولكي نسهل عملية التفكير ونحاول من خلاله إيجاد طريقة للقراءة الحقيقية، فإننا لا نلقي باللوم على القاريء وحده، وإنما يشاركه الكاتب والمؤلف في بعض هذا حينما يُعقِّد السهل ويُصعب اليسير فيحتاج العقل هنا إلى عملية إجهاد تنفره لا من التفكير وحده، وإنما من القراءة كلها...وهوالذي حرصت عليه إحدى القارئات حفاظًا منها على ملكة التفكير والتفاعل فتقول:

(إنني أبحث في الكتاب عن لغة سلسة ناعمة بإمكانها أن تتسلل إلى وجداني وعقلي وتفكيري فتجبرني على التفاعل معها، تلك اللغة التي تولد الشغف لإتمام القراءة، فأنا ضد إبراز العضلات اللغوية التي يتبعها بعض الكتاب في استخدام المصطلحات المعقدة)

وهي صائبة في اختيارها لأنها تريد أن تفهم وتفكر وتتأمل، ولا تريد لأي كتاب أوكلمة أوقلم أن يصرفها عن هذه الغاية المنشودة التي تقودها للتفكير والاستفادة والمتعة الحقيقية.

ولعل الروائي الأمريكي (ويليام ستايرون) قد عبر عن ذلك حينما قال: (إن الكتاب الجيد هوذاك الذي يعطيك العديد من التجارب،

---

58 – الوصايا العشر – خالد محمد خالد

ولا يجهـدك كثـيرًا في اسـتيعابه.. إنـه الكتـاب الـذي يجعلـك تعيـش أكـثر مـن حيـاة وأنـت تقـرأه)

الرقابة الحكيمة

عايش الأديب الكبير (توفيق الحكيم) مع والده محنة الرقابة التي لم يكن والد الحكيم فيها حكيمًا..! فقد كان يمنعه من قراءة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها، ولا يقبل منه مناقشة في فائدة الاطلاع والقراءة على هذه النوعية من القراءة، ورغم أن الحكيم لم يكن يقرأ شيئًا منحرفًا أومفسدًا للأخلاق والأفكار، إلا أن عقلية الوالد كانت تعد أي قراءة غير التي يراها ويألفها..خارجة وتافهة، وكان كلما أبصر في يده مجلة يمزقها، وكان الحكيم يتحير من ذلك، فهومشغوف بالقراءة فماذا يصنع ليُرضي هوايته ويرضي والده في وقت واحد؟!

كان الحكيم وهوصغير يرهب كل أيام الجمع، لأنها الأيام التي يفرغ منها والده له ليناقشه فيما يقرأ مما يفرضه عليه ويتخيره له من أنواع الكتب التي يجب في عرفه أن يقرأها ولده، وكان أخفها على الحكيم في هذا السن كتابًا يحوي المعلقات السبع وشرحها، وقد ضُرب بسببه أوجع الضرب لأن والده لا يكتفي منه بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد منه أن يشرح له أبيات هذا الشعر الجاهلي في تلك السن الصغيرة، وإذا عجز عن ذلك وهوأمر طبيعي، غضب عليه أبوه وصفعه على وجهه فلا يتركه حتى يسيل الدم من أنفه، وهويصيح به: يا جاهل! يا غبي!

ثـم يخاطـب الحكيـم هـؤلاء الآبـاء المتسـلطين بهـذه الرقابـة القاسـية فيقـول لأحدهـم: (دع ولـدك يقـرأ، ودعـه يصـادق، ودعـه يعـش ربيعه!..

لا تخـش لـون القـراءة التـي شُـغف بهـا ابنـك في هـذه السـن المبكـرة.. إن الطبيعـة أعقـل منـك أيهـا الوالـد، إنها هـي التي تغـرس الميـول في النفوس، وتلونهـا عـلى حسـب الأعـمال والأعـمار كـما تلـون أوراق الأشـجار!.

يحسـن بالوالـد وبالمدرسـة تمكـين الصبـي أوالشـاب مـن قـراءة مـا يناسـب سـنه مـن ألـوان القـراءات!

لا تقلـق أيهـا الوالـد، ولا تظـن ابنـك وهواليـوم غـارق في هـذه المطالعـات التافهـة اليسـيرة – سـيظل سـائرًا منسـاقًا في تيارهـا إلى آخـر العمـر!

إن تيـار الحيـاة هوالـذي يُغـير لـون المطالعـات، وأنـت نفسـك أيهـا الوالـد الـذي تقـرأ اليـوم كتـب الفلسـفة أومقـالات السياسـة والاقتصـاد، أوتتغنى بالتاريـخ أوبـالأدب الرفيـع أوبعلـم النفـس أوبعلـم الرياضـة – كنـت في صبـاك مشـغوفًا بقصـص (روكامبـول) أو(أبي زيـد الهـلالي)! ولكنـك لا تذكـر ذلـك العهـد؛ كأغلـب الآبـاء !..ويخيـل إليـك أنـك لم تقـرأ قصـة قـط، لأن حياتـك اليـوم تدفعـك في مجـرى بعيـد عـن حيـاة الخيـال، وبـدا لـك عقلـك، وكأنـه لم يعـد يطيـق هضـم القصـص!

أيها الوالد.. اترك ولدك لسِنِهِ! وافهم طبيعة جيله!

ولعل هذا الألم الذي ذاقه الحكيم في صباه، وتلك الدماء التي كانت تسيل منه بغضب والده وضربه إياه، قد أنسته جانبا مهما من ضرورة الرقابة على الإنسان في مراحله الأولى لأنه قد يفقد التمييز ويخطيء في الاختيار في كثير من الأشياء، وربما تقع يده على شيء غير مرغوب فيه فتكون له تبعاته.. ليقرأ الفتيان في عالمهم ما يشاؤون.. لكن لابد من المتابعة والترقب خاصة مع ما رزئنا به في عصر الانفتاح الفضائي والتكنولوجي الذي صار فيه كل شيء مباحًا وسهل الحصول والتملك والقراءة والمشاهدة، وهذه هي الرقابة الحكيمة القائمة على المناقشة الرزينة والإقناع الهادىء والحوار الأليف..حتى لا نكون كهذه الأم البلهاء التي فرحت لمجرد أن ابنتها تقرأ حتى كان ما كان مما أخبرتنا به هذه الحادثة..

فهذه طفلة صغيرة ربما كان لنا في أمرها درسٌ وعبرة، لقد أصابتني بالذهول والخوف، وأفزعتني من شيء ربما نتصور أنه إيجابي ومطلوب ومرغوب فيه، لكنه للأسف قد يكون طريقًا وأداة لهدم أبنائنا وأجيالنا، وتشويه عقولهم وأفكارهم.. لقد كانت هناك طفلة لم يتجاوز عمرها تسع سنوات تحب قراءة الكتب الأجنبية التي يكون موضوعها الروايات الخيالية والسحر والقوة الخارقة، وكانت أمها تفتخر بها في المجالس النسائية بأن ابنتها تحب القراءة، وفجأة بدأت الطفلة تتحدث مع أمها بأن هناك عدة خرافات يعتقدها الناس ومنها خرافة وجود الله، فأنكرت عليها أمها قولها، فردت عليها بأن الدين كذلك خرافة ويكفي الإنسان أن يعيش كما يريد

حتـى يكـون سـعيدًا، ولـوأراد الإنسـان شـيئًا فإنـه يسـتطيع أن يحقـق مـا يريـد مـن خـلال تواصلـه بالطاقـة الموجـودة بالكـون، أويسـتطيع بخيالـه أن يحـضر مـا يريـد)

إذا كانــت القــراءة تُنــير العقــول وتفســح مــدارك الإنســان وتزيــد إلى عالمـه عـوالم أخـرى وترتقـي بنفسـه وسـلوكه وأخلاقـه، فـإن هنـاك كتبًـا تهدمـه وتشـل حركتـه بعـد أن تفسـد عقلـه وتشـوش عـلى إدراكاتـه، إذ تجعـل مـن القـراءة فيهـا شـيئًا سـلبيًا يـضر بالقـاريء ويجرفـه للانحـراف والتطـرف أوالإلحـاد والضـلال، خاصـة إذا كان القـاريء لهـا قليـل الخـبرة ولا يملـك زادًا ثقافيًـا يدفـع بـه هـذه الأفـكار المنحرفـة، ومـن هنـا وجـب انتقـاء الكتـاب..!

قـال بعـض الكتـاب الغيوريـن عـلى الأمـة وشـبابها:(كما تنتخبـون الأصدقاء وتوالونهـم إذا رأيتـم فيهـم الفضـل وحسـن الأخـلاق، هكـذا اختـاروا الكتـب التـي تقرؤونهـا فهـي خـير الجلسـاء إذا كانـت مـما تتضمـن حكمة الأزمنـة السـالفة والحـاضرة، لأنهـا تزيدكـم علـمًا وتهديكـم صراط الحيـاة المسـتقيم، وتفعـل فيكـم فعـل قـدوة الصديـق إذا كان عاقـلًا كريمًـا.

وكـما تحـذرون جليـس السـوء ومعـاشرة اللئيـم ابتعـدوا عـن الكتـب التـي تفسـد النفـس، أوالتـي لا خـير في قراءتهـا، لمـا فيهـا مـن ركاكـة العبـارة والمعنـى.. وقـد كـثرت في هـذه الأيـام ترجمـة الروايـات وعمـد إليهـا الأحـداث الصغـار، فلابـد مـن التمييـز بينهـا واختبـار الأدب المفيـد منهـا ونبـذ مـا كان مـضرا بالأخـلاق، مـع العلـم بـأن أكثرهـا لا يسـتحق القـراءة،

وبعضها يجب له الطرد كما يطرد السفهاء في الحال إذا رأيناهم مع أبنائنا وبناتنا).. وأكثر من يقعون فريسة لهذه الكتب الضارة، هم الناشئة الذين يعفون على أي شيء كالذباب ولا يميزون الطيب من الخبيث، وبلا مرشد أوموجه أومتابع لعملية القراءة، ولأنهم وجدوا الحبل على الغارب وتركت لهم الحرية في إدارة حياتهم في عالم صارت الأفكار المنحرفة فيه تدب دبيب النمل تواجه الجميع ولا تفرق بين كبير وصغير!

لقد كان عمر رضي الله عنه يقرأ كتب الأعاجم فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وهذا لأنه لم يعرف دينه بعد ويخشى عليه التأثر بما في كتبهم بشيء ربما يفسد به عقيدته.. والذين يشجعون الناشئة على القراءة وكل من يريدون أن يدخلوا عالم القراءة، يقولون لهم دوما: اقرؤوا ما تحبون.. وذلك حتى يقيموا علاقة بينهم وبين الكتاب ثم بعد ذلك يتطور أمرهم فيقرؤون أشياء أخرى وفي مجالات لم يكونوا يتوقعون أنهم سيقرؤون فيها.. وإذا كان الجواب متاحًا ومباحًا وواسعًا فضفاضًا، فذلك في نطاق المعقول والمباح، أما المحظور فلابد من التحذير منه والتخويف من تبعاته، فلا نترك العنان لأبنائنا وشبابنا في مسألة اختيار الكتب، ورغم وجود الانترنت الذي يتخطى كل الحدود، فإن الإرشاد والمتابعة والتشجيع بدفعهم في اتجاهات أخرى قد تخفف من تعرضهم لأي ضرر من العينات المحظورة..كما تقوم الجهات الرقابية بدورها في حظر طباعة الكتب الضارة وترويجها..

والرقابة نوعان خارجية وداخلية.. فأما الخارجية، فتكون من البيت أوالأسرةأوالمجتمع أوالحكومة، وأما الداخلية فتكون من الشخص نفسه حينما يدرك بقناعة ذاتيه حجم الخطورة التي تحوم حوله وتتهدده إن هوأقدم على أفكار معينة، (وعليه فإن السلاح الأكثر فاعلية في التصدي لما يكتب وينشر مما قد يحوي أفكارا هدامة دينيا واجتماعيًا وسياسيًا لتقليل أخطارها على الناس والمجتمعات، هوتعزيز الرقابة الداخلية التي ستنبع من ذات الإنسان، وذلك من خلال تبيان الصواب من الخطأ وتوضيح السليم من السقيم والمفيد من الضار، ليصبح الفرد بعدها صغيرا كان أوكبيرا قادرا بنفسه على أن ينبذ السيء ويتجه للجيد.

وتتعزز الرقابة الداخلية من خلال تنمية القيم والأخلاق وروح احترام القانون واتباع المعايير الدينية ومراعاتها، وهذا الأمر وإن كان لا يتأتى بين يوم وليلة، لكنه حينما يأخذ مداه ويستكمل أركانه يصبح حتما قوي التأثير شديد الفاعلية)٥٩

59- القراءة الذكية – ساجد العبدلي

كنت لصًا..!

هـل تصدقنـي لوقلـت لـك: إننـي كنـت في يـوم مـن الأيـام لصًـا محترفًـا ؟ نعـم لقـد كنـت لصًـا أسـطوعلى مـا لـدى الغـير وأسـتحله لنفـسي دون أن يؤنبنـي ضمـيري أويحـز في نفـسي ألم الحـرام وإقدامـي عـلى هـذه الفعلـة المشينة..!

نعـم حـدث هـذا.. ولكـن دعنـي أشرح لـك الموضـوع قبـل أن توغـل في سـوء الظـن بي، ورغـم علمـي أن الخطـأ لديـك لا يتجـزأ، إلا أننـي طامـع أن أجـد لديـك إعـذارًا تتفهـم بـه علتـي، وإن لم تسـتطع أن تتفهـم فلعـل صـورتي المشـينة في عقلـك يخـف وقعهـا وتهـون حدتهـا شـيئًا مـا.

القصـة يـا عزيـز القـاريء هـي أننـي لسـت لصًـا عاديًـا كأولئـك اللصـوص الذيـن يسـطون عـلى ممتلـكات النـاس وأموالهـم، ولكنـي لـص مـن نـوع آخـر، فـإذا كان لـص المـال يسـيل لعابـه حينـما يبصره، فـإني أنـسى نفـسي وأفقـد وعيـي ويقـودني هـواي حينـما أبـصر الكتـب.. نعـم إنهـا الكتـب عشـقي الأول وغرامـي الفريـد، الـذي تطـور بي حتـى صـيرني لصًـا مـن اللصـوص، فـما أن أزور صديقًـا مـن أصدقـائي أوقريبًـا مـن أقربـائي وألمـح بطـرف عينـي كتابًـا في حوزتـه إلا وتفـور حماسـتي وتجمـح نفـسي وينفلـت شـعوري وأسـتدعي الشـيطان ليفكـر معـي في كيفيـة اقتنـاص هـذا الكتـاب، فـإن كان صاحبـه مـن الكرمـاء المحسـنين الـذي يمنحـون

ويعطون،فـكان بهـا ونعمـت وإن شـح وأعـرض فـلا طريـق معـه إلا أسـاليب اللصوصيـة التـي أتقنهـا وصرت فيهـا محترفًـا..إن نفـسي لا تسـتقر ولا يهـدأ لي بـال إلا حينـما أرى هـذا الكتـاب مسـتقرًا في مكتبتـي أوبـين يـدي، وأشـعر بارتيـاح كبـير، ويُهيـأ إلي أنـه جـاء إلى مكانـه الصحيـح وأنـه مـسرور لأنـه أصبـح بـين يـدي مـن يقـدر قيمتـه ويمنحـه قـدرًا كبـيرًا مـن الحـب والإعـزاز والإكـرام الـذي لم يكـن ينالـه فيـما سـبق..!

هـذه هـي المرحلـة التـي مارسـت فيهـا حرفـة اللصوصيـة.. وفي محاولـة منـي لتجميـل الموقـف والهـروب مـن الفعلـة المشـينة والسـطوالأثيم، كنـت أصـارح أصحـاب هـذه الكتـب بأننـي أخذتهـا منهـم بأسـلوب يميـل إلى التهريـج والمخادعـة، حتـى لا يؤخـذ الموقـف بشـكله الحقيقـي وصورتـه الواقعيـة، وحتـى أهـرب مـن الانضـواء تحـت كلمـة السرقـة، ومـن ثـم تبـدأ مرحلـة المماطـلات والحـوارات والأخـذ والـرد لاسـترداد الحـق المسـلوب والـذي لا أجـد مناصـا مـن رده وأنـا في غايـة الألم، لأننـي قـد تملكنـي شـعور بـأن هـذا الكتـاب صـار جـزءًا منـي وقرينًـا لروحـي، وكيـف تؤخـذ منـي روحـي ؟ ولكنـه الحـق الـذي لا كبـير فوقـه.

ومـع مـرور الأيـام اكتشـفت أن هـذه العلـة يُبتـلى بهـا الكثـيرون مـن عشـاق الكتـب الذيـن لوطُبـق عليهـم الـشرع لقطعـت أياديهـم لكـثرة مـا أخـذوا مـن هـذه الكتـب الحـرام.. ويالـه مـن لفـظ، ويالهـا مـن عبـارة.. الكتـب الحـرام..!

كثير من المفكرين والأدباء تعرضوا لهذا النوع من السطوواستطاع اللصوص أن يُفجعوهم في أثمن ما يملكون.. فبعض السراق يأخذون الكتب لمجرد الاقتناء فقط، أما أنا فكنت أسرقها للقراءة ولكن هل ترى ذلك يشفع لي؟! لا أعتقد فما بني على باطل فهوباطل.

كان الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) رحمه الله من أولئك الذي عانوا من لصوص الكتب، فقد كان ممن يكرهون التفريط في الكتاب حتى ولومن باب الاستعارة، ومن هنا كان أصدقاؤه لا يجدون إلا أن يلجأوا لسرقة كتبه ولا يعيدونها له أبدًا.. وقد كان له صديق يعمل مهندسًا في الصحراء.. يأتي لزيارته في القاهرة كل شهر فيبيت عنده إلى أن يأتي موعد رحيله فيغادر في الصباح الباكر، وهومازال مستغرقًا في المنام، وظل على هذا الحال أعوامًا كثيرة، لقد حاول أن يستعير منه بعض الكتب، ولكن الأستاذ عبد الوهاب رفض وتجادل معه صاحبه كثيراً إلى أن اقتنع برغبته، وكان الأستاذ يلحظ بأن كتبه تتناقص وتختفي بغير سبب واضح أوعلة مفهومة، واتجهت ظنونه إلى بعض من يزورونه من الأصدقاء والمعارف، وكان منهم صديق يدعي الاشتراكية جادله مرة في برجوازيته وإصراره على تمسكه بكتبه، وذكر له اسم أجنبي مزيف ينتهي بأوف وزعم أنه كاتب اشتراكي روسي كان بعد أن ينتهي من قراءة أي كتاب يركب سيارة الأتوبيس العامة ويتعمد أن يترك الكتاب وراءه في المقعد عند نزوله لكي يعثر عليه مواطن آخر ويقرأه ويتثقف لأن الثقافة للجميع وليست حكرًا على أحد!..

لم يقتنـع الأسـتاذ عبـد الوهـاب بهـذا الـكلام لأن حبـه للكتـب يفـوق كل الحدود،ولعـلي أؤيـد الأسـتاذ مطـاوع في رفضـه إعـارة كتبـه فـما الاسـتعارة إلا لـون مـن ألـوان السرقـة

وكانـت إعـارة الكتـب شـيئا ممقوتـا عنـد العـرب، وكان شـاعرهم يقـول في ذلـك:

ألا يـا معـير الكتـب دعنـي فـإنّ إعـارة الكتـب عـار

وكانـوا يقولـون إنّ الكتـاب الـذي يعـار لا يـردّ إلى صاحبـه، ويحـكى أن الكاتـب الفرنـسي، إميـل زولا زاره ذات مـرّة أحـد أصدقائـه في بيتـه، وعندمـا بـدأ الصديـق يطّلـع ويتفقّـد مكتبـة، زولا «الكبـيرة، فيأخـذ كتابـا يتمعّنـه ثـم يـردّه إلى مكانـه في رفـوف المكتبـة، وفجـأة وقـع نظـره عـلى كتـاب كان يبحـث عنـه منـذ مـدّة، فقـال لصديقـه: زولا: هـل لـك أن تعـيرني هـذا الكتـاب؟ فقـال زولا لـه عـلى الفـور: لا، لا أسـتطيع أن أعـيرك إيّـاه، فالكتـاب الـذي يعـار لا يـردّ إلى صاحبـه أبـدا، والدّليـل عـلى ذلـك أنّ معظـم الكتـب التـي تـرى في هـذه المكتبـة معـارة.

وقـال أحـد الكتّـاب الكولومبيـين:إنّ الـذي يُعـير كتابًـا إقطـع لـه يـدًا واحـدة، أمّـا الـذي يـردّه الى صاحبـه فاقطـع لـه الاثنتـين .وللـه در القائـل:

أيها السارق أسفاري بدعوى الاستعارة
أنت لص تحسن السلب بخبث ومهارة
وتــدعي العلم وللجهل في رأسك شارة
ربما أن كتابي حين لم تنفض غـــبارة

فوق رف حوله الآفات يرتعن جـــاره
شنت الأرضة فـيه غارة من بعـــد غارة

أمـا صديقـه المهنـدس فإنـه كلـما زاره طلـب منـه زيارتـه لمقـر عملـه في الصحـراء حيـث يعيـش في بيـت حكومـي واسـع ويقـوم عـلى خدمتـه بسـتاني وطبـاخ حكوميان،ويعـده بقضـاء أيـام جميلـة في هـدوء الصحـراء وشـاعريتها، وبالفعـل عـزم الأسـتاذ عـلى زيـارة صديقـه ومعـه صديـق آخر،واسـتقبلهم المهنـدس بمظاهـرة ترحيـب عـلى بـاب البيـت وقادهـم إلى مائـدة الغـداء الحافلـة ثـم انتقلـوا إلى غرفـة المعيشـة لـشرب القهـوة، فـما أن دخلهـا وتلفـت حولـه ليتأمـل مكتبتـه الصغـيرة المعلقـة عـلى الحائـط، فـإذا بـه يـصرخ فيـه قائـلا: كتبـي يـا حرامـي !

فقـد كان كل مـا في مكتبتـه مـن كتبـه الضائعـة والمختفيـة والمفقـودة منـه بطريقـة غامضـة طـوال ثـلاث سـنوات، ولم يكـن في مكتبتـه كتـاب واحـد مـن مقتنياتـه الخاصـة أومـن مشـترياته بحـر مالـه! أوشـك الأسـتاذ عـلى الانفعـال ولكنـه فوجـيء بالصديقـين ينفجـران مـن الضحـك والصخـب، والصديـق المذنـب يقـول لـه بـكل بسـاطة مـاذا أفعـل وأنـت لا تـرضى أن تعـيرني الكتـب وأنـا لم أتعـود شراءهـا؟!

ثـم شـفع لـه صديقـه الأخـر وطلـب منـه العفوبتقـادم الجريمـة وسـقوط العقوبـة، ولم يجـد مطـاوع مفـرًا مـن أن يشـاركهما السـخرية، وعنـد الرحيـل جمـع مـن كتبـه السـليبة مـا اتسـعت لـه حقيبتـه وتـرك لـه الباقـي وهويتوعـده أنـه سـينسى كل مـا قـرأه مـن هـذه الكتـب المسروقة

ولـن يسـتفيد منهـا بـشيء مـن الثقافـة الحقيقـة، لأنهـا ثقافـة مـن مصـدر حـرام، ثـم حـرص إذا زاره بعـد ذلـك أن لا يتركـه يغـادره في الصبـاح كـما كانـت عادتـه القديمـة وإنمـا لابـد أن يودعـه قبـل رحيلـه.

ولصوصيـة الكتـب قـد وقـع فيهـا بعـض الكبـار مـن الأدبـاء والمشـاهير وأبرزهـم الأديـب الفرنـسي (جـان جينيـه) والـذي سـجن أكـثر مـن مـرة بسـبب تكـرار سرقتـه للكتـب وغيرهـا، بـل إنـه يسـتعير النسـخ النـادرة مـن مكتبـات عامـة وبعـد أن يقرأهـا يعرضهـا للبيـع في شـوارع باريـس وتكـرر منـه هـذا السـلوك وتكـرر سـجنه بمـا مجموعـه سـبع سـنوات تقريبـا ولتكـرار سرقاتـه كاد أن يحكـم عليـه بالمؤبـد لـولا أن كوكتوشـهد لصالحـه في المحكمـة وقـال:(إن جينيـه أكـبر كتـاب المرحلـة المعـاصرة) ثـم رفـع سـارتر وكوكتوعريضـة ووقـع عليهـا مجموعـة مـن المثقفـين يطلبـون فيهـا العفوعـن جينيـه وإسـقاط الحكـم المحكـوم بـه ومدتـه عـشرة شـهور بسـبب جنـح قديمـة وفعـلًا تـم لهـم ذلـك وكتـب جينيـه بعـد ذلـك (يوميـات لـص) وهـي مترجمـة للعربيـة.

وقـد كان المسـتشرقون أبشـع الـسراق الذيـن عرفهـم التاريـخ، فهـم سراق حضـارة بأكملهـا، ولكنهـم رغـم هـذه السرقـات كانـوا أشـد حفـاوة بهـا مـن أهلهـا وعرفـوا كيـف يغتنمـوا مـا فيهـا لصالـح نهضتهم؟..ففـي القـرن الثامـن عـشر وهوالعـصر الـذي بـدأ فيـه الغـرب اسـتعمار العـالم الإسـلامي والاسـتيلاء عـلى ممتلكاتـه، فـإذا بعـدد مـن علـماء الغـرب ينبغـون في الاسـتشراق ويصـدرون لذلـك المجـلات في جميـع الممالـك الغربيـة

ويغـيرون عـلى المخطوطـات في البـلاد العربيـة والإسـلامية، فيشـترونها من أصحابهـا الجهلـة، أويسرقونهـا مـن المكتبـات العامـة التـي كانـت في نهايـة الفـوضى، وينقلونهـا إلى بلادهـم ومكتباتهـم، وإذا بأعـداد هائلـة مـن نـوادر المخطوطـات العربيـة تنتقـل إلى مكتبـات أوروبـا، وفي أوائـل القـرن التاسـع عـشر بلـغ عددهـا نحـو٢٥٠ ألـف مجلـد..

لصـوص الكتـب لا يقتـصرون فقـط عـلى هـذا النـوع المزعج مـن السرقات، فهنـاك نـوع آخـر أبشـع إيلامًـا للنفـس، ويماثـل تمامًـا لـدى صاحبـه كسرقة العـرض والـشرف، وأصحـاب النـوع الأول قـد يبتلـون بـه ويمارسـونه رغـم كونهـم شرفـاء ولديهـم أخـلاق وقيم..أمـا النـوع الثـاني فـلا يمارسـه إلا مـن انعدمـت فيـه المـروءة والديـن والخلـق والفضيلـة، لأن مـا يقـوم بـه هوأبشـع أنـواع السرقـة ولصوصهـا هـم أخـس أنـواع اللصـوص وأحقرهـم.. وقـد يمارسـها طـلاب علـم وأسـاتذة جامعـات وباحثـين وللأسـف علـماء ودعـاة وقـد سـمعنا مؤخـرا عـن دعـوى قضائيـة أقامتهـا باحثـة مغمـورة ضـد أحـد الدعـاة الكبـار بأنـه سرق بحثهـا وطبعـه في كتـاب وضـع عليـه اسـمه.. ولعلـك الآن أدركـت هـذا النـوع الموحـش مـن السرقـات.. إنهـا السرقـة الفكريـة والعقليـة .

ما أقذر هذه الفعلة وما أقذر فاعلها؟!

وأنـا عـن نفـسي لا أعـرف كيـف لهـذا الأفـاك أن ينـام مطمئنًـا هانئًـا مرتـاح البـال وقـد سرق إبـداع غـيره وجهـد مـن حولـه وهكـذا الإنسـان دومًـا حينـما يتجـرد مـن الديـن والخلـق، فإنـه يفعـل أشـياء تـئن لهـا

الحيـاة والأحياء..وأحـكي لـك الآن صـورة أوحادثـة مؤلمـة مـن هـذه السرقـات، قصهـا عـلي أحـد أصدقـائي الـذي انتسـب لكليـة الآداب قسـم اللغـة العربيـة فيقـول: كان مـن جـيراني معلـم أزهـري مـن عباقـرة اللغـة العربيـة، كان شـغوفًا بالعلـم عاشـقًا للغـة ونوادرهـا، وكنـت أذهـب إليـه كل يـوم لـكي يـشرح لي بعـض المسـائل الصعبـة، كانـت حجرتـه متخمـة بالكتـب، وكنـت أجـد في نفـسي سـعادة كبـيرة بالجلـوس معـه والاسـتفادة مـن علمـه، ولازلـت أجـد رائحـة كتبـه القديمـة في أنفـي كلـما تذكرتـه، كان أسـلوبه مميـزًا في عـرض النحوومسـائله، فقـد حببنـي فيـه وسـهل عـلي مداخلـه، وكـم كان كئيبًـا حينـما تنـادي عليـه زوجتـه لأي طلـب مـن طلبـات البيـت لتحرمنـا مـن هـذه اللحظـات الممتعـة، وفي يـوم مـن الأيـام أعلمنـي أنـه انتهـى مـن كتـاب في النحـوشرع يؤلفـه منـذ سـنوات ويحلـم بنـشره وطباعتـه لأنـه يحمـل رسـالة وهـي تسـهيل النحوعـلى طالبيـه، ثـم حدثنـي أنـه أعطـاه لصديـق مـن أسـاتذة الجامعـة الأكاديميـين ليقـول رأيـه فيـه، وكان هـذا الأسـتاذ الجامعـي كثـيرًا مـا يذهـب لزيـارة الأسـتاذ ويتجـاذب معـه أطـراف الحديـث في أمـور لغويـة، ومـرت الأيـام تلوالأيـام دون أن يـأتي منـه أي رد في شـأن الكتـاب، ثـم بعـد إلحـاح الأسـتاذ كان رده عليـه: أنـه ضـاع منـه وسـط ركام مـن كتبـه وأبحاثـه، فحـزن الأسـتاذ كثـيرًا لأنهـا النسـخة الوحيـدة التـي كان يمتلكهـا، ولكنـه عـزم عـلى كتابتـه مـرة أخـرى، واسـتعد لذلـك.

والحـق أننـي لم أسـترح يومًـا لهـذا الجامعـي منـذ أن رأيتـه، وكنت أشـعرأن في نفسـه شـيئا غـير سـوي وألمـح في نظـرات عينيـه حقـدًا عـلى هـذا

الأستاذ الطيب، ولم يكن بمقدوري أن أفصح عما أجده داخلي، فلعلها خيالات نفس أومجرد عدم راحة نفسية، فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف..ولم تلبث الأيام إلا أن صدقت ظنوني في الرجل، وانطباعي عنه، فقد كانت هناك طالبة جامعية من جيران أستاذي قد التحقت بكلية اللغة العربية وجاءته لتشرح له ما غمض عليها في كتاب النحوالذي يدرس لها في الجامعة، فتناول منها الكتاب ليشرح لها ما غمض عليها، وأخذ يتصفح وكانت المفاجأة المفجعة.. إنه كتابه الذي ضاع منه، لقد سرقه صديقه الجامعي ووضع عليه اسمه وقرره على الطلاب.. لقد سرق جهده وفكره، وأخرجه للنور ونسبه لنفسه زورًا وبهتانًا..كان الرجل يحكي لي الحادثة وهوحزين منهار يكاد الهم يمزق صدره من شدته، كان يقول لي: لوأنني فقدت عضوًا من أعضاء جسدي لكان أهون علي من فقد كتابي العزيز، الذي وضعت فيه خلاصة علمي وتجربتي ومعرفتي.. حتى يسرقه هذا الغادر الخسيس وينسبه لنفسه.!

وضاع جهد هذا الأزهري الطيب الذي لم يتخيل يومًا أن يكون هناك حقراء إلى هذا الحد..

وهناك نوع آخر من السرقة وهوسرقة الأفكار وصياغتها بلغة مختلفة، وقد مارسه كبار الأدباء والمفكرين يقول الدكتور السباعي: (الدكتور طه حسين في كتاب الأدب الجاهلي ما كان إلا ترديدًا مخلصًا لآراء غلاة المستشرقين المتعصبين ضد العرب والإسلام أمثال

(مرجليوث) الذي نقل آراءه كلها في كتابه (الأدب الجاهلي) ونسبها لنفسه وليس له في الكتاب رأي جديد نتيجة بحث علمي قام به أوتعب في سبيله..!ويمثل هؤلاء أيضًا الأستاذ أحمد أمين في كتابيه فجر الاسلام وضحى الإسلام من سرقة لآراء المستشرقين دون أن ينسبها إليهم)٦٠

وهونفس ما أكده أبي فهر (محمود شاكر) رحمه الله في المعركة التي دارت بينه وبين طه حسين حول كتاب الأخير عن المتنبي،حيث أوضح شاكر (أن خصومته الحقيقية ليست مع طه حسين وإنما مع مرجليوث، لأنه صاحب المسألة والدكتور طه مجرد ناقل لا أكثر ولا أقل، وأن المشكلة لديه في السطوعلى أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس، وأبشع منه أن ينكشف أمر الغصب والسطوويتسامع به الناس ويدل العلماء على الأصل المغصوب كتابة موثقة منشورة فلا يبالي الساطي بشيء من كل ذلك بل يزداد جرأة وتيها بسطوه وكأن ظهور سطوه فضيلة ترفع من قدره وهواستخفاف من الدكتور بعقول الناس والقراء)٦١

والنموذج الأخير هوتهمة بالسرقة لعالم كبير وهوالشيخ محمد حامد الفقي وقد اتهمه الشيخ أحمد الصديق الغماري بسرقة كتاب

60 – الاستشراق والمستشرقون – د. مصطفى السباعي

61– راجع شاهدة ربع قرن – عايدة الشريف

مخطـوط نـادر مـن الشـيخ محمـد أمـين الخانجـي صاحـب مكتبـة الخانجـي، ويدعـي الغـماري إن الخانجـي كاد أن يرفـع عـلى الفقـي دعـوى قضائيـة لـولا وسـاطة الشـيخ أحمـد شـاكر.. هـذه روايـة أحمـد الصديـق الغـماري ومـن المعـروف أنـه عـلى عـداوة شـديدة مـع جماعـة أنصـار السـنة المحمديـة ومؤسسـها محمـد حامـد الفقـي.. المهـم أن الغـماري روى واقعـة السرقـة بـكل تشـف وشـماتة في كتـاب لـه أسـماه (جؤنـة العطـار) وهـذا الكتـاب لم يطبـع ضمـن كتـب الغـماري ويوجـد في ملـف (بي دي إف) عـلى الانترنـت وقـد اعـترف الغـماري في نفـس هـذا الكتـاب أن الخانجـي اتفـق مـع الفقـي بعـد ذلـك عـلى مراجعـة بروفـات تاريـخ بغـداد وهـذا يقـوي الشـك في حقيقـة السرقـة التـي اتهمـه بهـا)٦٢

وكان الاتهـام بالسرقـة موجـودا بـين الأئمـة الكبـار فقـد اتهـم السـخاوي السـيوطي بأنـه اختلـس مـما كان يعملـه وادعـى عليـه بأنـه أخـذ كتـب المحموديـة ونسـبها لنفسـه وهـي اتهامـات لا دليـل عليهـا أوبرهـان يثبتها، فقـد كان السـيوطي أمينـا في تنـاول كتبـه، ولا يثبـت معلومـة في موضعهـا مـن غـير أن يشـير إلى مـن أخذهـا عنـه والكتـاب الـذي اسـتمدها منـه، ولا يذكـر خـبرا إلا أسـنده لأصلـه..

كـما وجـه السـيوطي نفـس التهمـة إلى القسـطلاني صاحـب (إرشـاد السـاري) حيـث إدعـى أنـه أخـذ مـن كتبـه وإسـتمد منهـا ولم ينسـب

62- من مقال لناصر الحزيمي بجريدة الرياض الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٦ هـ - ٢٧ مايو٢٠١٥م - العدد ١٧١٣٨

النقـل إليـه في سلسـلة عـالم المعجـزات التـي يقدمهـا التلفزيـون الألمـاني تناولـت (قنـاة LTR الألمانيـة) موضوعًـا يتعلـق بالحضـارة الإسـلامية في مجـال العلـوم، والمذهـل أن هـذا الفيلـم يعـترف بالتطـور التكنولوجـي الكبـير الـذي شـهدته الحضـارة الإسـلامية خـلال قـرون عديـدة.

يقـول أحـد الباحثـين في هـذا الفيلـم: قبـل ألـف سـنة تقريبًـا كان العـالم الإسـلامي متطـور لدرجـة كبـيرة، بينـما كانـت أوربـا تعيـش في حالـة تخلـف وجهـل، فالمسـلمون وضعـوا المؤلفـات العلميـة والاكتشـافات والاختراعـات.. في مجـال الطـب كان المسـلمون يتبعـون الطـرق العلميـة والأدويـة ويجـرون عمليـات جراحيـة، بينـما الغـرب كان يتبـع أسـلوب السـحر والشـعوذة للشـفاء.

في مجـال الهندسـة اخترعـوا سـاعات دقيقـة جـدًا وأسـاليب حربيـة متطـورة.. أول فكـرة للصـاروخ، وأول فكـرة للدبابـة.. أول شـيفرة سريـة، وأول أسـلوب لقفـل سري يعمـل بالشـيفرة.. وهكـذا.. والـشيء المميـز أن علـماء المسـلمين كانـوا يعتمـدون أسـلوب التوثيـق العلمـي، فكانـوا يضعـون اسـم المرجـع الـذي اعتمـدوا عليـه في كتبهـم.

الـشيء الـذي فعلـه الغـرب ببسـاطة – كـما يقـول الباحـث الألمـاني في الفيلـم – أنهـم سرقـوا هـذه العلـوم بعـد انهـزام المسـلمين، وطمسـوا أسـماء المؤلفـين ونسـبوا هـذه العلـوم والاكتشـافات والاختراعـات لأنفسـهم، يتابـع الباحث:(إنهـا أكـبر عمليـة سرقـة في تاريـخ العلـم!)

علـماء كـثر أخـذوا اكتشـافات المسـلمين ونسـبوها لأنفسـهم.. أسـهل طريقـة لسرقـة العلـم أن تأخـذ الكتـاب وتعيـد نسـخه حرفيًـا.. ولكـن تمحواسـم المؤلـف الأصـلي وتضـع اسـمك عليـه بـدلًا منـه!!

العبـارة التـي لفتـت انتباهـي في هـذا الفيلـم وفي أفـلام وثائقيـة كثـيرة عـن حضـارة العـرب والمسـلمين، أن هـذه القفـزة العلميـة الهائلـة التـي خطاهـا العـرب في مجـال العلـوم لولاهـا مـا كان لحضـارة الغـرب أن تنشـأ! والأهـم أن هـذه العلـوم والاكتشـافات جـاءت بنتيجـة تعاليـم القـرآن!! فالقـرآن يحـض عـلى العلـم والمعرفـة والاكتشـاف..

في واحـدة مـن المفارقـات الغريبـة، وذلـك بعـد تصديقـه عـلى أحـكام الإعـدام بحـق العديـد مـن قيـادات جماعـة الإخـوان المسـلمين، ضبـط الدكتـور شـوقي عـلام، مفتـي الجمهوريـة متلبسًـا بنـشر مقتطفـات مـن كتـاب (في ظـلال القـرآن) لأحـد أشـهر رمـوز جماعـة الإخـوان المسـلمين وهوالشـهيد سـيد قطـب، وعـلى الرغـم مـن أن المفتـي أصـدر العديـد مـن الفتـاوى التـي تحـرم السرقـة العلميـة والاقتباسـات مـن نصـوص الغـير ونسـبتها إلى السـارق، فإنـه نـشر كلام (قطـب) ونسـبه إلى نفسـه دون أيـة إشـارة إليـه، كـما تقتـضي الضوابـط العلميـة

جـاء ذلـك في مقالـه المنشـور بتاريـخ (٢٠١٥/٦/٢٣) بجريـدة (اليـوم السـابع)، تحـت عنـوان (نجحـت لعلكـم تتقـون)، نقـل المفتـي معظـم المقـال مـن تفسـير الشـهيد المفكـر سـيد قطـب، فقـد أخـذ مقالـه – كـمًّا وكيفًـا – مـن كتـاب (في ظـلال القـرآن) وفنـدت صحيفـة (المصريـون)

وقتها فقرات المقال، وأشارت إلى أن (المفتي نقل جل المقال -إن لم يكن كله- من تفسير سيد قطب، فقد أخذ مقاله كما وكيفا- من صفحتي ١٤٠ و١٤١ من الكتاب)، كما أثبت ناشطون بالوثائق أن ما فعله المفتي ليس الحالة الأولى له، حيث اقتبس مقالات سابقة من كتب ولم يشر إلى مؤلفيها.!

وأشارت صحيفة (المصريون) إلى أن المفتى اقتبس مقاله المنشور بصحيفة (الشروق)، بعنوان: (للصائم فرحتان)، من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام أبوحامد الغزالي، وأنه نقل جزءًا كبيرًا من مقاله بعنوان (الدين المعاملة - منهج الصحابة في التيسير ٢)، بتاريخ ١٧ إبريل ٢٠١٥، الذي نشرته صحيفة المساء، من كتاب الدكتور عبد الله بن إبراهيم الطويل، بعنوان: (منهج التيسير المعاصر).

كرر الدكتور شوقي علام، مفتي الديار المصرية، السرقة مرة ثالثة في أحدث مقالاته المنشورة بجريدة اليوم السابع، الجمعة ٢٠١٥/٧/٣م، لكن هذه المرة كان عن طريق النقل من مقال للداعية السعودي الشيخ عائض القرني. وهوالأمر الذي لم يسلم منه الشيخ عائض نفسه وقد نسب إليه مثل هذا الأمر في كتابه (لا تيأس) حيث تقدمت الباحثة (سلوى العضيدان) بشكوى إلى وزارة الثقافة والإعلام تتهم الداعية الكبير بسرقة كتابها (هكذا هزمت اليأس) والمنشور في عام ٢٠٠٧م، مؤكدة أن الدكتور القرني سطا على ٩٠٪ من كتابها ضمنه في كتابه (لا تيأس).

وصدر الحكم بتغريم الشيخ مبلغ ٣٣٠ ألف ريال سعودي، متهمة إياه بالاعتداء على الحقوق الفكرية للغير.. كما شمل الحكم سحب كتاب (لا تيأس) من الأسواق، ومنعه من التداول، ووضعه بشكل رسمي على قائمة المنع حتى لا يدخل إلى المملكة.

أما الشيخ القرني فوجَّه رسالة إلى الكاتبة مؤكدًا أنه ليس عاجزًا عن التأليف، وقد منحته البحرين جائزة المؤلف العربي الأول، وهوالذي يحفظ القرآن وآلاف الأحاديث وآلاف الأبيات وطالع آلاف الكتب.

أما أحدث هذه السرقات الفجة، فهوما أذاعته صحيفة (المصري اليوم) في خبرها بتاريخ الأحد ١٤-٢-٢٠١٦م تحت عنوان (وزير الأوقاف ينسب جهود زقزوق لنفسه) حيث حصلت المصرى اليوم على مستندات تكشف حذف الدكتور محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف، اسم سلفه الدكتور محمود حمدى زقزوق، عضوهيئة كبار العلماء بالأزهر، من (موسوعة الحضارة الإسلامية)، التى أصدرها الثانى عام ٢٠٠٥، ووضع «مختار» اسمه عليها، وغيَّر تاريخ صدورها من ٢٠٠٥ إلى فبراير ٢٠١٤، ثم قدَّمها لرئيسه أثناء الاحتفال بالمولد النبوى الشريف.

كان (زقزوق) قد أهدى الموسوعة إلى الرئيس الأسبق حسنى مبارك فى الاحتفال بالمولد عام ٢٠٠٥، عقب الانتهاء من إصدارها مباشرة. وتقع الموسوعة فى ١٠٠٠ صفحة، وتضم هيئة تحريرها كلًا من: الدكتور أحمد فؤاد باشا، نائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق، والدكتور طه

أبوكريشـة، عضوهيئـة كبـار العلـماء بالأزهـر، والدكتـور عبداللـه التطـاوى، نائـب رئيـس جامعـة القاهـرة حينـذاك، والدكتـور عبدالسـتار الحلوجـى، الأسـتاذ بكليـة الآداب بجامعـة القاهـرة، والدكتـور رفعـت حسـن هـلال، الأسـتاذ بكليـة العلـوم بجامعـة القاهـرة، و٥٠ أسـتاذًا.)

الأنوثة المثقفة !

لماذا نجد من المثقفين دومًا من ينبهر بالفتاة القارئة والمثقفة ويشعرون تجاهها بحنين طاغ وجاذبية أخاذة؟

إنه يرى جمال الطبيعة وأشجارها الغناء وأنهارها المنسابة وطيورها المغردة، تتضاءل أمام جمال فتاة قبعت على كتابها تغوص في أفكاره ومعانيه، وبعضهم يود لوأنه عاش بقيه حياته في صحبة مثل هذه الفتاة يأكلان على كتاب ويشربان على كتاب،وينامان على كتاب ويستيقظان على كتاب.!

فما مصدر هذا الإعجاب، وهذا الانبهار ؟ هل يا ترى لأن الثقافة في المرأة شيء نادرٌ يستحق الانبهار.. أم فقط لأنها امرأة ؟!

حاولت كثيرًا تفسير هذا الولع الشديد لأدبائنا الكبار بـ(مي زيادة) لقد سحرتهم وملكت قلوبهم.. جذبتهم جميعًا بجمالها ومظهرها وشياكتها وحديثها وأنوثتها وثقافتها.. لقد أشعلت عواطفهم فلم يفلت من غرامها أحد، الكل عشقها.. الكل أحبها.. الكل هام بها.. الجميع قالوا فيها شعرًا أونثرا أوتحدث عنها أدبهم بشوق ملتهب وحنين ملتاع.

لقـد كانـت مـي مهـوى الأفئـدة ومنيـة العقـول. وأسـائل نفـسي.. هـل تختلـف الثقافـة حينـما تملكهـا وتنطـق بهـا امـرأة؟

ومالهم الرجال؟

أليسـت هـذه الثقافـة قـد أثبتـت أنهـم أجدر بهـا مـن النسـاء، وأن عظماء المفكريـن وكبـار الأدبـاء لم يكونـوا إلا مـن الرجـال ؟ أليـس إبداعهـم أرفـع وأثمـن مـا أنتجتـه القرائـح والعقول..فلـماذا الهيـام إذن بالمـرأة المثقفـة والفتـاة القارئـة ؟!

إن عقـل المثقفـين ووجدانهـم يعشـق صـورة المـرأة القارئـة.. ويهـوى معنـى الأنوثـة المثقفـة.. ولوأنـك جئـت بشـاب وفتـاة وأمسـكت كل منهـما كتابـا يقـرأه.. فلـن يعبـأ الناظـر بصـور الفتـى لأن الفتـاة لهـا مذاقهـا في أعماقهـم، ولعـل هـذه الحفـاوة ترجـع إلى أنهـا لبـت معنـى الغريـزة والهوايـة.. الغريـزة التـي تتمثـل في حاجـة الرجـل إلى امـرأة، والهوايـة التـي هـي الثقافـة والفكر..فقـط لا أكـثر..ولا أقـل..

كثـير مـن المثقفـين يـرون أن حيـاة الأديـب أوالمثقـف تسـتدعي أن تكـون شريكـة حياتـه عـلى نفـس هـواه ومزاجـه العقـلي، حتـى تنسـجم حياتهـما ويكـون بينهـما رابـط مشـترك يسـهم أول مـا يسـهم في الحـب المتبـادل والعـشرة السـعيدة وتنميـة الموهبـة وتلاقـح الأفـكار، أمـا أن يعيـش في عالمـه وحيـدًا فريـدًا، دون أن تشـاركه مـن تعيـش معـه تحـت سـقف واحـد أفـكاره واهتماماتـه، فإنـه سـيصاب بخلـل وملـل .

لكـن الواقـع قـد يخالـف هـذا التوهـم وهـذه الرؤيـة، فحينـما تنظـر إلى زوجـات الأدبـاء الكبـار، هـل تجدهـن عـلى هـذا النحـو؟

الدكتـور حسـين فـوزي ولويـس عـوض ويحيـى حقـي كانـت زوجاتهـم أجنبيـات يصرفـن اهتمامهـن بعيـدًا عـن الكتـاب في تربيـة الطيـور والحيوانـات الأليفـة وكان أزواجهـن يتحملـون نصيبًـا مـن هـذا النشـاط راضـين أم صاغريـن، فزوجـة يحيـى حقـي كانـت إذا ذهبـت إلى مصفـف الشـعر.. كان عليـه وقتهـا اصطحـاب الكلـب للنزهـة.. و(عطيـة اللـه إبراهيـم) زوجـة نجيـب محفـوظ لم تكـن مثقفـة، ولم يـرد عنها أنهـا قرأت كتابـا، والعقـاد لم تكـن لـه زوجـة أصـلا، والرافعـي والزيـات وإحسـان عبـد القـدوس والحكيـم، لم نسـمع بزوجاتهـم المثقفـات ولا علـم عنهـن شـيئًا في عـالم الثقافـة والفكـر، رجـل واحـد لعبـت زوجتـه في حياتـه دورا كبـيرا وذلـك نظـرا لظروفـه وعوائقـه وهوطـه حسـين وزوجتـه سـوزان..

ولكـن ليـس معنـى هـذا أن جهـل الزوجـة بالثقافـة وحـب القـراءة شيء عـادي ولا قيمـة لـه ولا يؤثـر في حيـاة الـزوج المثقـف والقـاريء، فرغـم هـذه الأمثلـة السـابقة مـن المفكريـن والعباقـرة إلا أن كثـيرا مـن المثقفـين يشـعر بمعنـى السـعادة في حياتـه حينـما تكـون زوجـه مثقفـة قارئـة تشـاركه كل مـا يعـن لـه مـن رؤى ومفاهيـم..

بـل إن بعضهـم مـن شـدة عشـقه للثقافـة والكتـب عـزم أن لا يتـزوج حتى لا يقـترن بامـرأة تفسـد عليـه عشـقه للقـراءة وتشـعر بتفضيـل شيء آخـر عليهـا فتفسـد حياتهـما، إنـه الأسـتاذ محمـد طاهـر وزوج الكاتبـة والأديبة

والباحثة الكبيرة (نعمات أحمد فؤاد) ففي حديثه لصحيفة المصري اليوم ذكر قصة ارتباطه بزوجه في منتصف الخمسينات وكان وقتها يمتلك مصنعا للأدوية ودارا لنشر الكتب (منذ طفولتي الغراء كنت عاشقا للقراءة التي كانت رفيقتي في كل لحظة، حتى أنني قررت عدم الزواج حتى لا أرتبط بامرأة تستشعر تفضيلي للقراءة عليها، ولكن سمحت لي الظروف أن أتلقي نعمات أثناء إنهائي بعض الأوراق في عملها بوزارة الثقافة، وكنت كلما ترددت عليها وجدتها تمسك بكتاب تقرأ فيه، فكان الحب وكان الزواج في منتصف الخمسينات، وشعرت بحسي الأدبي المتخصص في عالم الكتب أنني أمام موهبة قلما تتكرر، حتى إنني منعتها من القيام بمهام الزوجات في المنزل حيث كان لدينا الطاهي والخادمة، وأذكر أنني عدت من عملي ذات يوم ووجدتها تقف في المطبخ فنهرتها بقولي: إن ملايين النساء يستطعن القيام بتلك الأمور ولكن كم واحدة منهن تمتلك هبة الكتابة التي شبهها الأديب الراحل أحمد حسن الزيات في مقدمة كتابه (بلادي الجميلة) بمي زيادة، مؤكدا على تفوق نعمات على مي في الأسلوب)

وأمام هذا التواؤم ارتبط بها وأكمل معها مشوار الحياة، وكان إذا أراد أن يعبر عن حبه لها لم يكن يجد غير غذاء الروح كأنفس ما يسعدان به ويقدرانه في حياتهما فلم يكن المال أوالحلي وإنما كان الكتاب في بيت كانت القراءة فيه هي سبب بنائه وأساس تكوينه.. كان يحب بين الحين والآخر مفاجأتها بنفائس الكتب والنادر منها كدليل على محبته لها، ولعلمه بما يمكن لمثل تلك الهدايا أن تطير

بهـا فرحًـا، ومـن بـين الموروثـات التـي حـرص عـلى اقتنائهـا لهـا كتـاب (بانورامـا) الفرنـسي اللغـة والـذي يعـود تاريـخ طباعتـه إلى عـام ١٨٤١م وقـد طبـع منـه خمسـين نسـخة فقـط تـم إهداؤهـا في حينهـا لملـوك ورؤسـاء العـالم

أمـا نسـخة الدكتـورة نعـمات أحمـد فـؤاد فقـد حصـل عليهـا الـزوج حينما حـضر أحـد المـزادات الخاصـة بأحـد القصـور الملكيـة في النصـف الثـاني مـن الخمسـينات، حيـث قـال: (كان هـذا الكتـاب مـن بـين المقتنيـات المعروضـة للبيـع، ظللنـا نزايـد عليهـا أنـا وزوجـة رجـل أعـمال شـهير لا أتذكـر اسـمها الآن، وكانـت معروفـة بحـب الكتـب والمـزادات ظللنـا نزايـد عـلى بعضنـا البعـض حتـى عـلا صـوتي بمبلـغ ٤٠٠ جنيـه، وكان مبلغـا كبـيراً بمعايـير وقتهـا، فصمتـت السـيدة وهـي تظـن أننـي أبيعـه لهـا بعـد المـزاد مقابـل بعـض الجنيهـات الأخـرى، ولكننـي كنـت منـذ رأيتـه أيقنـت أن نعـمات سـتطير بـه فرحًـا حيـث يحـكي عـن مـصر ويصورهـا في وقـت الحملـة الفرنسـية.. وبالفعـل صـار الكتـاب أحـد أهـم مقتنياتهـا، وأتذكـر يومـا مـن عـدة سـنوات حينـما أعلنـت روسـيا عـن عثورهـا عـلى نسـخة مـن هـذا الكتـاب النـادر لـدى أحـد أفرادهـا، مشـيرة في مـتن الخـبر إلى أنـه قـد يكـون النسـخة الوحيـدة الباقيـة في العـالم، يومهـا أصرت نعـمات عـلى الاتصـال بوكالـة الأنبـاء الروسـية، وأخبرتهـم باعتـزاز أن لديهـا هـي الأخـرى نسـخة أصليـة مـن الكتـاب)٦٣

---

63 – صحيفة المصري اليوم بتاريخ ١٤ يوليو٢٠٠٨م

شيء جميل أن تكون الزوجة حفية بالقراءة فتملأ بها البيت، وتعنى بالمكتبة، وتدرب أطفالها عليها، وتشجع زوجها لمزيد من الاطلاع والإنتاج وفي مستهل كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) لأنيس منصور نطالع إهداء جميلًا رائعًا لا يقدر معناه إلى من يعيشه من المثقفين، ولا يأسى عليه إلا من حرم منه، لقد أهدى أنيس منصور كتابه لزوجته،فقال فيه: إهداء.. إلى التي لولا تشجيعها ما كان السطر الأول من هذا الكتاب، ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصفحات، امتنانا عميقًا وحبًا أعمق: إلى زوجتي.. أنيس منصور..

وإذا كان من المفكرين والأدباء من لا يرضى أحدهم من زوجته إلا أن تكون ربة بيت تحمل هم الأولاد وتيسر له شئون الحياة وتوفر له الراحة والوقت الذي يستطيع من خلاله أن يقوم برسالته، فإن هناك من يحلم بالزوجة المثقفة، ويؤمن بما أشرنا إليه من المشاركة الوجدانية وأثرها في حياته..

وإذا كانت زوجه بعيدة كل البعد عن الثقافة والفكر وبغض الكتب والمكتبات، فإن عليه أن يحاول بين الحين والحين أن يوقظ فيها هواية القراءة وصحبة الكتب وإلف المطالعة، وقد يفشل وقد ينجح ولكن لمزيد من التحفيز والمحاولة إليك هذه التجربة العملية، فقد كان (سلامة موسى) من الذين نجحوا في تلك التجربة حيث يقول في كتابه (تربية سلامة موسى): (عقب الزواج وجدت صعوبتين أولاهما أني أحترف الأدب والصحافة، وأتعلق بالقراءة وهوايتي هي الثقافة،

والزوجة تعد الإنفاق على الكتب إسرافًا، ثم هي أيضًا لا تطيق رؤية زوجها وهوغارق في كتابه طوال الوقت أومعظمه في البيت، وخاصة إذا كانت هي لم تتعود إدمان القراءة، والصعوبة الثانية هي التفاوت العظيم بين مستويينا الثقافيين، وكانت زوجتي قد تعلمت في مدرسة فرنسية تديرها الراهبات ويتجه فيها معظم العناية إلى التعليم الديني، ولذلك وجدت أنه للتغلب على هاتين الصعوبتين أن أشرع في تعليمها من جديد، فصرت أشركها فيما أكتب وأناقشها في جميع الموضوعات الثقافية التي أهتم بها، وبدهي أن كل زوجة تهتم بحرفة زوجها، ولما كانت حرفتي هي الصحافة والأدب والعلم، فإنها اضطرت إلى تتبع نشاطي حتى ارتفعت على مستواها السابق كثيرًا، وبهذا الوفاق بيننا بل أكثر من ذلك، إذ هي قد أصبحت صديقتي كما هي زوجتي، وظني أن خير طريق إلى الصداقة الضرورية بين الزوجين، أن يرفع الزوج زوجته إلى مستواه الثقافي إذ هوحين يقصر في ذلك يجد أن التفاهم معدوم أوملتبس، فلا يكون الحديث بينهما إلا في الشؤون التافهة ويعودان وكل منهما يعيش في عالم منفصل عن العالم الذي يعيش فيه الآخر، والصداقة التامة تحتاج إلى التكافؤ الثقافي بينهما أوما يقاربهما.)

يشتكي أحدهم من أنه يحب الثقافة والقراءة ويود لوأنه قضى يومه كله في مكتبته ومحراب فكره، يتناول هذا الكتاب ويعايش هذه الرواية، ويكتب هذا المقال ويستمتع بعيون التراث، بينما رفيقته

لا تعـرف غـير ثقافـة الطعـام والمطابـخ ولا تحـب الثقافـة وتعـد القـراءة والكتـب مـن أشـد أعدائهـا، وأن الكتـب التـي يقرأهـا هـي بمثابـة الـضرة التـي تشـاركها في زوجهـا، وأنهـا تتمنـى لويـأتي يـوم وتراهـا تحـترق عـن آخرهـا فـلا يبقـى منهـا سـطر واحد..لمـاذا لا نجـرب ونحـاول ترويضهـا عـلى الكتـاب، لعلنـا نخلـص إلى النتيجـة التـي خلـص إليهـا (سـلامة مـوسى) فـنرأب الصـدع ونـداوي الـشرخ.؟!

ثـم مـاذا لوتزوجـت المثقفـة القارئـة ؟ هـل سـاعتها سـتقبل ويـروق لـك أن تنشـغل بالكتـاب عـن إعـداد طعامـك وشرابـك وتربيـة ولـدك وإعـداد هندامـك ؟ أخـشى سـاعتها أنـك لـن تبغضهـا وحدهـا وإنمـا سـتبغض كل كتـاب تـراه عينـاك.!

ألا مـا أروع المـرأة الوسـطية التـي تعنـى ببيتهـا ولا تهمـل كتابهـا..! أراد الـروائي الانجليـزي العظيـم (تشـارلز ديكـنـز) أن يتـزوج الفتـاة التـي أحبهـا (ماريـا بنـدل) ابنـة مديـر أحـد المصـارف بانجلـترا.. وقـد كان عاشـقا متيـما بهـا، لكنهـا رفضـت حبـه وقالـت: عـن تشـارلز شـاب لطيـف، لكنـه أديـب، فهـل يسـتطيع أن يعولنـي بقلمـه ؟ وتحولـت عنـه وتزوجـت مـن تاجـر ثـري، أمـا تشـارلز فتـزوج بعـد سـنوات زواجًـا تقليديًـا لم يسـعد بـه كثـيراً، ولم يعجـز أيضًـا عـن احتماله..وقـال عنـه النقـاد إنـه قـد رضي بالمزيـج المعتـدل مـن النجـاح الأدبي والتعاسـة الزوجيـة، فلـم يمـض عـلى زواج ماريـا بزوجهـا التاجـر سـوى بضعـة أعـوام حتـى تعـثرت تجارتـه وأفلـس وعاشـت معـه حيـاة جافـة محرومـة في حـين حقـق (ديكـنـز)

نجاحًـا أدبيًـا وماديًـا هائـلًا ودرت عليـه روايتـه مـالًا وفـيرا حتـى أصبـح أغنـى الأغنيـاء في انجلـترا.

وعـلى العكـس مـن قصـة ماريـا مـع تشـارلز.. فلقـد تـزوج المفكـر الفرنسي (مونتسـكيو) مـن ابنـة جـنرال قديـم مـن جـيران بيتـه في ريـف (بـوردو) ولم تكـن أسرتهـا غنيـة، ولا كانـت هـي نفسـها جميلـة أومغريـة.. وسـئل (مونتسـكيو): مـاذا أعجبـك فيهـا لـكي تتزوجهـا ؟ فأجـاب أعجبتنـي رجاحـة عقلهـا عندمـا تحدثـتُ إليهـا ذات مـرة حـين زرت أباهـا!

وصدقـت فراسـة المفكـر الكبـير في مـن تزوجهـا، فلقـد نجحـت في إسـعاده وتوفـير كل أسـباب الراحـة والنجـاح لـه وكان يغـادر (بـوردو) إلى باريـس ليلتقـي بأدبائهـا ومفكريهـا تـاركًا لهـا توكيـلًا بـإدارة أملاكـه وأعمالـه.. فتديرهـا عنـه بحكمـة.. ولا تعـترض طريـق حريتـه الشـخصية وأعمالـه الفكريـة، وتسـعد بعودتـه بعـد بضعـة أسـابيع أوشـهور مـن باريـس ليحدثهـا عـما فعـل ومـا شـهد مـن محافـل أدبيـة وفكريـة في العاصمـة!

أمـا الـروائي الـروسي العبقـري (ديسـتويفسـكي) فلقـد احتـاج إلى سـكرتيرة يمـلي عليهـا كتابـه الـذي يؤلفـه إلى جـوار فـراش زوجتـه المحتـضرة.. لأنـه لا يريـد أن يفارقهـا إلى غرفـة المكتـب في أيامهـا الأخـيرة.. ولا عجـب في ذلـك، فقـد أحبهـا سـنوات طويلـة وانتظـر بصـبر عجيـب حتـى ترملـت لـكي يتزوجهـا، ولم تطـل عشرتهـا لـه كثـيرًا حتـى مرضـت مرضًـا شـديدًا ولازمـت الفـراش.. واقتربـت منهـا النهايـة المحتومـة.

ولما جاءت سكرتيرته الشابة التي أزمع أن يملي عليها مؤلفه الجديد الذي يؤلف عباراته وهوبجوار فراش زوجته، فتحمست له وأعجبت به وماتت زوجته بعدما انتهى من كتابه، وبدأ الأديب الكبير يشعر باضطراب في حياته، وفي هذا الجوالضبابي كانت المفاجأة من هذه السكرتيرة النابهة التي قالت له: لا يمكن أن تجمع الأقدار بين جبلين متباعدين، لكنها تستطيع أن تجمع بين رجل وامرأة يحتاج كل منهما للآخر! وبعدها تزوجته وارتبطت به، وكانت هي الملاذ الذي ملأ فراغ حياته، وصارت أنيسه وسلوة أيامه التي عوضته عن فقد الزوجة.

والدكتور لويس عوض حينما سكن في باريس خلال دراسته بالسربون، تعرف بزوجته التي شاركته رحلة حياته على مدار ٠٤ عاماً كانت كلها سعادة ووئام، ولم ينكر عليها إلا اقتناءها عشرة من القطط في بيت الزوجية .أما الدكتور طه حسين فإنه احتاج إلى مرافق له يقوده إلى الجامعة ويعود به، وكانت وقتها من سكان البيت الذي يسكن فيه، وكانت كذلك معينة له على القراءة بعد عودته من الجامعة فأحبها وهام بها ثم صارحها وتزوجها ودامت حياتهما ٠٥ عامًا منذ هذا الارتباط.

الرماد النفيس

(الرماد النفيس) تحت هذا العنوان المتألق كانت مقالة الكاتب البارع (فهد الأحمدي) عن العقول القمعية التي لا تستطيع وأد الفكر بالفكر، وإنما تستعمل الجحيم والنار في محوه والقضاء عليه.. تذكرت هذا العنوان الرائع حينما قرأت نبأ الحوثيين الفجرة الذين لم يكتفوا بما أحدثوه في اليمن من اضطراب وقتل ودمار وتخريب وقتل آلاف اليمنيين، فإذا بهم يرتكبون جريمة في حق العلم والدين فأحرقوا كميات كبيرة من كتب الحديث الشريف والفقه السنية التي كانت موجودة في مكتبة السجن المركزي بالعاصمة اليمنية صنعاء في أواخر عام ٢٠١٥م بحجة أنها تدعوإلى التطرف وتساعد تنظيم داعش !

وذكر مصدر من داخل السجن: أن الكتب التي تم حرقها عبارة عن مؤلفات صحيح البخاري وصحيح مسلم والأربعين النووية وعدد من المؤلفات والكتب التي تتمتع بإجماع علماء المسلمين، وتمثل مراجع أساسية في العلوم الإسلامية .

وحاول عدد من النزلاء إثناءهم عن حرقها بدعوى أنهم دأبوا على قراءتها خلال فترة محكومياتهم، إلا أن كل توسلاتهم ذهبت أدراج الرياح، ولم تُجدِ في إثنائهم عن جريمتهم، بل تعدوا بالضرب على بعض السجناء الذين حاولوا الحصول على بعض تلك الكتب قبل حرقها وإنقاذها من النار!

وتوجد داخل سجن صنعاء مكتبة ضخمة تحوي كثيرًا من الكتب الدينية والتثقيفية وتشرف عليها مصلحة السجون بموجب قانون السجون ولائحته التنفيذية، والذي يفرض على المصلحة تزويد النزلاء بكتب متنوعة لغرض الاطلاع عليها خلال الفترة التي يقضونها داخل السجن.

وبعد هذه الحماية الفكرية لعقلية النزلاء اليمنيين ماذا فعل الحوثيون؟ لقد زودت مكتبة السجن بملازم لمؤسس الجماعة (حسين الحوثي) وكتب أخرى من مؤلفات قيادات حوثية وشخصيات إيرانية، وفرضت قراءتها بديلًا عن تلك الكتب التي تم حرقها، وهكذا يستبدلون الذي هوأدني بالذي هوخير!

وقد تسببت النار في إحراق تراث عظيم خلفته أمتنا في بلاد الأندلس على يد الأخرق الجاهل الكاردينال سيسنيروس الذي أمرعام ١٥٠١م بحرق (مكتبة مدينة الزهراء) التي كان بها ما ينيف على ٦٠٠٠٠٠ مخطوط في مكان يسمّى (باب الرملة) بغرناطة وهي ساحة كبرى معروفة ما زالت موجودة بها بنفس هذا الإسم العربي القديم حتى اليوم، يؤمّها السيّاح من مختلف أنحاء العالم، ويشرئبّون بأعناقهم لمشاهدة اللوحة الرخامية التي كتب عليها هذا الاسم الذي أصبح لصيقا ومقرونا باسم هذا الكاردينال ولكنهم لا يعرفون شيئا عن فعلته الشنعاء، وجريمته النكراء التي دمّرت واختفت على إثرها العديد من المخطوطات وأمّهات الكتب النفيسة التى أبدعها علماء

أجلاء في مختلف حقول العلم، وفروع المعارف بالأندلس، ويقال إن الجنود الذين كلّفوا بالقيام بهذه المهمّة كانوا يخفون بعض هذه الكتب أثناء إضرامهم النار فيها في أرديتهم لفرط جمالها وروعتها إذ كان معظمها مكتوبا بماء الذهب والفضّة، ولقد ظلّت هذه الحماقة الهوجاء وصمة عار، ونقطة قاتمة في التاريخ الأسود لإسبانيا المتزمّتة إبّان محاكم التفتيش .

تؤكد المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): (وهكذا حرقت يد التعصب مليونًا وخمسة آلاف من المجلدات، هي مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون). ورافقت موجة حرق الكتب الحملة الصليبية، وتروي المصادر التاريخية أن مكتبة بني عمار في القرن العاشر الميلادي في طرابلس أحرقت. ويعود سبب حرقها إلى توهم الصليبيين أن جميع محتويات المكتبة هي نسخ من القرآن الكريم. فعند احتلال طرابلس كان يرافق الحملة الصليبية أحد القساوسة الذي تجول في القاعة المخصصة للقرآن الكريم، فاعتقد أن المكتبة بجميع قاعاتها مخصصة للقرآن الكريم، فأعطى أوامره بحرقها.

إن حرق الكتب عادة المفلسين الضعفاء الذين لا يملكون الحق ولا يعرفون الإنصاف.. كما أنهم أبعد ما يكونوا عن الحكمة والرزانة.. فمنذ متى والحرق وسيلة ناجحة في القضاء على الأفكار والآراء؟!

لقد أمر هتلر عام ١٩٣٣م بحرق كل الكتب التي تعارض النازية في الميادين والساحات العامة في كل المدن الألمانية، لأنه كان يكره العقل الحر والفكر المستنير فهما العقبة أمام استبداده وتسلطه.. وأراد من الألمان أن يلغوا عقولهم فلا يرون إلا رأيه ولا يتكلمون إلا بكلامه، ولا يفكرون إلا بتفكيره وهذا ما حدث، فلم يكن هناك مكان لرأي آخر أووجهة نظر مخالفة، لم يكن هتلر وحزبه الغبي يخافون من أي شيء مثل خوفهم من الثقافة والفكر الحر المستنير المستقل، وكان أعوانه وعلى رأسهم وزير إعلامه (جوبلز) يؤمن إيمانا أعمى بهذا المنطق ويقول: كلما ذكرت كلمة مثقف تحسست مسدسي، واستطاع (جوبلز) أن يفرض وجهة النظر النازية على كل ما كان يصدر في ألمانيا بعد استيلاء الحزب، وقرر أن يحاكم كل ما صدر قبل عصره من كتب وآراء وأفكار، وكان يرى في معظم الإنتاج السابق على العصر النازي جريمة فكرية كاملة تستحق العقاب والمقاومة، ففي نفس السنة التي تولى فيها السلطة ١٩٣٣م وبعد حوالي ١٠٠ يوم يحدثنا (وليام شيرر) في كتابه (ألمانيا الهتلرية) عما حدث في ليل أحد الأيام فيقول:(وصل عرض قام به ألوف من الطلاب يحملون المشاعل عند منتصف الليل إلى ساحة عامة تقع مقابل جامعة (برلين) في شارع (أونتردن لندلن)، وسرعان ما اشتعلت النيران في كومة هائلة من الكتب وضعت على الساحة، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب في النار المشتعلة إلى أن بلغ ما أحرق منها نحوعشرين ألفا، ووقعت مناظر مماثلة في مدن أخرى، وهكذا بدأت عمليات إحراق الكتب،

وكان الكثير من هذه الكتب التي التهمتها النيران في برلين تلك الليلة على مشهد من الطلاب الفرحين، ومرأى من الدكتور جوبلز وزير الإعلام النازي من تأليف عدد من المؤلفين ذوي الشهرة العالمية، من أمثال توماس مان وهنريخ مان وأرنولد وستيفن زفايج وايريك ماريا وألبرت اينشتاين وغيرهم، ولم يقتصر الإحراق على عشرات من الكتاب الألمان فحسب، بل تعداه إلى كتاب أجانب من أمثال جاك لندن وهيلين كيلر وه.ج. ويلز وفرويد وأندريه جيد وأميل زولا ومارسيل بروست، ويقول البيان الذي أصدره الطلاب: إن كل كتاب يعمل في تهديم مستقبلنا أويضرب بمعاوله جذور ثقافتنا الألمانية وبيتنا الألماني، وقوى شعبنا المحركة، مصيره الإحراق.

أما جوبلز فقد ألقى خطابا على ضوء هذا اللهيب المشتعل قال فيه: في وسع الروح الألمانية أن تعبر عن نفسها من جديد ولا يقتصر عمل اللهيب في إضاءة الخاتمة النهائية لعهد مضى وإنما يضيء أيضا حقبة مقبلة.

وهكذا شهدت برلين في العاشر من مايو١٩٣٣م حادثًا فريدًا من نوعه في تاريخ الإنسانية وهوحريق الثقافة الذي أقيم كأنه احتفال وطني برعاية الدولة النازية وإشرافها، وكان هذا الحريق رمزًا لكراهية العقل الحر والرفض الكامل للتفكير المستقل، والدعوة المتعصبة للتخلص من الاختيار الحر الذي تقوم عليه الثقافة الحقيقية العميقة والاستسلام للفكرة الواحدة والرأي الواحد والتبعية الكاملة لكل ما يدور في رأس

هتلر زعيم النازية من آراء وأفكار)٦٤

وفي مذكرات (بريخت) نتوقف أمام خروجه من ألمانيا حيث يروي لنا عدوان هتلر على الثقافة والمثقفين وهوشأن المستبدين فيقول:(إن ألمانيا قبل ظهور النازية وسيطرتها على السلطة كانت تطرح شعارًا رضي به الجميع، وهوأن (الفن ملك الشعب)، وكان العمال الألمان على درجة طيبة من الثقافة والتعليم وكانوا يمثلون جانبا أساسيا من جماهير القراء والمترددين على المسرح والمهتمين بالفنون والآداب، وكانت الأزمة الاقتصادية المدمرة التي هددت الشعب الألماني بعد الحرب العالمية التي تثير القلق في نفوسنا جميعًا، وبدأت أكتب القصائد والأغنيات التي تعكس مشاعر الشعب وتهاجم أعداءه، وكان أعداء الشعب هؤلاء يتجمعون تحت راية هتلر حتى قبل وصوله للسلطة، ولم يلبث هذا الزعيم النازي صاحب الصوت الذي يشبه صوت الذئب، أن وصل إلى السلطة سنة ١٩٣٣م وكانت الهجمة الأولى لهتلر والنازية ضد الثقافة والمثقفين، فقد منع الرسامين من الرسم واستولى على دور النشر والصحف والمسارح واستديوهات السينما، وفي شهر فبراير ١٩٣٣م غادرت ألمانيا وكان ذلك في اليوم التالي مباشرة للحريق الذي دبره باسم (الرايشستاج) وبعد هذا الحريق بدأت الهجرة الجماعية للفنانين والأدباء والعلماء الألمان بشكل لم ير العالم مثيلًا له من قبل)

64 – نقلًا عن عباقرة ومجانين لرجاء النقاش

ومـما يذكـر أن هتلـر أمـر بـأن يبتلـع الكاتـب (أرنسـت تولـر) كتابـه الـذي كتبـه ضـد النازيـة والكتـاب مـن ٤٧٠ صفحـة وظـل أرنسـت يـأكل فيـه حتـى مـات!

إن هــذه الحماقــة والعــداء المفــرط للثقافــة والقــراءة شيء طبيعــي في سـلوكيات المسـتبد، لأن الثقافـة والكتـاب هـما أعـدى أعدائـه، فالثقافـة تعنـي اليقظـة والقـراءة هـي الطريـق والمنبـع الأوسـع للثقافـة..

وانتهــى (هتلــر) وعــصره وبقيــت الكتــب ومفكريهــا يدعمــون الحيــاة بالثقافــة والحريــة والفكــر والعلــم، ولم تســتطع ألســنة اللهــب مهــما كان زئيرهــا أن تقــضي عــلى الفكــر والــرأي، فالخــلاف حــول كثــير مــن الأعــمال والكتــب والأفــكار أمــر طبيعــي ومتوقع،لكنــه لا يــبرر حرقهــا ومنـع الآخريـن مـن الاسـتفادة منهـا ومهـما حـاول المانعـون أوالحارقـون؛ فــإن منعهــم لا قيمــة لــه ولــن يــؤتي نفعــه، لأنهــا أفــكار دائمــة خالــدة يتغـير الزمـان لكنهـا لا تتغـير، ويتبـدل الحـال لكنهـا لا تتبـدل، ونـرى أمـة تصـف بعـض الكتـب بالضلالـة وتحرمهـا عـلى شـعوبها ثـم لا يفتـأ الزمـان فــإذا بهــا قائمــة فيهــا مرغوبــة مطلوبــة يقرأهــا النــاس، ولكنــه التعصــب الممقــوت والإنــكار عــلى الآخــر وعــدم قبــول آراء الآخريــن والاندفــاع للحكـم عليهـا بعقـل ضيـق وأفـق مخنـوق.

وأمـا (فرانـز كافـكا) فـكان أديبًـا حساسًـا يشـهد أدبـه بمعانـاة الإنسـان المعــاصر مــن تمزقــات وآلام ومــآس كثيرة،وينظــر النقــاد لأدب (كافــكا) عـلى كونـه مثـالًا لـلأدب الأسـود أدب التشـاؤم والحـزن والكآبـة والآلام..

تعرضت حياته لإخفاقات كثيرة وفشل عاطفي وانتهى به الأمر إلى أن مات بالسل عام ١٩٢٤م وهوفي سن الواحدة والأربعين.. تلك الظروف وما إليها قد أحدثت في نفسه ثورة ألم عظيم، وهم مقيم، وجعلته ينظر إلى الدنيا بعين كئيبة مظلمة قاتمة السواد.!

ولاشك أن ينعكس كل هذا الأسى على أجمل ما في حياته.. أدبه ومصنفاته، ففي الوصية التي تركها لصديقه (ماكس برود) قبل أن يموت.. أوصاه أن يحرق كل كتبه وأوراقه، لأنها بنظره لا فائدة منها ولا نفع لها.. لكن ماكس لم ينفذ هذه الوصية المحبطة، وسارع إلى الاهتمام بتراث صديقه ونشر إنتاجه، وعرّف به الدنيا وقدمه لمسارح أوروبا والعالم، ليصير (كافكا) عبر هذا الصديق المخلص من رواد الأدب العالمي الحديث.

ولكن القدر لم يحرم (كافكا) من تنفيذ وصيته بحرق كتبه، فبعد موته بسنوات جاء (هتلر) إلى الحكم كما أشرنا وأصدر أوامره بحرق كتب كافكا.. لأن مؤلفاته تصور الظلام النفسي الذي يمزق الناس، وكان هذا التصوير هوواقع الناس في ألمانيا قبل مجيء (هتلر) وبعد مجيئه كذلك.!

(إن الخلاف على طبيعة الكتب ومواقف الناس منها أمر طبيعي ومتوقع؛ غير أن هذا ليس سببًا لإحراقها ففي عام (٣٠٥) أصدر فقهاء قرطبة فتوى تحرم على الناس قراءة كتب أبي حامد الغزالي ومطالعة آثاره وأسفاره خاصة كتاب (الإحياء) بل وصل بهم الأمر أن

أفتوا بكفر من يقرأ هذا الكتاب أويطالعه..ثم سعى هؤلاء الفقهاء إلى استصدار موافقة من الحاكم المرابطي (ابن تاشفين) تقضي بحرق كتاب الإحياء، فجمعت نسخه في قرطبة وأتي بها، ولملمت من سائر مدن المغرب وتم إحراقها كما أراد فقهاء المغرب في هذا الوقت، وكان الغزالي وقتها يعيش في المشرق الإسلامي وعاجزًا كل العجز عن إنقاذ كتبه والدفاع عن نفسه.!

وليس صوابًا من يشمت بالإمام الغزالي ويقول بأنه فعل مع الفلاسفة والفلسفة نفس ما فعله معه هؤلاء الفقهاء، وفعله لم يكن وصاية على القراء أوعلى دينهم، وإنما هي مسؤولية يراها الرجل ألقيت عليه وواجبًا لابد له أن ينفذه، ثم إنه قبل ذلك فعل مالم يفعله هؤلاء الفقهاء، فقد ناقش آراء الفلاسفة في كتبه وعلمه وهدم نظرياتهم وأظهر تهافتها بعقله الجبار، أما هؤلاء الفقهاء فدفعهم إلى ما فعلوه إما حسدٌ وإما جهلٌ أوعصبية رعناء لرأي فقهي أوخلاف مذهبي.

وفي التاريخ نجد حوادث كثيرة أحرقت فيها كتب عدت وقتها خطيرة أومارقة في حين لا تبدولنا اليوم كذلك أوببساطة لا يهمنا أمرها.. ففي الصين مثلًا أحرقت سائر الكتب العتيقة عام (١٢٣ ق.م) التي لا تناسب أفكار الإمبراطور المقدس (بيتشي)، وفي آسيا الصغرى أحرقت مكتبة برغام التي تضم ٢٠٠,٠٠٠ كتاب بسبب موجة فكرية مخالفة، وفي بغداد قذف المغول بكتب (دار الحكمة) في نهر دجلة حتى

ازرق لونـه لمجـرد الجهـل بحقيقتهـا.. وحـين اقتحـم الرومـان قرطاجـة عـام ١٤٣ق.م أحرقـوا نصـف مليـون مجلـد مـن ذخائـر القرطاجيـين، كـما أحـرق الرومـان في مكتبـة الإسـكندرية والتـي كانـت تضـم أكـثر مـن (٧٠٠,٠٠٠) مجلـد لا نعلـم عنهـا شـيئًا، ذهـب بعضهـم لاتهـام العـرب بحرقهـا حـين دخـل عمروبـن العـاص لمـصر، ولكـن عـددًا مـن المؤرخـين أكـدوا أن الاتهـام خرافـة وأسـطورة فعمروبـن العـاص فتـح مـصر عـام ٦٤٢م وهووقـت لم تكـن مكتبـة الإسـكندرية موجـودة حتـى يحرقها حيث تـم إحراقهـا بالكامـل في عهـد يوليـوس قيـصر عـام ٤٨ق.م.. وكل هـذه الحـوادث مجـرد أمثلـة لتبيـان الكـم الهائـل مـن العلـوم القديمـة التـي فقـدت إلى الأبـد بسـبب لحظـة اختـلاف جنونيـة أوفـورة تعصـب فكريـة، والتـي لوبقيـت سـليمة لتسـارع رتـم الحضـارة وكنـا نقـضي إجازاتنـا الآن فـوق سـطح القمـر والمريـخ !

وليـس أدل عـلى تبـدل المواقـف مـن تغـير أفـكار الكاتـب نفسـه فيعمـد لحـرق كتبـه بيديـه، وهـذه مأسـاة مختلفـة؛ فسـقراط وأفلاطـون وديكارت وكونفشـيوس أحرقـوا كتبًـا ألفوهـا بأنفسـهم.

أمـا الكيميـائي السـويسري (براسـيلوس) فقـضى عمـره في محاولـة تحويـل الحديـد إلى ذهـب وحـين يئـس أحـرق - قبـل وفاتـه عـام ١٥٤١م جميـع مـا ألفـه في علمـي الكيميـاء والمعـادن..

أمـا في تاريخنـا فقـد نـدم (وهـب بـن منبـه) عـلى كتابـه (القـدر) فقـام بحرقـه علنـا، وكتـاب الإرجـاء للحسـن بـن محمـد بـن عـلي بـن أبي طالـب

الـذي قـال عنـه: (وددت لـوأني مـت ولم أكتبـه) وهنـاك عـلى الأقـل٣٧ عالمًـا وفقيهًـا ورد أنهـم أحرقـوا بعـض كتبهـم قبـل وفاتهـم مثـل ابـن سـينا وابـن فـروخ والمـاوردي والحـافي وابـن جبـير وسـفيان الثـوري وأبوعمروبـن العـلاء.)٦٥

ربمـا تحـرق الكتـب التـي يـرى القائمـون عـلى الأمـور أنهـا تخالـف فكـر الأمـة وتـضر بعقـل الإنسـان، ولكـن الحـرق في ذاتـه لا يعالـج أي مشـكلة ولا يمحـوأي رغبـة وإرادة في الاطـلاع والتواصـل خاصـة في عـصر الانترنـت والانفتـاح الفضـائي فـكل ممنـوع مرغـوب، وفي السـتينات أحـرق المصريون كتبهـم خوفًـا مـن أن ينسـب بعضهـم للجماعـات الدينيـة أوفكـرة مـن الأفـكار أوحـزب بعينـه يخالـف بتوجهاتـه أهـواء الحاكـم الطاغيـة الـذي اسـتخدم الإرهـاب لقمـع الفكـر والمعارضـين.

قـرأ (أنيـس منصـور) يومًـا كتابًـا تحـت عنـوان (نهاياتهـم العجيبـة) وهوالكتـاب الـذي تركتـه لـه صديقتـه الصعلوكـة الفرنسـية، كان الكتـاب يـسرد صـورًا مأسـوية لأدبـاء وشـعراء ومفكريـن أحـرق مخالفوهـم كتبهـم ففـي سـنة ١٥٥٣ أحرقـت فرنسـا المؤلـف (ميشـيل سرفيتـوس) مـع كل كتبـه، وأحـرق لويـس الرابـع عـشر مؤلفـات باسـكال عـام ١٧٣٤م وأكـثر الكتـب التـي أحرقـت في القـرن الثامـن عـشر في كل الـدول الأوروبيـة عـن مؤلفـات الفيلسـوف الفرنـسي (فولتـير)، وكتـاب (دراسـات في لغـة الجنس) للعـالم (هافيلـوك إليـس) ضبطتـه جـمارك نيويـورك فأحرقتـه أمـام عينـه،

65 – من مقال الرماد النفيس لفهد الأحمدي بصحيفة الرياض تاريخ ١٣/٢/٣١هـ

وفي ولاية ميسوري الامريكية أحرقت رواية (عناقيد الغضب) للكاتب الأمريكي (شتاينبيك) ورواية (عنبر إلى الأبد) للأديبة (كاثلين وينسور) أحرقتها الجمارك البريطانية .

أوحت هذه التصرفات لأنيس منصور أن يقرر لكتبه نهاية حينما قرر أن يقطع صلته بالماضي، وكان مزاجه في تلك المرحلة متوترًا غير مستقر، فكان أول ماجنى عليه كتبه، واختار لها نهاية تعيسة وقرر أن يدفنها في التراب ولا يبيعها للبائعين لأنه لا يطيق أن تتمزق أمامه،وأخذ يزرف عليها دموعًا كثيرة ووصف نفسه ساعتها بقوله: (كأنني واحد من الجاهلية رزق بنتا وهويكره البنات.. يراها عارًا فراح يدفنها حية، دفنت بناتي وأهلت الطين عليها) وأخذ يدفن المئات والمئات وكان الوأد وكانت الدموع، تصرف غامض للكاتب الكبير وإجراء شائك الملامح، لكنه على كل حال قد استراح نفسيًا بصنع هذه المأساة في شيء عزيز عليه.!

إن النفس حينما تتأزم ويعدوعليها الزمن، فإنها تستهتر بكل قيمة في حياتها وتأتي على كل عزيز لديها وهوما حدث لأبي حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه وتراثه الكبير النفيس حينما أصيب بالتعاسة والبؤس والخيبة، لقد كان فيلسوفا متصوفا أديبًا بارعًا من أعلام القرن الرابع الهجري نشأ يتيمًا فقيرًا وعانى شظف العيش ومرارة الحرمان وانتقل بعد موت والده إلى كفالة عمه الذي كان يكرهه ويقسوعليه ولما شب امتهن مهنة الوراقة التي أتاحت له التبحر

في العلـم والمعرفـة فصـار موسـوعي الثقافـة، وأراد أن يغـير مـن حياتـه ويخـرج مـن غياهـب فقـره، وأن يحظـى بعنايـة الأمـراء ورعايـة الـوزراء، فاتصـل بكثـير منهـم رجـاء أن يكافئـوه عـلى إنتاجـه وعلمـه، لكنـه كان يعـود بعـد كل هـذا صفـر اليديـن خائـب الآمـال مـما ولَّـد لديـه حالـة مـن الإحبـاط الدائـم واليـأس المسـتمر والنقمـة عـلى الحيـاة ومـن فيهـا، فلـم يجـد سـبيلًا يـرضي بـه نفسـه البائسـة إلا أن ينتقـم مـن كتبـه التـي رأى أنـه لا نفـع منهـا، حيـث لم تجـر عليـه أي شيء، كـما رأى أن يضـن بهـا عـلى مـن لا يعرفـون قيمتهـا ولا يقـدرون مقامـه، فجمعهـا وأحرقهـا ولم يسـلم منهـا غـير نـذر يسـير نقـل قبـل الإحـراق..!

ويرجـع بعضهـم الـسر فيـما لاقـاه التوحيـدي مـن إعـراض عـصره عنـه ومـا عـاش فيـه مـن عنـاء وفشـل إنمـا يعـود إلى طباعـه وسـماته حيـث كان مـع علمـه وذكائـه وفصاحتـه وأدبـه واسـع الطمـوح شـديد الاعتـداد بالنفـس سـوداوي المـزاج وغيرهـا مـن الصفـات والعوائـق التـي جلبـت الإعـراض عنـه، وسـببت لـه المتاعـب ووضعـت العوائـق والصعـاب في طريقـه، وحالـت دون وصولـه لبغيتـه وتحقيـق طموحـه.. وكان مـما قـال يصـف بـه حاله:(فقـدت كل مؤنـس وصاحـب ومرافـق ومشـفق، ووالله لربمـا صليـت في الجامـع، فـلا أرى جنبـي مـن يصـلي معـي، فـإن اتفـق فبقـال أوعصـار أونـداف أوقصـاب، ومـن إذا وقـف إلى جانبـي أسـدرني بصنانـه، وأسـكرني بنتنـه، فقـد أمسـيت غريـب الحـال، غريـب اللفـظ، غريـب النحلـة، غريـب الخلـق، مستأنسًـا بالوحشـة، قانعًـا بالوحـدة

معتـادًا للصمـت ملازمًـا للحـيرة محتمـلا لـلأذى يائسًـا مـن جميـع مـن تـرى)

ولم يبـق مـن كتبـه التـي ألفهـا وتبلـغ العشريـن إلا القليـل، ولم يطبـع منهـا إلا المقابسـات والصداقـة والصديـق ورسـالة في العلـوم ومـا بقـي منهـا مخطوطًـا.

كتب ممنوعة !

الكتاب دومًا عدوالمستبدين وخصم المتسلطين، ينال منهم العقوبة والاعتقال قبل كاتبه، ففي عهد عبد الناصر كانت الكتب الفكرية تُصادر ويعدم كتابها ويزج بهم في السجون، ويلقون بسببها أشد أنواع التعذيب والاعتقال، وكان البيت الذي يجدون فيه كتابًا يجرمونه، فيا ويل صاحبه ومالكه الذي يذهبون به خلف الشمس لا يعرف طريقه أحد..

يقول ألبرتومانغويل في كتابه تاريخ القراءة:(إن الحكام الدكتاتوريين يخافون الكتب أكثر من أي اختراع بشري على الإطلاق، ولذا نرى أن القوة المطلقة لا تسمح إلا بنوع واحد من القراء، أي النوع الرسمي، وبدل المكتبات الكاملة المملوءة بالآراء المتنازعة لا يراد الارتقاء إلا على كلمة الحاكم بأمره)

(مارتن لوثر) قسيس ألماني وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران ورفضه أن يكون البابا وحده له القول الفصل عند تفسير الكتاب المقدس، معتبرًا أنّ لكل امرئ حق التفسير، وطالب السماح للقسيسين بالزواج، بل تزوج هومن إحدى الراهبات، هذا كله أدى به للنفي والحرم الكنسي، وإدانته مع كتاباته بوصفها هرطقة وخارجة عن القوانين.

يناير- ٢٠١٦

وردًا على هـذه الجرأة حظـرت مؤلفـات (لوثـر) واعتـبر كزنديـق سـيئ السـمعة، وجرمـت الكنيسـة كل مواطـن في ألمانيـا يؤويـه أويقـدم لـه مساعدة، كـما أُهـدر دمـه بمعنـى أن قتلـه العمـد لـن يتسـبب بـأي أثـر قانوني..هـذا كلـه قبـل أن تسـتقر الكنيسـة البروتسـتانتية، ويصبـح (مارتـن لوثـر) أحـد رمـوز الإصـلاح وعـصر التنويـر الأوروبي، ويكـرم في جميـع المـدن والمحافـل والمتاحـف كأبـرز الذيـن أشرعـوا بوابـة عـصر الأنـوار داخـل قـلاع العصـور المظلمـة الأوروبيـة ومحاكـم التفتيـش.)[٦٦]

وهنـاك كثـير مـن الشـخصيات في تاريخنـا الإسـلامي صـوردت كتبهـم وحُظـر نشرهـا أوقراءتهـا مثـل (الكنـدي) الفيلسـوف الكبـير الـذي احتفـى بـه الخليفـة المأمـون والمعتصـم، لكـن الخليفـة المتـوكل أمـر بضربـه ومصـادرة كتبـه، واتهـم بالزندقـة وكان يدافـع عـن نفسـه: بـأن أعـداء الفلسـفة جهلـة وأغبيـاء وتجـار ديـن.

(الفـارابي) الـذي يعـرف عنـد الغـرب بـ(ALpharabius) ألف في الفلسـفة والمنطـق والطـب والموسـيقى وحـاول أن يثبـت أن لا خـلاف بـين الفلسـفة اليونانيـة والشريعـة الإسـلامية، كفـره الفقيـه الغـزالي هووابـن سـينا، ومنعـت كتـب ابـن رشـد والغـزالي وغيرهـم كثـير مـن المفكريـن والعباقرة.

ثـم هـل تتخيـل.. أنـه في زمـن مـن الأزمـان كانـت قـراءة الأدب واقتنـاء كتبـه عمـلًا مسـتنكرا يـكاد يصـل إلى درجـة المنكـر، وكان المجتمـع المـصري

66- صحيفة الرياض -الاثنين ١٦ ذي القعدة ١٤٣٦ هـ - ٣١ اغسطس ٢٠١٥م - العدد ١٧٢٣٤,

مـع بواكـير النهضـة الأدبيـة يعدهـا ترفًـا مفرطًـا وصـورة مـن صـور العيـب والفجـور.. وإذا أخـبر المعلـم عـن طالـب أنـه يقتنـي كتابًـا أدبيًـا أويقـرأ فيـه فإنـه يعنفـه ويزجـره بشـدة وكان بعضهـم يخفـي النظـرات للمنفلوطـي في ثيابـه حتـى لا يراهـا أحـد فيـشي بـه أويتقـول عليـه.!

وحينـما سـافر المويلحـي إلى فرنسـا وكتـب (حديـث عيـسى بـن هشـام) وصـور فيـه البيئـة المصريـة عـلى طريـق مقامـات الحريـري، ذهـب النـاس إلى والـده وكان مـن علـماء الأزهـر وعاتبـوه عتابًـا شـديدًا عـلى مـا كتبـه ولـده واسـتنكروا هـذا الحـدث وتصـوروه بدعـة شـديدة.. وحينـما عـاد (محمـد حسـين هيـكل) وكتـب روايـة (زينـب) لم يكتـب عليهـا اسـمه، لأنـه خـشي عـلى مهنتـه ووضعـه الاجتماعـي، وحـذرًا مـن أن ينالـه المعارضـون بالنقـد الـلاذع، فلـم يجـد إلا أن يوقـع عليهـا باسـم (فـلاح مـصري) وكان الآبـاء والمعلمـون والشـيوخ والمجتمـع كلـه ينكـر هـذا اللـون مـن القـراءات ولا يعـده فسـادًا في الـذوق وإنمـا فسـادًا في الأخـلاق .!

وكان الأسـتاذ (توفيـق الحكيـم) واحـدًا مـن هـؤلاء الذيـن عاينـوا مـرارة هـذا الحظـر المحكـم، الـذي جعلـه يتخفـى عـن الأعـين ليقـرأ مـا تتـوق إليـه نفسـه، حتـى كاد هـذا التخفـي أن يحـدث في بيتـه كارثـة كبـيرة، يقـول الحكيـم: (إني عندمـا أجـد اليـوم كتـب الأطفـال الملونـة بمـا فيهـا مـن قصـص وأسـاطير دينيـة وتاريخيـة ومغامـرات خياليـة، عندمـا أجـد في متنـاول يـد ابنـي وقتـما كان في السادسـة والسـابعة والثامنـة قصـص

الأنبيـاء ملونـة بالرسـوم في أسـلوب لطيـف وقصـص الفراعنـة واليونـان والعـرب، والإليـاذة والأوديسـا كلهـا ومغامـرات (سـويفت) و(روينسـون كـروزو) وأقاصيـص اندرسـن وغـير ذلـك مـن المطالعـات الممتعـة الموسـعة للخيـال مبسـطة سـهلة التنـاول، أغبـط هـذا الجيـل، بـل إني عندمـا أرى الروايـات والقصـص والمسرحيـات يقرؤهـا الشـباب دون رقابـة أواعـتراض مـن أوليـاء الأمـور، بـل عـلى العكـس أصبحـت قراءتهـا اليـوم مـما ينصحـون بـه ويدفعـون إليـه عـلى اعتبـار أنهـا مطالعـات جديـة محترمـة، بعـد أن ارتفعـت اليـوم كلمـة الروايـة أوالقصـة المسرحيـة إلى مواضـع التبجيـل لـدى النـاس جميعـا مـن رسـميين وآبـاء عندمـا أرى ذلـك كلـه، أغبـط كذلـك شـباب هـذا الجيـل وأطالبـه أيضـا بـأن يقـرن مـا حبتـه بـه العصـور الحديثـة مـن معاونـة وتيسـير بإجـادة منـه أكـثر وإتقـان أعظـم، فهـولم يتخبـط عـلى الأقـل في مطالعتـه، ولم يجـد مـن يقـف في طريـق سـيره العقـلي الطبيعـي.

إني كنـت أتخفـى بمطالعـاتي القصصيـة عـن عيـون أهـلي، كـما لوكنـت أرتكـب وزرًا مـن الأوزار مـع أنهـا في أغلبهـا كانـت عـلى مسـتوى جيـد مـن حيـث التأليـف والترجمـة، كنـت أتسـلل حامـلًا الكتـب لأقرأهـا تحت سريـري، كان ذلـك السريـر مفروشًـا بملاءة تتـدلى أطرافهـا إلى الأرض حاجبة مـن يتخفـى تحتـه كأنهـا سـتارة مسـدلة، فـما كان أحـد يـراني أويكتشـف مـكاني، لكـن تلـك الملاءة أوالسـتارة كانـت تحجـب عنـي النـور، فـما كنت أبـالي أحيانًـا وكنـت أمـضي أقـرأ في الظـلام حتـى أعجـز عـن تمييـز الأسـطر، فأخـرج خفيـة وأحـضر شـمعة أشـعلها وأعـاود القـراءة عـلى ضوئهـا،

هكـذا كانـت تسـير الأمـور، إلى أن حـدث ذات يـوم أن جـاء موعـد الغـداء فجعلـوا ينـادون عـلي وأنـا مسـتغرق في قـراءتي، ثـم فطنـت إلى ندائهـم المتكـرر، فخرجـت مـن تحـت السريـر مهـرولًا تـاركًا مـن ارتبـاكي الشـمعة موقـدة وبينـما نحـن منهمكـون في طعامنـا إذا بـصراخ يتعـالى في الطريـق والجـيران يتصايحـون، حريقـة.. حريقـة! فارتاعـت والـدتي وأرادت النهوض لتتحـرى الخـبر، فأجلسـها والـدي مطمئنـا قائـلًا: لا ترتاعـي إنهـا ولا شـك حريقـة في الشـارع بأحـد الحوانيـت الصغـيرة والجـيران والمـارة مـن دأبهـم التهويـل! لكـن. لم تمـض لحظـة حتـى كان الطـرق عـلى بابنـا نحـن والنـاس يصيحـون بنا:عندكـم حريقـة، وهنـا أفـاق أهـلي ونهضـوا فزعـين مرتاعـين يبحثـون في أنحـاء المنـزل، وإذا الحجـرة التـي أنـام فيهـا هـي قـد تصاعـد منهـا الدخـان وتأجـج فيهـا اللهـب وظـل الجميـع يكافحـون النـيران حتـى أطفئـت، وظـل والـدي يبحـث عـن سـبب هـذا الحريـق ويتحـرى بدقتـه وتحقيقـه وأنـا سـاكت منكمـش لا أنبـس بحـرف)[٦٧]

حتــى وهوكبــير.. تخفــى عــن النــاس حتــى لا يعرفــوا أنــه هوالأديــب (توفيـق الحكيـم)، ورفـض نـشر رواياتـه وحينـما نـشرت كان ينكـر أنـه توفيـق الحكيـم المطبـوع اسـمه عـلى الغـلاف!

كان الإمـام الشـافعي رحمـه اللـه في حداثـة سـنه نهـمًا في طلـب العلـم، جـادا في تحصيلـه، يغريـه منـه كل غريـب ويتـوق فيـه إلى كل نـادر، وقـد رأى في حداثـة سـنه أن يطلـب علـم الفراسـة ويمارسـها ممارسـة عمليـة،

67 – توفيق الحكيم يتذكر – جمال الغيطاني

فلازم الأعراب في البادية وهوصغير، ثم أخذ كتبها من اليمن ومما قال: (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتها جميعًا)[68]

وكان وهوحدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه، ومما يروى عن براعته في ذلك أنه جلس يومًا مع رجل كانت زوجه تعاني من طلق الولادة.. فحسب لذلك وقال: تلد جارية عوراء، على فرجها خال وتموت لكذا، فولدت فكان كما قال، فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبدًا ، ثم دفن تلك الكتب التي نقلها من اليمن.

وأخرج الحاكم عن طريق حرملة قال: كان الشافعي ينظر في كتب النجوم، وكان له صديق، فذكر القصة وقتها فقال: تلد إلى سبعة وعشرين يومًا، وقال: في فخذه الأيسر خال أسود، يعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت فجأة، وقال فيها، فأحرق الشافعي تلك الكتب وما عاد ينظر في شيء من ذلك.

وقد تخلص الشافعي من هذه الكتب لأنها خطيرة، ولووقعت في يد مرضى القلوب لربما خدعوا بها الناس وصوروا لهم أنهم على علم بالغيب والتأويل، ليكونوا فتنة للناس في عقيدتهم ودينهم، والشافعي إمام جليل ما كان له أن يضل الناس أويفتنهم عن دينهم، ورغم حَرقِهِ لهذه الكتب، إلا أنه مارس الفراسة في بعض المواقف وهي مما أفاده في معرفة الناس والوقوف على طبائعهم وسماتهم،

68 – الوافي بالوفيات

ومنها بل من أطرفها ما رواه الحميدي وهومن أئمة الحديث قال نقلا عن الشافعي:(خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها، ثم لما حان انصرافي، مررت على رجل في طريقي؛ وهومحتب بفناء داره، أزرق العينين، ناتيء الجبهة سناط- لا لحية له- فقلت له: هل من منزل ؟ فقال: نعم قال الشافعي: وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة، فأنزلني فرأيت أكرم رجل، بعث إلي بعشاء وطيب، وعلف لدابتي وفراش ولحفًا، فجعلت أتقلب الليل أجمع،ما أصنع بهذه الكتب ؟

إذ رأيت هذا النعت في هذا الرجل، فرأيت أكرم رجل، فقلت: أرمي بهذه الكتب، فلما أصبحت قلت للغلام: أسرج فأسرج، فركبت ومررت عليه، وقلت له: إذا قدمت مكة، ومررت بذي طوى، فسل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي .

فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا؟! قلت: لا.

قال: فهل كانت لك عندي نعمة؟! فقلت:لا.

فقال: أين ما تكلفت لك البارحة ؟ قلت: وما هو؟

قال:اشتريت لك طعاما بدرهمين، وإدامًا بكذا، وعطرًا بثلاثة دراهم، وعلفًا لدابتك بدرهمين، وكراء الفراش واللحاف درهمان.

قال: قلت: يا غلام أعطه، فهل بقي من شيء؟

قال: كراء المنزل، فإني وسعت عليك وضيقت على نفسي، قال الشافعي: فغبطت نفسي بتلك الكتب، فقلت له بعد ذلك: هل

بقـي مـن شيء ؟

قال امض، أخزاك الله فما رأيت قط شرا منك)[69]

وروى المـزني قـال: كنـت مـع الشـافعي في الجامـع إذ دخـل رجـل يـدور عـلى النيـام، فقـال الشـافعي للربيـع: قـم فقـل لـه: ذهـب لـك غـلام عبـد أسـود مصـاب بإحـدى عينيـه؟

قـال الربيـع: فقمـت إليـه فقلـت لـه، فقـال: نعـم، فقلـت تعـال، فجـاء إلى الشـافعي، فقـال: أيـن عبـدي؟ فقـال: مـر تجـده في الحبـس، فذهـب الرجـل فوجـده في الحبـس، قـال المـزني: فقلـت لـه أخبرنـا فقـد حيرتنـا! قـال: نعـم، رأيـت رجـلًا دخـل مـن بـاب المسـجد، يـدور بـين النيـام، فقلـت: يطلـب هاربًـا ورأيتـه يجـيء إلى السـودان دون البيـض، فقلـت: هـرب لـه عبـد أسـود، ورأيتـه يجـيء إلى مـا يـلي العـين اليـسرى، فقلـت: مصـاب بإحـدى عينيـه، قلنـا: فـما يدريـك أنـه في الحبـس ؟قـال الحديـث في العبيـد، إن جاعـوا سرقـوا وإن شـبعوا زنـوا، فتأولـت أنـه فعـل أحدهـما، فـكان كذلـك.

وهـذا الموقـف مـن أروع الـدلالات التـي تؤكـد عـلى عقليـة الشـافعي الباهـرة وحسـن اسـتنباطه وذكائـه الحـاد.!

مـا أقـسى أن يحـرم الإنسـان مـن كتـاب يهـواه وتتـوق إليـه نفسـه

69- آداب الشافعي ومناقبه (129)

للتقليب في صفحاته، وهونوع قاس من الحرمان لا يشعر به إلا من يعرفون قيمة القراءة، ويعشقونها كهواية.

الكاتبة السعودية (نبيلة محجوب) تذكر تلك المرحلة من صباها التي حُرمت فيها من الكتب التي تهواها فتقول: (بدأت أتعرف على الكتب خارج الكتاب المدرسي، فكان الطريق إليها محفوفًا بالمخاطر، الحيلة وسيلتنا للقراءة، ليصفولنا الجوساعة بصحبة ديوان شعر لنزار قباني أورواية لنجيب محفوظ أوإحسان عبد القدوس، نخفيها في حقائبنا المدرسية عندما كان صيفنا في ربوع الطائف، هووجهة السفر الوحيدة لمعظم المكيين)

وكما قيل:(الكتاب له جلاله وله شخصيته المحترمة، وهوزورق محكم الصنع، يعبر بك خضم العلوم بشتى ألوانها وطعومها وأعماقها ونكهاتها.. وهوبحجم المضمون.. بحجم ما فيه من معلومة فهوسائح يمخر بك أمواجًا بعضها متلاطمة وبعضها هادئة ساجية)

كتب خلف القضبان

شيء جميل ورائع ما فعلته رومانيا لتشجيع الإبداع والتأليف وإثراء عالم الكتب حيث تسمح اللائحة القانونية التي وضعت منذ عام ١٩٦٩م بإعفاء السجناء أصحاب المؤلفات من السجن ٣٠ يومًا عن كل كتاب يؤلفونه بالسجن، وذلك إذا نشرت لهم كتب علمية ذات قيمة علمية.. لكن سرعان ما اعتزمت رومانيا لإلغاء هذه اللائحة، وقالت وزيرة العدل (روالوكا برونا) في بوخارست: أنها تعتزم التقدم بشكل عاجل لمجلس الوزراء بلائحة جديدة بهذا الشأن.. فماذا حدث ياترى حتى تلغى هذه اللائحة الرائعة ؟

في السنوات الأخيرة في رومانيا شهدت تزايد أعداد السجناء الذين ألفوا الكتب في السجون، حيث بلغ عدد هذه الكتب عام ٢٠١١ م ثلاثة كتب ليتصاعد بشكل صاروخي في عام ٢٠١٥م إلى ٣٤٠ مؤلف، ويعود هذا التزايد الملحوظ في إبداع تأليف الكتب للسجناء في رومانيا، إلى الحملة القوية التي شنتها الحكومة ضد الفساد عام ٣١٠٢م مما أدى لإدانة آلاف السياسيين والمسؤولين البارزين ورجال الأعمال وسجنهم.. !

وهنا ظهر السبب الرئيسي لهذا الشطط الكبير في عالم التأليف والكتابة، حيث أجرى الادعاء تحقيقات ضد دور نشر وجامعات وأساتذة جامعيين للاشتباه في تقديم مزايا للسجناء الذين ألفوا كتبًا أثناء فترة قضاء العقوبة، وذلك لأن القانون الحالي يوجب بحصول

الكتاب على شهادة من متخصص بأن الكتاب له قيمة علمية تستحق أن يعفى صاحبه من السجن لمدة ٣٠ يومًا.

الفكرة طريفة وهامة وداعمة لمسيرة الإبداع ولكن يد الفساد قضت عليها حينما جعلتها مطية لبراءة المدانين.

من المؤلفين الكبار من ارتفعوا فوق جدران السجون والسلاسل، فكتبوا وهم في الأغلال وكانت كتبهم إعلانا بأنهم أعلى وأقوى من كل القيود..!

الأديب الإسباني (سرفانتس) كتب روايته الرائعة (دون كيشوت) في السجن..

وأوسكار وايلد كتب (من الأعماق) وهوفي السجن..

والعقاد كتب (عالم السدود والحدود) في السجن..

السجن والاعتقال بلاء وكرب يصيب الإنسان بالوحشة واليأس والقنوط، لكنه عند أهل الفكر والثقافة والعلم شيء آخر وشعور آخر.! فقد يعتبره بعضهم فترة استجمام أوخلوة أوفرصة للقراءة والبحث والتأمل، وفي تاريخ المكتبة العربية نجد كتباً كثيرة ألفت في غياهب السجون أوسجلت أفكارها في قاع الزنازين، وكانت قمة في الإبداع حينما اختمر مدادها الذي كتبت به مع محنة صاحبها ونفسه وآلامه وبلائه.

لقـد كان الإمـام (ابـن تيميـة) رحمـه اللـه مـن أولائـك الذيـن ألفـوا وأبدعـوا كثـيرًا في سـجنهم، وكان السـجن لـه فرصـة كبـيرة لينشـغل بالمطالعـة والتأليـف وتنقيـح مـا كتـب مـن مؤلفـات ورسـائل، لقـد ألـف في محبسـه كثـيرًا مـما يتصـل بتفسـير القـرآن كـما ألـف الرسـائل ورد عـلى بعـض المسـائل، وكان يـرد ويجيـب عـلى مـا يـرد إليـه مـن الخـارج مـن الأسـئلة العلميـة والاسـتفتاءات الفقهيـة..

واسـتمر الشـيخ في ذلـك العطـاء العلمـي في سـجنه، حتـى صـدر قـرار شـكل ضربـة قويـة للثقافـة الإسـلامية وإضرارًا كبـيرًا بحريـة الفكـر والبحـث.. يقـول أبوالحسـن النـدوي في كتابـه القيـم عـن الإمـام ابـن تيميـة:

(كان النـاس يتلقفـون كل مـا كان يكتبـه الشـيخ في المحبـس، ويصـل مـن أقـصى البـلاد إلى أقصاهـا، ومـن بـين مـا كتبه الشـيخ من الرسـائل والمسـائل في حبسـه رسـالة في موضـوع مسـألة الزيـارة ردًا عـلى أحـد قضـاة المذهـب المالـكي في مـصر القـاضي عبداللـه بـن الإخنـائي، أثبـت فيهـا أن القـاضي المذكـور رجـل قليـل البضاعـة في العلـم، فاشـتكى القـاضي إلى السـلطان وأبـدى سـخطه واسـتنكاره، فأصـدر السـلطان مرسـومًا يـصرح بمصـادرة جميـع مـا عنـد الشـيخ مـن أدوات الكتابـة والكتـب، حتـى لا يبقـى عنـده مـا يسـتعين بـه عـلي التأليـف والكتابـة، ونفـذ المرسـوم وصـودرت أدوات الكتابـة والدراسـة مـن الشـيخ باسـم الحكومـة وأرسـلت جميـع مسـوداته

وأوراقه من المحبس إلى المكتبة الكبرى وكان ذلك نحو٠٦ مجلدا من الكتب وأربع عشرة ربطة كراريس كان يشتغل بها دراسة وتأليفًا)

وبعد هذا القرار العنيف ما كان لابن تيمية أن يستسلم لجورهم ولم يفزعه شيء من تسلط السلطان عليه، ولم يفكر حتى أن يرفع شكواه إلى الحكومة، فحينما أخذوا منه أدوات الكتابة فكر أن يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة، ووجدت له عدة رسائل وكتابات مكتوبة بالفحم، وظلت على حالتها محفوظة.. وما حدث لابن تيمية نوع من الحصار الفكري أوالمصادرة الفكرية، ومن باب كتم العلم الذي لا يتحمل وزره إلا من منعوه، وما كانت مقاومته لذلك إلا نوعًا من الجهاد استحسنه واستعذب النضال فيه راضيًا شاكرًا حتى أنه قال يصف حالته: (ونحن والحمد لله في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان والجبلية، والجهمية والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد أملى (السرخسي) كتابه المبسوط في نحو٥١ مجلد وهوفي السجن بأوزجند من بلاد ما وراء النهر، وسبب حبسه أن حاكم البلدة التي كان فيها واسمها أوزجند، تزوج جارية قبل أن يستبرأها.. فسئل السرخسي عمن فعل ذلك؟ فقال: فعله حرام لا يجوز ونكاحه باطل، فغضب منه الحاكم وسجنه في بئر هناك،وبقي محبوسًا نحوًا من عشر سنين، فسأله الطلاب وهوفي السجن أن يشرح لهم كتاب

محمـد بـن أحمـد المـروي، وهوأحـد متـون الأحنـاف المهمـة؛ فأجابهـم لذلـك رحمـه اللـه، وأمـلى كتابـه المبسـوط نحـوًا مـن عشريـن مجلـدًا وقيـل خمسـة عـشر مجلـدًا وهـوفي السـجن بأوزجنـد، وطبـع الكتـاب في ١٣ مجلـدًا.. .!!

وقـال عنـد فراغـه مـن شرح العبـادات (هَـذَا آخِـرُ شَرْحِ الْعِبَـادَاتِ بِأَوْضَـحِ الْمَعَـانِي وَأَوْجَـزِ الْعِبَـارَاتِ، أَمْـلَاهُ الْمَحْبُـوسُ عَـنْ الْجَمْـعِ وَالْجَمَاعَـاتِ مُصَلِّيًـا عَـلَى سَـيِّدِ السَّـادَاتِ مُحَمَّـدٍ الْمَبْعُـوثِ بِالرِّسَـالَاتِ وَعَـلَى أَهْلِـهِ مِـنْ الْمُؤْمِنِـينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ، تَـمَّ كِتَـابُ الْمَنَاسِـكِ وَلِلَّـهِ الْمِنَّـةُ وَلَـهُ الْحَمْـدُ الدَّائِـمُ الَّـذِي لَا يَفْنَـى أَمَـدُهُ، وَلَا يَنْقَـضِي عَـدَدُهُ).

وقـال في شرح الإقـرار: انتهـى شرح الإقـرار المشـتمل عـلى المعـاني عـلى مـا هومـن الإسرار أمـلاه المحبـوس في محبـس الأشرار..ولـه كتـاب في أصـول الفقـه وشرح السـير الكبـير، أمـلاه وهـوفي الجـب، ولمـا وصـل إلى بـاب الـشروط حصـل لـه الفـرج فأُطْلِـق.

وهـذا (أحمـد بـن عـلي بـن هبـة اللـه الـزوال) المتـوفى سـنة سـت وثمانـين وخمـس مائـة، تـولى القضـاء سـنة ٥٣٤ ولمـا تـولى المسـتنجد حبـس القضـاة وبقـي ابـن المأمـون في الحبـس إحـدى عـشرة سـنة، وأخـذ جميـع مـا يملكـه وكتـب في الحبـس ٨٠ مجلـدة منهـا (الجمهـرة) لابـن دريـد مجلـدان، و(شرح سـيبويه) ثـلاث مجلـدات، و(إصـلاح المنطـق) محـشى مجلـدة، و(الغريبـين) للهـروي مجلـدة، و(أشـعار الهذليـين)، ثـلاث مجلـدات، و(شـعر المتنبـي) مجلـدة، و(غريـب الحديـث) لأبي

عبيد مجلدتان، وأشياء غير ذلك، وهذا الشاعر (عبدالملك بن غصن الأندلسي)، من أهل وادي الحجارة، حبسه حاكم (طليطلة)، وصنف وهوفي مدة حبسه كتابه (السجن والمسجون، والحزن والمحزون)، ضمنه ألف بيت من شعره، وسماه أيضًا رسالة: (السر المكنون في عيون الأخبار وتسلية المحزون)، وتنقل بعد إطلاقه من السجن بين بلنسية وقرطبة، وتوفي بغرناطة.

وذكر (الزر كلي) في (الأعلام) خبر ابن قاضى (سماونة) وهوفقيه حنفي، متصوف، من القضاة، كان أبوه قاضيًا بقلعة سماونة في سنجق كوتاهية بتركيا،التي ولد وتعلم بها، ورحل إلى قونية ثم إلى مصر، وحج وتصوف، ورحل إلى تبريز مرشدًا فأكرمه فيها الأمير تيمورخان، وعاد إلى مصر فبلاد الروم واستقر في أدرنة، وكان بها والداه، فنصب قاضيًا للعسكر، وحبس في وشاية ففر، وصار إلى (زغرة) من ولاية (روم ايلي) فاتهم بأنه يريد السلطنة، فأُخذ وقتل بسيروز، له كتب منها: (لطائف الإشارات) في فقه الحنفية، ألفه ثم شرحه بكتاب سماه (التسهيل) وهوسجين في (أزنيق)، وذكر الزركلي كذلك خبر (محيي الدين بن خير الدين أبوالكلام آزاد) أحد زعماء المسلمين في الهند في فترتها التحررية، وهومفسر وخطيب، ولد بمكة وتعلم بالأزهر ودرس على علمائه، وعاد إلى وطن أبيه (الهند) فسكن كلكتة، وأنشأ فيها مجلة (الهلال) باللغة الأردية (سنة ١٩١٢م)، وهاجم الاستعمار البريطاني فاعتقله الإنكليز في رانتجي (سنة ١٩١٤م) فألف (تفسيرًا) للقرآن الكريم في ١٥ جزءًا بالأردية، وأطلق من معتقله (١٩٢٠م)،

فأنشأ مجلة (البلاغ)، وتكرر اعتقال البريطانيين له، فأمضى في السجن أحد عشر عامًا لم يصرفه عن هدفه في مقاومة الإنجليز، وصنف في السجن كتابه (التذكرة) بالأردية، وهوالذي سجل فيه فلسفته الثورية وعقيدته السياسية.. وهناك نماذج كثيرة في تاريخ سلفنا الصالح رضوان الله عليهم من ألفوا كتبًا هامة ومؤثرة في فترة اعتقالهم، وقدر لبعض الزنازين أن تكون المهد الأول لكتب علمت الناس وأثرت في فكر الأمة وكان لها قيمتها العلمية الكبيرة .

والمجاهدون من العلماء والدعاة قديمًا وحديثًا يتجددون مع تجدد الصراع بين الحق والباطل بنفس الروح وبنفس العزيمة وبنفس اليقين والإيمان وفي العصر الحديث لم يقدم هذه الصورة النادرة العظيمة إلا علماء ودعاة جماعة (الإخوان المسلمين) وكأن هذا إرهاصًا بأنهم حملة الحق وأهل الصدق، وورثة هذا الإرث الزكي من جهاد السابقين وبلائهم،فمن هذا كتاب (في ظلال القرآن) لصاحبه الشهيد (سيد قطب) الذي قيل فيه:(التفسير الذي هرب في صدور النساء) حيث منع المجرمون عنه الأوراق والأقلام لكي لا يكتب خواطره أوأفكاره التي هي عليهم أشد من جلد السيوف ولسع السياط..وما سجن إلا لهذه الأفكار.!

قال فيه أخوه الأستاذ المفكر الكبير (محمد قطب) رحمه الله: (الكتاب الذي عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيانه كله.. وعاشه لحظة لحظة، وفكرة فكرة، ولفظة لفظة.. وأودعه خلاصة

تجربتـه الحيـة في عـالم الإيمـان) ولقـد عـاش مـع هـذا الكتـاب مـدة ٢٥عامًـا وقـدر للجـزء الأكـبر منـه أن يخـط سـطوره في غياهـب السـجون الناصريـة.

ومـن أروع الكتـب التـي أُلفـت عـن سـيدنا (عمر بـن الخطـاب) ﵁كتاب (شـهيد المحـراب عمـر بـن الخطـاب) للأسـتاذ (عمـر التلمسـاني) رحمـه اللـه وقـد قـال في مقدمتـه: (كان مـن فضـل اللـه تعـالى أن دونـت مسـودات هـذا الكتـاب بـين سـجون أربعـة: الليـمان وقنـا وأسـيوط ومعتقـل مزرعـة طـره، وكانـت إشراقـات ابـن الخطـاب بعـد الركـون إلى جانـب اللـه، مـن باعثـات الطمأنينـة إلى القلـب والرضـا بقـدر اللـه حلـوه ومـره عـن طواعيـة واقتنـاع.. وهوكتـاب لوألهـم اللـه حـكام المسـلمين أن يقـرأوه لـكان في هـذا خـير كبـير لهـم، يثبـت أركان حكمهـم ويحبـب فيهـم شـعوبهم ويجمـع القلـوب حولهـم، يغنيهـم ذلـك عـن كثـير المعاناة والإنفـاق في تثبيـت أركان تلـك العـروش المهتـزة المتقلقلـة التـي يبيـت أصحابهـا عـلى وجـل إذا أصبحـوا سـألوا أنفسـهم هـل سـيبيتون، وإذا باتـوا سـألوا أهلوهـم هـل سـيصبحون؟!)

ونـأتي إلى المغامـر الكبـير صاحـب كتـاب (حينـما غابـت الشـمس) هـذا السـفر العظيـم الـذي يحـكي أتعـس حقبـة مـرت بمـصر.. إنـه الأسـتاذ(عبد الحليـم خفاجـة) رحمـه اللـه مـن الرعيـل الأول لجماعـة (الإخـوان المسـلمين) وكيـف خـاض هـذه التجربـة المثـيرة حينـما عـزم تأليـف كتابـه وهـوفي السـجن؟ وكان يـدرك تمـام الإدراك أن هـذا العمـل لوكشـف

لعجـل بشـهادته وموته،فالورقـة والقلـم كانـت تهمـة يلقـى صاحبهـا العنـت الشـديد ومـا أدارك وهويـدون في هـذه الأوراق صـورًا مزريـة مـن إهانـة الإنسـان لأخيـه الإنسـان،ويحكي مشـاهد مؤلمـة لهـذا النظـام الجبـان وطاغيتـه الـذي حـارب الإسـلام وذبـح دعاتـه، وسـجنهم البقيـة في المعتقـلات، كانـت محاولـة الأسـتاذ خفاجـة في هـذا الكتـاب الخطـير محاولـة جريئـة وشـجاعة وغـير مسـبوقة ومـا كان يملـك مـن أمـر نفسـه شـيئًا فقـد كان هنـاك نـداء مـن داخلـه يلـح عليـه بالـشروع في عمليـة التدويـن وكانـت قصـة مدهشـة نتركـه وحـده يحكيهـا لنـا حتـى نـرى حجـم المجازفـة ومـدى الخطـورة.

يقـول الأسـتاذ (عبـد الحليـم خفاجـة) في مقدمـة كتابـه (حينـما غابـت الشـمس): (الفضـل للـه تعـالي وحـده، ثـم لاثنـين مـن الأخـوات في إخـراج هـذه المذكـرات، مـن الظلـمات إلي النـور، في وقـت كان يجـبن فيـه عـن التضحيـة أشـجع الرجـال.. الأولي هـي الأخـت أم جهـاد زوجـة أحـد الأخـوة المعتقلـين، والثانيـة هـي الأخـت نفيسـة زوجـة الشـهيد أحمـد نصـير.. الأولي غامـرت بتهريبهـا إلي خـارج المعتقـل، رغـم سلسـلة التفتيشـات التـي يتعـرض لهـا الـزوار والمعتقلـين عـلي السـواء.. والثانيـة لم تـتردد في الاحتفـاظ بالكشـاكيل الخمسـة التـي سُرِّبـت إليهـا تباعًـا، رغـم أنـه لم يكـن قـد مـضي عـلي استشـهاد زوجهـا بالمعتقـل عـدة أشـهر، وكان بيتهـا لذلـك هوأصلـح مـكان للحفـظ بعـد أن خفـت الرقابـة عليـه، ولـولا هاتـين الأختـين المجاهدتـين لطويـت الفكـرة في الصـدور.. فلقـد ترسـب في نفسـي اقتنـاع جـازم سـنة ١٩٦٩م ومـا بعدهـا حتـى تاريخ وفـاة عبـد

الناصر سنة ١٩٧٠م أننا باقون خلف الجدران حتى نلقي الله، وكان هذا الاعتقاد الذي تعددت شواهده لدينا وراء مغامرة كتابة هذه المذكرات، التي لن يصيبني منها أي سوء سوى التعجيل بالشهادة، وهي خيرٌ عندي من الموت البطيء .

ظهرت بوادر هذه النية الشريرة بفتح الزنازين علينا ليلًا ونهارًا لأول مرة بعد أربعة عشر عامًا من السجن والاعتقال، وذلك علي سبيل التخدير للحيلولة دون حدوث أي انفجار داخلي، في وقت بدأ النظام فيه ضعيفًا بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ ومحتاجًا إلي دعم الدول العربية بعد مؤتمر الخرطوم، وإلي مساندة الرأي العام الإسلامي، ولا يريد تعكير صفوهذه العلاقات بأي عمل يشتم منه رائحة معاداة الروح الإسلامية في الأمة، فكان في فتح الزنازين والاكتفاء بإغلاق أبواب العنابر الخارجية إلهاء لنا عن التفكير في أي عنف، بما يوحي به الفتح من قرب تصفية الأوضاع الاستثنائية، خاصة بعد صدور بيان ٣٠ مارس المخصص للكلام عن الحريات.. وكانت الثورة تبذل جهدًا مستميتًا للتوفيق بين نية البطش والتنكيل بالحركة الإسلامية، وبين ضرورة الظهور بوجه ديمقراطي إنساني، أوحتى إسلامي إذا اقتضي الحال.. ففي الوقت الذي بطشت فيه بمظاهرات الطلبة المطالبة بالحريات في الإسكندرية في فبراير ١٩٦٨م، أصدرت بيان ٣٠ مارس، الذي يفيض إنسانية وكرامة، حتى استحق وصف بيان الحريات، واستأهل لذلك أن يخلد في متحف الثورة.. وفي الوقت الذي اضطر فيه عبد الناصر إلي إعلان تصفية المعتقلات أمام المؤتمر الطارئ للاتحاد الاشتراكي، لم

ينس أن يستدرك ويستثني القلة، الذين يعتبرهم الجيش العقائدي للإخوان، وفي الوقت الذي شغل عبد الناصر فيه الأمة بالاستفتاءات الكثيرة كان لا ينسي أن يضيف: أنه لا صوت يعلوفوق صوت المعركة.. ليكون لقبر الحريات وجه جديد من وجوه الشرعية، وعندما تفاقم الأمر واشتدت مظاهرات العمال بحلوان في نوفمبر ١٩٦٨، اضطر إلي أن يكون أكثر تطورًا أمام المؤتمر القومي في اجتماعه الطارئ، فأعلن هذه المرة بحسم كبير إلغاء جميع الإجراءات الاستثنائية، حتى لا يبقى في مصر معتقل واحد عن غير طريق القضاء.. وكان في هذا الإعلان صادقًا في الظاهر – علي الأقل -؛ لأن التنفيذ كان يتم علي الورق، حيث صدر في نفس ساعة إلغاء الإجراءات الاستثنائية قرار جمهوري رقم١٠/١٠/١٩٨٦ باعتقال المعتقلين، والقرار صادر من رئيس الجمهورية باعتباره الرئيس الأعلى للقضاء، لا بصفته رئيسًا للسلطة التنفيذية صاحب القرارات الاستثنائية المشؤومة.. فكان القرار الجديد قضائي، والاعتقال أصبح قانونيًا، وإلي هذه الأمور من آخر اللعب بالألفاظ وبالشعوب، في الوقت الذي لم يتغير فيه أي شيء في المعتقلات .

في هذا الجوالغريب لم تكن الكتابة بالأمر الهين، ولا عواقبها بالوخيمة فحسب، في نظام لا يحترم الإنسان إلا بالشعارات، وفي ظل قائد معتقل شرير هو(عبد العال سلومه) عريق في إحصاء حركات وسكنات بل وأنفاس المعتقلين.. فكان لابد من فرض حالة طوارئ شديدة علي نفسي، وحسبي بفتح الزنازين فرصة ومغنمً.. ومع هذا فلم يسلم

الأمر من مآزق كادت تودي بي قبل تحقيق الهدف، فكنت أتخير الكتابة في أوقات السحر، أوبعد الفجر، أوفي وقت الظهيرة، وأتخير الأماكن المهجورة، أوحجرة قائد العنبر ليلًا، أوسطوح المرافق من مغسل وفرن ومطبخ، أوما شابه ذلك، وفي كل الأحوال أترك كتابًا أدبيًا مفتوحًا أمامي؛ أُرْضِي به الفضول من يفاجئني بالسؤال.. ولقد حرَّمت النوم علي عيني بعد الفجر؛ خشية التفتيشات المفاجئة، التي تشمل أغلب أيام الأسبوع، بحثًا عن الأوراق والأقلام، وقبل أن تصل فرقة التفتيش إلي العنبر أكون قد أدخلت الكشكول في علبة صفيح أعددتها سلفًا، وطرحت بها فوق ظهر المعتقل، وبعدها أستوي علي «نمرتي» آمنًا، وعندما تحين فرصة لعب كرة القدم بفناء المعتقل أتعمد قذف الكرة عاليًا فوق السطوح، لأكون أول من يتطوع بإحضارها، ومعها صيدي الثمين مشدودًا تحت الثياب.. وأخطر ما واجهني من مأزق كان أثناء إحدى غارات الفانتوم علي مصانع حلوان القريبة من المعتقل، حيث بقيت في مكاني فوق السطوح، مستغرقًا في الكتابة، مستفيدًا من حالة الذعر التي عمت الجميع، ومن صفارات السجانة المدوية لسرعة إدخال المعتقلين إلي الزنازين.. لم أشعر إلا وأرجل قائد المعتقل والضباط من ورائه تهرول من جانبي، متجهة إلي سور السطح لمعاينة أماكن ضرب الغارة، فأسرعت بلملمة أوراقي وانفلتُّ هابطًا من حيث صعدوا، دون أن يشعر بي أحد.. ولكن محنتي الحقيقية كانت تبدأ فور فراغي من كتابة كل كشكول، إذ كيف أخترق به الحواجز البوليسية، إلي

خـارج أسـوار الدولـة البوليسـية، قبـل الـشروع في الكتابـة مـن جديـد.. لم يكـن أمامـي إلا انتظـار الأعيـاد الإسـلامية، والمناسـبات الوطنيـة، حيـث يترخصـون في تسـلم الأطعمـة، في مختلـف الأوعيـة، بـشرط سرعـة إعادتهـا فارغـة داخـل علبهـا الكرتونيـة.. وبنفـس السرعـة أكـون قـد نجحـت في إلصـاق الكشـكول في قـاع الكرتونـة، مسـتخدمًا النشـا والأوراق، بحيـث يبدوالقـاع طبيعيًـا، بمسـاعدة مـن أثـق بهـم مـن الشـباب.. وكـم تصببـت عرقًـا كلـما شـاهدت السـجان وهويمعـن في فحـص علبـة الكرتـون، إلي أن يمـر المشـهد بسـلام فأخـر سـاجدًا للـه..

وعندمـا ضاقـت بنـا السـبل ذات مـرة، ولم نجـد منفـذًا عـن طريـق الزيـارات تَصَنّـعَ أبوجهـاد المـرض؛ ليدخـل المستشـفي، حيـث زارتـه أم جهـاد بهـا، واسـتطاع أن يغافـل السـجان ويـدس لهـا الكشـكول في صدرهـا، ولم يتشـكك أحـد، وإلا لقامـت إحـدى السـجانات المخصصـة لهـذا الغـرض لتفتيشـها، وأخـيرًا نفـذت إرادة اللـه بخـروج جميـع المذكـرات، ومـن ورائهـا خـروج كل المعتقلـين، والتقيـت بهـا في العافيـة، وازددت حمـدًا وشـكرًا للـه، خاصـة حـين قيـض لي أخـي الدكتـور عبـد اللـه رشـوان؛ ليتـولي حفظهـا مـرة أخـري، قبـل سـفري إلي الكويـت.. ولمـا اسـتتب لي الأمـر بالكويـت وأنجـزت كتـاب الحـوار مـع الشـيوعيين، فاتحـت أخـي الشـيخ حلمـي الكاشـف لإحضـار المذكـرات معـه مـن القاهـرة في إحـدى سـفرياته، وبصَّرتـه بالعواقـب، فـما زاد عـلي أن قـال: أليسـت عمـلًا للدعـوة في سـبيل اللـه؟ قلـت: بـلي إن شـاء اللـه، قـال: إذن لا يهـم مـا يصيبنـي، وجـاء أخـي بـلال التـل – مديـر تحريـر جريـدة اللـواء الأردنيـة

- لزيارتي برفقة الأخ أحمد رائف، لإجراء تحقيق صحفي معي حول كتاب الحوار، وأثناء الزيارة اطلع علي المذكرات، ورغب في نشرها، فرحبت بذلك حبًا في هذا الشاب الغيور علي دعوته، وتم النشر بحمد الله علي مدار ستين حلقة أسبوعية)

وكان الشيخ (محمد ناصر الدين الألباني) ممن طالهم الحبس والاعتقال، واستطاع رحمه الله أن ينجز أحد أعماله في السجن وهوفتح منّ الله به عليه حيث قال رحمه الله: شاء الله تبارك وتعالى أن أسجن في عام (١٣٨٩هـ) الموافقة لسنة (١٩٦٩م) مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأساق إلى سجن القلعة وغيره في دمشق، ثم أفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية وأنفى إلى الجزيرة لأقضي في سجنها بضعة أشهر، أحتسبها في سبيل الله عز وجل، وقد قدر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبب صحيح الإمام مسلم وقلم رصاص وممحاة، وهناك عكفت على تحقيق أمنيتي، في اختصاره وتهذيبه، وفرغت من ذلك في نحوثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، دون كلل ولا ملل، وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقامًا منا إلى نعمة لنا. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب مدحت باشا مذكراته وهوفي سجن الطائف، حيث قال نجله علي حيدر بك: كتب والدي هذا الأثر في قلعة الطائف أمام ألف مشكل وهومحاط بالجواسيس، فكان يكتب السطر أوالسطرين ويترك

الكتابة إذا سمع وقع قدم أوصوت إنسان، ويذكر مدحت باشا أنه قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الأسطر فلبى طلبهم.

كتب صنعت مستقبلهم !

كثـيرون هـم أولئـك الذيـن لعبـت الكتـب في حياتهـم دورًا كبـيرًا وكان لهـا أعمـق الأثـر في تغيـير مسـارها وكانـت نقطـة التحـول التـي وضعتهـم عـلي مشـارف عـالم جديـد وصنعـت لهـم مسـتقبلًا هامًـا وخطـيرًا ووضعـوا بسـببها بصماتهـم عـلي صفحـة الحيـاة.. وكان مـن أبـرز هـؤلاء قاهـر المنصريـن، والحجـة القويـة والداعيـة القديـر الشـيخ (أحمـد ديـدات) رحمـه اللـه

هاجـر (ديـدات) إلى جنـوب إفريقيـا في عـام١٩٢٧ م ليلحـق بوالـده وبـدأ دراسـته في العـاشرة مـن عمـره حتـى أكمـل الصـف السـادس، ولكـن الظـروف الماديـة الصعبـة أعاقـت اسـتكماله لدراسـته..ثم يحدثنـا عـن بداياتـه مـع طريـق الدعـوة وكيـف تغـير مسـار حياتـه بسـبب كتـاب اسـتطاع أن يجعـل منـه المناظـر أحمـد ديـدات الـذي دوى ذكـره في الأفـاق وأخـرس ألسـنة الضـلال فيقـول:

(يتحـدث الشـيخ أحمـد ديـدات عـن بدايـة طريـق الدعـوة، فيقـول: كنـت أعمـل في دكان قريـب مـن موقـع إرسـالية آدمـز ميشـن (كليـة آدمـز).. وكان مـن عـادة الطلبـة في هـذه الكليـة أن يأتـوا إلى المحـل، وكانـوا مبشريـن تحـت التدريـب.. كانـوا يأتـون إلى المحـل ويرونـني وبقيـة العاملـين المسـلمين في المحـل، وكانـوا يتحدثـون إلينـا بأشـياء عـن الإسـلام ونبـي الإسـلام صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـن أمـور وأشـياء ليـس

لـدي أي معرفـة عنها..ومـن هـذه الكليـة توافـد علينـا المبـشرون الذيـن حولـوا حياتنـا إلى بـؤس وعـذاب، فلقـد كانـوا يتدربـون هنـاك عـلى كيفيـة مواجهـة المسـلمين .

وحينـما كانـوا يأتـون لـشراء مـا يحتاجـون إليـه مـن المحـل كانـوا ينهالـون علينـا بالأسـئلة والانتقـادات.. فيقولـون:

- هل تعلمون أن محمدًا تزوج نساءً كثيراتٍ جدًّا ؟

وحينئذ لم يكن لدي أدنى معرفة بذلك .

- وهل تعلمون أن محمدًا نشر دينه بحدّ السيف ؟

ولم يكن لدي أدنى معرفة عن ذلك.

- وهل تعلمون أن قد نقل كتابه عن اليهود والنصارى ؟

ولم يكن لدي أدنى علم بذلك .

كان الموقـف فـي غايـة الصعوبـة بالنسـبة لي.. مـاذا أفعـل كمسـلم ؟..
هـل أردُّ
على الهجوم ؟..

ولكن كيف ذلك ؟.. وليس لدي من العلم والمعرفة ما أَرُدُّ به..

وهل أهرب من المكان ؟..

والحصول على عمل في تلك الأيام كان أمرًا عسيرًا .

وكان لـدي تـوقٌ شـديدٌ للمعرفـة، وللقـراءة . وفي صبـاح يـوم الراحـة

الأُسبوعية دخلت المخزن الخاص برئيسي، وأخذت أُقلب في كومة من الصُّحف القديمة، وأُفتش عن مادة جيدة أقرؤها، وانهمكت في البحث إلى أن عثرت على كتاب قضمته الحشرات - وفيما بعد جدّدت غلاف هذا الكتاب الذي قضمته الحشرات - وحينما أمسكت بالكتاب ثارت منه رائحة نفاذة أثارت أنفي وانتابتني حالة من العطس فقد كان الكتاب قديمًا ومتعفِّنًا .

قرأت عنوان الكتاب.. العنوان هو: (إظهار الحق).. كان وقعه في أُذني وكأن العنوان بالعربية..

كان الكتاب قديمًا وصدر في الهند عام ١٩١٥ م، قبل ميلادي بثلاث سنوات.. فلقد ولدت عام ١٩١٨ م، فهوأقدم مني بثلاث سنوات.

وبفضل هذا الكتاب تغيرت حياتي تمامًا، ولولم أصادف هذا الكتاب ما كنت لأقوم بما أقوم به الآن، وأعني بذلك التحدث إلى الناس عن الأديان من منطلق المقارنة بينها .

هكذا كانت البداية..

ثم انظر إلى (توني روبنز) ذلك الاسم الذي صعد بقوة الصاروخ عالم التدريب وتحفيز الذات لقد أصبح (توني روبنز) من أشهر المحاضرين الذين أنجبتهم (الولايات المتحدة الأمريكية) ومن أبرع محللي الشخصيات وترجمة اللغة العصبية.

وإذا تأملنا حياة هذا النجم اللامع أدركنا أنه لابد لنا من التوقف حيالها ومعايشة أحداثها حتى نأخذ العبرة ونستفيد من الدرس الكبير الذي أعطته لنا القراءة حينما حولت حياة هذا الفتى المشرد إلى شيء عظيم في سماء الفكر والعلم والمعرفة.

لقد كان يعيش ماضيًا كئيبًا مظلمًا ويكفيك أن تعلم أنه فكر في الانتحار وأقدم عليه فعلًا لكن الأقدار كانت تخبيء له شيئًا غير الموت والفناء حينما أنقذه رجل عجوز فتح أمامه بابًا جديدًا للحياة وكيف ينظر إليها بطريقة صحيحة.؟!

كانت حياته صعبة مريرة، فقد انفصل والداه وهوفي سن السابعة،وكان مجرد حارسًا لعمارة سكنية، وكان بدينا فقيرًا معدمًا، لا يساعده أحد في تحمل أعباء الحياة، حلم كثيرًا كما يحلم المعدمين الحالمين أن يمتلك مكتبًا فخمًا بأحد البنايات الشاهقة المطلة على البحر.. وغيرها من أحلام الترف والبذخ التي تراود خيال المحرومين.! كما عانى من بعض المشكلات الطبية المؤرقة، وكان منها ورم مزمن أخضعه للعديد من الفحوصات الطبية!، وقد أدت به هذه الظروف الصعبة إلى حالة مزرية من الاكتئاب الحاد، الذي لم يجد طريقة للخلاص منه سوى الانتحار، وعزم على ذلك بالفعل، ورسم خطة هلاكه، فذهب إلى أحد الشوارع الجانبية وعلق حبلًا وربطه حول عنقه وحينما ألقى بنفسه وبدأت أنفاسه تتقطع،ثم تراءى له شبحًا يأتي من بعيد ويقترب منه شيئًا فشيئًا إلى أن أغمضت عيناه تمامًا

وأغـشي عليـه وغـاب عـن الوعـي.

فلـما أفـاق فتـح عينيـه وانتبـه ثـم انتفـض واقفًـا مـن مكانـه ليجـد نفسـه في غرفـة صغـيرة مليئـة بمئـات الكتـب، وبهـا رجـل عجـوز يجلـس في ركـن مـن أركانهـا يكتـب، فذهـب إليـه ليسـأله لمـاذا أنقـذه ولم يتركـه لينتحـر ويتخلـص مـن آلام حياتـه؟

وقـد كان العجـوز حكيـمًا عاقـلًا، ومـن هـذه الحكمـة اسـتطاع أن يقـدم لـه الجـواب عـلى هـذا السـؤال اليائـس المحبـط.. وكان جوابًـا غـير مجـرى حياتـه، وكان سـببا في تحولهـا تحـولًا كبـيرًا.! حيـث قـال لـه: (لا يوجـد في الحيـاة مـا يسـتحق أن تفقـد حياتـك مـن أجلهـا، عليـك أن تعيـش حياتـك بسـعادة واتـرك هـذه الخدمـة للقـدر يـأتي ليسـلبنا حياتنـا في الوقـت المناسـب.

تريـث (تـوني) وأخـذ يفكـر في هـذا الـكلام الرزيـن الـذي نطـق بـه هـذا العجـوز الحكيـم، وقـال في نفسـه:كيف يقـول هـذا وهـولا يملـك مـن الدنيـا غـير هـذا المـكان الفقـير جـدًا والمعـدم ومجموعـة الكتـب؟، كيـف ينظـر للحيـاة هكـذا وهوليـس بصاحـب مـال أوجـاه أومركـز وسـلطة؟

ولكـن العجـوز لم يكتـف بهـذا الجـواب الـذي أقنعـه ببسـاطة الحيـاة، وإنمـا أراد أن يضـع يـده عـلى المنبـع السـحري للسـعادة في الحيـاة فقـال لـه: إن سـبب قناعتـه بحـلاوة الحيـاة هـي هـذه الكتـب، إنهـا هـي التـي سـاعدته عـلى النظـر للحيـاة بهـذه الطريقـة الايجابيـة وتقبلهـا بـكل صورهـا المختلفـة والعيـش بسـعادة مهـما كانـت الظـروف.

هـذه النقطـة هـي مـا جعلتـه يُعيـد تفكـيره مـن جديـد في حياتـه وكيـف كانـت؟، وبـدأ يخـط سـيره في الحيـاة عـلى طريقـة هـذا العجـوز الحكيـم ويلجـأ إلى القـراءة ليجـد فيهـا ومعهـا سر السـعادة في الحيـاة تلـك السـعادة التـي كان ممنوعـا مـن أن يلـج عالمهـا أويكـون مـن أصحابهـا..!
لقـد قـرأ كثـيرا في فنـون الثقافـة المتنوعـة وخاصـة تحفيـز الـذات وعلـم النفـس والتنميـة الذاتيـة إلى أن وصـل لمرحلـة متطـورة ومتقدمـة في علـم تحليـل الشـخصية وترجمـة اللغـة العصبيـة.

وتحولـت حياتـه مـن النقيـض للنقيـض، حيـث تحـول مـن حـارس فقـير، إلى أشـهر محـاضر في أمريـكا، بعـد أن كان فقـيرًا ومعدمًـا أصبـح يعيـش في قلعـة أثريـة اشـتراها لـه ولعائلتـه، وأصبـح يمتلـك أكـبر مكاتـب استشـارية في الولايـات المتحـدة، وطائـرة خاصـة تسـاعده عـلى التنقـل.

ويذكـر أنـه ذات مـرة حينـما كان يركـب طائرتـه الخاصـة ذاهبًـا إلى إلقـاء محـاضرة حـول البرمجـة اللغويـة العصبيـة شـاهد في الطريـق زحامًـا شـديدًا وطوابـير كثـيرة مـن السـيارات، لـذا قلـق مـن عـدم إمكانيـة حضـور المشـاركين في المحـاضرة بسـبب هـذا الزحـام، إلا أنـه اكتشـف أن هـذا الزحـام بسـببه.!

والحقيقـة أن القـراءة هـي التـي صنعـت هـذا العبقـري، وهـذا المحـاضر الـذي تتزاحـم عليـه الملايـين الـذي قـال أحدهـم عنـه: (إن عبقريـة (انتـوني روبينـز) تكمـن في قدرتـه عـلى تعليـم الجميـع: أن المسـتحيل يعـد أمـرا ممكنًـا)

ودعنــي هنــا أخــبرك عــن الســيدة قطعــة الذهــب.. !لا تعجــب مــن هــذا الاســم.. ولا تظــن أننــي بهــذه الجملــة أمتــدح قطعــة مــن الذهــب وأجعــل منهــا ســيدة رفيعــة المقــام لنفاســتها وجليــل قدرهــا عــلى بقيــة المعــادن، فليــس مــن عــادتي ولا دينــي أن أعظــم الذهــب أوأمتــدح منــه شــيئًا، لأننــي أعــرف أنــه رمــز الغــرور ومتعــة الدنيــا الفانيــة..! ولكــن هــذا اللقــب في حقيقتــه مــا هــوإلا اســم ســيدةٍ حقيقيــة ســميت بــه، وعرفهــا النــاس ونادوهــا بــه.. إنهــا الســيدة (ببــي زار لشــتة) وهــي امــرأة أفغانيــة، ومعنــى اســمها باللغــة الأفغانيــة هو(قطعــة الذهــب)

مــن عــادتي دومًــا إذا التقيــت بالنوابــغ والأذكيــاء، أن أســألهم عــن حياتهــم وتاريــخ نشــأتهم وأن يقصــوا عــلي بعــض المواقــف التــي أثــرت في حياتهــم ويذكرونهــا لأمهاتهم..لأننــي أدرك أن هــذا النبــوغ وهــذه العبقريــة، لابد أن يكــون لــلأم علاقــة مبــاشرة بهــا، ودخــل وتأثــير كبــير في تطورهــا وظهورهــا.. ومنــذ أيــام التقيــت بالدكتــور (حيــاة اللــه عتيــد) المــدرب وخبــير التنميــة البشريــة والمــدرب النابــه، والدكتــور (عتيــد) أفغــاني الجنســية ورجــل ألمعــي، يتمتــع بالــذكاء والنبــوغ الوقــاد والفراســة الفريــدة.. تلمحــه في نظــرات عينيــة ولمعــة جبينه..اغتنمــت الفرصــة وأخــذت أســتعيد عليــه المــاضي الــذي اكتشــفت مــن حديثــه أنــه مــاضٍ لا يُنــسى ولا يُغفــل، لكــثرة مــا فيــه مــن محطــات الكفــاح والشــقاء والإرادة والإصرار، ورحــلات التعــب والعنــاء، حتــى وصــل الرجــل إلى مــا صــل إليــه الآن مــن علــم ومعرفــة.. ثــم طرقــت بــاب الحديــث عــن أمــه، الســيدة (ببــي زار لشــتة) ومــاذا كانــت تمثــل في حياتــه، وهــل يذكــر لهــا في نشــأته أي موقــف مؤثــر؟،

فـإذا بي أكتشـف أن أمـه في حياتـه هـي كل حياتـه، فقـد كان أبـوه الشـيخ (قـل والي) ذا مكانـة مرموقـة بـين قومـه، وكان عالمًـا تقيًـا ورعًـا يعلـم النـاس اللغـة العربيـة والقـرآن وعلومـه والتفقـه في الديـن وحفـظ القـرآن، وكان النـاس يجلونـه ويحبونه،..ولما ولـد الدكتـور حيـاة اللـه كان ضعيفًـا مضمحـلًا قـال النـاس لأبيـه وأمـه: إن هـذا الطفـل سـيموت لأنـه ضعيـف،ولا يحتمـل اسـتمراره حيًـا، فتفكـر الوالـد وعـزم عـلى أن يسـميه (حيـاة اللـه) وقـال: لوعـاش هـذا الطفـل فـإن حياتـه سـتكون وقفًـا للـه..

ولم يـدم والـده كثـيرًا.. فسرعـان مـا أصيـب بقذيفـة روسـية أردتـه شـهيدًا إلى ربه،إبـان الاحتـلال الـروسي لأفغانسـتان، ورحـل عـن الحيـاة تـاركًا زوجتـه الأرملـة وأطفالهـا السـتة يعيشـون وحدهـم في الدنيـا يقاسـون آلامهـا وعناءهـا وقسـوة أيامهـا.. كان مـن عـادة الأفغـان في ذلـك الوقـت.. أن الـزوج إذا مـات فـإن إخوتـه يأخـذون أطفاله للخدمـة والعمل ويجبرون زوجتـه عـلى الـزواج دون اعتبـار لرغبتهـا أوإرادتهـا ووصـف الدكتـور بـأن هـذه العـادات الجاهليـة كانـت موجـودة لوقـت قريـب ولكنهـا انتهـت الآن.. ولكـن الزوجـة وهروبًـا بأبنائهـا مـن هـذا المصـير النكـد، لم تسـافر إلى المنطقـة التـي يقيـم فيهـا إخـوة زوجهـا حتـى لا تتعـرض لمثـل هـذا وعكفـت عـلى تربيـة أبنائهـا وأرادت أن تقـوم برسـالتها كأم..

لم تكـن تـدرك الزوجـة المسـكينة أنهـا سـتكمل وحدهـا مسـيرتها لتحقـق تلـك الرغبـة التـي أرادهـا زوجهـا في طفلهـما حيـاة اللـه.. ولكنهـا اسـتطاعت أن تكملهـا وبجـدارة..! فتعالـوا معـي لنتعـرف مـاذا كان مـن

أمرهـا مـع ولدهـا..؟

حدثنـي وهويسـتعيد ذكرياتـه مـع أمـه في مراحـل تربيتهـا لـه ولإخوتـه فيقـول: كانـت أمـي أميـة لا تقـرأ ولا تكتـب ولكنهـا رغـم ذلـك كانـت تسـتطيع أن تقـرأ القـرآن، ورغـم هـذه الأميـة كانـت تتابعنـي في دورسي كل يـوم بشـكل غريـب، فكانـت تمسـك بكتبـي وقراطيـسي وتظهـر لي في ملامـح وجههـا شـيئًا مـن الحـزم والصرامـة، تجعلنـي أرتعـب وأشـعر كأنهـا مديـرة المدرسـة تراقبنـي وتسـألني وعـليّ أن أجيـب، فكانـت تقـول لي: مـاذا أخـذت في دروسـك اليـوم؟ مـاذا ذاكـرت منهـا؟ أيـن واجبـك؟، أكمـل دروسـك لـن أسـمح لـك اليـوم بالخـروج ذاكـر دروسـك..كان هـذا شـعوري رغـم كونهـا أميـة لا تقـرأ ولا تكتـب .

لم تكـن تضربنـي.. ولكنهـا كانـت تخيفنـي بنظراتهـا.. وكانـت عنـد أي تقصـير تـراه منـي ومـن إخـوتي مـا كانـت تفعـل شـيئًا إلا أنهـا كانـت تأخـذني وتشـير بيديهـا إلى كتـب والـدي التـي علاهـا الـتراب وتقـول لي: انظـر إلى هـذه الكتـب.. كتـب أبيـك لقـد راح أبـوك ومـات.. من سـيقرؤها ؟!.. كانـت تقـول ذلـك وهـي تبـكي، وكنـت أنـا أشـعر مـع هـذه الإشـارة بثقـل الأمانـة، وأن هـذه الكتـب هـي الرسـالة التـي تنتظـرني لأحملهـا وأقـوم تجاههـا بواجبـي، وأحقـق فيهـا موعـود أبي.. كانـت تقـول لي: إذا أنـت لم تقـرأ فمـن سـيقرأ إذًا ؟ إنـك إذا لم تقـرأ سـتكون مجـرد عامـل بسـيط تعمـل في الأعـمال اليوميـة، تنظـف بيـوت النـاس وتخـدم عنـد النـاس، وهـذه الكتـب التـي تركهـا أبـوك سـتبقى هكـذا، لقـد كانـت هـذه

الكلـمات تحـدث في نفـسي هـزة عنيفـة قويـة تزلـزل مشـاعري.

وبفضـل هـذه المتابعـة مـن أمـي لا أذكـر أننـي نمـت مـرة وعـلي واجـب مـدرسي لم أنجـزه.. فقـد كنـت أنهـي واجبـي قبـل نومـي، لأنهـا كانـت تقـول لي: كيـف تنـام ويرتـاح ضمـيرك وعليـك واجـب لم تنجـزه..؟

ويواصـل الدكتـور حديثـه العـزب عـن أمـه، ولكنـه هـذه المـرة يحـكى لي موقفًـا رائعًـا لوحـكاه لي غـيره لقلـت: إنـه اقتبـس أحداثـه مـن حيـاة نسـاء سـلفنا الصالـح وجعلـه لنفسـه.. لأنـه شـبيه بمـا كانـت تفعلـه أمهـات الصالحـين مـن الأئمـة الكبـار في تربيتهـن لأبنائهـن عـلى الصـدق والفضيلـة.

يقـول لي:لقـد غرسـت أمـي في نفـسي معنـى الـورع وتقـوى اللـه والخشـية مـن الحـرام، فأذكـر أنهـا كانـت تدفعنـي لحفـظ القـرآن وترسـلني للمسـجد في الليـل قبـل صـلاة الفجـر لأراجـع وأحفـظ القـرآن وكانـت تعطينـي الـسراج حتـى أسـتطيع الرؤيـة في الليـل، وكانـت تقـول لي: يـا عتيـد لـن أسـامحك إذا اسـتخدمت سراج المسـجد وأخـذت منـه زيتًـا، لأنـه ملـك للنـاس ومصلحـة عامـة، أمـا سراجـك فخـاص بـك وإذا فعلـت ذلـك فلـن تسـتطيع أن تسـتفيد مـن علمـك وحفظـك للقـرآن، وكنـت أرد عليهـا وأقـول لهـا: نعـم يـا أمـي فأنـا أحفـظ قـول الشـافعي:

شَكَوْتُ إلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي   فَأَرْشَدَنِي إلَى تَرْكِ المعَاصي

وَأخْـبَرَنِي بـأَنَّ العِلْـمَ نُـورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصي.

ويمر الزمن ليتحقق أمل هذه الأم في ولدها، وما زال يذكر جارة لهم كانت تجلس معها وتواسيها بقولها: إن ابنك هذا ستسمعين قرع نعله في يوم من الأيام، أي أنه سيصير شيئًا مهما..

يقول الدكتور(عتيد) وهاهي اليوم تشاهدني في التلفزيون وتستمع إلى أحاديثي ولقاءاتي، وترى شهرتي في كل مكان، وحينما أذهب لزيارتها أمازحها وأدب لها بقدمي في الأرض لأذكرها بما قيل لها في يوم من الأيام..!

وبعد سيرة هذه الأم الصامدة، ورحلة كفاحها.. فإننا نستطيع القول بأن أمتنا ولاّدة، وأنه مهما تبدل الزمان وتغيرت أحواله فإنها قادرة أن تمدنا بأمثال هذه الأم المباركة التي تربي الأجيال وتشحذ الهمم وتحيي العزائم وتنمي الطاقات وتحببهم إلى القراءة والكتب حتى تنتفع الأمة بأبنائها وتنهض برجالها.

أمٌ جعلت من الكتب وسيلتها العملية لتربية ولدها وترهيبه من عتمة الجهل وظلامه..!

كانت الكتب بالنسبة له هي النذير الذي يطرق وجدانه كلما قصر أوتكاسل في دروسه وواجباته، كانت الكتب هي الطموح الكبير الذي يرى نفسه فيه، والمستقبل الكبير الذي يطله عليه من

صورتها المتراكمة، كانت هي المسؤولية الكبرى التي كان يتعلم من أجلها.. (انظر إلى هذه الكتب.. كتب أبيك لقد راح أبوك ومات.. من سيقرأها)

وإذا كان الدكتور عتيد قد لعبت الكتب في حياته دورًا كبيرًا صاغت من خلاله مستقبله، فهناك من لعب بالكتب واستغلها وجعل منها طريقًا يخدع به الناس، ولكنه خدعهم على علم وقراءة، وهذا ما جعل البعض يمتدح هذه النوعية من النصب والاحتيال .

إنه (فردنياند ديمار) رجل عجيب صاحب قصة غريبة، وهوالذي لقب بالمخادع الأعظم، لأنه كان نصابًا ومحتالًا ولكن كما قيل: بطريقة فنية تجعل المرء يكاد يحترمه، لقد قام بانتحال عدة شخصيات ونجح فيها، ربما بشكل يفوق أصحابها الحقيقيين، حيث ادعى مرة أنه محام، وانتحل مرة دور مدير سجن ودور طبيب نفسي..ودور باحث علمي ومرة بدور كاهن وغير ذلك في كثير من الحرف والوظائف، ولعل هذا الرجل لوأتيح له أن يكون ممثلا لكان له مستقبل كبير، ولحقق نجاحًا باهرًا، ولك أن تتخيل أمرًا عجيبًا، فقد كان هذا النصاب المحتال مثقفًا، وكانت القراءة من أكثر الوسائل التي تعينه على تمثيل أدواره وتقمص طبيعة شخصيات متنوعة.. وهي ما كانت حاضرة في أكبر وأشهر مغامراته، (حينما انتحل شخصية طبيب جراح بشري، وذهب للعمل في الجيش الكندي على إحدى المدمرات الحربية في أثناء الحرب الكورية، ولم يكن في حوزته سوى بعض المراجع الطبية

عـن الجراحـة لكنـه قرأهـا واسـتوعبها جيـدا، وكان جرحـى الحـرب يأتـون إليـه ويقـوم بإسـعافهم، بـل إنقاذهـم، والمدهـش أن جميـع المصابـين الذيـن تـولى علاجهـم تماثلـوا للشـفاء ولم يصـب أي منهـم بـأي أذى، حتـى في أصعـب الحـالات التـي تتطلـب استشـاريين ماهريـن كان يبـدع فيهـا، ولهـذا أصبـح مـن المشـاهير، لكـن الشـهرة أنهـت حياتـه العلميـة في النصـب، فتعـرف عليـه النـاس وانكشـفت خطتـه، لكـن الجيـش الكنـدي لم يقـم بـأي إجـراء ضـده، لأنـه لم يقتـل أي مريـض ولم يتسـبب في أذى أحـد، كان العقـاب الوحيـد أن تعـرف الجميـع عـلى أنـه نصـاب ولم يعـد يمـارس هوايتـه، وتـم عمـل فيلـم عـن قصتـه وسـمي (great Impostor the) وتـم عرضـه عـام ١٩٦١م.)٧٠

البعـض معجـب بقصـة (فردنيانـد ديمـار) وطريقتـه الطريفـة في الاحتيـال والنصـب وقدراتـه وأسـلوبه العلمـي في أداء أدواره، لأنـه يـكاد يكـون حالة نـادرة في دنيـا النـاس أن ينتحـل شـخصية طبيـب وينجـح فيهـا ويصـل للشـهرة والمهـارة التـي وصـل إليهـا صاحبنـا، كل هـذا بمجهـوده الـذاتي وقراءتـه العصاميـة واسـتيعابه وتطبيقـه الجيـد والحـاذق لمـا يقـرأ.. ولعلـه يعطـي شـحنة قويـة وحماسـة دافعـة لأنـاس نالـوا الشـهادات الجامعيـة وتوظفـوا في الوظائـف الحكوميـة ولكـن نماءهـم الفكـري وعطاءهـم العقـلي تعطـل ولم يؤمنـوا بفكـرة تطويـر أنفسـهم وذواتهـم عـن طريـق القـراءة كـما فعـل صاحبنـا النصـاب المثقـف.. كـما أنهـا دعـوة لاكتشـاف المواهـب العديـدة والقـدرات المتقـدة الدفينـة في ذاتـك..

70 – من مقال النصاب المحترم لفهيد العديم صحيفة مكة –تاريخ 20 سبتمبر 2015

اقتحمها وتسلح لها وخذ بأسبابها.. فربما تكون ناجحًا فيها لائقًا لها.. كما فعل هذا الرجل الذي مثل كل الأدوار ونجح فيها لأنها مواهب ذاتية طاف عليها واستخرجها من نفسه للوجود والواقع.!

التلفيق الثقافي

وعلى الجانب الآخر من السرقات العلمية واللصوصية الفكرية، نجد باب التلفيق والافتراء قد أصاب الكثيرين من العلماء والمفكرين، وذلك إما لعلوشأنه في ميدان العلم، أولجلده على خصومه وإلزامهم بالحجة الدامغة والبراهين القاطعة، فيؤول عليه الحاقدون والخصوم كلامًا يعارض آراءه ويوافق ما ينقده،أوإفكًا يؤلب عليه الناس ويثور بسببه عليه كل من قرأه وعرف نسبته له.

وهوما كانت تفعله حركات الضلال والانحراف عبر التاريخ الإسلامي، فقد كانوا يحاولون استمالة بعض العلماء والمشاهير ليروج لمذهبهم ويدعولباطلهم، يحاولون معه بكل السبل.. يشترونه بالمال وبما يستطيعون من مغريات الدنيا، وهكذا فعل الشيعة لينشروا أفكارهم عن طريق العلماء حتى يقولوا بما يريدون، وكان الإمام الشعبي ممن حاولوا مساومته فقد قال:

(لوأردت أن يعطوني رقابهم عبيدًا وأن يملأوا بيتي ذهبًا على أن أكذب على علي كذبة واحدة لقبلوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبدًا)

ولما كان العلماء يتأبون عليهم ولا يخضعون لإغراءاتهم المادية من الجاه والمال فإن (هؤلاء الملاعين سلكوا طريقًا آخر في الغواية

والتلفيـق والاختـلاق عـلى العلـماء الأجـلاء وإيـذاء الاسـلام حيـنما كانـوا ينسِـبُون مـا يشـاءون مـن الأفـكار إلى مـن يشـاءون مـن العلـماء، وكانـوا يسـمون بعـض أتباعهـم بأسـماء المشـاهير مـن العلـماء كالسـدي وابـن قتيبـة، وينقلـون عـن هـؤلاء موهمـين النـاس أنهـم ينقلـون عـن السـدي وابـن قتيبـة المعروفـين)٧١

ومـما يـروى عـن الإمامـين (يحيـى بـن معـين) و(أحمـد بـن حنبـل) أنهـما صليـا في مسـجد الرصافـة فقـام بـين أيديهـم قصـاص فقـال حدثنـا (أحمـد بـن حنبـل) و(يحيـى بـن معـين) قـالا حدثنـا عبـد الـرزاق عـن معمـر عـن قتـادة عـن أنـس قـال: قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (مـن قـال لا إلـه إلا اللـه خلـق اللـه كل كلمـة منهـا طـيرا منقـاره مـن ذهـب وريشـه مـن مرجـان) وأخـذ في قصـة نحوعشريـن ورقـة فجعـل أحمـد بـن حنبـل ينظـر إلى يحيـى بـن معـين ويحيـى ينظـر إلى أحمـد، فقـال لـه: أنـت حدثتـه بهـذا، فقـال: واللـه مـا سـمعت بهـذا إلا السـاعة، فلـما فـرغ مـن قصصـه وأخـذ القطيعـات، ثـم قعـد ينتظـر بقيتهـا فأشـار إليـه يحيـى بـن معـين وقـال لـه تعـال فجـاء متوهـمًا النـوال، فقـال لـه يحيـى مـن حدثـك بهـذا الحديـث؟، فقـال: أحمـد بـن حنبـل ويحيـى بـن معـين، فقـال أنـا يحيـى بـن معـين وهـذا أحمـد بـن حنبـل مـا سـمعنا بهـذا قـط في حديـث رسـول اللـه ﷺ، فـإن كان لابـد والكـذب فعـلى غيرنـا فقـال لـه: أنـت يحيـى بـن معـين ؟ قـال: نعـم، قـال: لم أزل أسـمع أن يحيـى بـن معـين أحمـق مـا تحققتـه إلا السـاعة، قـال لـه يحيـى كيـف علمـت أنى

71[1] فجر الإسلام – أحمد أمين

أحمق ؟ قال كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد كمه على وجهه، وقال: دعه يقوم فقام كالمستهزئ بهما...

يقول (ابن الفراء) في طبقاته نقلًا عن أبي بكر المروزي:(رجلان صالحان بُليا بأصحاب سوء: جعفر الصادق، وأحمد بن حنبل، أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة، دونت في فقه الشيعة الإمامية على أنها له، وهوبريء منها. وأما الإمام أحمد، فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها)٧٢

قال الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه اليواقيت والجواهر (وقد دسَّ الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته، عقائد زائغة، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد، لافتتنوا بما وجوده تحت وسادته)٧٣ كما دس على الإمام علي بن أبي طالب ﵁كتاب نهج البلاغة أوأكثره، فقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة علي بن الحسين الشريف المرتضى أنه: (هوالمتهم بوضع كتاب نهج البلاغة، ومَنْ طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي ﵁، ففيه السب الصراح والحط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنَفَس

72 - التصوف الإسلامي والإمام الشعراني- طه عبدالباقي سرورص82
73 - المصدر السابق

القرشيين الصحابة، وبنَفَس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل)٧٤

وقد فعل الملفقون مثل هذا الأمر مع كثير من علمائنا الكبار وأضافوا لكتبهم مما ليس منها، وما هي منه براء، ولم يسلم منه كبار رجال التيارين السلفي والصوفي فهذا حجة الإسلام الغزالي يظن الكثيرون أن الكتب التالية من تأليفه ووضعه وما هي إلا موضوعة عليه ككتاب (معارج القدس) وكتاب (المضنون به على غير أهله)، وكتاب (المضنون به على أهله) وكتاب (مشكاة الأنوار) والذي لُفقت عليه من قبل أعدائه وحساده، وقد قيل ذلك أيضا عن مؤلفات (ابن عربي) أن هناك من دس فيها ما يخالف دين الإسلام، وكان الإمام الشعراني من أبرز أئمة الصوفية الذين لفق عليهم ولحقت بمؤلفاته زيوفًا لا علاقة له بها، وقد صرح بهذا في كتابه (الأجوبة المرضية) فقال:

(لقد ألحق بعض الحساد إلى كتابي (البحر المورود في المواثيق والعهود) زيادات كانت تعارض الشريعة وتولوا إشاعتها في الجامع الأزهر وغيره حتى نجمت بذلك فتنة، وهناك اضطررت إلى أن أقدم النسخة الصحيحة الأصلية من كتابي إلى العلماء فكتب عليه كبار العلماء ومشايخ الإسلام تزكية وتصديقًا ومن ثم اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات التي كان قد ألحقها الحساد إلى كتابي وماتت الفتنة)

74 – ميزان الاعتدال للذهبي ج٣ ص١٢٤

كـما دسـوا عليـه في كتابـه العظيـم (الطبقـات الكـبرى) مـا إذا تفحصـه القـاريء لوجـد بـه تناقضًـا كبـيرًا بـين صفحاتـه ففيهـا مـا يوافـق الشريعـة وبـه مـا يناقضهـا كـما يخالـف في هـذا الكتـاب مـا جـاء في جميـع كتبـه، فمـن يقـرأ كتابـه (الميـزان) الـذي ينقـل عنـه الأئمـة، لا يتصـور هـذا المكتـوب، وكذلـك كتابـه أسرار أركان الإسـلام والأنـوار القدسـية في معرفـة قواعـد الصوفيـة، والبـدر المنـير في غريـب أحاديـث البشـير النذيـر وغيرهـا يقـف بـكل وضـوح عـلى بـراءة الإمـام الشـعراني مـما لفـق عليـه ودس في كتبـه ومـما لا شـك فيـه أن هـذه الافـتراءات أفسـدت كتـاب الطبقـات وهوكتـاب قيـم في أصلـه وموضوعـه وبـه فائـدة عظيمـة.

أمـا التيـار السـلفي فقـد ذكرنـا قصـة رائـده الأول أحمـد بـن حنبـل لكنهـا كانـت مـع نجمـه الثـاني ممنهجـة ومقصـودة ومحزنـة، فقـد لفـق الحاقـدون عـلى الإمـام ابـن تيميـة وقـد كان رحمـه اللـه لا يقـول أقـوالًا منكـرة وجمـلًا باطلـة يـبرأ إلى اللـه منهـا جهـاده وبـلاؤه ومسـيرته العلمية الزاهيـة التـي كانـت حربـا عـلى الضلالـة والمنكـر والزيـغ والابتـداع ومنهـا (أقـوال تحـط مـن شـأن صاحـب النبـوة العظمـى وتـسيء إليـه) ووجـدت تلـك الافـتراءات مـن تجـاوب لهـا وصدقهـا وتفاعـل معهـا دونمـا تثبـت أوتحقيـق، فأقـدم البعـض عـلى تكفـيره في فتـاوى رسـمية كالتـي صـدرت في أواخـر القـرن الثامـن وأوائـل القـرن التاسـع وقـد رد عليهـا حافـظ الشـام (ابـن نـاصر الديـن الشـافعي) بمـا يثبـت عظمـة ابـن تيميـة وبراءتـه مـما نسـب إليـه في كتابـه الشـهير (الـرد الوافـر عـلى مـن زعـم أن

مـن سـمى ابـن تيميـة شـيخ الإسـلام كافـر) وقـد جمـع في هـذا الكتـاب شـهادات متنوعـة لــ ٧٨ عالمـًا وإمامـا وزاهـدًا.. وذكـر أرائهـم وانطباعاتهم في شـخص الإمـام (ابـن تيميـة) وفي بدايـة هـذا الكتـاب يفيـض الإمامـان الجليـلان البـدر العينـي وابـن حجـر العسـقلاني ثنـاء في ابـن تيميـة ونوهـا أنـه كان سـليم العقديـة صحيـح الفكـر سـني المذهـب وشـيخ الاسـلام بـلا نـزاع حتـى قـال (البـدر العينـي):

(مـن نسـبه إلى الزندقـة فهوزنديـق، وقـد صـارت تصانيفـه إلى الآفـاق وليـس فيهـا شيء مـما يـدل عـلى الزيـغ والشـقاق) وكذلـك قـام العلامـة خـير الديـن نعـمان الآلـوسي صاحـب روح المعـاني بالـرد عـلى (ابـن حجـر الهيثمـي) الـذي أصـدر فتـواه العنيفـة عـن (ابـن تيميـة) وذكـر فيهـا كلـمات نابيـة فـكان مـما قـال: (عبـد خذلـه اللـه تعـالى وأضلـه وأعـماه وأصمـه وأذلـه)

ويبـدوأن الرجـل قـد اعتمـد عـلى النقـل اللسـاني والإشـاعات التـي ترددهـا العامـة، ولم يكـن لـه قـرب أووقـوف عـلى حقيقـة ابـن تيميـة وهومـما يثـير العجـب العجـاب..! والخطـر كل الخطـر، والسـوء كل السـوء، أن يتبـع العـالم أقـوال النـاس ويصدقهـا دون التثبـت مـن حقائـق الأشـياء والأشـخاص، وربمـا تنكشـف لـه الحقيقـة فيكـون مـن النادمـين، فالتلفيـق إذن منـه المكتـوب ومنـه السـمعي الـذي يغـتر بـه كثـير مـن العلـماء مـن أهـل الصـدق والثقـة فـيرددون مـا سـمعته آذانهـم ضـد إخوانهـم في العلـم، وهومـا حـدث مـع الأوزاعـي لمـا بلغـه أمـورًا مكذوبـة عـن الإمـام

(أبي حنيفـة) رحمـه اللـه، فلـما قـدم الإمـام المحـدث (عبـد اللـه ابـن المبـارك) وهومـن تلاميـذ (أبي حنيفـة) إلى الشـام و(دخـل عـلى الإمـام الأوزاعـي ببـيروت، قـال لـه الأوزاعـي: يـا خراسـاني مـن هـذا المبتـدع الـذي خـرج بالكوفـة يُكنـى أبـا حنيفـة؟

قـال الإمـام (ابـن المبـارك): فرجعـت إلى بيتـي، فأقبلـت عـلى كتـب (أبي حنيفـة)، فأخرجـت منهـا مسـائل مـن جيـاد المسـائل، وبقيـت في ذلـك ثلاثـة أيـام، فجئـت يـوم الثالـث، وهـو[أي: الأوزاعـي] مـؤذن مسـجدهم وإمامهـم، والكتـاب في يـدي، فقـال: أي شيء هـذا الكتـاب؟ فناولتـه فنظـر في مسـألة منهـا وقعـت عليهـا قـال النّعـمان [أي: لم يكتـب أبـا حنيفـة] فـما زال قائمًـا بعـد مـا أذَّن حتـى قـرأ صـدرًا مـن الكتـاب، ثـم وضـع الكتـاب في كمـه، ثـم أقـام وصـلى، ثـم أخـرج الكتـاب حتـى أتى عليهـا، فقـال لي: يـا خراسـاني مـن (النعـمان بـن ثابـت) هـذا؟

قلـت: شـيخ لقيتـه بالعـراق، فقـال: هـذا نبيـل مـن المشـايخ، اذهـب فاسـتكثر منـه، فقلـت لـه: هـذا أَبُوحنيفـة الـذي نهيـت عنـه.!)٧٥[١] وصنـف بعـض الملاحـدة كتابًـا في تنقيـص الإمـام الأعظـم (أبي حنيفـة) رضي الله عنه ونسـبه إلى الشـيخ (مجـد الديـن الفـيروز أبـادي) صاحـب القامـوس في اللغـة، ثـم أوصلـه إلى الشـيخ (جـمال الديـن بـن الخيـاط اليمنـي)، فشـنَّع عـلى الشـيخ أشـد التشـنيع، فأرسـل إليـه الشـيخ (مجـد الديـن) يقـول

75[1] انظر هذا الخبر في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٣٨). تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/ ٣٩٩).

لـه:(إني معتقـد في الإمـام أبي حنيفـة غايـة الاعتقـاد.

وصنفـت في مناقبـه كتابًـا حافـلًا وبالغـتُ في تعظيمـه إلى الغايـة، فأحـرِقْ هـذا الكتـاب الـذي عنـدك، أواغسـله، فإنـه كـذب وافـتراء عـليَّ) ٧٦

إن الزنادقـة لم يتركـوا علـمًا مـن علـوم الإسـلام إلا وكان لهـم فيـه بصمـة مـن التلفيـق والـدس والافـتراء، ففـي التفسـير نجـد الإسرائيليـات التـي تغـط بهـا بعـض كتبـه ونقلهـا أولائـك الذيـن اعتنقـوا الإسـلام غـير مخلصـين حاقديـن كائديـن أومخلصـين علقـت بأذهانهـم هـذه القصـص حينـما كانـوا عـلى ديانتهـم فجلبوهـا للإسـلام واستحسـنها المسـلمون، وظنـوا أنهـا مـن العلـم ووجـدوا فيهـا بعـض السـلوة والطرافـة، وقـد يكـون في بعضهـا فسـاد كبـير وغـرض خطـير، كأن يقـال بـأن أيـوب عليـه السـلام مـرض حتـى ظهـر الـدود عـلى جسـده وكنسـبة المعـاصي إلى بعـض الأنبيـاء حيـث زعمـوا أن داود عليـه السـلام عشـق زوجـة بعـض جنـوده وأَرسـلَه للحـرب ليقتـل فيتزوجهـا، كـما زعمـوا أن يوسـف عليـه السـلام هـم بامـرأة العزيـز هَـم فُحْـشٍ وسـوء ولفقـوا في ذلـك قصصًـا وحكايـات لا تليـق بمقـام الرسـل الكـرام الذيـن عصمهـم اللـه وحفظهـم مـن السـوء والفواحـش..وفي الحديـث الشريـف كان الوضـع والتلفيـق قـد بلـغ أشـده افـتراءً عـلى رسـول اللـه ﷺ حتـى يفسـدوا الديـن ويحرفـوا الملـة، ولكـن اللـه تعـالى قيـض لهـذه المهمـة علـماء حفـاظ حاربـوا الوضـع والوضّاعـين

76[1]لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج١. ص١٢٧

فطمسـوا زيفهـم وردوا إفكهـم، أمـا التاريـخ فقـد امتـلأت كتبـه بالقصـص المزيفـة والحـوادث المـزورة والمواقـف الخياليـة، بهـدف قتـل القـدوة وتشـويه تـراث الأمـة وزعمائهـا فهـذا هـارون الرشـيد مـن أكـثر خلفـاء الإسـلام الذيـن نالهـم التشـوية حتـى يلبسـوا عـلى حقيقـة الرجـل وغيرتـه الدينيـة وحبـه للغزووالعبـادة حينـما كان يجاهـد عامـا ويحـج عامًـا.

العلاج بالقراءة !

سـيظل الكتـاب هوالتحـدي الأخطـر بالنسـبة للـدول المتقدمـة، وقـد كادت الكلمـة المسـموعة تطغـى عـلى الكلمـة المكتوبـة، ولكـن مـع ظهـور الشـبكة المعلوماتيـة عـادت الكتابـة لمنصـة القيـادة، وسـيبقى الكتـاب هوالوسـيلة الكـبرى للمعرفـة، والقـراءة تزيـد مـن اللغـة الشـفوية والتوقـف عـن المعرفـة اللغويـة يعنـي التوقـف عـن الأفـكار والتوقـف عـن المعرفـة، فـوراء كل كلمـة فكـرة.. !

وهنـاك دراسـة حـول لغـة الفلاحـين، ولغـة العباقـرة والمفكريـن جـاء فيها: إن الفـلاح يمتلـك ٦٠٠ كلمـة يتعامـل بهـا في حياتـه، ولكـن وجـدوا رجـلًا مثـل تشرشـل يسـتخدم ٣٠,٠٠٠ كلمـة، ومعناهـا ٣٠,٠٠٠ فكـرة والاعتـماد عـلى اللغـة الشـفوية وحدهـا لا يكـون عالمًـا أومفكـرًا ولا سياسـيًا، ولعمـر بـن الخطـاب ﵁مقولـة في هـذا الشـأن وهـي: (تفقهـوا قبـل أن تسـودوا) وقـال الإمـام البخـاري معلقـا عليهـا: (وبعـد أن تسـودوا) أي لابـد مـن الاسـتمرارية لأن الذاكـرة تضمحـل، بـل ثبـت علميًـا أنـه كلـما اسـتمر الشـخص في القـراءة تقـل فرصـة إصابتـه بمـرض (الزهايمـر)؛ لأن علـماء النفـس قالـوا: إن المـدركات اللغويـة تصـل للمـخ في الجهـة اليـسرى في منطقـة اللغـة، والمعلومـات والمـدركات والمفاهيـم تعمـل عمليـة تثبيـت تؤكـد الذاكـرة، وتنميهـا وكلـما قـرأت كلـما نمـت أكـثر وتقـل فـرص (الزهايمـر)، وحتـى أن مـن تحـدث لـه جلطـة يجـرون لـه عمليـة تنشـيط

لغوي كالطفل تماما، مما يساعد على زوال الجلطة، بل ثبت أيضًا أن القراءة تقلل وتزيل الاكتئاب .

وهنا أتذكر الشيخ عبدالإله وأتعجب كيف لم تمحوالقراءة والمطالعة ما به من زهايمر تناسى بسببه ما أعطيته من كتبي؟! وعذرا أخي القاريء فلا أريد أن أقطع أفكارك، ولا تلمني لأن كتبي تلح بخاطري دومًا كلما ذكرت كلمة الزهايمر..غفر الله للشيخ عبدالإله وسامحه.

إن النسيان يجتاح شرائح عظيمة من المسنين الذين تجاوزوا الستين والسبعين، وأنسب علاج لهم هومداومة القراءة حتى لا يدهمهم النسيان، فالاطلاع المستمر تجعل الكلمات ماثلة في ذهن القاريء، ومع التوسع الذهني وامتداد الثقافة يجد كثيرًا من الاهتمامات والغايات الهادفة التي تشغله وتنشط حياته.!

(إن من أعظم ميزات القراءة، ونعني هنا جعل القراءة هواية نتعلق بها، أنها تحول دون ذلك النسيان الذي يُصيب بعض المسنين بسبب التصلب الشرياني في الدماغ، وهذا النسيان كثيرًا ما يعرقل التفكير المثمر، ويجلب الاستهزاء بالمسن، ويوحي إليه الضعف والهزيمة، فيزداد سوءًا وانحطاطًا، فإننا ما دمنا نقرأ كل يوم تبقى المعاني ماثلة في أذهاننا بشبكة من الكلمات، فتبقى الذاكرة حية والتفكير مثمرًا حتى ولوبلغ المائة من العمر، أما الذين لا يقرؤون أولا يجعلون القراءة هواية، فإن التصلب الشرياني يؤدي عندهم إلى النسيان، ولما

كان ما عرفوه من الكلمات قليلًا فإن هذه القلة يظهر أثرها في تفكيرهم، إذ إننا نفكر بالكلمات)٧٧

إن العلاقة الجدلية بين الفكر واللغة وأيهما أساس للآخر ما زالت قائمة، فالشخص الأصم لا يتعدى تفكيره مستوى التفكير الحاسي، ولا ينموولا يترقي في فكره، والعلاقة بين اللغة والتفكير أشار إليها علماء النفس اللغوي بقولهم: إن هناك علاقة بين القدرة على التفكير واللغة، وهناك دراسات تقرر أن الشخص الذي لا يستطيع أن يتخذ قرارًا وليست له رؤية هوشخص مضمحل الثقافة، وتستطيع أن توجهه حيثما أردت، لأن المعارف هي الأساس في اتخاذ القرار.

هل تتخيل أن يكون هذا العلم الحديث.. علم نفس القراءة أوالعلاج بالقراءة، والذي أصبح العالم اليوم يقره ويمارسه في كثير من الحالات المرضية قد تنبه إليه الفراعنة قديمًا وسطروه على حفرياتهم وجدران معابدهم؟!

لقد أكد هذا علماء الآثار.. وذكروا أن المكتبات في أغلبها كانت تابعة للمعابد وتستخدم في علاج كثير من الحالات النفسية، كما يذكر تراثهم أمثلة ومقولات تعبر عن هذا كالتي ذكرت في المكان المخصص للمكتبة في معبد الكرنك.. (هنا علاج الروح).!

77[1] حياتنا بعد الخمسين – سلامة موسى

ومـن بعـد الفراعنـة كان أفلاطـون، والـذي أشـار إلى تأثـير القـراءة العلاجيـة، وكان أطبـاء رومـا ينصحـون مصـابي الحـروب بالقـراءة في كتـب الملهـاة الكوميديـة وغيرهـا..

أمـا العـرب المسـلمون الذيـن هـم أمـة القـراءة فلـم يغفلـوا هـذا الجانـب، حيـث عالجـوا كثـيرًا مـن المـرضى النفسـيين بالقـرآن الكريـم، وبينـت نصوصـه الشريفـة أنـه فيـه شـفاء وعـلاج (وننـزل مـن القـرآن مـا هوشـفاء ورحمـة للمؤمنـين)الإسراء:٢٨، وكان ميـدان الرقيـا بآيـات القـرآن للمصروعـين والملبوسـين وأصحـاب الجـروح والآلام..إلى أن جـاء العـالم الـروسي (نيقـولاس روباكـن) في مطلـع القـرن العشريـن ويعـد أول مـن وضـع اللبنـات الأولى فيـما يعـرف بعلـم نفـس القـراءة.

وقـد تخطـى الغـرب مراحـل التحفيـز عـلى القـراءة والدعـوة لهـا، إلى مرحلـة الكشـف العلمـي بقدرتهـا العلاجيـة لكثـير مـن الحـالات المرضيـة، فقـد نـشرت مجلـة (النيويـورك) مقالـة لكاتبـة عرضـت علاجهـا بالقـراءة في مدرسـة الحيـاة في لنـدن، حيـث تقـدم المدرسـة لمرتاديهـا عـن طريـق التدريـب مـن قبـل متخصصـين لمواجهـة ضغـوط الحيـاة اليوميـة والعمـل والحـوارات العميقـة مـع استشـاريين نفسـيين والعـلاج بالقـراءة، لقـد بـدأ مشـوارها العلاجـي معهـم بسـؤالهم لهـا: مـا الـذي يشـغل بالـك هـذه اللحظـة ؟وبنـاء عـلى إجابتهـا عـلى السـؤال وأسـئلة تفصيليـة أخـرى، حصلـت عـلى الوصفـة العلاجيـة التـي ستشـتريها مـن المكتبـة بـدلًا مـن الصيدليـة، وفوجئـت بأنهـا مجموعـة كتـب لم تقرأهـا أبـدًا كونهـا خـارج

اهتمامها بالقراءة، الوصفة كتبت بناء على تشخيص حالتها الفكرية والنفسية والمثير في الأمر، ملاحظتها لازدياد قدرتها على تحمل ألم عضوي تعانيه خلال أشهر من استخدامها للوصفة المكتبية .!

تقول الكاتبة: (إن العلاج بالقراءة مصطلح قديم وهوالآن علم جديد، قراءة كتاب شيء له تأثير يختلف من شخص لآخر، فهويعمل كمسكن للبعض وللبعض الآخر يعطي مفعول قطعة حلوى على طفل، والدليل على ذلك أمر الجنود المشاركين في الحرب العالمية الأولى بالقراءة بعد عودتهم.. ووجد أن الشخص القاريء له قدرة على التعامل مع ضغوطات العمل والتحكم بالعلاقات بشكل أفضل، وأنه يتمتع بصحة عقلية أكثر من غيره وأن قراء الرواية يكتسبون خبرة تجعلهم يتصرفون تصرفا صحيحا في بعض المواقف، وإن لم يسبق لهم التعرض لها من خلال محاكاتهم لتصرفات أبطال الرواية)

كان الأطباء في أوروبا يصفون الكتب في (روشتات) طبية للخارجين من جحيم الحرب العالمية، وكانت أكثر الكتب مبيعًا هي كتب الفكاهة والأدب الساخر، إلى حد الاستعانة بكتاب ساخرين من أمثال (جورج برنارد شو) لإلقاء محاضرات في المستشفيات العامة، وذلك في محاولة لحمل جرحى الحرب على نسيان أوتناسي تجاربهم المؤلمة..وطبقًا لقاموس (أوكسفورد) الانجليزي ظهر مصطلح (بيبليوثيرابي) علم نفس القراءة مطبوعًا أول مرة عام ١٩٢٠م، في رواية كريستوفر مورلي (المكتبة المسكونة)

وتصور هذه الرواية عالمًا كان خارجًا لتوه من الحرب العالمية الأولى تصور علاقة حمقاء تربط بين فتى إعلانات وورثة لإحدى الإمبراطوريات مع وجود مؤامرة من جانب ألمانيا لتفجير موكب الرئيس الأمريكي..ويأتي (ميفلن) بائع كتب في هذه الرواية، والذي يمارس طب العلاج بالكتب، ويقول: «متعتي تتمثل في وصف الكتب للمرضى عندما يأتون إلى هنا ويعربون عن استعدادهم لإخباري بأعراض أمراضهم. ولا يوجد على وجه الأرض أكثر امتنانا من إنسان مددت له كتابًا كانت تتوق إليه روحه ولم يكن يعرف به)٧٨

ثم تطور أمره وزاد الاهتمام به في أوروبا حيث تذكر (الجارديان) البريطانية:أن مصحات العالم تعود إلى علاج مرضاها بالقراءة، بعد أن تراجع الاهتمام العالمي بهذا النوع من العلاج - نسبيا - في مطلع هذا القرن، إذ يوجد في بريطانيا حاليا نحو٥٠ مصحة تعالج نزلاءها عن طريق (علم نفس القراءة) وهناك مجموعات طبية متخصصة في هذا المجال، تستخدم الكتب كعلاج مساعد لبعض الأمراض النفسية والعصبية، وإعادة تأهيل المعاقين، وهي كتب من نوعية خاصة ومنتقاة بعناية، حسب كل مجموعة على حده.

كما ظهر تيار في بريطانيا يدعوللبعد عن الكيماويات والمضادات الحيوية ويبحث عن أساليب الطب البديل والأدوية الطبيعية، وكان العلاج بالقراءة من ضمن المجالات التي تم الاعتماد عليها وتطبيقها

78[1] من مقال كيف تجلب الكتب السعادة؟هيفزيياه أندرسون

خاصة في علاج المدمنين والسجناء والمكتئبين نفسيا، حيث نفذ برنامج علاجي تحت عنوان (الدخول إلى القراء) وحقق نجاحات شفائية كبيرة مع المدمنين بنسبة ٦٠٪، واعتمد القائمون عليه على كورسات مكثفة في القراءة على شكل مجموعات تقرأ كتبا مقررة تبعث على التفاعل والجاذبية والاهتمام والإثارة حتى يتفاعل المريض مع موضوع الرواية أوالكتاب هذا التفاعل الذي يُنشيء في داخله معنى الاهتمام والانتباه، ليخرج من حالة الظلام والاكتئاب التي سيطرت عليه.وتحويل أفكاره من السلب إلى الإيجاب .

وفي تجربة عملية طبقها بعض أطباء علم النفس المصريين فيذكر أنه أعطى نسخا من كتاب واحد هو(كليلة ودمنة) إلى ٥٢ مريضًا من مرضاه، فنظر كل منهم إلى نفس الكتاب نظرة مختلفة، وأسهمت القراءة في تحسن حالة نحو٢٠ شخصا منهم، كان بعضهم مصابا بالاكتئاب أوالخوف المرضي (الفوبيا) سواء من الظلام أوالأماكن المرتفعة أوالقلق النفسي، وكلها أعراض ليس من السهل تحقيق نتائج إيجابية في علاجها إلا بعد جلسات طويلة.

وطبقا لهذا تأتي الرواية من أكثر أنواع القراءة فاعلية حيث تشير الأبحاث أن القصة والرواية تساهم في التغلب على تحديات الحياة وتزيد من الثقة بالنفس، كما جاء في بحث بريطاني أن قراءة الشباب الصغير لقصص هاري بوتر جعلتهم أكثر استعدادًا وإيجابية إزاء الأقليات المهمشة واللاجئين وهوما يعمل على إيجاد الأمن المجتمعي.

إن للقراءة فوائد عظيمة في نفس الإنسان، والذين لا يقرؤون يفوتون على أنفسهم كثيرًا من الفوائد والمنافع الهامة، وقد ذكر المختصون بعضا منها مثل:

١- زيادة معدل الذكاء

فالذين يقرؤون لديهم معدل ذكاء أعلى ومعلومات عامة أكثر، وقد أثبتت الدراسات أن التحفيز العقلي يبطيء ويحمي من الإصابة بالزهايمر والخرف، فبقاء العقل نشطا وفعالا يمنعه من فقدان قوته.

٢- تحسين الذاكرة

عندما تقرأ يجب أن تتذكر ترتيب الشخصيات وخلفياتهم بجانب الأحداث التي تحدث في طريقهم، فالدماغ يقيم نقاط اشتباك عصبية لكل ذاكرة جديدة تنشئها، ويقوي الذكريات السابقة وهذا يساعد على استدعاء الذكريات على المدى القصير .

٣- التقليل من التوتر

مهما كان يومك عصبيًا أوعلاقتك بالآخرين متوترة فإن قراءة رواية جيدة أوخيالية تساعدك على التخلص من التوتر وتتيح لك الاسترخاء.

٤- الهدوء

بجانب الاسترخاء فإن قراءة الكتب تجلب لك السلام والهدوء الداخلي، فقراءة المواضيع الدينية تخفض من ضغط الدم وتشعر

بالطمأنينـــة .

٥- تحسين التركيز

حيث تساعد القراءة على التركيز بعيدا عن المشتتات اليومية.

همع الهوامع !

هـل تريـد منـي أن أقـدم لـك نصيحـة إن كنـت مـن الباحثـين والدارسـين وأعيـاك الحصـول عـلى بعـض المراجـع الهامـة ؟!نعـم.. فهنـاك مراجـع بحثيـة نـادرة لا يعـرف الباحثـون كيـف يتحصلـون عليهـا، ولا في أي مكتبـة يجدونهـا مسـتقرة.؟!

والطريــق المألــوف والطبيعــي هــوأن تذهــب للمكتبــات العريقــة أومكتبــات الجامعــات ودار الكتــب أوســور الأزبكيــة، لأنهــا قــد تضــم النــادر والقديم..وهــذا أمــر طبيعــي، ولكــن هنــاك جهــة أخــرى تعرفــت عليهــا مؤخــرًا مــن خــلال خــبرتي في الحيــاة وهوايتــي في الحصــول عــلى المراجـع النـادرة، وهـي النصيحـة التـي أقدمهـا اليـوم للباحثـين والدارسـين، وقــد تندهــش أيهــا القــاريء حينــما أخــبرك عــن هــذه الجهــة لأنهــا أمــر غـير مألـوف وجديـد وشـاذ، ولا يـأتي في حسـبان المطلعـين أوذهـن الكتـاب والقارئـين، والجهـة التـي أعنيهـا هـي محـلات الفـول والطعميـة ومحـلات البقالــين الذيــن يشــترون الأوراق ويتحصلــون عــلى الكتــب والمراجــع النـادرة التـي ذهبـت عـن أصحابهـا بفعـل ورثـة جهلـة، أوأبنـاء لا يدركـون قيمـة الكتـاب، فيبيعـون هـذه الكتـب النـادرة التـي تبقـت مـن ذويهـم للمحـلات والمطاعـم، حتـى يكـون مصـير صفحاتهـا مطويـة للتوابل أوسـلة للطعميـة تتـشرب زيتهـا وتحافـظ عـلى سـخونتها حتـى يأكلهـا المشـتري.!

والبقالـون ينضمـون لمحـلات الفلافـل لكنهـم لا يكونـون بنفـس الدرجـة في تحصيـل المراجـع الهامـة وهـدر الـتراث الثمـين.

وأحــكي لكــم هنــا حادثتــين عاينتهــما بنفــسي حتــى أثبــت لكــم هــذا الكشـف الكبـير لمصـدر هـام مـن مصـادر المراجـع الثمينـة، والتـي لا أبالـغ إن قلـت: إنـك قـد تجـد لديهـم مالم تجـده في المكتبـات الكبـيرة والشـهيرة ومـا أحكيـه يدلـل عـلى ذلـك !!

الحادثـة الأولى حينـما كنـت جالسًـا مـع أحـد أصدقـائي الدعـاة وهويتناول مسـألة مــن مســائل الــزكاة وكان مرجعــه في ذلــك هوكتــاب العلامــة الشـيخ القرضـاوي (الـزكاة) وهوكتـاب ضخـم يقـع في مجلدين،أعجبتنـي هيئـة الكتـاب فتناولتـه مـن يـده وتصفحتـه فراقتنـي طبعتـه وسـألته: مـن أي مكتبـة تحصلـت عليـه، فأخـبرني بقولـه: لـن تصدق.. لقـد وجدتـه لـدى أحـد البقالـين وقـد أوشـك أن يمزقـه ليبيـع في أوراقـه مـا يطلبـه النـاس مـن بضائـع ومـواد غذائيـة...! فأدركتـه قبـل أن يـشرع في تمزيقـه وأنقـذت الكتـاب لأسـتفيد منـه.!

أمـا الحادثـة الثانيـة، فهـي عجيبـة العجائـب، وقـد لعـب فيهـا القـدر لعبـة مثـيرة!! فصديقـي الأسـتاذ (تامـر الويـشي) مـن معلمـي اللغـة العربيـة النابهـين، حـكى لي هـذه الحادثـة حينـما كان طالبًـا بكليـة الآداب قسـم اللغـة العربيـة بجامعـة المنصـورة، وقـد أراد أحـد الدكاتـرة أن يغـير مـن الروتـين ويشـغل كل الطـلاب في مسـألة البحـث بـدلًا مـن حالـة الرقـود المعروفـة التـي يعتمـدون فيهـا عـلى كتـاب الدكتـور.. يذاكـرون

منـه ويتلقـون الأسـئلة وتنتهـي القصـة.. ولكـن المشـكلة أنـه كان يخبرنـا بأســماء مراجــع كبــيرة ويطلــب منــا أن نذاكــر منهــا ونلخــص بعــض أبوابهــا، لأن الامتحــان ســيأتي منها..فبــدأت بيننــا نحــن الطــلاب عمليــة ســباق في تحصيــل المراجــع، وأحيانــا كنــا نتصــادم بحيــث يتحصــل البعــض عــلى المراجــع في مكتبــة الجامعــة، ولا يســتطيع البعــض الأخــر أن ينظــر فيهــا،لأن الكتــاب قــد لا توجــد منــه غــير نســخة واحــدة، ولــكي نتغلــب عــلى المشــكلة، نقــوم بتصويــر الفصــل المعــين الــذي يقصــده الدكتــور وبعــد ذلــك يتبــين لنــا أنــه ليــس المقصــود، وتحــدث إشــكاليات كثــيرة..وفي يــوم مــن الأيــام رفعنــا شــكوانا للدكتــور وأخبرنــاه أن المراجــع تتــاح للبعــض دون البعــض، فــزاد الأمــور تعقيــدًا بــشيء جديــد، وقــال لنــا ســأعطيكم اســم مرجــع وأتحداكــم لووجدتمــوه، وهوكتــاب (همــع الهوامــع) وبــدأت عمليــة البحــث وكان هــذا طبعــا قبــل ولــوج عــصر الانترنــت والانفتــاح الفضــائي، وكنــت أظــن الموضــوع يســيرًا ولا يتطلــب إلا بعــض الجهــد مــن البحــث، فذهبــت إلى المكتبــة المركزيــة ومكتبــة قســم اللغــة العربيــة ومكتبــة كليــة التربيــة، وذهبــت كذلــك لمكتبــة دار المعــارف ودار الكتــب بالزقازيــق، ولم أجــد شــيئًا، كذلــك تحمســنا للموضــوع بشــدة..ثم أخذتنــي الجلالــة أن أســافر للقاهــرة وأســأل في دار الكتــب ودار المعــارف فذهبــت في نفــس اليــوم، ولم أجــد شــيئًا كذلــك، وزادت حــيرتي وكان لي صديــق قصصــت عليــه الأمــر فاقــترح عــلي أن أبحــث عنــه في مكتبــة الجامعــة الأمريكيــة، فذهبنــا إليهــا وبعــد بحــث طويــل لم أجــد ضالتــي المنشــودة، لم أيــأس.. حتــى اقــترح عــلي أحدهــم أن أذهــب إلى دار المخطوطــات القديمــة

باعتبـاره كتابًـا أثريـا ولعلـه مـازال مخطوطًـا فيهـا ونـادرًا، فحينـما ذهبـت إليهـم وسـألت الموظفـين ضحكـوا مـن الأمـر ولا أعـرف إن كانـوا ضحكـوا عـلى حماسـتي أوعـلى الاسـم الطريـف للكتـاب ؟! ولم أجـده هنـاك، وهنـا بـدأت أظـن أن الدكتـور قـد ألـف هـذا العنـوان مـن نفسـه، وأنـه لا يوجـد شيء اسـمه (همـع الهوامـع) وأنـه مـا أراد بذلـك إلا أن يحـدث لدينـا كطـلاب نوعًـا مـن التعجيـز، فاستسـلمت لليـأس ومـات في نفـسي الأمـل في تحصيـل هـذا الاسـم الغريـب..!

وفي يـوم مـن أيـام الجمعـة اسـتيقظت مـن نومـي مبكـرًا، وطلبـت منـي والـدتي أن أذهـب لأتسـوق وأشـتري طعـام الإفطـار مـن (عـم سـيد) بائـع الفـول والطعميـة، وبينـما أنـا أمامـه أنتظـر دوري في طلـب الفـول رأيـت بجـواره كومًـا كبـيرًا مـن الكتـب والجرائـد يمـزق منهـا ليبيـع فيهـا، ودققـت بعينـي وكنـت مازلـت حديـث عهـد بنـوم فرأيـت شـيئًا أذهلنـي وكـدت أشـعر معـه بـدوار أوأننـي في حلـم أوأن الذاكـرة تعيـد الأسـماء في مخيلتـي،.. لقـد قـرأت اسـم (همـع الهوامـع) عـلى كتـاب أصفـر قديـم.. لم أصـدق نفـسي وبينـما أنـا في حالـة الذهـول رأيـت (عـم سـيد) يتجـه نحوالكتـاب ليمعـن فيـه بالتمزيـق ويصنـع مـن صفحاتـه قراطيسًـا ليبيـع فيـه، فانقضضـت عـلى الكتـاب بيـدي وصـدري، ففـزع الرجـل ونظـر إلي وقـال لي: مالـك يـا أسـتاذ ؟ فقلـت له:(يـا عـم سـيد أنـا عـاوز الكتـاب ده فقـال: طيـب يـا أسـتاذ خـده بـس وسـع والنبـي علشـان أبيـع دنـا بجيـب الكيلوبربـع جنيـه)، أخـذت الكتـاب وانصرفـت دهشًـا تائهـا مـن غرابـة الموقـف، وتنبهـت إلى نـداء (عـم سـيد وهويقـول: الطعميـة يـا أسـتاذ!!)

وبسرعة شرعت في إعداد البحث واستشهدت بالكتاب المذكور وجعلته في قائمة المراجع وسلمته للدكتور وكنت في قمة السعادة، أما أصدقائي فلما أعياهم الحصول على الكتاب استقوا ما تيسر لهم من المراجع الأخرى.. وكان الدكتور يقرأ كل شيء للطلبة، ويحب أن يناقشهم بعكس ما نرى اليوم من إهمال متعمد للطلاب وازدراء تفكيرهم، وفي يوم من الأيام دخل الدكتور للمدرج وليس بيده إلا بحثي فعرفته من بعيد..فوقف وقال: كل المراجع التي قدمت لي كانت ناقصة ولم تستشهد بالمرجع الذي أشرت إليه إلا هذا البحث ورفعه في يديه، وقال: أنا أريد أن أتأكد إن كان هذا الطالب قد استشهد بالكتاب أم لا ؟..

ونادى على اسمي فقمت إليه فقال لي: أين الكتاب الذي استشهدت به، وكان الكتاب معي فأخرجته، فلم يصدق نفسه فقال لي: كيف تحصلت عليه؟ فقلت له إنها قصة طويلة هل أحكيها؟ فقال: نعم فسردت الأحداث أمام الطلبة، فأعجب الدكتور بإصراري على تحصيل الكتاب وهمتي في البحث عنه، وأخذه مني وصور منه نسخة لنفسه.. وكنوع من الجزاء وأمام الطلاب جميعًا أخبرني أنه سيمنحني امتياز في مادته تقديرًا لجهدي.

وبعد هذه القصة العجيبة أتخيلك أيها الباحث الآن وأنت تفكر وأعلم ما تفكر فيه، لأنه نفس ما فكرت فيه حينما سمعت هذه القصة.. أما أنا فجريت لأقرب بقال أومحل فول وطعمية واتفقت

معـه أن يطلعنـي عـلى مـا لديـه مـن أوراق الكيلومنهـا بربـع جنيـه ليجعـل منهـا قراطيـس..!

الربـاط الربـاط عـلى أبـواب البقالـين ومحـلات الفـول والطعميـة حتـى نقتنـص تراثنـا ونوادرنـا.....!

القارئ الجبار

إذا كان الزعيم (سعد زغلول) قد وصف الأستاذ العقاد بقوله: (الكاتب الجبار) فإني أصفه في هذا المقام بالقاريء الجبار.. !نعم.. فهوالقاريء الموسوعي الذي لم يكتف بمجال من المجالات أوعلم من العلوم أوفن من الفنون إلا وكان له به اطلاع ومعرفة.. وما كان لهذا القلم القوي أن يبلغ هذا الحجم الكبير من القوة والمتانة والصلابة والمنعة، إلا وتكون وراءه قراءة قوية عنيفة تمده بالوقود اللازم لخلق الجديد من الأفكار والآراء والإبداعات..!

وذات يوم وفي لقاء بالمجمع اللغوي جلس إليه أحد علماء الزيولوجيا، وكان يردد من حين لآخر هذه الكلمة كلما أراد أن يتحدث في شيء يقول:(عندنا في الزيولوجيا)! ففوتها العقاد مرة، فلما كررها انفجرت براكين الغضب، وقال بثورة هائلة: عندكم يعني إيه يا..هل تريد أن تقول: إنني لا أفهم أحسن منك في الزيولوجيا!

ويقول الأستاذ الأديب (علي الطنطاوي):(لا أعلم أحدًا قرأ أكثر مني غير الأستاذان العقاد ومحمد كرد علي.. !)

ربما حق للعقاد أن نفرده دون غيره بالحديث عن علاقته بالقراءة وارتباطها بحياته لأنه صاحب المؤلفات العديدة والمصنفات العميقة والقاريء النهم الذي رأى في القراءة حياة تضاف فوق حياته تضيف

له أعمارا فوق عمره وخبرات فوق خبراته حيث قال: (لست أهوى القراءة لأكتب ولا أهوى القراءة لأزداد عمرا في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة..

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق،وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب..

فكرتك أنت فكرة واحدة..

شعورك أنت شعور واحد..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أولاقيت بشعورك شعورًا آخر، أولاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أوأن الشعور يصبح شعورين أوأن الخيال يصبح خيالين.. لا.. وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الأفكار في القوة والعمق والامتداد.. والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة ومحسوس في عالم العطف والشعور.

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانا واحدا أوإنسانين اثنين، ولكنه يرى عشرات متلاحقات في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه.)٧٩

79 [1] أنا – عباس العقاد – ط نهضة مصر

بـل كانـت القـراءة عنـده هـي المعنـى الحقيقـي للحياة،بـل هـي هـدف الحيـاة، فـإذا لم تكـن فـلا حيـاة.. قـال لـه الأسـتاذ(طاهر الطناحـي) يومًـا: إن بنـاء جسـمك ومـا أراه مـن قـوة صحتـك ومثابرتـك عـلى العمـل في الشـيخوخة يبـشر بأنـك سـتصل إلى سـن المائـة وتزيـد، فـماذا يكـون شـعورك وقتئـذ ومـا الكتـاب الـذي تؤلفـه؟

فأجـاب: إننـي لا أتمنـى أن أصـل إلى سـن المائـة كـما يتمنـاه غـيري، وإنمـا أتمنـى أن تنتهـي حيـاتي عندمـا تنتهـي قـدرتي عـلى الكتابـة والقـراءة، ولـوكان ذلـك غـدا!

ثـم تحـدث عـن أكـبر أمانيـه في حياتـه والتـي لم تكـن في المـال أوالجـاه أوالمنصـب وإنمـا كانـت في تأليـف كتـاب عـن الإمـام الغـزالي وفلسـفته، وقـد عكـف عـلى القـراءة عنـه بعمـق في مراحلـه الأخـيرة ليضـع عنـه هـذا الكتـاب لكنـه رحـل قبـل أن يبـدأ فيـه!

انكـب العقـاد عـلى القـراءة منـذ الصغـر وقـرأ كل مـا وقـع تحـت يـده بنهـم كبـير، فقـد قـرأ العقـد الفريـد والمسـتظرف والكشـكول ومقامـات الحريـري وكثـيرًا مـن الدواويـن قبـل أن يبلـغ العـاشرة مـن عمـره، كـما قرأ بالإنجليزيـة أعـمالًا أدبيـة كثـيرة فكانـت ثقافتـه الغزيـرة مسـتمدة مـن الحضارتـين وهومـا سـاعده كثـيرًا ووسـع مداركـه، لقـد أعطتـه القـراءة كل شيء، وأعطاهـا هـوكل مـا يملـك حتـى كان أشـهر القـراء في القـرن العشريـن.

ارتبط العقاد بالكتاب صغيرًا، وكانت لظروف النشأة أثرها في تولد هذا الحب في نفسه فقد كان والده من أنصار الحركة العرابية، وكان العقاد يرى في بيت أبيه مجلة الأستاذ وغيرها من مجلات عبدالله النديم ومعها أعداد قليلة من أبونضارة والعروة الوثقى ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء..

وكان يسمع على الدوام أخبارًا في سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ولا سيما النديم .

مما دفعه أن يحاكيه وهوصغير بإعداد مجلة اسمها (التلميذ) على غرار مجلة (الأستاذ) التي يصدرها النديم، ثم يقول: إن هذه الظروف اقترنت بها رغبة ملحة في القراءة والكتابة، وكان يرى والده يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية وتراجم الأولياء الصالحين، ولم يقتصر الأمر على والده، وإنما كان يرى أخواله يقرؤون كتب التصوف والأدب الديني، ولا سيما كتب الغزالي ومحيي الدين بن عربي وغيرهم من المتصوفة المتأخرين ثم يصحبه والده إلى مجلسه مع شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين يسمرون معه في المندرة ويقضون أوقاتهم في الحديث عن السياسة والأسرة الحاكمة وقد أفادته هذه الجلسات فائدة كبرى كان أهمها معرفته بالقاضي أحمد الجداوي وكان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا جمال الدين الأفغاني وأخذوا عنه دورسًا في الحكمة والغيرة القومية وهورجل يذكره العقاد بأنه قوي الذاكرة وواسع الحفظ من

المنظـور والمنثـور يسـتظهر مقامـات الحريـري وبديـع الزمـان ودواويـن الشـعراء الفحـول ولديـه قـدرة عـلى منازلـة خمسـة أوسـتة مـن الأدبـاء في وقـت واحـد فيسـكتهم دائمًـا ولا يسـكتونه مـرة واحـدة، وكانـت معرفـة العقـاد بهـذا الرجـل حسـب قولـه هـي إحـدى الدوافـع القويـة التـي حفزتـه للمطالعـة والإقبـال عـلى قـراءة الكتـب والدواويـن.

ومـن هـذه الجلسـات كانـت انطلاقـة الفتـى اليافـع نحوالقـراءة والمطالعـة، التـي أحبهـا حينـما رأى اهتـمام مـن حولـه بها..وهـي بمثابـة عمليـة تشـجيع ذاتيـة وتوجيـه غـير مبـاشر تتـوق إليـه النفـس حينـما تـرى المنـاخ مـن حولهـا مصبوغـا بـه..

لقـد ورث العقـاد طبيعـة الانطـواء عـن أمـه وأبيـه، فلـم يكـن يمـل الوحـدة وإن طالـت ويسـتطيع أن يقـضي الأيـام الطـوال في بيتـه وحيـدًا وهومـا يتعـذر عـلى غـيره مـن أترابـه، ولكنـه ومـع هـذه الانطوائيـةلم يكـن فارغًـا عاطـلًا، وإنمـا كان يشـغل نفسـه بالقـراءة والكتابـة .

وفي صبـاه ومـع دخولـه للمدرسـة كان هنـاك دكان بجوارهـا يبيـع الكتـب مـع أصنـاف العطـارة والحبـوب ولـوازم أهـل الريـف ومـن هـذه الكتـب مـا كان يرتفـع إلى خمسـة قـروش أوإلى عـشرة قـروش كالمقامـات والدواويـن..

ولم يكـن مـصروف العقـاد في ذلـك الوقـت يزيـد عـلى خمسـة مليـمات في اليـوم أي خمسـة قـروش في الأسـبوع يتسـلمها مـن والده كل يـوم خميـس،

لم يكن يشتري بها مأكولا أوفاكهة كما يفعل أصحابه أويذهب بها إلى ملعب البهلوان إن زارت مدينهم في أوقات زيارتها، وإذا تجمع لديه ثمن الكتاب اشتراه لساعته ولم يتردد أويعطي العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب، وبهذه الطريقه واستطاع العقاد أن يقرأ العقد الفريد، وثمرات الأوراق والمستطرف والكشكول والمخلاة ومقامات الحريري وبعض الدواوين، ولم تكلفه هذه المكتبة التي اشتراها في صباه أقل من جنيه واحد.!

ولكن هذه الكتب التي اشتراها لم تكن هي كل ما قرأه في فترة التلمذة وما بعدها وإنما كانت له طرقه إلى كتب أخرى غير طريق الشراء حيث كان يقرأ في الكتب التي كان أبوه يقرأ فيها.

ثم كبر العقاد وكبرت معه هواية القراءة إلى حد التغول (فاشتهر بسعة اطلاعه وكثرة قراءته لمختلف الكتب، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قرأه، وكانت قرأته سريعة دقيقة ويفضل قراءة كتب فلسفة الدين وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء ودواوين الشعر، وكان يقول: (إنني أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينهما متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، إذ تؤدي جميعًا إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان، فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشعر هوترجمان

العواطـف، فأنـا لا أقـرأ مـن الكتـب إلا مـا لـه مسـاس بـسر الحيـاة)٨٠

وكان العقـاد يتنـدر بمـا وصفـه بـه الحكيـم وتخيلـه لـه في بعـض كتبـه بأنــه دخـل الجنــة وذهــب يطـوف في أرجائهــا عــسى أن يــرى وجهــة مكتبــة يقــف أمامهــا، ويتأمــل عناويــن الكتــب فيهــا، فلــما طــال بــه المطـاف ولم يجـد مكتبـة ولا كتبًـا ضجـر منهـا وطفـق يقـول: مـا هذا؟جنـة بــلا كتــب؟..

وعلـق عـلى هـذا بقولـه: (إن الحكيـم صـادق في تخيلـه، لأننـي فعـلا لا أسـتطيع أن أعيـش في جنـة لا أطلـع فيهـا.. نعـم لا أطلـع فيهـا وليـس مـن الـضروي أن أقـرأ فالقـراءة هـي إحـدى صـور الاطـلاع)

لقــد بــدأ يقــرأ في كل شيء، وكان أصدقــاؤه حينــما جــاء إلى القاهــرة يتبادلــون القــراءة، ويذهبــون لــدار الكتــب حتــى ينســخون الكتــب القديمــة..! وكان أول كتــاب ألفــه عــن خواطــره ومذكراتــه مطروحًــا في الأسـواق سـبع أوثمـان سـنوات لا يلتفـت إليـه أحـد، حتـى بـدأ يكتـب في الصحـف وأقبـل النـاس عليـه وعـلى غيرهـا مـما كتـب بعـد ذلـك مـن مؤلفـات، كان يقـرأ في العلـم والأدب والتاريـخ والفلـك والطـب وكل شيء وفي حـواره مـع الإعلامية(أمـاني ناشـد) أشـار لهـا أن هـذا الـدولاب الـذي عـلى يسـاره فيـه ٠٠١ كتـاب عـن الحـشرات يقرأهـا وينظـر فيهـا..!

ويحــكي تلميــذه النجيــب الكاتــب الكبــير أنيــس منصــور في كتابــه (في

80[1]أنا – للعقاد ط. نهضة مصر

صالون العقاد كانت لنا أيام) أنه أراد ذات يوم أن يثبت للعقاد أنه لم يقرأ كل شيء ولا يعرف كل شيء وخصوصًا في الفلسفة الوجودية وهي تخصص أنيس منصور، وقام متباهيا بذكر أسماء الكتب التي قرأها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، فسأله العقاد: كم كتابًا له عندك؟فقال أنيس: كل الكتب التي ترجمت إلى الإنجليزية وهما كتابان، فضحك العقاد ونادى خادمه وقال: هات الكتب الملقاة على السرير، فكانت المفاجأة بأن جاء الخادم بسبعة كتب للفيلسوف الألماني وضحك العقاد ليقول: كل شيء موجود هنا يا مولانا، إنني أطلب الكتب وهي في المطبعة .!

يرى العقاد بأن (الكتب لا تغني عن تجارب الحياة، وكذلك لا تغني التجارب الحياتية عن الكتب لأننا نحتاج قسطا من التجربة لكي نفهم حق الفهم، أما أن التجارب لا تغني عن الكتب فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين)

كما كانت له نظرة إيجابية في الكتب المكررة في الموضوع الواحد، ولم يجعله تشابه الموضوع يعرض عن البقية بحجة أنه قرأ مثله قبل ذلك وهي فلسفة تؤمن باختلاف وجهات النظر وتمايز الأفكار وتنوعها واختلاف رؤيتها التي تجلب الفائدة مهما كانت يسيرة، فهولا يظن أن هناك كتبًا مكررة، لأنه يعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها أكثر من كاتب وأكثر من كتاب أصبحت ألف فكرة، ولم تعد

فكـرة واحـدة، وكان يتعمـد أن يقـرأ في الموضـوع الواحـد أقـوال كتـاب عديديـن، ويشـعر بالمتعـة والمنفعـة مـن قـراءة الموضوعـات المتعـددة، فـكان يقـرأ عـلى سـبيل المثـال في حيـاة نابليـون أكـثر مـن أقـوال ثلاثـين كاتبًا ويثـق أن كل نابليـون مـن هـؤلاء هوغـير نابليـون الـذي وصـف في كتـب أخـرى .

ولا يفـوت العقـاد أن يتحـدث عـن تأثـير الكتـب في الإنسـان بأنواعهـا فيقـول: أمـا تأثـير كل نـوع مـن أنـواع الكتـب الثلاثـة العلميـة والأدبيـة والفلسـفية، فهـوأن الكتـب العلميـة تعلمنـا الضبـط والدقـة، وتفيدنـا المعـارف المحـدودة التـي يشـترك فيهـا جميـع النـاس، والكتـب الأدبيـة توسـع دائـرة العطـف والشـعور، وتكشـف لنـا عـن الحيـاة والجـمال، والكتـب الفلسـفية تنبـه البصـيرة وملكـة الاسـتقصاء وتتعـدى بالقـاريء مـن المعلـوم إلى المجهـول وتنتقـل بـه مـن الفـروع إلى الأصـول.

وكل مـن هـذه الأنـواع لازم لتثقيـف الإنسـان وتعريـف جوانـب هـذا العـالم الـذي يعيـش فيـه وأنـا أفضلهـا عـلى هـذا الترتيـب الأدبيـة، فالفلسـفية، فالعمليـة .

وحـول الفائـدة مـن الكتـاب الـذي نريـد قراءتـه، فقـد أشـار العقـاد إلى أن القـاريء لا يسـتطيع تحديـد حجـم ومقـدار الفائـدة التـي يجنيهـا مـن قـراءة الكتـاب فـرب كتـاب يقـرأه القـاريء ويجتهـد في قراءتـه ثـم لا يخـرج منـه بـشيء وكتـاب آخـر قـد يتصفحـه مجـرد تصفـح فيـترك فيـه نفسـه أثـرًا كبـيرًا وعميقًـا في كل رأي مـن آرائـه وفي كل اتجـاه مـن

اتجاهـات ذهنـه.. ويقـدم نصيحـة للقـاريء الـذي يصيبـه الفتـور مـن القـراءة فيقـول: لا تُكـره نفسـك عـلى القـراءة ودع الكتـاب في اللحظـة التـي تشـعر فيهـا بالفتـور والاسـتثقال..

ثـم يتحـدث عـن الكتـاب المفيـد والمؤثر ويبـين أن الكتـاب المفيـد هوالذي يزيـد مـن معرفـة قارئـه وقدرتـه عـلى العمـل والإدراك وتـذوق الحيـاة، ويكـون هـذا الكتـاب جديـرًا بالاهتـمام إن وجـد، والإنسـان لا يعـرف إلا ليعمـل أوليشـعر، والمعرفـة التـي لا عمـل وراءهـا ولا شـعور فخـير منهـا عدمهـا، وعـلى هـذا الأسـاس نسـتطيع أن نفـرق بـين مـا يصلـح للثقافـة والتهذيـب وبـين مـالا يصلـح..

كان العقـاد في حالـة ماديـة غـير مسـتقرة ويلجـأ للكتـب ويعيـش منهـا، فقـد بلـغ بـه أمـره أن يؤلـف كتابًـا عـن (سـعد زغلـول) حتـى يسـاهم في إنعـاش حالتـه الماديـة ويـروج لاسـمه أكـثر وأكـثر، وقـد قيـل إن دار الطباعـة التـي نـشر فيهـا (العقـاد) هـذا الكتـاب قـد أعلنـت أن ثمـن الكتـاب قبـل الطبـع، أقـل مـن ثمنـه بعـد الطبـع بقيمـة الثلـث، فأقبـل المواطنـون عـلى شراء الكوبونـات التـي طبعـت لهـذا الغـرض، وفي أسـبوع واحـد بيـع أكـثر مـن ثلاثـين ألـف كوبـون فحصـل العقـاد عـلى ثمـن الطبع مـن الربـح واعتمـد عليـه فـترة مـن الوقـت لا تقـل عـن سـنة تقريبـا..

وقيـل: إن الدنيـا ضاقـت بـه مـرة لضيـق ذات اليـد فهـم بالانتحـار حتـى فوجـيء بأحـد الناشريـن يطـرق بابـه ويريـد أن يشـتري منـه كتابـه أبوالشـهداء نظـير قـدر مـالي كبـير..!

لقـد كانـت الكتـب للعقـاد وفي حيـاة العقـاد هـي النوافـذ التـي تطـل عـلى حقائـق الحيـاة.!

لماذا يقرأ الطاغية ؟!

منذ فترة تابعت موقع عبد الناصر وقد زج الناصريون فيه مئات الكتب التي قرأها زعيمهم.. ! ولا أعرف ماذا به لوكان لا يقرأ ؟ وكيف سيكون مصير مصر أكثر مما آلت إليه في أيامه السوداء ؟! أم أنها محاولة غبية عبثية لإثبات أن القراءة من الممكن أن تقود للفشل والخيبة والخسارة والعار ؟!

والحق أن فعلهم هذا ربما يكون صحيحًا فالرجل كان يقرأ ويطلع ويهوى الأدب والروايات، ولكن هناك سر حول هذا التناقض الرهيب.. فكيف برجل مثقف يهوى الأدب ويطلع على إنتاج الأدباء، ثم يبلغ طغيانه إلى هذا الحد ؟! وكان الأولى أن يؤثر الأدب في نفسه، ويهذب روحه وإحساسه، فيكون رقيق المشاعر حاضر العاطفة إنساني النزعة والتوجه.. فما اللغز في هذه الشخصية المحيرة؟ ولماذا لم تؤثر القراءة في شخص الزعيم الكبير؟ إلا بنتيجة سلبية.. ؟

والجواب يتلخص في المارد الذي يسكن شخصية عبد الناصر.. مارد مجنون بالعظمة والزعامة والقيادة والأوحادية.. التي للأسف وجدت في القراءة طريقا لإنمائها وسبيلا لتغذيتها.. !

حينما قام انقلاب يوليو٢٥م، وتحول بفضل بنات أفكار الأفاقين والكذبة من الكتاب والإعلاميين إلى ثورة٢٥، ظهر شخص (عبد الناصر)

الـذي كان يُؤمـن بالفرعونيـة، ويتقمـص شـخصية الفرعون..وظهـر كذلـك مـن شـجعه عـلى المـُضِي في هـذا الـدور وانتحـال شـخصية المعبود..مـن المتملقـين والنفعيـين والعبيـد وأعـداء الحرية..وكانـت المفاجـأة يـوم صرح قائـد الثـورة الملهـم، بأنـه اسـتلهم روح الثـورة مـن كتـاب (عـودة الـروح) للأديـب الكبـير (توفيـق الحكيـم)، وأنـه الكتـاب الـذي أثـر في تكوينـه الوطنـي.!!

نعـم لقـد كان (عبـد النـاصر) مثقفًـا ويقـرأ ويحـب الأدب والفكـر.. ولكـن للأسـف.. بـدلاُ مـن أن تُهـذب هـذه الثقافـة نفسـه، وتقـوم الأفـكار والآداب سـلوكه وشـططه، فإنهـا كانـت وقـودًا للـمَارد الجبـار، الـذي يقبـع داخـل نفسـه، وينتظـر اللحظـة المناسـبة للخـروج.

تمامًـا كمـن جـاء حقـلاَ مليئًـا بالأشـواك يريـد أن يسـقيه بالمـاء.. !!إن السـقاية أمـر محمـود، وإرواء الأرض عمـل طيـب، ولكـن ذلـك المعنـى لا يسـتقيم في حقـل تبعـث أرضـه بمـا يـؤذي الإنسـان!

لقـد كان (توفيـق الحكيـم) نفسـه يتسـاءل ويقـول:إن عبـد النـاصر جعـل نفسـه معبـود الشـعب، ولسـت أدري هـل كان ذلـك حلـمًا قديمًـا لـه؟.. بـدأت أسـأل نفسي بعـد أن تأكـدت مظاهـر العبـادة لشـخصه عـلى مـر الأيـام، مـا الـذي كان يعجبـه في كتـاب (عـودة الـروح) ؟أتـرى هـل الفقـرة التـي تـروي مـا معنـاه.. أن مـصر تحتـاج دائمًـا إلى معبـود مـن بينهـا؟

فلـما قـرأ ذلـك وهوشـاب صغـير، حلـم بـأن يكـون هـوذات يـوم.. هـذا المعبـود؟

ليس هـذا بالـشيء المكـروه، فـكل إنسـان لـه الحـق أن يحلـم بـأن يكـون معبـود الجماهـير، ولكـن المكـروه بـل الخطـر، هـوأن يكـون للمعبـود البـشري مـن القداسـة مـا يجعلـه معصومًـا مـن الخطـأ في نظـر النـاس، ومـا يجعـل سـلطانه يشـل العقـول فـلا تـرى غـير مـا يـرى، ولا يسـمح لهـا بـرأي يخالـف رأيـه..

ولا شـك أن تحليـل الأسـتاذ (الحكيـم) وتكهنـه حـول إعجـاب (عبـد النـاصر) بكتابـه، هوالتفسـير المقبـول والاسـتنتاج الصائـب، وعـلى هـذا فـإن روايـة (عـودة الـروح) بقـدر روعتهـا وتميزهـا، إلا أننـي أعتبرهـا روايـة مشـؤومة عـلى مـصر، حينـما قرأهـا (جـمال عبـد النـاصر) ونمـت فيـه روح الزعامـة الأوحاديـة، وصـادف فيهـا تلـك العبـارات التـي جعلـت منـه هـذا الطاغيـة الجبـار، الـذي أذل مـصر وكبـت حريتهـا، وكلـل حياتهـا بالعـار والهزيمـة..

وأمـام هـذا الجـبروت كان الحكيـم يحتـال لـه في النصـح، ويوجـه لـه رسـائله مغلفـة بصـورة متواريـة.. خوفـا مـن حماقتـه وغـروره التـي فطـن إليهـا وعاينهـا في سياسـاته ومواقفـه مـن معارضيـه

يقـول الأسـتاذ (توفيـق الحكيـم) في كتابـه (عـودة الوعـي): (عندمـا كان يخاطبنـي بعـض الشـك أحيانًـا، وأخـشى عليـه مـن الشـطط أوالجـور، كنت

ألجأ إلى إفهامه رأيي عن بُعد ورفق، وأكتب شيئًا يفهم منه ما أرمي إليه.. فقد خفت يومًا أن يجور سيف السلطان في يده على القانون والحرية فكتبت (السلطان الحائر) ثم خفت أن يكون غافلا عما أصاب المجتمع المصري قبيل حرب ٧٦٩١م من القلق والتفكك، فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من المغامرات فكتبت (بنك القلق) وهي كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة، لمجرد التنبيه لا الإثارة، وكما علمت فقد قرأها وفهم ما أقصده منها، ولكنه فيما ظهر لم يأخذ بها، بل اندفع في طريقه)

إن الحكيم يتواري في نُصح الطاغية، حتى لا يجلب الضرر لنفسه، والمصادرة لأفكاره وكتبه.. لقد قام بدوره مرشدًا وموجهًا، بالطريقة المناسبة.

زلف (جمال) على متابعة الكتاب والمفكرين الأدباء، عله يجد في كُتبهم ما يروي نفسه المنكوبة بحب العظمة والكبرياء والزعامة الزائفة، فكان الدور في الإعجاب، من نصيب الكاتب الكبير (خالد محمد خالد) الذي قرأ كتاب (الديمقراطية أبدًا) وكانت له معه قصة مشهورة.. لقد راق له أسلوب خالد، وأعجب بالكتاب إعجابا مفرطًا، وليت هذا فحسب، وإنما تخطاه لأبعد من ذلك، فقد حفظ بعض جمله وفقراته.

وقف يومًا ليخطب في حفل كبير ضم عشرات الألوف بمدينة (المنصورة)، واستشهد خلال خطابه بفقرتين من الكتاب المذكور دون

أن يشـير إليـه.! وكانـت الفقـرة الأولى التـي ألقاهـا عـلى الجماهـير هـي: (عـلى الاسـتعمار أن يحمـل عصاه عـلى كاهلـه ويرحـل.. أوفليقاتـل حتـى المـوت دفاعًـا عـن وجـوده)!

أمـا الفقـرة الثانيـة فهـي: (إن الأمـة التـي تسـاوم عـلى حريتهـا توقـع في ذات الوقـت وثيقـة عبوديتهـا)!!

وفي اليـوم التـالي لهـذا الحفـل السـياسي الضخـم كانـت الملصقـات تغطـي جـدران الأبنيـة والشـوارع في القاهـرة، حاملـة الفقرتـين وممهورتـين بتوقيـع جـمال عبـد النـاصر!!

يقـول الأسـتاذ خالد:(لقـد فرحـت بـه وفرحـت لـه، فالكتـاب لم يكـن قـد مـضى أكـثر مـن أسـبوع عـلى ظهـوره.. ومـع ذلـك قـرأه وفهمـه وانتقـى مـن أطايبـه مـا يضمنـه خطبـه.. إنـه إذن لرجـل كبـير؟!!

وفي عمـود الاجتماعـات نـشرت جريـدة المـصري الفقرتـين اللتـين انتحلهـما عبـد النـاصر وكتبـت تحتهـما: مـن قائـل هـذه الكلـمات المضيئـة ؟ إنـه خالـد محمـد خالـد في كتابـه الجديـد الديمقراطيـة أبـدا.

كان عبـد النـاصر لا ينـسى.. ويومئـذ أحسسـت أنـه لـن يغفـر للمـصري هـذه الغمـزة الواشـية !!

وأغـص نفسـه أكـثر، أنـه في تلكـم الأيـام كانـت العلاقـة قـد بـدأت تسـوء بينـه وبـين محمـد نجيب..الـذي وقـف يومًـا ليخطـب هوالآخـر ويقـول:

إنهـم يأخـذون أفـكار غيرهـم وكلامهـم، وينسـبونه لأنفسـهم وهـم يخطبـون الجماهير..!

وفي اليـوم التـالي وقـف عبـد النـاصر يخطـب ويغمـز الرئيـس نجيـب غمـزًا مسـيئًا) والحادثـة رغـم كونهـا محرجـة لشـخص عبـد النـاصر، إلا أنهـا تشـيد بحبـه للقـراءة وتذوقـه لـلأدب والفكـر، ولكـن هـذا التـذوق وهـذه القـراءة، لم تكـن تدفعـه ليؤمـن بمـا كان يقـرأ ويتـذوق، وإنمـا كان فقـط ينتقـي مـن كتـب المفكريـن مـا يحلولـه مـن فقراتهـم البيانيـة، وجملهـم الحماسـية، التـي تُلهـب عاطفـة الجماهـير حينـما يرددهـا في خطاباتـه، وهـي الحماسـة التـي تُسـهم كذلـك في تزكيـة الشـعور المتأصـل في نفسـه بأنـه الزعيـم الملهـم والقائـد الجسـور الـذي لا مثيـل لـه.

أمـا خالـد فلـم يحـزن أن سُرقـت كلماتـه ونسـبت لغـيره، وإنمـا فـرح واسـتبشر لأن الرجـل قـرأ كتابـه، ومعنـى هـذا.. أنـه فهمـه واقتنـع بـه وحفـظ كلماتـه، ولابـد أنـه سيسـير في تطبيقهـا.. ولكـن الأيـام حملـت لخالـد خيبـة الأمـل في نـاصر ورفاقه..حتـى كان رأيـه الـذي قـال فيـه: (إن إعجـاب عبـد النـاصر بالدكتاتوريـة في سـنٍ مُبكـرة، قـد اختبـأ داخـل شـخصيته مسـتوطنًا وجدانـه وأحلامـه بحيـث لم يفلـح في إجلائـه)

لم يكـن عبـد النـاصر يقـرأ ويتثقـف ويحفـظ جمـل الغـير وينسـبها لنفسـه فقـط.. ! وإنمـا كان يحمـي مـن يُحـب مـن المفكريـن الذيـن أثـرت فيـه كلماتهـم، حتـى لونقـدوه وخالفـوا توجهاتـه، في الوقـت الـذي لم يكـن يرحـم فيـه مـن يقـول لـه لا، أوينطـق بمـا يخالـف هـواه.!

وليكـن خالـد وتوفيـق نموذجًـا.. فحينـما صـدر كتـاب (خالـد) عـن الديمقراطيـة في لحظـة حرجـة تُخالـف توجـه ضبـاط الإنقـلاب، سـأل بعضهـم (جـمال عبـد النـاصر) لِـم لَـم تُصـادر هـذا الكتـاب؟ فقـال: إنـه لا يليـق بنـا أن نُصـادر أول كتـاب للكاتـب الـذي كتـب في عهـد فـاروق (مواطنـون لا رعايا).. ثـم كأنـه أراد أن يقطـع الطريـق عـلى مقـترح المصـادرة، فقـال: إننـا إذا صادرنـاه سـينتشر أكـثر ويذيـع أمـره..

أمـا (توفيـق الحكيـم) فحينـما هاجمـه أحـد أدبـاء الشـام هجومًـا حـادًا.. إذا بعبـد النـاصر ينفعـل مـن أجلـه، ويصـدر قـرارًا بمنحـه أكـبر وسـام في الدولـة، وحينـما راجعـه أحدهـم بـأن الوسـام يُمنـح لكبـار رجـال الدولـة، وليـس لموظفـين صغـار في درجـة وكيـل وزارة.. لم يلتفـت لكلامـه.

أمـا الموقـف الثـاني فقـد تسـبب الحكيـم في فصـل أحـد الـوزراء مـن عملـه، فحينـما ترجمـت مسرحيتـه إلى اللغـة الألمانيـة، ومُثلـت في ألمانيـا عـلى مـسرح (الموزارتيـوم) دُعـي إلى حضورهـا وسـافر، وكانـت الحفـاوة بـه بالغـة، وصفهـا سـفير مـصر في ألمانيـا وقتهـا في تقريـره الـذي بعـث بـه إلى وزارة الخارجيـة مرفقـاً بـه بعـض مقـالات الصحـف التـي تحدثـت عـن الموضـوع.. وحينـما رجـع (توفيـق الحكيـم) وجـد الوزيـر قـد تقـدم بطلـب لفصلـه مـن وظيفتـه، طبقًـا لقـرار التطهـير باعتبـار أنـه موظـف غـير منتـج، فصـاح (عبـد النـاصر) في وجهـه قائـلًا: أتريـد أن نطـرد كاتبًـا عائـدًا إلينـا بتحيـة مـن بلـد أوروبي ؟

أتريد أن يقولوا علينا أننا جهلة؟!، وانتهى الأمر بإخراج الوزير من الوزارة.

وبعد..فرغم هذه الحفاوة والتقدير من عبد الناصر لتوفيق الحكيم وخالد محمد خالد، إلا أنهما أبدًا لم يردا الجميل على حساب الحق،بل قالا فيه رأيهما بصراحة ووضوح، وأعلنوه بصوت عال وأظهروا فيه كيف كان يقدس ذاته، ويتمثل نفسه ما على الأرض مثيلًا له أوشبيه، وسجلوا في محضر التاريخ كيف كان يؤمن بالدكتاتورية تلك الآفة التي ركّعت مصر، وقضت فيها على بذور الحرية..

فأين اليوم أصحاب الأقلام من المفكرين والأدباء والإعلاميين الذين ينطقون بالزور ويرددون الإفك ويجملون القبيح ويقبحون الجميل، أين هم من قول الحق وإنصاف الحقيقة التي دهسوها بأحذيتهم قبل أن يدهسها سادتهم من الحكام الآثمين؟!

أين هم اليوم من خالد وتوفيق..؟!

إن الأمم تعتز بزعمائها وتحاول أن تخلد ذكراهم ومآثرهم وتاريخهم، وبعضهم صنعت له التماثيل والمجسمات وأنشئت له اللافتات الضخمة الكبيرة.. وبعضهم تسمت باسمه أكبر الميادين والأندية والأحياء وربما المدن، وبعضهم جعلوا من بيته متحفًا يضم أخص خصائصه، فهذا ملبسه وهذا معطفه وذاك حذاؤه، وهذا مكتبه، وهناك يقبع سريره.. وكثير منهم من توضع وجوههم في العملة

الرسـمية للبـلاد لـكي يراهـم النـاس ويتذكرونهـم في كل ووقـت وحـين.. وهنـاك أمـم بارعـة في هـذا النـوع مـن التكريـم الـذي وصـل بهـا إلى حـد التقديـس والمغـالاة في شـخوص زعمائهـا، كـما نـرى في روسـيا ومـا كان مـن أمرهـا مـع لينـين، وتركيـا مـع الهالـك الملعـون كـمال أتاتـورك، وفي أمريـكا مـع جـورج واشـنطن وابراهـام لينكولن..حتـى طالعتنـا مؤخـرًا محاولـة جديـدة وفريـدة مـن نوعهـا في تخليـد ذكـرى قائـدٍ مـن القـادة المشـهورين في العـالم، وركـزت عـلى جانـب هـام ومجهـول مـن حياتـه وهوجانـب يـكاد يتفـرد بـه مـن بـين الزعـماء والمشـاهير في عـالم السياسـة، فقـد فوجـيء الجمهـور العـربي بمعـرض فتوغـرافي ضخـم في رام اللـه تحـت عنـوان (جيفـارا قـاريء بـلا حـدود) حيـث يتـم فيـه إبـراز الجانـب الثقـافي في حيـاة جيفـارا ويتنـاول تفاصيـل أحوالـه كقـاريء ومثقـف..

جـاء المعـرض بالتعـاون مـع ممثليـة الأرجنتـين في فلسـطين، وقـدم صـورًا نـادرة لجيفـارا وهويقـرأ، إضافـة إلى صـور كتـب كان يقرأهـا أوكتبهـا أوترجـمات عنهـا، كـما عرضـت عبـارات نـادرة لـه حـول القـراءة وعبـارات قيلـت فيـه كقـاريء وليـس فقـط كثائـر..

وجيفـارا ثائـر عظيـم وبطـل أممـي يعرفـه كل العـالم ويعلـق الشـباب على اختـلاف مراحلهـم وألوانهـم صورتـه عـلى ملابسـهم وفي حجراتهـم وصـار يمثـل اليـوم رمـزًا للحريـة والاسـتقلال، ولهـذا كان جيفـارا يقـرأ للحريـة والاسـتقلال، ولم يكـن يقـرأ ليغـذي في نفسـه مـارد الطاغيـة المتكـبر الـذي يعتقـد أن اللـه خلقـه مـن نبتـة العظمـة بينـما خلـق الآخريـن مـن الطين.

إن العـالم يعـرف بقـوة معنـى جيفـارا الثائـر حتـى قـدم لنـا المعـرض جيفـارا القـاريء، وهولـون جديـد مـن حيـاة جيفـارا الـذي يحبـه الملايـين.. ! فهـل ياتـرى يسـتطيعون محاكاتـه فيـما كان يحبـه ويهـواه ويواظـب عليـه، أم أن التقليـد في المظاهـر والشـعارات وحدهـا ؟!

لقـد نظـم هـذا المعـرض للمـرة الأولى حسـب مـا نـشرت صحيفـة الحيـاة في (روسـاديو) في عـام ٢٠١٣ م عـبر مركـز الدراسـات الأمريكيـة اللاتينيـة، بهـدف تعريـف الجمهـور وتقريبـه مـن الكتـب التـي غـذت فكـر جيفـارا منـذ الطفولـة المبكـرة وحتـى آخـر أيامـه في الغابـات البوليفيـة، حيـث عرضـت صـورة لـه برفقـة بعـض الثـوار وهويقـرأ لهـم أحـد الكتـب، إضافـة إلى الكتـب المتعلقـة بنشـأته النظريـة (السياسـة، والتاريـخ، والاقتصـاد، والفلسـفة، وعلـم الاجتـماع، وعلـم النفـس، وغيرهـا)، كأسـاس لبنـاء نظريتـه الخاصـة، كـما يهـدف المعـرض إلى التعمـق في تلـك القراءات الأخـرى التـي أثـرت فى حياتـه، مـن خـلال أجنـاس أدبيـة مختلفـة، مثـل الروايـة، والشـعر، والقصـة القصـيرة، حيـث يتضمـن المعـرض قائمـة طويلـة بالكتـب التـي قـام جيفـارا بقراءتهـا، وتلـك التـي كان يخطـط لقراءتهـا، عـلاوة عـلى صـور لـه في لحظـات القـراءة، في أماكـن قاسـية وغـير متوقعـة، عـلاوة عـلى مـا يهـدف إليـه مـن التأكيـد عـلى أهميـة الكتـاب كأداة مـن أدوات التحـرر. واللافـت، أن جيفـارا، ومنـذ كان شـابًا، عمـد إلى تكويـن مـا يمكـن تسـميته (فهـرس قـراءة)، عـن طريـق تدويـن الكتـب التـي قرأهـا، والكتـب التـي ينـوي قراءتهـا، حيـث يظهـر في المعـرض فهرسًـا خطـه في الغابـات البوليفيـة يظهـر واحـدًا وخمسـين عنوانًـا أدبيًـا كان

ينـوي قراءتهـا، ولم يمهلـه المـوت إتمـام المهمـة، عـلاوة عـلى مـا تضمنـه المعـرض مـن ملاحظـات نقديـة حـول مـا قـرأه، خطهـا بيـده، وفي مرحلـة لاحقـة بالآلـة الكاتبـة (الطابعـة). واشـتمل المعـرض عـلى مراسـلات بـين آرنسـتووعمته بياثريـت، وكانـت تقيـم في المكسـيك، ومنهـا رسـالة في العام ١٩٥٤، يطلـب منهـا فيهـا أن تـزوده بالجرائـد اليوميـة، لافتًـا إلى أنهـا (بعشريـن سـنتًا يمكـن أن ترسـل لـه الكثـير مـن الجرائـد القديمـة)، في حـين أشـارت رسـالة أخـرى لعمتـه، بعـد عامـين مـن الأولى، إلى إلحاحـه بإرسـال المزيـد مـن الجرائـد، وأنـه لـن يطلـب ذلـك منهـا مجـددًا، إن كانـت لا تحـب القيـام بهـذه المهمـة، مـع أن قـراءة الجرائـد مثـيرة جـدًا لاهتمامـه، وفي رسـالة أقـدم تعـود إلى العـام ١٩٣٧، خاطـب جيفـارا عمتـه برسـالة جـاء فيهـا (أنـا بخـير، ولقـد غـادرت الفـراش.. الجوجميـل هنـا.. إذا كان معـك نقـود، لا تنـسي شراء كتـاب هومبيرتونوبيلتـي). ونقـل عـن فـلاح كان عـلى مقربـة مـن جيفـارا، يدعـى رافائيـل فيردسـية، قولـه: (في بعـض الأحيـان كان يقـرأ هنـاك (الغابـات البوليفيـة)، جالسًـا عـلى حجـر، لا أعـرف الكتـاب الـذي كان يقـرأه لأنـني لم أكـن أحـب أن أسـأل كثـيرًا.. ولكـن أتذكـر رؤيتـه يقـرأ بينـما كانـت الحـشرات تقرصـه، ومـن شـدة تركيـزه العميـق بالقـراءة، كان بالـكاد يحـس بهـا). ومـا بـين ماركـس وشكسـبير، ولينـين وليزامـا لامـا، ومـن خـلال اختياراتـه الأدبيـة، يمكـن للمهتمـين العمـل عـلى إعـادة بنـاء جـزء مـن حياتـه القرائيـة، التـي صنعـت مـن أرنسـتوجيفارا، التـشي، أيقونـة عالميـة، وهومـا أكـده زيـاد خلـف المديـر التنفيـذي لمؤسسـة عبـد المحسـن القطـان، الـذي كشـف

عـن تنقـل المعـرض بـين عـدة محافظـات فلسـطينية في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، وهومـا شـدد عليـه أيضًـا إدواردودي مايـو، ممثـل الأرجنتـين في فلسـطين.

وقـال زيـاد حـاج عـلي، قيـم ومنتـج المعـرض: إن معـرض (جيفـارا قـارئ بـلا حـدود) يركـز عـلى جانـب آخـر، ربمـا يكـون مجهـولًا لـدى الكثيريـن حـول جيفـارا، ألا وهو(جيفـارا القـارئ)، الـذي اشـتهر كطبيـب ثـم قائـد ثـوري أممـي، اشـتهر في الثـورة الكوبيـة، قبـل أن يرحـل إلى الغابـات البوليفيـة، حيـث كان يمـارس القـراءة والكتابـة بكثافـة أكـثر في تلـك الفـترة، كاشـفًا عـن أنـه تـم التواصـل مـع مؤسسـة جيفـارا الثقافيـة في الأرجنتـين، وبالتحديـد مـع شـقيقه، عـبر مؤسسـة عبـد المحسـن القطـان والممثليـة الأرجنتينيـة في فلسـطين، وحصلنـا عـلى مـادة المعـرض، شريطـة عـدم اسـتخدامها تجاريًـا، أوتعميمهـا، حيـث تـم الاتفـاق عـلى نقلـه لعدة أشـهر إلى متحـف جامعـة بيرزيـت، فيـما يجـري العمـل عـلى نقلـه إلى قطـاع غـزة، والقـدس، ونأمـل أن نتمكـن مـن ذلـك، خاصـة أنـه يكتسـب خصوصيتـه مـن كونـه يركـز عـلى جيفـارا القـارئ، وجيفـارا الأديـب.

مـن جانبـه، قـال (محمـود أبوهشـهش) مديـر برنامـج الثقافـة والفنـون في مؤسسـة عبـد المحسـن القطـان: إن أهميـة المعـرض هـي نجاحـه في المـزج مـا بـين القيـم التـي ناضـل مـن أجلهـا جيفـارا، ومـن بينهـا قيـم العدالـة، والكرامـة الإنسـانية، والتحـرر مـن الاسـتعمار، والمزاوجـة مـا بـين رمزيتـه العالميـة في هـذا الإطـار، ومـا بـين فكـرة المعرفـة، التـي هـي أسـاس للنضال

ولتحقيـق القيـم التـي ناضل مـن أجلهـا جيفـارا، ويناضـل مـن أجلهـا، ومنـذ عقـود، أبنـاء الشـعب الفلسـطيني، لافتًـا إلى أنـه يجـري التنسـيق للمعـرض منـذ قرابـة العـام، وشـاءت الظـروف أن يتـم إطلاقـه في وقـت تتصاعـد فيـه حـدة المقاومـة الفلسـطينية، وبشـتى الطـرق، وبعضهـا مبتكـرة، في مواجهـة سياسـات الاحتـلال وجرائـم المسـتوطنين، خاصـة أننـا بدأنـا نفقـد تلـك المزاوجـة مـا بـين الوعـي والثقافـة والمعرفـة ومـا بـين الكفـاح المسـلح، التـي كانـت ترافـق المسـيرة النضاليـة الفلسـطينية في سـتينيات، وسـبعينيات، وثمانينيـات القـرن المـاضي.

وأضـاف أبوهشـهش: هنـاك تراجـع فلسـطيني، وفي مجمـل المنطقـة، فيـما يتعلـق بالقـراءة والجانـب المعـرفي، وجـزء كبـير مـما يحـدث في المنطقـة أساسـه الجهـل، والادعـاء بالمعرفـة، ويـأتي هـذا المعـرض، لتوظيـف جيفـارا الرمـز والأيقونـة بالنسـبة للفلسـطينيين بشـكل خـاص، وفي العـالم بشـكل عـام، للتذكـير بأهميـة الانحيـاز مجـددًا للقـراءة والمعرفـة، بمـا يعـزز الحركـة النضاليـة والتحرريـة ضـد الاحتـلال.)

الفرق بين الثقافة والعلم !

ما تقدمت أمة من الأمم إلا كان العلم رائدها الذي يدفعها للقيادة، وما تأخرت أمة إلا كان بينها وبين العلم حجاب وسدود، والقراءة هي طريق العلم والباعث على التفوق والنهوض والكتاب في حياة المتقدمين له قدسيته ومقامه في طريقهم للريادة المنشودة التي لا تنال أبدا بالجهل وضحالة الثقافة، وما أراد الإنسان أن يسموبنفسه، ويرقى بعقله ويشعر بتميزه كإنسان إلا بالثقافة والعلم والقراءة التي أصبح حظها ضعيفا ووازعها معدوما في بلادنا مما أدى لتأخرنا عن ركب الحضارة ومسيرة القيادة التي كنا فرسانها يوم كان العلم والكتاب رائدنا.

جمعتني إحدى المجالس بأستاذ جامعي في كلية الهندسة، كان الرجل يتحدث في السياسة ويهرف فيها بما لا يعرف ويسوق في شأنها حشدا من البراهين الفاسدة التي لا تقنع صبيا صغيراً، لقد ظن أن درجته العلمية تؤهله للخوض في أي شيء حتى ما ليس في تخصصه أوأي علم يقرأ فيه ولوجملة واحدة.!

وكيف لا يفتي فيها والدكتور والأستاذ الكبير الذي ينال الاحترام والتقدير والتقديم في كل مكان من أفراد المجتمع، ولا نعرف هل العيب فيه أم في هذا المجتمع الذي لا يستطيع أن يميز بين المثقف وغيره فإذا هممت بالاعتراض عليه سمعت من يقول لك: كيف

تعترض على الدكتور أتريد أن تفهمنا أنك تفهم أكثر منه؟!

وربما تجد من ينعتك بأنك حاقد أوغائر لأنك لا تملك ما يملك من الدرجة العلمية، وهذا لا شك خلل في المفاهيم وخلط في التصورات، ووباء عقلي يضرب المجتمعات الجاهلة..

كما تجد هذا أكثر ما تجده بين علماء الدين وخريجي الأزهر الذين يتخرجون ولا دراية لهم بالتحديات والمؤامرات التي يتعرض لها المجتمع المسلم وما يحاك لدينهم من المحن المؤرقة ورموزهم من الطمس والتشويه، ودعوتهم من التصدي والحظر ولا يرون من هذا شيئا لأنهم يفهمون الإسلام بصورة لا تعبر عن حقيقته، فهم لا يعرفون عن الإسلام إلا أحكام الغسل والطهارة وطاعة ولي الأمر فترى منهم من يؤيد حاكما ظالما ويقف في صف نظام علماني أوشيوعي أونظام ملحد يبغض الدين، فماذا يقلق الإسلام إذن والمساجد مفتوحة وكل الناس تصوم رمضان وهكذا يتصورون.. ومن ثم يقودهم سادتهم ليكونوا أداة يضربون بها التدين الحقيقي وحركاته الإصلاحية ويستصدرون منهم الفتاوى التي تحكم على خصومهم بأنهم خوارج أوإرهابيون أومتطرفون وهوما فعله عبد الناصر قديما والاستعمار في بلاد المغرب الذي أغرى بعض المتصوفة الجهال ليقولوا بأن من يحارب الاستعمار يحارب الله لأن الاستعمار قضاء الله وقدره.

المشـكلة إذن مشـكلة ثقافـة ومعرفـة ودرايـة لا تؤصلهـا المقـررات المدروسـة وإنمـا ينـاط الوعـي بهـا عـلى الثقافـة والمعرفـة والقـراءة والتـزود مـن العلـم، والفصـل بـين الثقافـة والعلـم في مجتمعنـا لـه جذوره التـي أنبتهـا الاسـتعمار (عندمـا حـرص عـلى خلـق متعلمـين غـير مثقفـين، لأن المتعلـم المثقـف كان مـن العنـاصر الفعالـة في المجتمـع، وكان دائمـا من دعـاة تحريـر الوطـن والقضـاء عـلى أي سـيطرة خارجيـة عليـه، ولذلك رأى الذيـن يخططـون للنفـوذ الاسـتعماري أن يعلـوا بقـوة عـلى فصـل العلـم عـن الثقافـة، حتـى يخـرج علماؤنـا مـن الجامعـة وهـم بـلا رأي سـليم ولا موقـف ناضـج في أي أمـر مـن أمـور الحيـاة)٨١

ولعـل القـراءة مـن أهـم مـا يسـاهم في تقويـم هـذا التشـويه المبكـر، وتسـتطيع أن تحقـق الوعـي المطلـوب والفهـم الرشـيد في عقـول المتعلمـين التـي تقـود مسـتقبل الأمـة عـلى بصـيرة وفهـم وإدراك لعللهـا وأدوائهـا، بالقـراءة وحدهـا نقـضي عـلى هـذا الفـارق المزعـج بـين المتعلـم والمثقـف ليصـير كلاهـما مكمـل للآخـر.. !

بالقـراءة وحدهـا نكـون جيـلًا يقـود حياتنـا، متصديـا للظلـم مؤيـدا للحريـة داعـما للعدالـة.

يقـول الدكتـور البوطـي: (لنعلـم قبـل كل شيء أن هنـاك فرقـا بـين العلـم والثقافـة.! إن العلـم هـوإدراك الـشيء إدراكا مطابقـا لمـا هوعليـه في الواقـع، ونفـس الأمـر بدليـل يقطـع النظـر عـن أي زمـان ومـكان، أمـا

81[1] عباقرة ومجانين — رجاء النقاش

الثقافة فهي تلك المعارف التي تتعلق بطبيعة أمة وتراثها وتقاليدها ومجتمعها ومواضعها السلوكية والتربوية، وعلى ذلك فإن العلم هوالسلعة القابلة للتصدير والاستيراد في نطاق العالم كله، لا ينبغي أن تتعثر في طريقها بدين أومبدأ أومصلحة أوتقليد، أما الثقافة فرغم أنها تنهض في كثير من جوانبها على حقائق العلم، ولكنها في مجموعها تعتبر من خصائص شعب أوأمة ما تنسج على قدرها وتنطبق على حياتها)٨٢

(والثقافة الذاتية مسؤلية الفرد ولا يقع عبؤها على المدارس والمؤسسات التعليمية، وتستطيع الدولة أن توفر مناهل الثقافة والمعرفة للراغبين لكن تبقى مسؤولية الفرد تجاه نفسه فهووحده القادر على تثقيف نفسه بكافة الطرق والوسائل إن أراد ذلك ووجد من نفسه الحافز على إنجاز هذا القصد..

حتى الفقير المعدم يستطيع أن يختلف إلى المكتبات العامة لصيب من الثقافة المتاحة له ما يطيب له أن يصيب)٨٣

وقد كان ثروت أباظة يتندر بقريبه (توفيق أباظة) الفلاح الذي يعمل بالفأس ولم يدخل أي مدرسة وعلم نفسه بنفسه وثقف

82[1]الاسلام ومشكلات الشباب- د. محمد سعيد رمضان البوطي

83[1]من مقال التعليم مسؤولية الدولة والثقافة مسؤولية الفرد — الأعمال الكاملة لثروت أباظة

نفسه بنفسه، ونقل ديوان المتنبي بخط يده كاملا لأنه كان فقيرا لا يستطيع شراءه وكان مولعا بالشعر الذي أدلى فيه بنماذج رقيقة جيدة ومنها ما قاله لأحد أصدقائه يذكره بأيام الأنس التي عاشاها معا:

وعلى اقتراحك قد نزلت　　وقد نزلت على اقتراحي
فتمازجت أرواحنا　　كالروح والماء القراح

وقال مرة لمن أهداه عمامة:

توجت رأسي بالعمامة　　وكسوتني حلل الكرامة
فكأنني شيخ المراغة　　في المهابة والفخامة

وأرسل برقية لوالد ثروت أباظة يقول فيها:

قل للوزير الألمعي مقالة
مشبوبة كذكائه الموقد
الفأس قد أكلت يدي وأنا امرؤ
للطرس لا للفأس قد خلقت يدي

ونموذج كالأستاذ العقاد لم يكمل تعليمه وإنما اكتفى منه بالمرحلة الابتدائية فقط لعدم توافر المدارس الحديثة في أسوان وكذلك لموارد أسرته المحدودة التي لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة لإكمال تعليمه فاعتمد على ذكائه الحاد وصبره على التعلم والمعرفة وثقف نفسه بنفسه حتى صار من عباقرة الزمان ونوادره، ليس في العلوم العربية فقط وإنما في العلوم الغربية كذلك فتعلم الانجليزية واطلع على

ثقافـات متنوعة..وكثـيرون مـن أدبـاء العـالم قدامـى ومحدثـين لم يكـن حظهـم كبـيرًا مـن التعليـم، ولكنهـا الثقافـة الذاتيـة التـي انطلقـت بهـم إلى آفـاق العبقريـة.

تشيخوا قبل أن يشيخوا !

لا أنسى أبدا نصيحة أحد الكتاب حين قال لي:(اقرأ أكثر مما تكتب).. ولكني أجد نفسي أمام هذه النصيحة في حرج شديد، فمشروعي ككاتب يقتضي مني أن أمرن قلمي على الكتابة بين حين وآخر، حتى يصل لمستوى يرضي القراء، فالقلم يصدأ كما يصدأ الحديد، ولابد له من مواصلة مستمرة في الكتابة والتعرف على الجديد من التراكيب والألفاظ والجمل التي تساعدني على تجميل الأسلوب..

وأمام هذا التناقض الذي يعتري الكثيرين يتحمل الجمهور وحده تبعات الصدمة حينما يذهب للمكتبات ويرى على أرففها عشرات الكتب التي تصدر لأناس غير مؤهلين للكتابة أومدربين على أساليبها، وليس لديهم الحد المطلوب ليتصدروا درجة التأليف، ويقف أحدهم ليقول بملء فيه: أنا مؤلف.. ونتذكر هنا قول القائل: نعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا!

ولمزيد من الوضوح..أقول: إنني لا أمنعك هنا من الكتابة، بل هي شيء ضروري للمران الذي أشرت له وهي الضرورة لنضج القلم، ولكن لا تقطف الثمر قبل أوانه فيفسد عليك.. أعط كل شيء حقه، ووفي كل نصاب نصيبه..فالمزعج في الموضوع أن الكتب الهشة الناقصة في رؤية البعض قد تفسد عليه أذواق القراء أوتصرفهم عن القراءة جملة،

ليكتب من شاء أن يكتب وليخط كل راغب في الكتابة، لكنه لابد أن يضع في نفسه أنه سيتعرض لمصفاة القراءة التي لا تبقي في وجدانها إلا النافع والمفيد، ولا تزكي إلا الهادف الجيد.. أما الرديء الباهت فسيسقط ثم تزروه الرياح إلى عالم النسيان فلا يجد من يذكره أويبحث عنه.!

التطور في الكتابة شيء طبيعي لدى كل كاتب، وحينما تقرأ الكتب الأولى للشيخ الغزالي رحمه الله تجد الفرق كبيرًا بينها وبين ما كتب في مراحله الأخيرة، فقد نضج الأسلوب، واستوت العبارة، وبلغ البيان مبلغه، حتى إذا قرأت كتابًا من كتبه لا تتركه حتى تنهيه، ونجيب محفوظ نفسه سخر من روايته الأولى التي نشرها له (سلامة موسى) تحت عنوان (عبث الأقدار) وأطلق عليها عبث عيال.!

وقد رصد (عبد الوهاب مطاوع) رسالة وجهت له من الأديب الكبير أنيس منصور وكان يعتز بها ويحتفظ بها في أدراج مكتبه فأنيس قيمة كبيرة فهوالذي أثرى المكتبة العربية بـ ١٨٥كتابًا وأمام هذا المؤلف صاحب الكتابات الغزيرة وقلمه الساحر الطيع الذي يكتب به في أي شيء يريد، كان هناك شيء غريب كشفت عنه الرسالة التي أظهر مكنونها الأستاذ عبد الوهاب تكشف شيئا عجيبا لابد لمحترفي الكتابة والناشئين عليها أن يتعلموه .

وتأتي قصة هذا المقال حينما أرسله أنيس منصور لنشره بمجلة الشباب وكان مقالًا فلسفيا عن أفكار الشباب، وأرفق بالمقال رسالة

شخصية للأستاذ مطاوع يطلب منه أن يعطي مقاله قبل النشر لأي شاب يختاره لكي يقرأ، فإذا فهمه بيسر؛ دفع به للمطبعة.. أما إذا تعسر عليه بعض أفكاره فعليه أن يعيده له حتى يعيد صياغته مرة أخرى ويوضح فيه ما غمض، ولكن ماذا كتب أنيس منصور في هذه الرسالة وهوما عرضه وأمتعنا به عبد الوهاب مطاوع في كتابه عاشوا في خيالي حيث قال أنيس: (عزيزي الأستاذ..

أخشى أن يسيء الشبان فهم هذه الوسوسة الفنية التي صارحتك بها في خطاب شخصي، فهي ملازمة لحياتي كلها، ولا أذكر أنني رضيت قط عن شيء كتبته، على كثرة ما كتبت، وأنا مستعد دائمًا أن أعيد صياغة أي شيء كتبته، هل تعلم أن كتابي (حول العالم في ٢٠٠ يوم) بعد أن فاز بجائزة الدولة التقديرية، قلبت فيه، فلم يعجبني ؟! فجلست وأعدت صياغته كله في ٨٠٠ صفحة! ولواتسع عمري لفعلت ذلك في جميع كتبي.

وكل الذي أخشاه هوأن يجد الشباب لأنفسهم مبررًا إذا قرؤوا بسرعة ولم يفهموا، أن يكون العيب في الكاتب وليس في القاريء، ولن أقول ما قاله أبوتمام: عندما سألوه: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب: ولماذا لا تفهمون ما أقول ؟ ولا أقول أيضا ما قاله الفيلسوف الألماني (شوبنهور) عندما شكا الناس من صعوبة فلسفته.. قال: لماذا في كل مرة يفتح أحد كتابا من كتبي، ثم يسمع صوت نهيق حمار يكون هذا الصوت هوصوت المؤلف دائمًا؟

إنني كنت أطلب إلى الساعي أمام مكتبي أن يحاول قراءة مقالاتي، فإذا وجد شيئًا غامضًا؛ وضع إصبعي عليه.. وكنت أعيد صياغة ذلك، ولازلت مستعدًا في أي وقت. إنها مشكلتي أنا وحدي.

أما الذين استغنوا عن التطور فهم قلة نادرة، ولكل قاعدة شواذها وهم عباقرة أفذاذ تمكنت منهم الموهبة في يفاعتهم المبكرة فدستويفسكي كتب (الفقراء) وهي أول روايته وهوابن أربع وعشرين سنة، وعرضها على الأديب الروسي الكبير (جوجل) فلم يلبث جوجل إلا أن طرق بابه ليلًا بعد أن قرأها وقال له: لقد ولد اليوم لدينا أديب جبار.. وشيخ العربية (محمود شاكر) وجد مكانًا له بين العمالقة وهوفي ريعان الشباب وعشريناته..!

فرق كبير بين أن تكتب ولديك أدواتك وتملك أسلحتك من الدربة والخبرة والذاكرة الغنية بالمواقف والحوادث والتفكير العميق والمتأمل، وبين أن تكتب وأنت حدث غر فقير في معارفك ضئيلة ثقافتك..!

فإذا قضيت عددًا من السنوات في تأليف كتاب واحد، فلا تعيب ذلك في نفسك أوتستنكره، أوتعده منقصة في تكوينك العلمي وتكاملك المعرفي، لأنك بهذا التأخير تحترم ذاتك وقلمك وقبل كل هذا تحترم القراء، بل تحترم المعرفة والثقافة التي تعطيها حقها.. وتضع في جدارها بما تكتب لبنة صحيحة قوية عفية مفيدة مانعة.

تأمل هنا ما يقوله الدكتور (إبراهيم الفقي) رحمه الله في مقدمة

كتابه (البرمجة اللغوية العصبية): (إن هذا الكتاب قادر على تحسين حياتك، ولكن بشرط أن المعلومات الواردة فيه لن تعمل لصالحك إلا إذا صممت حقا على الاستفادة منها وتطبيقها فعلًا..فهذا الكتاب هومحصلة ما يزيد عن ٢٥ عاما من التجربة والدراسة والتدريب.. ولكن فوق ذلك كله – وأنا حقا أعترف بذلك- هونتيجة أخطائي الشخصية؛ التي أضاعت على العديد من الفرص والأصدقاء)

٢٥ عاما من التجربة والدراسة والتدريب..! ياله من عمر مديد نطلق عليه ربع قرن، استطاع من خلاله أن يخرج لنا هذا السفر الهائل المفيد، الغني بالتجارب والنصائح والتوجيهات..

ولكن دعني أقول لك: إن الاطلاع الواسع والقراءة المتعمقة المتواصلة، والدراسة الشاملة، تحمي كتابك وقلمك من هجر القراء، فالذين سلقوا مؤلفاتهم وقدموها للقراء دون أن يمتلكوا أدوات التأليف، كانوا أول الناس إضرارًا بمستقبلهم وجناية على كتبهم، حتى صارت على الأرفف منبوذة مهجورة يعلوها التراب، ولا تمتد إليها الأيدي ولا تعاين سطورها الأعين، لتصير عبئًا على المكتبة وكما قيل بيض فاسد تحلل مع الزمن.!!

انتظمت يوما في دورة (فن المقال) ومما أذكره جليًا ودومًا من مقالات المحاضر: (لابد أن تتعب على مقالك حتى لا تضحك القراء عليك، اقرأ وابحث واستخرج وتأمل واستنتج، ليخرج مقالك صقيلًا قويًا هادفًا ومركزًا..)، وفي مؤلفي الأول (رفقا أخي الداعية) ظللت

فترة ست سنوات أجمع وانتقي وأفحص وأفكر في مادته، أما كتابي الثاني (صامدون في وجه الإحباط) فأخذ إعداده ستة أشهر، ولا يشير هذا القصر إلى عدم النضوج، لأن مادته إنما هي حصيلة سنوات مرت من التفكير والتجميع والقراءة، ولم يستجد عليه إلا الإرادة في استخراجه والولوج فيه، وقد وجدنا (سفيتلانا اليكسييفيتش) الحائزة على جائزة نوبل في الأدب تجلس تسع وعشر سنوات لكتابة رواية واحدة..ولعل هذا التروي منحها الاستواء والنضوج في العمل الذي أهلها لجائزة نوبل .!

وهذا الكلام ليس محاولة لإرهاب كل من يمسك بالقلم، وإنما هودعوة وتشجيع أن نفسح المجال لعملية التزود بالمعرفة والقراءة الهائلة.. ولعلي هنا أستحضر قول إبراهيم الورداني في رده على الأستاذ العقاد في معركة أدبية نشبت بينهما:(وأنا لم أبدأ فأكتب يا والدي إلا بعد أن قرأت كل غرف دار الكتب في باب الخلق ودمنهور، ثم قرأت الحياة على صفحة البحر والأرض والسماء..)

أما كتابنا اليوم.. فمنهم من كتب بعد قراءة عشرة كتب أوعشرين كتابًا،وكأنهم يقولون للورداني لا تضيق واسعًا يا إبراهيم.!

كما نجد الكتابة ملحة لدى البعض فهي تريحه وتشعر نفسه في إجرائها بالراحة، فقد يستخرجون معنا جديدًا ربما لم يقع عليه غيرهم، أويضيفون خبرة مستحدثة جنتها وتحصلت عليها معرفتهم، كما يرى بعضهم أن الكتابة تعبير عن عشقهم للكتاب ووفاء بهذا

الحب الذي لا تمثل القراءة رافده الأوحد، وإنما كان لابد للقلم أن يشاركها فيه، فالقراءة ذخيرة ووقود تشحن به نفسك لتخرج في النهاية وبعد زمن طويل من هذا الشحن بآراء وأفكار وأطروحات لابد للقلم أن يعبر عنها ويتناولها لتصل لكل الناس..

وهنا من سؤال يطرح نفسه: هل من الضروري لكل قاريء أن يكون كاتبًا ؟

إن الكتابة موهبة وإبداع وليس شرطًا أن يتملكها كل من يهوى القراءة ويقتني الكتب، وإلى القراء الذين يجدون في أنفسهم العجز عن الكتابة، لا تتحسروا أوتأسفوا على هذا العجز، لأن حبكم للقراءة وتذوقكم لمعانيها إنما هوفي حد ذاته إبداع وموهبة، ولها فائدة كبرى وعظيمة في حياتكم حينما تمنحكم الحكمة والبصيرة والثقافة والمعرفة..

يقول رولان بارت: إن القراءة بذاتها فعل إبداعي..فلماذا تجشمون أنفسكم مالا تطيق، وترون أن موهبتكم ناقصة، ولن تكمل إلا حينما تمسكون بالأقلام وهي عالم آخر له أداته وأسبابه ومنحه.

إن بعض النقاد ساءهم أن الأقدار لم تجعلهم كتابا مبدعين، لأن الكتابة هي عنوان البقاء والخلود أما هم فتابعون، وهم لا شك مقصرون في تقدير أنفسهم، لأن النقد في حد ذاته كما يقال: إبداع وفعل خلاق يوازي الكتابة نفسها، وهوالأمر الذي لا يؤمن به كثيرون مما أدى

إلى تراجع حركة النقد وبات أصحابه قلة أمام الأدباء الذين يصعب حصرهم.

لماذا لا يكون الإنسان متوازنًا وعقلانيًا وموضوعيا مع نفسه، انطلق في حدود موهبتك وفي الإطار الذي تتقنه وتميل إليه وتبدع فيه، لا تكلف نفسك مالا تطيق وإذا حاولت، فإن النتيجة ربما لا تسرك، وهوليس تعقيدًا أوتثبيطًا وإنما أريد فقط أن ألفتك إلى أن الموهبة قيمة في النفس وشعور غامر في حنايا الصدور قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق..!

إننا نجد اليوم ظاهرة التضخم الأدبي، ونعاني من موضة الكتابة التي انتشرت، ولعل السبب في هذا أن دور النشر أصبحت مجرد مطابع تصدر الكتب على نفقة أصحابها ومؤلفيها، وهي عملية تجارية مربحة لا تجني منها الدور أي خسارة..!

(أما ظاهرة تكاثر الكتاب روائيين وشعراء، فلا يمكن ردها فقط إلى ما يكتنف الكتابة اليوم من حال تراجع وانفلات وتقهقر واستسهال، بل إنها قد تعود إلى انتشار فضاء الانترنت والفيسبوك وسواهما، وهما ساهما في شيوع عدوى الكتابة ناهيك طبعًا عن الإغراء الذي رسخته وسائل الإعلام والجوائز المتكاثرة والذي يجذب الكثيرين إلى خوض غمار الكتابة.

باتت الكتابة حقلًا مشاعًا لا يخضع لشروط أومعايير هي شروط الإبداع ومعاييره، هناك كثرة من الكتاب الطارئين والفضوليين اختاروا كما يقال (تجريب) حظهم وركوب موجة الرواية الرائجة، جميع هؤلاء يبحثون عن فرصة، ومعظمهم من القراء، ومن يرصد حركة النشر الأدبي يلحظ حال الطوفان الهائل الذي يسود أفق الكتاب يكفي الاطلاع على أعداد الروايات التي لا يمكن إحصاؤها كلها ما خلا دواوين الشعر الغزيرة، النشر سهل لدى معظم الدور، ادفع أيها الكاتب ننشر لك والمصيبة الجسيمة أن الكتب تنشر ما تحوي من أخطاء فادحة وهنات .

إلى أين تمضي كل هذه الروايات والدواوين؟ هذا السؤال يطرح أيضًا في الغرب في فرنسا التي تشهد حركة مزدهرة في النشر لا سيما في حقل الرواية، تساق الكتب التي لا تروج منذ الأشهر الأولى إلى المستودعات ثم إلى التوزيع شبه المجاني أوالتلف التدويري للإفادة من الورق، كم من كتب تخفض أسعارها للفور إذا لم يبع منها ولوالقليل، ثم إلى رحلة الوداع .

إلى أين تمضي كل هذه الكتب في عالمنا العربي ؟ يجد الناشرون لها حلا سهلًا إلى المستودعات وعندما تضيق المستودعات، فإلى التوزيع المجاني والعشوائي أوالتلف والتدوير والناشرون كل ما يهمهم إفراغ المستودعات لتملأ من جديد..

أيها القاريء لماذا لا تكتب ؟ البازار مفتوح جرب حظك، أما كفاك كم أمضيت من ساعات تقرأ وتقرأ؟ ألم يحن دورك لتكتب، فيقرأ الآخرون ؟ ولكن إذا غاب القراء فمن يقرأ ؟ إننا نكتب وكفى.)[٨٤][(١)]

وقد حاول الدكتور (علي العمري) في أطروحة جديدة وذكية ورشيدة ومتوائمة مع الطموح الجارف أن يثني هؤلاء الشباب الجريء على التأليف وعالمه لينقذ المعرفة والثقافة من إضافاتهم القاصرة العاجزة.. فلم يحرمهم من التصنيف وفي نفس الوقت، حافظ على هيبة التأليف في فكرته المتوازنة يقول العمري: (قديمًا ذكر سلفنا الصالح أسبابا للتصنيف، منها اختصار كتاب مطول، أوشرح كتاب مختصر أوالكتابة في شيء جديد، أوتتميم موضوع قديم، واليوم تجددت صور الكتابة والتأليف، وفي تقديري أنه يمكن لبعض الشباب أن يكونوا من أصحاب التصنيف الذي هوأقرب إلى الإعداد منه إلى التأليف.!

ومثال ذلك لوانبرى بعض مستخدمي الانترنت بجمع أهم المقالات التي مرت عليهم طوال العام، وتصنيفها حسب الموضوعات، مع مراعاة الاختيار في حجم المقالة وسهولتها وقربها من القراء وعرض ذلك على خبير، لكان لهذه المقالات المجموعة دوي وتأثير، وكذلك لوانبرى شخص آخر لاختيار ما سمعه من أشرطة أومقطوعات أوما قرأ من قصص أومقابلات، واشترط في اختياره الجودة والتجديد وإبداع الإخراج، ومثله شاب ثالث يضع في ذهنه عنوانا مهما بالغ

---

٨٤ صحيفة الحياة من مقال عبده وازن ٢٦/١٠/٢٠١٥م عدد١٩١٩٧

التأثـير والحاجـة للجيـل، فيجمـع الشـبيه إلى الشـبيه مـن البحـوث والأشـعار والمقـالات والقصـص والصـور الإبداعيـة إضافـة إلى الكتـب والمجـلات والانترنـت، لـكان عمـلًا جـادًا ونافعًـا.

المحتوى

حاتم سلامة	٣
مقدمة	٧
الكتاب في حياتي	١٣
القراءة هي الحياة	٣٠
القراءة طريق النهوض	٣٩
أمة القراءة	٤٨
عشاق القراءة	٦٤
لماذا نقرأ ؟	٧٥
التشجيع على القراءة	٨٥
في صحبة الكتب	٩٧
حتى لا يضيع العمر !	١١٠
أطفالنا والقراءة	١٢٠
الأدب في ساحة المواجهة !	١٤٥
كتب مؤثرة	١٥٥
الأمم الواعية	١٧٢
نحن وهم!	١٨٣
الإرث المهدور !	١٩٦
الأقلام المتقعرة	٢٠٥
الأقلام التافهة	٢١٧
حياتكم ملك لنا!	٢٢٥

عبودية الحرف !	٢٣٤
القراءة والتفكير	٢٤٨
الرقابة الحكيمة	٢٥٨
كنت لصًا..!	٢٦٤
الأنوثة المثقفة !	٢٨٠
الرماد النفيس	٢٩٠
كتب ممنوعة !	٣٠٤
كتب خلف القضبان	٣١٣
كتب صنعت مستقبلهم !	٣٢٨
التلفيق الثقافي	٣٤٢
العلاج بالقراءة !	٣٥١
همع الهوامع !	٣٦٠
القاريء الجبار	٣٦٦
لماذا يقرأ الطاغية ؟!	٣٧٧
الفرق بين الثقافة والعلم !	٣٩٠
تشيخوا قبل أن يشيخوا !	٣٩٦

رقم إيداع ٢١٩٩/٢٠١٦ ط١

الترقيم الدولى / ٩- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع